أبو عمرو البغل

جين سعيد المقدسي

شتات بيروت

مُذكرات حرب ١٩٧٥-١٩٩٠

دار الساقي

شتات بَيروت

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

جين سعيد المقدسي

شتات بيروت

مذكرات حرب ١٩٧٥ - ١٩٩٠

ترجمة

كمال الخولي

مراجعة الترجمة

سليمان بختي

دار الساقي

Jean Said Makdisi, *Beirut Fragments: A War Memoir*
© Jean Said Makdisi, 1999

الطبعة العربية
© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN 978-1-85516-324-9

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

الإهداء

إلى بيروت وأهلها الصبورين على الأذى الذين حافظوا على روح بيروت وحيويّتها بالرغم من كل شيء، وبالأخصّ إلى سمير، الذي علّمني معنى تلك الروح.

«تكتب جين سعيد المقدسي شهادتها عن المعاناة اليومية للمدنيين الأبرياء. وتنطق بلسان جيل من الشباب الذين ولدوا في الحرب ولم يعهدوا في حياتهم غيرها... ولكنّ الأهمّ من كلّ ذلك أنّ هذا العمل يُعلي من شأن الرجال والنساء الشجعان من كل الاتجاهات والخلفيات الذين صمدوا... وأبقوا البلد حيّاً.» (ماري جين ديب - ذا ورلد اند آي)

«تؤرّخ الكاتبة في «شتات بيروت» لتجربة العنف والدمار واللاإنسانية اليومية التي صنعت الحياة في بيروت زمن الحرب. تنسج جين المقدسي هذه القصّة مع سرد يتداخل وهجراتها الخاصّة إلى القدس والقاهرة والولايات المتحدة وأخيراً بيروت. وتُلقي الضوء على العلاقات المهمّة المتداخلة التي تُظهر الأحداثَ في بيروت كجزء من شبكة السياسة والتاريخ. وتصل في ذلك إلى أبعد من بيروت وهي تنقل بحسٍّ متمرّد ونَفَسٍ صراعيّ متفرّد ميراثَ الاستعمار البريطاني وأثره لدى جيلها من العرب. وكل ذلك في عمل رائع وحسّاس وإنساني ونابض.» (ليلى أحمد، مديرة الدراسات الشرق أوسطية، جامعة ماستشوستس)

«الإنجاز الأهم لهذا الكتاب العميق والمؤثّر هو أننا من خلال عيني جين المقدسي بإمكاننا تخليص عقولنا وأفكارنا من كل هذا النفاق والهراء الذي سمعناه عن بيروت. والنظر إلى ما حدث لهذه المدينة ليس كالكابوس بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات المغايرة والاختلاف واللاحقيقة بل كإمكانية إنسانية هائلة. كلمات جين المقدسي جديرة بالإصغاء وإيمانها العميق بالإنسانية يُحتذى به.» (لوس أنجلس تايمز بوك ريفيو)

«صورة شخصية سرمدية منحوتة ومرسومة بدقّة ومهارة عن حياة مدينة مزّقتها الحرب. مدينة تظل مسكونة بالبقاء والشجاعة، وبالألم الصادم والفرح العميق. «شتات بيروت» كتاب يستحقّ القراءة حقاً.» (كنساس سيتي ستار)

«تروي جين المقدسي في هذا الكتاب قصّة الكآبة والجنون. قصّة السموّ الهمجية في فصول سهلة ومتسابة وثاقبة. ذاكرة جين المقدسي مثقلة وموحية في آن.» (ديترويت فري برس)

مقدّمة الطبعة العربية

صدر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإنكليزية في نيويورك عام ١٩٩٠، ثمّ أعيد نشره سنة ١٩٩٩. قُرئ الكتاب على نطاق واسع، واقترح عليّ العديدُ من الأصدقاء نقله إلى العربية. والحقيقة أن الترجمة تمّت قبل سنوات على يد المرحوم كمال خولي، ورغم إلحاحه عليّ بمراجعتنا النصّ معاً لم أستطع ذلك بسبب اهتمامي بإعداد دراسات عدّة وبإتمام كتابي الثاني - أي «تيتا وماما وأنا» - وهو عن ثلاثة أجيال من النساء العرب منبثق من الكتاب الأوّل وينبع من تجاربنا كنساء عايشن الحروب. ثم توفّي كمال، رحمه الله، ومضت الأيام واستحوذ الكتاب الجديد على وقتي واهتمامي بنشره وإطلاقه في لندن ونيويورك. على أني تمكّنت أخيراً من مراجعة الترجمة والنص العربي لهذا الكتاب مع الصديق سليمان بختي مشكوراً، وها هو يُنشر اليوم.

منذ صدور هذا الكتاب بالإنكليزية، كنت ألتقي لبنانيين وغير لبنانيين ممن عايشوا الحرب اللبنانية وأُتيحت لهم قراءة كتابي، وكانوا يقولون لي إنه رغم الألم الذي أحييته فيهم من خلال تذكيري

لهم بالحرب، فقد وجدوا في الكتاب مرآة لذكرياتهم وتعبيراً عمّا عاشوه، وبعثاً لأحداث وأحاسيس كانوا قد نسوها.

لكن ما يهمّني أكثر من أن يكون كتابي مجرّد سجلّ دُوّنت فيه معاناة الناس في حرب ١٩٧٥-١٩٩٠ هو أن يكون قد احتلّ مكانة في أدبيات الحروب في تعبيره عن كونية تجربة الحرب اللبنانية وإنسانية الذين عاشوها - ضحايا كانوا أم ناساً عاديين، مسلّحين أم مدنيين - وبذلك يُسهم ولو جزئياً في أن يمحو من ذهن قرّائه سُمعة بيروت بأنها مدينة فريدة من نوعها، وأنّ ما جرى هنا لا يمكن أن يحدث في أيّ مكان آخر من العالم، لأنّها دون سواها مدينة الإرهاب والعنف والفوضى والجنون الجماعي بامتياز، وبالتالي تجسّد قمّة اليأس الإنساني. ورغبت منذ البداية في أن أعبّر في هذا الكتاب عن إنسانيتنا وصمودنا وقدرتنا ليس على البقاء فحسب، بل على حمل نبراس الحضارة أيضاً وعلى مواصلة إنتاجنا الثقافي وعلاقاتنا الاجتماعية رغم كل الصعوبات.

كما حاولت منذ البداية أيضاً تجنّب التحليل السياسي بما كان يحدث في لبنان، أو حتى تدوين الأحداث السياسية بشكل منظّم، لا لأن القضايا السياسية لا تهمّني، أو لأنني لم أتمكّن كلّ التمكّن بمواقف سياسية معيّنة، بل لأنّ العديد من الكتب والمقالات السياسية نشرت حول الحرب اللبنانية تناولت النواحي السياسية المختلفة، في حين أردتُ أنا أن أسجل ما حصل في عالمي الشخصي وما عشته من تجارب وأحاسيس، وأن أشهد بصدق على ما رأيته من تجارب الناس. ولا أدّعي أنّ كتابي يشمل جميع

التجارب التي واجهت كل الذين عاشوا الحرب، فلقد كتبت كامرأة لها تاريخها الخاص ورؤيتها الخاصة، في حالة اجتماعية معيّنة، وفي عمر معيّن، مقيمة في منطقة معيّنة من المدينة، وتعمل في مجال معيّن، وأهم شيء في حياتها أن تحمي عائلتها وبيتها وتحاول فهم علاقتها بمحيطها المتدهور. كنت أكتب وكانت القذائف تتساقط علينا، والمعارك تدور حولنا، والعنف يهدّد كل شيء في عالمنا، ولذا فإنّ الموقف المعلن الأكثر وضوحاً في هذا الكتاب هو الموقف المعادي للعنف والرافض له، وذلك تعبيراً عن إنسانيتنا الجماعية.

كانت بيروت في أيام الحرب - وربما لا تزال - تجسّد في الخيال العالمي نوعاً من الفوضى القاتلة المطلقة الأبدية. وخير مثال على ذلك ما سمعته حين قمت بإحدى زياراتي إلى والدتي في واشنطن، وكانت قد اضطرّت إلى مغادرة بيروت لمتابعة علاجها من المرض. لا أتذكر تاريخ هذه الزيارة تماماً إلاّ أنها كانت في منتصف الثمانينيّات من القرن الماضي. ذات يوم قرأت في دليل المسارح في جريدة «النيويورك تايمز» عن مسرحية تُعرض على خشبة أحد المسارح الصغيرة الهامشية في نيويورك وعنوانها «بيروت». دُهشت، وحاولت أن أعرف شيئاً عن المسرحية وكاتبها، الذي كان اسمه غير معروف (وغير عربي)، لكنّ جهودي فشلت تماماً. فجأة، اتصلت بي من نيويورك إحدى طالباتي السابقات التي أصبحت بعد تخرّجها في الجامعة تعمل في مجال المسرح المهني ولها علاقات ومعارف فيه. وبعد السلامات

والحديث عن آخر أخبار لبنان، أخبرتها عن المسرحية، فذُهشت بدورها ووعدتني بأن تحاول أن تعرف عنها شيئاً، وتُبلغني. بعد عدّة أيام اتصلت بي، قائلةً: «بدّك تضحكي أو بدّك تبكي؟» فقد أظهرت تحرّياتها أن لا علاقة للمسرحية أو لكاتبها لا من قريب ولا من بعيد ببيروت أو بلبنان أو حتى بالعالم العربي، أمّا موضوع المسرحية فهو التشاؤم المطلق، قصّتها تدور حول شابّين مصابين بمرض السيدا، الذي كان آنذاك مرضاً جديداً لا دواء له ولا شفاء منه، والمصاب به محكوم حتماً بالإعدام، (وهذا طبعاً قبل التطورات الطبية اللاحقة). كان الشابان يعيشان في شقة صغيرة مظلمة في انتظار الموت الذي لا فرار منه: عائلتهما أنكرتهما وأصدقاؤهما ابتعدوا عنهما خوفاً من العدوى، وطُردا من عملهما، ولم يبقَ معهما إلاّ القليل من المال - باختصار، كانت حالتهما معدمة ويائسة، ولم يخطر على بال المؤلف وصفاً لهذه الحالة سوى الكلمة المعبّرة، وهي «بيروت».

على أن هذا الوصف لبيروت لم يبقَ، ويا للأسف، بزمن الحرب فحسب، بل أصبح يعبّر في ما بعد عن حالة فوضى وعنف أبدي وإرهاب وانهيار اجتماعي. ففي ربيع ٢٠٠٨ كنت أستمع إلى برنامج إخباري تبثّه هيئة الإذاعة البريطانية عن أحداث في جوهانسبورغ وكايب تاون في جمهورية جنوب أفريقيا، لا علاقة لها على الإطلاق بلبنان، إذ قامت جماعة من العمّال المحلّيين بقتل عدد من العمّال الأجانب اعتبروهم منافسين لهم في سوق العمل، وأحرقوا منازلهم في جوّ من أعمال الشغب والعنف. وكان

الصحافي المتحدث في الإذاعة يخاطب أحد رجال الشرطة من بين الذين حاولوا السيطرة على الوضع وفشلوا؛ فقال الشرطي بغضب واستغراب شديدين عن آخر محاولة باءت بالفشل: «كأننا كنّا في كابوس مرعب، لم نتمكن على الإطلاق من السيطرة على المشاغبين، فهناك مسلّحون وصراخ وإطلاق نار.» وتابع بلهجة مريرة: «هل نحن في بيروت؟ نحن في جمهورية جنوب أفريقيا، لكن شعرنا كأنّنا في بيروت!»

والتقيت حديثاً سيّدةً أجنبيّة في عشاء تجلّت فيه حياة بيروت المترفة فأخبرتني أنّها ذُهلت بالتناقض بين ما هي عليه بيروت وما تحمل من سُمعة سيّئة اكتسبتها عبر سني الحرب. فهذه السُّمعة عزّزتها الأخبار التي سمعتها أخيراً من خلال برنامج إخباري آخر تبثّه هيئة الإذاعة البريطانية، والبرنامج مخصّص لخبر اغتيال أحد الصحفيين في كرواتيا، وقد علّق رئيس وزراء البلاد على الحدث بأنه لن يسمح لكرواتيا بأن تصبح بيروت ثانية.

هذه الأمثلة - والكثير غيرها - تتعلق بخيال جماعي عالمي وليس بواقعنا، أمّا نحن هنا في بيروت، فما هي صورتنا عن أنفسنا بعد حرب ١٩٧٥-١٩٩٠؟ كيف أثّرت الحرب في خيالنا وفي ذكرياتنا، وبالتالي في تصرّفاتنا؟ فإذا كانت الحرب قد انتهت عام ١٩٩٠، كما نقول، وأخذت الأمور تعود في بلادنا إلى نصابها، فلِمَ لا نشعر بالتفاؤل المضيء الذي شعرنا به في الفترة التي تلت الحرب، وحتى في غضونها؟

كنّا في أيام الحرب نتطلّع إلى الأمام بتفاؤل رغم الظروف

القاسية التي كابدناها وكأننا في نفق مظلم طويل لا بدّ أن يسطع بعده نور، فكنّا واثقين بأنه بعد انتهاء المحنة سيكون لنا مستقبل مشرق، وأننا قد دفعنا ثمن أخطاء الماضي وطهّرنا مجتمعنا، وأنفسنا كأفراد، من خلال العذاب والرعب والموت والدمار. في عام ١٩٩٠، اعتبرنا أن الحرب انتهت، لكننا لم ننتبه - أو ربما لم نكن نريد أن ننتبه - للحقائق حولنا، فكان الاحتلال الإسرائيلي للجنوب لا يزال قائماً، والبعض يقاومه بعزم وشجاعة، بينما البعض الآخر يتعامل معه؛ كما أنّ الاجتياحات الإسرائيلية المتكررة لم تتوقف، لكننا في بيروت كنا نتصرّف كأنّ الجنوب بلد آخر، لا علاقة لنا به، فكنّا مسرورين بأنّ المعارك قد توقفت في بيروت والمناطق وتوحّد الجيش وتسلّم سلاح الميليشيات (كما آمنّا)، وبأن المدينة - أو على الأقلّ جزءاً منها - كانت قيد الترميم، والبُنى التحتيّة في طور الإنشاء، وأنّ المطار الجديد الفخم أخذ مكان المطار القديم الذي تركت الحرب بصماتها عليه، والمدارس فتحت أبوابها بشكل طبيعي، ورجع العديد من الذين غادروا البلاد أثناء الحرب. وحين جاء التحرير سنة ٢٠٠٠، ابتهجنا لوقت قصير، فالغارات الإسرائيلية لم تتوقف، والانقسامات الداخلية نمت وكبرت. ثم كرّت سلسلة الاغتيالات، وازدادت الانقسامات الداخلية جِدّة، وتفاقمت بعد حرب تمّوز سنة ٢٠٠٦ وبعد أحداث الشمال، ولا تزال الأمور تتعقّد يوماً بعد يوم.

وقعت حوادث أيار ٢٠٠٨ ورجعت - ولو لمدى قصير ونحمد الله على ذلك - الحرب الداخلية إلى شوارع بيروت

فشوارع مدن الشمال والبقاع، مما جعلني أتأكد من أن ذكريات حرب ١٩٧٥-١٩٩٠ ربما تكمن جدواها في أنّها تذكّرنا بمخاطر تكرار هذه التجربة السابقة المريرة.

إذا كان جيل كامل من الأطفال قد نما في حرب ١٩٧٥-١٩٩٠ فجيل آخر ينمو الآن ونحن لا نزال نعاني العنف: ابني الصغير كان في الرابعة من عمره حين اندلعت الحرب في عام ١٩٧٥، وكان في السنة الأخيرة من دراسته الجامعية حين انتهت؛ أما حفيدتي، ابنته، فشهدت أحداث أيار الأخيرة وكانت بدورها في الرابعة من عمرها. فما الذي ينبغي تغييره حتّى لا نظل نكرر إلى الأبد تجارب الماضي؟ علماً أننا لا نزال غير متّفقين على فهم مضمون ماضينا.

كنا نشكو أيام الحرب من الطائفية التي قسّمت صفوف المواطنين إلى جماعات متحاربة، أمّا اليوم فالطائفية قد ترسّخت في عقولنا بحيث أنّ أحداً لا يمكنه إنكارها. كان يُقال إنّ وجود اللاجئين الفلسطينيين ومنظّماتهم المسلّحة من أهمّ أسباب اندلاع الحرب، أما اليوم فحالة المخيّمات سيئة جداً، وأسوأ بكثير ممّا كانت عليه، فالبؤس واليأس وفقدان الحقوق المدنية أو فرص التقدم تجعل منها حالة إنسانية يرثى لها. كنا نتكلم عن «حزام البؤس» المحيط ببيروت، لكننا اليوم لا نتكلم عنه رغم أن أعداد الفقراء باتت أضعاف ما كانت عليه سابقاً، وتفاقمت حالتهم المادّية سوءاً، كما ازدادت البطالة (رغم إثراء البعض الملتبس والغامض). عندما وضعت الحرب أوزارها كان آلاف الناس في عداد المخطوفين،

ورغم أن بعضهم أفرج عنهم وعائلات البعض الآخر عرفت مصيرهم، لكن لا يزال هناك آلاف المفقودين الذين يطالب أهلهم بمعرفة مصائرهم من دون جدوى.

وحدّث بلا حرج عن حالة بيئتنا الطبيعية التي هي ليست بأفضل من حالة بيئتنا السياسية أو الاجتماعية. لقد ظهرت منذ سنوات غيمة بنّية اللون تخيّم فوق بيروت ويمكن رؤيتها من التلال المطلّة على المدينة، وهذه الغيمة ما هي إلاّ إشارة إلى الهواء الملوّث الذي نتنشّقه باستمرار، كما أنّ حال شواطئنا وأنهارنا ومياهنا الجوفية ليست بأفضل. والمؤسف أن الأغلبية الكبرى من السياسيين لا يتفوّهون بكلمة واحدة حول هذه القضايا ما عدا قلّة من الصحافيين، رغم التحذيرات المتكررة التي يطلقها العاملون في مجال البيئة. كنّا أيام الحرب نحزن حين تحترق أحراج في الجبال جرّاء المعارك، لكن منذ ذلك الوقت أصبح «لبنان الأخضر» في حالة خطر شديد، وقلّما نرى مناطق ليس فيها إعمار بشع أو نفايات أو خراب أو إهمال وكلّ ما من شأنه أن يشوّه جمال البلاد. انتقدنا في الماضي عدم وجود تخطيط مدنيّ جيّد، ولكن اليوم غدت بيروت غابة من الإسمنت، تزداد فيها البشاعة وتمتد لتطاول الذين يستفيدون مادّياً من هذا الوضع المؤلم. الأشجار القديمة التي زُرعت في الماضي أصبحت اليوم ضحية الجرّافات والإعمار اللامحدود، وبالتالي لم يبق لسكان بيروت سوى القليل من الحدائق العامة أو فسحات مفتوحة، فلا مكان للإنسان يرتاح فيه ويجدّد نشاطه ويهدّئ أعصابه، ولا مكان أمام أطفال المدينة لينطلقوا بحرية

بعيداً عن جدران البيوت. وليومنا هذا لا نزال نشكو من انقطاع التيار الكهربائي والمياه، الذي زاد من تعقيد حياتنا اليومية وإتعاسها.

وباختصار، إنّ الإصلاحات التي كنّا نحلم بها أيام الحرب ونتوقّع أن تحصل بعد انتهائها لم تر النور، بل أصبحت رُكاماً مثل كل رُكام الحرب، منسيّة، ومفقودة، فكان من الأسهل علينا نسيان الماضي ومشاكله بدلاً من مواجهته والتعلّم منه. بعد انتهاء الحرب، صدر قانون العفو العام، كما أُزيلت معالم الحرب من الشوارع والجادّات والأبنية القديمة الشاهدة على ما جرى: فاليوم ليس هناك من نُصب تذكاري للذين قضوا في الحرب، ولا حديقة تذكارية ولا متحف ولا شيء على الإطلاق يوحي بأننا نودّ أن نتذكر هذه الأيام المشؤومة التي مضت ونعتبر منها: وكأنّ الجميع يريدون طيّ صفحة الماضي وفتح صفحة جديدة، وتفادي الغرق في مستنقع من الاتهامات المتبادلة، ومن كشف حسابات الحرب.

لكنّ النسيان ليس الطريق إلى الخلاص، والغفران لن يأتي من شطب صفحات التاريخ، مهما كان هذا التاريخ مؤلماً. فعلينا أن نتذكر لكي نمضي قُدماً. أؤمن بأن الذاكرة قادرة على أن تُسهم في علاج آلامنا التاريخية التي حاولنا التهرّب من مواجهتها: فأبسط ما علّمنا إيّاه فرويد أنّنا كلّما حاولنا قمع ذكريات مؤلمة واجهتنا في الماضي وجرّبنا أن نتغاضى عنها، طغت علينا وعلى تصرّفاتنا وسبّبت لنا قلقاً ويأساً عميقين، وبالتالي جعلتنا غير قادرين على حلّ مشاكلنا والتغلّب عليها. وكما قال فرويد، لن يُهزم هذا الماضي

الأليم إلاّ باسترجاعه إلى وعينا الكامل، والتصدّي له بالعقلانية والواقعية والصدق.

في النهاية، إنني على يقين بأنّ الإنسانية والمدنية اللتين اتُهمت حرب لبنان في التسبّب في انقراضهما، واللتين دافعت في هذا الكتاب عن وجودهما في الأيام السوداء بعد أن جعلهما العنف مختبئتين وراء قناعه، لا نزال نملك القدرة على استرجاعهما من خلف الأقنعة التي صنعناها بعد انتهاء الحرب. علينا ألاّ نستسلم للتشاؤم الذي نغرق فيه بعد خيبة الأمل التي مُنينا بها في الآونة الأخيرة، بل يجب أن نتمسّك بالتفاؤل وبالثقة بأنفسنا وبقدرتنا على تحقيق الحلم بمستقبل أفضل الذي تمسّكنا به في أشدّ أيام الحرب ظلاماً؛ لكن هذه المرّة دعونا نتمسّك بالحلم لا بالوهم.

جين سعيد المقدسي

بيروت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨.

تمهيد

كيف يمكنني أن أكتب عن بيروت؟ كيف أستطيع أن أضمّها وأجمعها بكلّيتها في مجلّد واحد؛ أعوام الألم والمعاناة؛ ورؤية العالم يتقوّض بينما تحاول أن تدرأ ذلك التقوّض؛ تراكمات الذكريات والآمال، والمآسي وربما المهازل أحياناً، وأيضاً العنف والعطف، والشجاعة والخوف.

فوق كل ذلك، كيف يمكنني أن أعبّر عن حبي الغريب لهذه المدينة المشوهة؛ كيف أفسّر، لنفسي وأشرح للآخرين، السحر العابق لذلك المكان الذي أبقاني، كما أبقى الكثيرين، متشبّثين بحطامه، رافضين تركه والتخلّي عنه؟ أشعر اليوم، وبعد خمسة عشر عاماً من الحرب، بأنني أكثر تعلّقاً ببيروت والتزاماً بها من أي وقت مضى، إلى درجة أنني أعتمد عليها بطريقة، غريبة نوعاً، كاعتماد الرضيع على أمه. هذا الالتزام له علاقة بالولاء؛ وبالإيمان بمستقبل أفضل، وبالتضامن مع هؤلاء الذين لم يتمكّنوا من الهجرة، بالأخص جيل من الطلاب علق في فخ الحرب، ومع جميع الذين التزموا بأن يحتفظوا بالمكان حيّاً. ولكنه أيضاً التزام

مني على الغضب، بنوع من الدفاع الصاخب للإنسانية الجماعية المستباحة في بيروت.

ومع تصاعد العنف إلى ذروته جولة بعد الأخرى، بينما يقف العالم موقف المتفرّج اللامبالي، أو، في أحسن الأحوال، موقف اشمئزاز، بينما هو يستمر بمدّه بأسلحة أكثر فتكاً ـ فقد شعرت بنفاد صبري تجاه ذلك العالم كما ضقت ذرعاً بالجيوش الغازية وأسياد الحرب المحلّيين، وهؤلاء المجهولين الذين فخّخوا السيارات بالقنابل والقتل. الدخلاء ينظرون إلى بيروت من مسافة حذرة. كأنها لا تعنيهم إطلاقاً ولا هم يعنون لها؛ كأنهم يراقبون خلف زجاج واقٍ، تخبّط مريض في طور النزاع نتيجة إصابته بجرثومة قاتلة التقطها في أمكنة قصيّة محظورة. يتحدّثون عن بيروت كأنها شواذّ في التجربة الإنسانية: إنها ليست كذلك. كانت بيروت مدينة كسائر المدن وأهلها كانوا كغيرهم من البشر. وما حدث هنا يمكن أن يحدث، على ما أعتقد، في أيّ مكان.

من الداخل راقبتُ وسجّلت. كتبت لأسيطر على ذلك الاختبار الذي كاد أن يلتهمني ويلتهم العالم الذي أعيش فيه. كتبتُ كشاهدة على المعاناة المشتركة لعامة الشعب، شاعرة بأنه في محكمة التاريخ يجب أن يكون هناك سجلّ، نوع من المعنى لمعاناتهم. كتبت خفية في أوّل الأمر، ولكن عندما تضاعف عدد الذين يعرفون بأنني أكتب وأسجّل، صاروا يقولون لي: «ضعي هذا في كتابك،» أو «أخبريهم عن كذا،» عن أمرٍ حدث لهم ولكن بدا أن العالم الخارجي لم يبالِ. المشاركة في تلك المعاناة والآلام والكتابة عنها زادت محبّتي

للمكان. بكتابتي عن بيروت ربطتُ ذاتي بها ـ فأنا لست بيروتية المولد، بل شخص جوّال ـ وجعلتها مدينة تخصّني وجعلت نفسي جزءاً منها. والآن أصبحت كل بقعة في المدينة المجزأة هي خاصتي؛ لقد اكتسبت مكاني في العالم.

عندما بدأت الحرب كنت أنتمي إلى كل مكان، وإلى لا مكان، مثل ذلك الصنف من البشر الذي يكثر وجوده في الأزمنة الحديثة، الذين تنقّلوا بين مكان وآخر، منظّمين أوراقهم الثبوتية تبعاً لتنقّلاتهم. عائلتي جاءت أصلاً من فلسطين، ولكنني نشأت في القاهرة كدخيلة. وتعلّمت على أيدي إنكليز وأميركيين، فتشربتُ ثقافتهم وقيمهم إلى جانب تلك التي أورثني إياها أسلافي العرب. تقاذفتني العواصف الهوجاء التي أطلقها كل من العالمين ضد الآخر. وتزوّجت من لبناني ابن عائلة عريقة في الثقافة العربية، وعشنا في أميركا لسنوات ثم ذهبنا إلى بيروت. زوجي عاد إلى بيته وأهله، واعتقدتُ أنني بمرافقتي إياه أستطيع أن أربط ذاتي بجذوره الصلبة، إلا أن الكرمة لا تشارك السنديانة في جذورها، بل تُنبت جذوراً خاصة بها. جذوري متشابكة في غوامض الحرب في لبنان وتناقضاتها.

عندما اشتعلت الحرب كان أولادي صغاراً، وكنت مهيّأة فقط للحياة في الصدفة المحمية كسائر نساء جيلنا في الطبقة التي أنتمي إليها. وبدأت، في أوقات فراغي، بتدريس بعض المواد في جامعة أسّسها المرسلون الإنجيليون الأميركيون منذ عدة عقود، وشكّل غموض منشئها، في خضمّ البعد الثقافي للحرب، عبئاً إضافياً.

وأثناء نموّ أولادي، كان عليّ أن أحميهم من وضع يهدد حياتهم مرة تلو المرّة، والحرب فرضت عليّ مسؤوليات أكبر وعلى سائر النساء. وكانت أزمات الحرب غالباً ضمن تلك المرتبطة تقليدياً بمجال المرأة. كان علينا توفير المؤونة اللازمة والاهتمام بالمنازل المدمّرة وإيجاد ملاجئ بديلة ومواجهة حوادث الموت. والنساء، اللواتي تحميهنّ التقاليد من ممارسات كالخطف، كثيراً ما وجدنَ أنفسهنّ وجهاً لوجه مع العنف الذي كان رجالهنّ يتجنبونه. فالنساء نَموْنَ في الحرب.

زوجي سمير، الذي يمتهن التدريس الجامعي أيضاً، طالما رفض عرضاً بعد الآخر لمغادرة البلاد والعمل في الخارج، وكنت أحبّذ اختياره. وبازدياد عدد الذين كانوا يغادرون، نحن الذين صمّمنا على البقاء أخذنا على أنفسنا مسؤوليات أكبر. عَمَلُنَا في الجامعات بات أكثر أهمية ولو أنه غدا أكثر صعوبة، وتعقيداً. وبينما كان يحدث كل هذا، وأنا أسجّل، نَمَتْ في داخلي امرأة جديدة وتقشّر جلدي القديم.

ولبثت المسألة كيف أكتب، وأيّ أسلوب أختار. حاولت أن أحشر المعاناة في شكل واضح وفتّشت عن صيغة تلائمها، عن وسيلة أو أداة تساعدني على فرض حاجتي إلى نظام وترتيب للفوضى حولي، ولكنني وجدت بالمقابل أن الفوضى تفرض نفسها عليّ. الوضوح، العقل، العدالة والتناسق والتقليد واللياقة ـ تلك كانت الأدوات التي استعنت بها ولكنها فشلت كأنني استعنت بسياج من الأوتاد لاحتواء بركة دم. الأشكال التي استعرضتها كي أجرّبها

لمجابهة الحقيقة المتداعية سقطت تباعاً. أردت أن أجد شيئاً واحداً منظَّماً لاحتوائها كلّها، فأنا شخص واحد، أليس كذلك؟ وحاجتي إلى الانسجام والضبط كبرت بنسبة تفسّخ البلاد حولي وتجزُّئها.

فكّرت في البدء أنه عليّ أن أسجّل يومياتي. وأتمنى الآن لو أنني فعلت. المرة الأولى التي أصيب فيها منزلي بقذيفة، ٢٢ آذار/مارس ١٩٧٦، ربما كنت وصفته كالتالي:

بالكاد استطعت أن أغفو في الليلة الماضية. المعارك في منطقة الفنادق ما زالت مستمرة، سمعت أصواتاً جديدة. ظننت أن المعارك أقرب مما هي عادة. شربت الكثير من القهوة هذا الصباح في محاولة لتصفية ذهني. الجميع يتململون. لا مدرسة للأولاد. صمّمت أن «أعزّل» البيت ـ علاج ناجع للأعصاب المُنهكة. شرعت بإزالة الغبار. الخادمة كريمة ليست مفيدة على الإطلاق: إنها تلوي يديها المتشابكتين باستمرار وتجول ببصرها خارج النافذة. أرسلت الأولاد إلى الخارج ليلعبوا تحت المنزل لأن خلافاتهم ومطالبهم ترهق أعصابي. أين زوجي؟ فجأة يحدث دوي هائل، ويتناثر الزجاج حولي وتتكاثر الشظايا في كل مكان. لا وقت للتفكير بما حدث. جلبة على الدرج وأصوات. أركض إلى الباب. جاري يجري نزولاً على الدرج. «انزلوا إلى الكاراج» أسمع صوتاً يصيح بي، «بالله، أسرعوا.» أنادي كريمة التي انتابتها الهستيريا، ووقفتْ ترتعد خوفاً راسمة إشارة الصليب على صدرها وتردّد بصوت مرتفع: «يا عدرا: يا عدرا.» أدفعها

إلى الخارج واقودها إلى أسفل دون أن أتوقّف إلا لآخذ مفاتيحي.

ننادي الأولاد من الملعب حيث وجدت سمير قد سبقني وهدأت أعصابي قليلاً، ودخلنا كلّنا إلى الكاراج تحت البناية. الجميع هناك، بعضهم ما زالوا بالبيجاما، يتنقّلون هنا وهناك. ماذا حدث؟ ما هذا الدوي؟ انفجار مدوٍّ آخر. هستيريا عامة. «كان هذا قريباً» انفجار آخر: البناء يهتزّ. «أقرب.» «ابتعدوا عن المدخل.» أطفئوا مرجل التدفئة. أطفئوا التيار الكهربائي. الظلمة تغمرنا. لا صوت ولا نأمة.

كريمة التي ترتعد أكثر من قبل وترسم إشارة الصليب وتنادي العذراء، تقيم مذبحاً قرب إحدى السيارات وتركع وهي تصلّي بحرارة. والآن أُصيب ناطور البناية بالهستيريا فجأة. فبعد أن أوصل زوجته وأولاده إلى الكاراج اندفع يعدو على الدرج ورجع حاملاً كلاشينكوف وراح يلوّح به بتهوّر، ويصيح: «سوف أقتلهم، سأقتلهم، إنهم سيقتلوننا جميعاً.» فيلتفّ حوله الرجال وبالتدريج يهدّئون من روعه ويصرخون به أن يصمت. وبعد أن جرّدوه من سلاحه قبع خجولاً في زاويته حانياً رأسه، وضامّاً بين ذراعيه ابنه الأصغر ـ بدلاً من الكلاشينكوف ـ الذي يعول ويبكي.

الأولاد كلّهم يريدون الذهاب إلى الحمّام. (وإذا أردنا الحقيقة، الجميع يرغبون بذلك أيضاً). لا حمّام قريباً، فنقيم «مبولة» في إحدى الزوايا، ويتلهّى الأولاد فترة بالتباري في مدى إطلاق «زخّاتهم.» التقى نظري صدفة نظر منير الذي

خفض بصره بخجل وهزّ كتفيه باستخفاف: بالأمس فقط على كأس من الشراب شرح وحلّل الموقف السياسي والعسكري بكل دقّة مبرهناً لنفسه أولاً ولسامعيه أنه مهما حدث في بيروت في أي مكان فإن منطقتنا ستظل آمنة تماماً!

صحفيون في مدخل الكاراج، وآلات تصوير تلفزيونية: «نريد الصعود إلى البناية لأخذ الصور» إلا أننا نرفض طلبهم ونصرفهم. وتوصّلنا إلى الاستنتاج الخاطئ بأنّ ثمة معركة عند السفارة الاميركية القريبة منا، وحيث أن بنايتنا تتميّز بارتفاعها فإن رجال الصحافة يجدونها مناسبة لتغطية المعركة من على سطحها. ولم ندرك سبب مجيئهم في الواقع إلا بعد ذلك بوقت غير قصير.

إثارة جديدة صديقتنا هلن الخال التي تقطن في شارعنا جاءت إلى الكاراج ملوّحة بيديها: «هناك ثغرة ضخمة في جانب بنايتكم، عند الطبقة السادسة» قالت وهي تلهث. «جئت لأطمئن إلى أنكم بخير» الطبقة السادسة فارغة. المستأجرون الاميركان الذين كانوا فيها غادروها وسافروا قبل أسابيع. جارتنا ليلى هُرعت إلى فوق لتفحّص المكان بالرغم من احتجاجات زوجها وتعود غاضبة: «هراء» قالت بحزم، «لم يحدث شيء للطبقة السادسة. والناس يضخّمون الامور.»

تشاور سريع. أينما كانت المعركة، فقد نضطر للبقاء حيث نحن ساعات أو ربّما أياماً. إذن علينا في فترة الهدوء أن نصعد إلى منازلنا ونأتي بالمؤن. مندوب واحد لكل شقّة.

إياكم واستعمال المصعد. أتسلّق الدرج إلى الطبقة السابعة حيث شقتي، خائفة ولكنني متحمّسة من الإثارة ومسرورة لفترة الراحة القصيرة هذه، ولو أنها مفعمة بالخطر، من أولادي الخائفين والمتشبّثين بي.

الباب الأمامي لا يفتح. هل هو المفتاح – الخطأ؟ بعد معالجة قصيرة يفتح القفل، ويغمرني شعور بطغيان اللون الابيض. امر غريب، أفكر بنفسي، متى أتيح لسمير الوقت بأن يجلّل كل شيء بأغطية بيضاء؟ هذا غريب، فليس عندنا ما يكفي من الشراشف البيض لتغطية كل شيء. غريب. لماذا نقل البيانو إلى وسط الغرفة قبل أن يغطّيه، ولماذا أزاح الصندوق الثقيل الضخم الذي يزيّن قاعة المدخل إلى وسط الممرّ؟ ألقي نظرة على غرفة الطعام. يا إلهي! سقطت لوحة من لوحات جارتي ليلى من الطبقة فوقنا إلى غرفة طعامنا. انظر ثانية. هذه ليست لوحة بل ثغرة، ثغرة كبيرة مفتوحة. أنظر إلى رجال شرطة، فأجدهم ينظرون إليّ من خلال الثغرة في الحائط. إنهم على سطح المخفر القريب من بنايتنا، محدّقون باتجاهنا.

بانت الأمور نوعاً ما. هذه ليست شراشف بيضاء، بل غبار. والمكان ليس سوى خراب. كل شيء أبيض محطّم. يتملّكني الرعب. إنه الموت. ليس شيئاً أقرأ عنه في الصحف، بل شيء حدث في بيتي، وانتهك حرمة حياتي وحدودي وكياني. أنتقل إلى غرف النوم، بالكاد أستطيع أن أحتفظ بتوازني لأن الارض مكسوّة بطبقات من الحطام. ألتقط بعض

الاشياء، دبّاً صغيراً عن الارض، دثاراً ملتفاً على مصباح كهربائي، وبيجاما معفّرة. التقط ما أجد في طريقي عشوائياً وبدون تفكير.

في طريقي إلى الخارج التقط شظيّة قنبلة من الحطام. شظيّة؟ إذن هذه هي الشظية، أقول لنفسي. لم أفكّر فيها جدّياً من قبل. عندما سمعت من قبل عن شخص قُتل من جراح سبّبتها الشظايا لم يبدُ لي ذلك جدّياً كالموت من رصاصة أو من حريق. ولكن هذه القطعة المثلّمة الثقيلة الحارة من الحديد، هذه هي الشظية والشظيّة أمر جدّي.

أسرعت بالعودة إلى الكاراج وأنا أرتجف. لا أستطيع الانتظار لكي أخبر الجميع بأنها الطبقة السابعة، وليست السادسة. الطبقة السابعة. في الأثناء تجمّع عدد أكبر من الناس في الكاراج. ربما كان صوتي خافتاً، وليس من يسمعني. اضطررت إلى الشدّ على المرافق لجعلهم يُصغون. وأخيراً التفّتوا كلهم حولي، بالكاد يصدّقون ما أقول. بعضهم هُرع إلى فوق للتفرّج على ما هناك وعادوا ووجوههم شاحبة شحوب المناظر التي شهدوها.

الآن وضحت الأمور. جاء رجال الصحافة ليسجّلوا مرحلة جديدة في الحرب. انقسم الجيش، وللمرة الأولى صوّبوا المدافع الضخمة ضد بعضهم البعض، من عيار ١٥٥ملم. منزلنا كان أول ما أصيب.

ليس بإمكاني أن أكتب هذا في اليوم الذي حدث فيه. عمري

الخوف، أكثر من أي مرة خفت فيها قبلاً، وكنت قلقة ومرتبكة. لم يكن لديّ دفتر. ضاع بين ذلك الحطام. كنت منشغلة بتهدئة الأولاد ومحاولة الاستقرار في منزل والدتي الذي اضطررنا إلى الانتقال إليه. ولم ينضج الحدث في ذهني إلا بعد أن أعدت روايته مرة تلو الأخرى. وقد أخبرني أحد الجيران ـ ولم أصدّقه ـ بأني كنت أبكي عندما أخبرتهم عن اكتشافي ذلك الصباح. وهنّأني آخر على جرأتي وجلدي. أنا أفضّل التهتة طبعاً.

بعض المشكلة في تدوين اليوميات هي أنها تحدّ الإنسان إلى مدى تجربته الشخصية أو أنها تجعل من الأحداث الضخمة حكايات صغيرة، لأنه كثيراً ما تُعاش الأحداث الضخمة بهذه الطريقة. فما هي الأحداث الضخمة في الواقع غير أحداث تؤثر على عدد كبير من الناس، قد تبدو حكاياتهم الشخصية تافهة، مضحكة، ونادراً ما تكون عظيمة؟ هكذا، ربما كنت سجلت في مفكّرتي انهيار مجتمع بأكمله عن طريق سرد عدد من الوقائع تدور مثلاً حول سرقة السيارات.

أوّل تحسّس طال العديد من الناس بأنّ عالمهم يواجه خطراً مميتاً جاء من مشاكل غير ذات أهمية ظاهرياً. كانت المعارك الأولى أحداثاً بعيدة، قضيّة اعتبرها غير المتورطين فيها مباشرة بأنها بلا جدوى. ولكن عندما أصيبت هذه المدينة الخالية من الجرائم نسبياً بوباء سرقة السيارات تنبّه الناس وأصابهم الذهول. وأسجّل هنا حادثة روتها لي صديقتي وداد وقعت في أوائل الحرب وهي من البلايا التي تُضحك. فقد كانت على شرفة شقّتها في شارع الحمراء

بعد ظهر ذات يوم ورأت سيارة أنيقة تقودها امرأة أنيقة وبقربها سيدة أنيقة أخرى. وتعطّلت السيارة أمام منزل صديقتي، ولم تستطع السيدة الأنيقة إعادة تشغيل المحرك بالرغم من كل محاولاتها، ووقفت مرتبكة محتارة. واقترب منها شاب رشيق عرض مساعدته وبالتدريج نزلت السيدتان من السيارة وسلّمتا السيارة لمعالجات الشاب. واجتمع حولهم أحد رجال الشرطة والعديد من المارة، يقدّمون النصائح والإرشادات. وبعد أن رفع غطاء المحرك واشتغل بضع دقائق صعد الشاب إلى مقعد القيادة ومدّ رأسه من النافذة وطلب من الجمع بكل تهذيب أن يدفعوا السيارة ليساعدوا المحرك على الدوران. فتعاون الجميع بكل صداقة وشاركت السيدتان الأنيقتان والشرطي والجمهور الطيّب، وبالفعل دار المحرك وانقلبت دهشة الجميع إلى استنكار وحنق عندما ابتعدت السيارة في الشارع والشاب في داخلها متوارية عن الأنظار دون رجعة.

ولم يطل الأمر حتى لم يعد باستطاعة أحد أن يترك سيارته في الشارع دون التعرّض لخطر فقدانها. وبسبب عدم وجود تأمين أو ضمانة، وبتجلّي عجز الشرطة المتزايد عن توفير حماية ظهرت إلى الوجود تجارة ناشطة تتلخّص بإعادة بيع السيارات إلى أصحابها الشرعيين. فالذي يفقد سيارته يتوجّه إلى مركز التجارة قرب بعلبك، بعيداً عن مدى أيّة سلطة حكومية ماثلة. هناك يرحّب به أبو شوقي الذائع الصيت ويقوم بواجبات الضيافة من تقديم القهوة أو السجائر والمرطّبات، ثم ينتدب من يصحبه إلى أرجاء الموقف الفسيح للسيارات حيث يتعرّف إلى سيارته ويبرز الأوراق التي تثبت

ملكيته لها. بعد ذلك يدفع إلى أبي شوقي ما يفرض عليه هذا الأخير لقاء إرجاع سيارته. وقد دفع أحد أصدقائنا عشرة آلاف ليرة لاسترداد سيارته التي يبلغ ثمنها خمسين ألف ليرة واعتبر نفسه سعيداً بأنه وجدها.

وقد رُويت لنا قصة قد تكون حقيقية مهما كانت الوقائع لأننا صدّقناها ولأنها تعكس الجنون المطبق لتلك الأيام. والقصّة عن رجل ذهب إلى المصرف وسحب مبلغاً ضخماً من المال لكي يدفع أجور عمّاله، ووضع المال في حقيبة يد. وفي طريقه إلى المنزل اضطر إلى التوقّف في أحد الأمكنة لدقائق قليلة. وبما أنه اعتقد أن خطر فقدانه الحقيبة أكبر من خطر فقدان السيارة فقد وضع الحقيبة في صندوق السيارة وأقفله. ولما عاد إلى الموقف وجد أن سيارته قد اختفت. وقام فوراً إلى الحج إلى مقرّ أبي شوقي حيث وجد سيارته، ودون أن يأتي على ذكر الحقيبة فتح صندوق السيارة. ولاحظ أبو شوقي أمارات الخيبة ترتسم على وجه الرجل عندما لم يجد الحقيبة فأنّبه بسخط وصاح به: «إنك تبحث عن أموالك وتظنّ أننا أخذناها؟ مع من تظن أنك تتعامل؟ ولو... هل نحن لصوص؟ والله، لم يبق هناك من ثقة في هذا العالم. ماذا سيكون مستقبل هذا البلد؟» ثم اقتيد الرجل المدهوش إلى مكتب حيث جيء بالحقيبة، وطُلب إليه أن يعدّ المال. وهنا حدث مشهد تمثيلي جدير بأن يُروى. فقد أبدى الرجل ثقة عمياء ورفض أن يعد المال، وهو يتوق إلى ذلك. وألحّ أبو شوقي عليه بأن يعدّ النقود، مرّة بعد المرّة، وأخيراً، رضخ للأمر وعدّ النقود، وذُهل تماماً عندما وجد المبلغ

كاملاً غير منقوص، إلى آخر ليرة. وكان الآن قد حفظ الدرس، فأكمل التمثيلية، وأصرّ على مشاركة أبي شوقي بالنقود، ولكن هذا الأخير، وبكل مظاهر الإباء والشمم، ومسدّسه بارز على جنبه، كرّر رفضه. وعاد الرجل إلى الإصرار إلى أن تكرّم أبو شوقي ولان وقَبِل بهبةٍ محترمة من أجل خاطر الرجل، مضيفاً أنه نزل عند إصرار الرجل لأنّه لا يطيق أن يجرح شعور ضيفه بالاستمرار في الرفض.

حكايات كهذه تخبرنا عن حقائق بيروت ووقائعها أكثر بكثير من كدسات المقالات الصحفية بتحليلاتها السياسية وتوقعاتها، التي يتبين غالباً، بأنها مخطئة. ودلائل الانهيار المجتمعي لم تقتصر بالطبع على سرقة السيارات. فمثلاً، هناك قصة مؤلمة تتعلّق بمحلات «سبينس» السوبر ماركت الضخم الذي تؤمّه سيدات المجتمع البيروتي والواقع قرب «حزام البؤس» الشهير المحيط بالمدينة. ففي غمرة فترات الفوضى الأولى، غدا ذلك المخزن هدفاً طبيعياً للنهب من قبل جماعات لم يُتح لها أن دخلت إلى ذلك المتجر من قبل. أحد تعساء الحظ حمل رفّاً كاملاً من المعلّبات، واكتشف بعد بلوغه منزله أن الكنز الذي فاز به ليس سوى معلّبات أكل للقطط، «أكل للقطط!» سمعوه يقول لجاره الذي يحسن القراءة والذي أخبره عن محتويات معلباته: «أكل للقطط: إنهم يصنعون طعاماً للقطط، وأنا اعتقدت بأننا سوف نقتات بهذه المعلبات لأسابيع، وهي غير صالحة إلا للقطط!»

بعد ذلك لم يعد أهالي بيروت يدهشون لروايات كهذه وباتوا يصفون الأحداث بلهجة ساخرة وبازدراء، مضافة إلى روح الدعابة التي استعانوا بها على مدى سنوات لمساعدتهم على تخفيف أثقالهم. مثلاً، بعد مرور ست سنوات على الحرب، زاد عدد الميليشيات واحدة أخرى، يرتدي أفرادها بزّات باللون الزهري الوردي الأدكن. ولفترة من الوقت كان موضوع التسلية في المجتمع إيجاد تسمية لائقة بالمليشيا ذات البزات الوردية، كل اقتراح كان ينتشر ويخلّف موجات من الاستحسان المرح. «الفهود الزهرية،» «الكتائب الوردية،» «والجيش الوردي» كانت بين التسميات، إلى أن استقر القرار على اسم «الفرسان الورديين،» وهو اسم الأوبرا الأنيقة Der Rosenkavalier لريكارد شتراوس والذي بدا وكأنه النقيض التام لأفراد الميليشيا الكسالى المتسكعين في الشمس ببزاتهم الزهرية.

وعلى مدى سنوات ظلّ هناك توازن بين الهلع والحياة العادية. مثلاً، قبل الحرب كان شاطئ «السان سيمون» نادياً بحرياً يسترخي على رماله الذهبية نخبة المجتمع البيروتي. بعد ذلك، وعلى أثر إحدى أكثر المعارك دموية في الحرب، وصلت إلى النادي فلول أهل الكرنتينا الفقراء المعدمين الهاربين من الطرف الآخر من المدينة في شاحنات أنزلتهم على الشاطئ. فتحولت الأكشاك الأنيقة الخاصة بتبديل ثياب البحر، والمزدانة نوافذها بأجمل الستائر المزهرة والمجهّزة بالكراسي الطويلة المريحة والبرّادات حيث تحفظ زجاجات البيرة المثلّجة والصودا، وتحولت بين ليلة وضحاها من مرتع فخم للهو والاستمتاع إلى بؤرة فقر وتعاسة. وفي سنة

١٩٧٦وبعد انتهاء أول جولة من الحرب بوقت قصير، فتح نادٍ للشاطئ البحري بالقرب من ذلك المكان، متمّم بأزهار إبرة الراعي في آنيتها وكراسيه الاسترخائية المريحة وشلالاته الاصطناعية وحدائقه المعشوشبة وملاعبه للتنس وحمامات الصونا ونوادي الصحة ومحلات التجميل. «سمرلاند»، أسموه، بما يضاهي شواطئ فرنسا.

ذات يوم انفجرت سيارة مفخّخة قرب شاطئ السان سيمون. وما كادت قافلة سيارات الإسعاف تنقل الأشلاء البشرية ـ على وقع صفارات إنذار السيارات والطلقات النارية لفتح الطريق، تواكبها صيحات الأسى والهلع، حتى بدأت قافلة أخرى من السيارات بالتوافد إلى فندق سمرلاند. فقد كان نادي «الإبهام الأخضر» التابع لجمعية YWCA يقيم معرضه السنوي الربعي لزهور الربيع، وكانت احتفالات هذه السنة في إطار عرض للأزياء التاريخية. ومرّ عرض لفساتين الأعراس من العام ١٩٠٠ إلى العصر الحاضر بين موجات من التصفيق والاستحسان؛ وكل عارضة تحمل باقة زهور تميّز بها كل عهد من العهود.

وخطر لي مرة أن أكرس كتاباً كاملاً لروايات كهذه ولكنني عدت وتخلّيت عن الفكرة. إنه أمر بشع في التركيز على هذه الروايات المعبرة ولكنها في النهاية لا تعبّر عن فظاعة الحرب. فهي لا تذكر الناحية المألوفة من الحرب. وكيف يمكن رواية هذه الأحداث المروّعة التي يصعب صوغها في حكايات؟ «سمعنا اليوم عن الفاجعة الأخيرة. مئات الأشخاص لاقوا حتفهم في. . . ـ»

(إملأ الفراغ بالاسم الذي تريد: فقد وقعت فواجع عديدة كهذه).

وفي اللحظة التي يظنّ فيها الإنسان أن الحرب قد انتهت، وأنه قد فهم كل شيء عنها، وأنه، كما يقال باللغة العامية المشبرحة «عرف على أي خازوق كان راكباً؛» وفي الوقت الذي يبدأ بتحسّس مغزى أوضاعه السياسية بعد أن يخرج من الملجأ الذي احتمى فيه أثناء المعركة الأخيرة، ويلتفت إلى من حوله ويلوم هذه الفئة وتحالفها الغادر مع هذه الدولة الأجنبية أو تلك: عندها تتغيّر الصورة بكاملها مرة أخرى. فتحتدم معركة جديدة، وتبرز إلى الوجود حقائق سياسية جديدة. إنها أشبه بالمشكال، تخضّه فيعطيك شكلاً هندسياً جديداً، وتخضّه مرة أخرى، فيحل محل الشكل شكلٌ هندسي آخر. التغيرات تحدث كثيراً إلى درجة تدفع إلى التساؤل عما إذا كانت ستصل إلى نهايتها، أو، هل يا ترى سوف ندرك ذلك من فرط ما مضى علينا ونحن ننتظره حتى كدنا نيأس من الوصول إليه؟

هل أكتب بلهجة التفاؤل والأمل؟ لقد صمتت المدافع، وتوقف الدم عن السيلان. تبودلت المصافحات، ووُقّعت الاتفاقات، ودُفن الموتى وعاد المنفيّون.

خُضَّ المشكال، لقد عادت المدافع إلى اللعلعة وسالت الدماء مجدّداً. هل أكتب بيأس وقنوط؟

خضّ المشكال.

الدعابة المريرة؟ الحنق الأسود؟ الشجب؟ السخرية؟ الحزن والأسى؟

رمزية؟ ولكن الشارع الذي كان يرمز إلى انتصار مجموعة بالأمس هو رمز تفوّق منافسهم اليوم. والمدينة التي كانت ذات يوم ترمز إلى أحزان الناس أصبحت اليوم مدفن أعدائهم. حلفاء الأمس صاروا أعداء اليوم، وأعداء الأمس هم اليوم في تحالف وثيق. بطل الأمس أضحى النذل اليوم، ووغد الأمس صار شهيد اليوم.

في الأيام الأولى للحرب كتبت مقالات بطريقة عفوية دون أدنى جهد. و كتبت أكثر من قطعة تحت عنوان: «الصباح التالي لغارة جوية إسرائيلية» و«الصباح التالي لغارة جوية إسرائيلية ثانية،» ثم حوّرت العنوان إلى «الصباح التالي لغارة جوية إسرائيلية أخرى ـ بعد خمس سنوات.» وبمرور الزمن، تعاظم الحنق والألم حتى لم يعد باستطاعة مقالة مكتوبة أن تحتويهما، وتبيّن بعد ذلك أنه فقط عن طريق الهجاء الساخر ـ الذي يقلب العقل والمنطق رأساً على عقب في خضم عالم أصيب بالجنون ـ يمكن أن نواجه الوضع. ولكن حتى هذا تبيّن أنه غير كافٍ.

لقد سبرتُ غور أعمق ثنايا ما تختزن مخيّلتي من الصور أو التشابيه المروّعة التي بإمكانها أن تعبّر عن جزء من أسى بيروت، وبعد ذلك نظرت بهلع إلى تلك الصورة تنقلب إلى واقع بشع ملطّخ بالدم. كتبت منذ سنوات عديدة مقالة بعنوان «كابوس.» تخيّلت نفسي أمشي في شارع مزدحم تتناثر فيه القمامة التي تشوّه المدينة، في إحدى زحمات السير التي نعانيها باستمرار، وبعد ذلك تخيّلت انفجاراً وتدافعاً مريعاً للسيارات والقمامة والأشلاء البشرية. كتبت ذلك قبل أن تصبح تلك السلسلة المخيفة من السيارات المفخّخة

جزءاً متمّماً من حياتنا، وأضحى الحلم المروّع لا يختلف عن الرواية العادية التي تتناقلها الصحف. جميع الدوافع والأحلام التي تساور الذات الكونية الشاملة بدت وكأنها انبعثت حية في بيروت وأصبحت واقعاً محسوساً. لم يبقَ هناك أحلام؛ ولم يعد بإمكاننا أن نحلم.

في بيروت، ألصقت جفون أعيننا بشريط أبيض من العنف الذي يمنعها من الإطباق بحيث لا يبقى هناك من تمييز بين الليل والنهار ولا بين الحلم والحقيقة. كل ما بمقدوري عمله هو أن أسجّل ما رأيت، ولمحاتي الخاطفة إلى قلب العنف والجنون في مجتمع ـ يتمزّق؟ يتقطّع أشلاء؟ أو يُبْتَنى ـ أو يعاد بناؤه؟ أو يهدّم أم أنه يُبعث؟ مغيّراً. ليس باستطاعتي أن أفعل أكثر من ذلك. لا أستطيع.

الفصل الأول

الأزمـة

ومعجم الألفاظ التي شاعت خلالها

إنها أمسية جميلة. من شرفة شقتي قرب الجامعة الأميركية في بيروت أمتّع نظري بالشمس وهي تغوص في أمواه البحر المتوسط الهادئة الزرقاء. أتأمل سطوح القرميد الأحمر على الأبنية الأكثر قدماً في حرم الجامعة، وهي من آخر ما تبقّى في هذه المدينة التي كانت جميلة، ورشاقة الأخضر الأدكن لأشجار السرو تفقد تناقضها المميّز إذ تخبو أشعّة الشمس وتبزغ أنوار المدينة. إلى الشرق يتحوّل لون التلال البعيدة فوق جونيه من لونه الأرجواني العميق إلى سوادٍ رائق، ويعكس تألّق أنوار القرى والسيارات بريق النجوم في سماء الليل. أجراس ساعة برج مبنى «كوليدج هول» تقرع وتتوارى دقّاتها في طيّات الليل الهادئ. غالباً ما أقف، كما أفعل الآن، أصغي، وأفكّر كيف أن هذه الأجراس ذاتها رنّت على ممر العقود عندما كانت الساعة مجرّد ساعة فقط، لا ناقوساً يقرع حزناً على مدينة تحتضر وفترة تنازع. الفكرة هذه فيها شيء من العزاء مع كونها مسربلة بالألم.

وفجأة يستحوذ الصمت على أذني، وبفضل تلك الحالة

السادسة التي تطوّرت لدى أهالي بيروت. دخلت إلى شقتي وفتحت جهاز الراديو الموجود في كل مكان في كل الأوقات، وهدر اللحن العسكري منه فغار قلبي. أزمة أخرى. أين؟ من يقاتل من هذه المرّة؟ أخرج إلى الشرفة الأخرى المطلّة على المدينة حيث، كما توقعت، تلاشى النجوم البيضاء من وهج حمرة الرصاص الخطّاط؛ وتحطّم سكينة الليل على أصوات المدافع التي أصبحت مألوفة، فتثير في خيالي طبول الأدغال، بإيقاعها البدائي الشعائري المنذر بالخطر والعدوان.

تمخّض في أحشائي الرهبة والإثارة. والشعور بأن الوضع قد يستمرّ هذا الشعور الذي رافقنا في الأشهر القليلة الماضية منذ آخر أزمة، ها هو يتلاشى في كابوس مرعب، وكل ما فعلناه في فترات الهدوء ليس سوى إرجاء لاحتمالات. فكأننا كنا على مركب صغير في خضم المحيط، تتقاذفنا التيارات، ننظر بعيون حالمة إلى أسماك القرش تسبح حولنا ونحن ذاهلون نتأمّل طبيعة العالم. ولدى اقتراب الريح العاصفة، يترجرج المركب، ويتملّكنا الهلع. إلا أن الريح هي التي سوف تقذفنا إلى الشاطئ. قد تقضي علينا في طريقها، ولكن المجازفة خير من الانجراف نحو الهلاك المحتم.

بينما أنتظر نشرة الأخبار، أحاول قلقة أن أقيّم الأوضاع: أوّلاً - استعراض سريع لأمكنة وجود عائلتي - كلّهم موجودون حيث يجب أن يكونوا - وبعد ذلك الاهتمام بما قد نحتاج إليه من مؤن. ويتردد في الخارج أزيز غريب مفاجئ يتلوه صوت انفجار ضخم إذ تسقط أول قذيفة بالقرب منا. فأحمل بسرعة الحقيبة

المحتوية على جوازات السفر وأوراق الهوية وبعض النقود. يدخل زوجي فنتشاور باقتضاب. هل من الأفضل أن ننادي الأولاد وننزل كلّنا إلى الملجأ في الكاراج؟ «لننتظر بعض الوقت،» يقول لي. نحن وحدنا الآن. كل عائلة لنفسها؛ كل عائلة تقرّر مصيرها المقدّر. وما من دليل ولا معين، ولا توجد صفارات إنذار، بل زعيق سيارات الإسعاف بعد الحدث. إذا نزلت إلى الملجأ قبل الأوان، قد تبدو سخيفاً مضحكاً؛ وإذا لم تنزل في الوقت الملائم فقد تموت.

الأولاد يهرعون داخلين. ينظرون إلى وجوهنا ليعرفوا إلى أي حدّ يجب أن يخافوا. منظر الحقيبة التي وضّبتها على عجل يثير حماستهم. «لا مدرسة... غداً؟» يسأل ابني الأكبر الخبير بشؤون الحياة. ويتراءى لي أن الأولاد يستمتعون بهذه الأزمات، إلى حدّ ما، حتّى يُطلّ علينا الرعب بشكله المخيف. الجميع موجودون في البيت ولا معنى لوجود نظام، تعم الفوضى، ولا من يقول لأحد الأولاد أن يهدأ أو أن يحضّر فروضه المدرسية. وقت النوم هو أي وقت، وليس له وقت. البابا، أذنٌ على الراديو وأخباره والأخرى تتنصّت للأصوات الآتية من الخارج، يوافق على مشاركتهم في إحدى لعبهم في غرفة داخلية في محاولة لإبعاد شبح الموت عنهم.

انفجار ضخم آخر يأتي على أثر أزيز قذيفة، فتهتزّ النوافذ. فأسارع إلى أرجاء المنزل أفتح كل النوافذ، متذكّرة يوم لم أفعل واضطررنا إلى تركيب زجاج جديد. زوجي وأنا نتبادل النظرات إذ نسمع وقع أقدام تهبط الدرج. التلفون يرنّ. إنها أمّي. «أين هي

أختك؟» تسألني بصوت يشارف الهستيريا. «تلك الفتاة حتجبلي آخرتي. . قالت إنها ذاهبة إلى. . .» وهنا ينقطع الخط. «لقد انقطع التلفون،» أقول لزوجي، وتخفق الأنوار، وأمسك بالمصباح الكهربائي في جيبي.

دوي آخر في الخارج فيقف زوجي ويقول: «حسناً. لننزل.» يحمل الأولاد ما يعتبرونه ضرورياً. أحدهم يحمل كتبه للرسوم الهزلية، والآخر يحمل قفص حيواناته الصغيرة المدلّلة مظهراً مدى تعلّقه بها. «أعد هذا الشيء إلى مكانه،» أقول له بصوت أعلى مما يجب. «لن أذهب بدونه»: باللّه أرجع ذلك القفص إلى مكانه ولنذهب. «لن أذهب دونه،» دوي انفجار آخر، وتنطفئ الأنوار. «حسناً، هيّا بنا، لنذهب.»

ونتعثّر نزولاً على الدرج المظلم إلى الكاراج، كما فعلنا مراراً في السابق. في كل مرة نجلس منزعجين من غياب أية وسيلة من وسائل الراحة في ذلك المكان، نُقسم بأننا سوف نحصّن الملجأ في الأسبوع القادم ونحضّر الفرشات والتنوير ونجهّز المرحاض البالغ الأهمية، ولكننا لا ننفّذ. ابني الأصغر يكرّر السؤال عن المدرسة في الغد. يغمرني بذراعيه بمرح ظاهر، ولكنني أشعر بنبضات قلبه.

طوال ساعات تتردد الأصوات المروعة في الخارج ولكنها تخفّ تدريجاً. وعندما يتّضح أن القذائف لم تعد موجّهة إلى ناحيتنا من المدينة يبدأ الجيران بمغادرة الكاراج. نضع الأولاد في أسرتهم، كلهم معاً في غرفة واحدة. يرفضون خلع ملابسهم،

وأتأكد بأن أحذيتهم في متناولهم، واضطر إلى الجلوس بقربهم، أربّت لهم وأغنّي وأروي لهم حكايات حتى يهدأوا تماماً وينامو ا.

في هذا الوقت أكون طبعاً منهكة، ولكنني لا أستطيع النوم من فرط عصبيّتي. ألتحق بزوجي على الشرفة، وننظر بصمت إلى القذائف المضيئة والصواريخ تتساقط على المدينة. لا يعبر الكلام؛ المخيّلة فقط تتركّز الآن على هذه العائلات التي ما زالت قابعة في كاراجاتها تحت الأرض، في تلك الأحياء التي تتساقط فيها القنابل. حوالي الثانية صباحاً هدأ كل شيء واستطعنا أن نغفو وما لبثنا أن استفقنا على دوي انفجارات بعيدة.

يبدأ النهار متأخراً. صوت المعركة قد همد، ووُضع وقف جديد لإطلاق النار موضع التنفيذ. ونعود إلى جولاتنا العادية. يفاجئني زوجي بالقول إن على الأولاد أن يتعدّوا للذهاب إلى المدرسة. «المدرسة؟» أقول له «المدرسة؟ أمخبول أنت؟» «لندعهم يذهبوا. فإن لم يكن هناك صفوف سيعودون.» و«لكن الشوارع...» «ما في شيء» يقول لي. على مضض أقول للأولاد المتردّدين أكثر مني بأن يتعدّوا للذهاب إلى المدرسة. يذهبون، ثم يعودون. «لا مدرسة،» يصيحون، مُلقين بحقائبهم على الأرض ومهرولين لنشر الخبر السارّ بين رفقائهم في اللعب في البناية.

زوجي على باب المنزل. «إلى أين ذاهب؟» «سأكون في المكتب إذا احتجتني لأي أمر.» «أرجوك لا تذهب. ماذا إذا ـ» إلا أنه يستخف بسؤالي: «لا يمكنك أن تعيشي هكذا.» هذا صحيح.

ليس ذلك ممكناً. «ماذا لو؟» يمكن أن نتجاهلها. والذي لا يمكن تصوّره يمكن تحمّله فقط إذا ظلّ غير مُتَصوَّر. إذن، حتى وقوع ما هو غير قابل للتصديق، بإمكاننا أن نتجاهله. ربما جاء دوري في المرة القادمة، ولكن حتى ذاك، سوف نكمل طريقنا.

أرتدي ملابسي وأدق الباب على جارتي. كل الأولاد هناك. «عليّ أن أذهب إلى عملي،» أقول لها ذلك، وأنا متهيّبة، أراقبها لأرى إذا كانت تظن أنني مخبولة مثلما أظنّ. «أنت ذاهبة؟» كلماتها كانت عبارة عن تعليق أكثر مما كانت سؤالاً. «طيّب، ماذا بوسعي أن أفعل؟ علينا أن نستمر،» أُجيبها بنبرة دفاعية وأنا مشمئزّة من هذه التعابير وأتساءل لماذا نظلّ نردّدها ـ وما إذا كانت صحيحة. «إذا حدث أي شيء. . .» وهنا أشير إلى الأولاد. . . «لا تقلقي، سأحتفظ بهم هنا.»

الشوارع ليست مقفرة تماماً، بالرغم من الشعور بالفراغ فيها يكاد يكون ملموساً. حركة المرور بطيئة وهادئة أكثر من العادة. الانشغال يرتسم على كل وجه، كأنهم أناس آليون يقومون بما رُسم لهم، دون أن يعرفوا لماذا. ميليشيا الحي مستنفرة بكل أجهزتها، يرتدي أفرادها بزات مموّهة والقنابل اليدوية تترجرج على خصورهم والكلاشنكوف معلّق على أكتافهم. يراقبون حركة المرور بوجوه متجهّمة ويتبادلون نظرات عدائية مع غير المقاتلين.

الهدوء يغمر الجامعة حيث أدرّس. المدينة بأكملها مثل شخص ينام نوماً متقطّعاً بعد كابوس مرعب، وأذن جماعية تنصت لأصوات تجدد القتال المحتوم. الطلاب القليلون في حرم الجامعة،

يقفون هنا وهناك، بعضهم يستمع إلى الراديو، وآخرون يروون آخر ما حدث معهم. هؤلاء الشباب بلغوا سنّ الرشد في الحرب، ومثلنا جميعنا، اعتادوها ولم يعتادوها في آن. يجب ألا يفاجئنا العنف، ولكننا نفاجأ وفي كل مرة نقع في الشرك مجدّداً.

ـ «هل من صفوف لنا اليوم؟» سألني أحد الطلاب.

ـ «لا أدري. أظنّ ذلك. كم يوجد من طلاب هنا؟» هزّ أكتاف متبادل، وتبادل تلك الابتسامة الحزينة التي نفهمها جميعاً. لا شيء يمكن أن يقال بعد.

إلى مكتبي. أحد الزملاء يحاول دون جدوى أن يحصل على خط هاتفي. نتبادل تحيّات مقتضبة، دون الإتيان على ذكر الليلة الفائتة، متسائلين دون أي جواب عن أنسب ما يمكن القيام به. السكرتيرة تطرق الباب وتعلن اجتماعاً للدائرة في الحادية عشرة.

وتمرّ بنا رئيسة الدائرة وعلى وجهها الابتسامة المتعبة ذاتها. لسبب ما نشعر جميعاً بالارتباك، مثل فتيات غير مطيعات وجدنَ أنفسهنّ متورطات بفعل شيء غير مبرّر. «لا تنسي أن تأتي إلى الاجتماع في الساعة الحادية عشرة. علينا مناقشة برنامج اللغة الإنكليزية لصفوف السنة الجامعية الأولى.» «إنّك تمزحين دون شك.»

قبل أن تتكلم أعرف ما ستقول: «ماذا يسعنا أن نفعل؟ علينا أن نستمر.»

في طريقي إلى الصف أسمع الدوي الذي أتوقّعه. أكمل طريقي، وإذ أدخل إلى قاعة الدروس تطالعني، بدلاً من ضوضاء

الأربعين طالباً كالعادة، تلك البسمة الحزينة على أوجه الطلاب العشرة، أو الاثني عشر أمامي. نتبادل هز الأكتاف واللامبالاة مع نوع من الممازحة الكئيبة. «أين تقطن؟» «ماذا يجري في الحي عندكم؟» «ماذا مرّ عليكم من أهوال؟» «ما هي آخر الأخبار؟» تلبث الكتب مغلقة، إلا أنه كما أصرّت علينا الإدارة في المحنة الأخيرة علينا أن نستمر، وهذا ما نفعله. نتحدّث عن ديكارت باقتضاب، وتظل أفكاره بعيدة عن واقعنا، والممارسة هذه بكاملها تثقل من شعورنا بعدم الجدوى. لا أحد في الصف يعير أقلّ انتباه للمحاضرة التي أُلقيها؛ محاضرتي لا حياة فيها، أحاول يائسة أن أركز أفكاري على العقلانية في فرنسا القرن السابع عشر بينما تدخل بيروت عنوة من خلال سلسلة أخرى من الانفجارات. فيتبخّر الصف إذ يتدافع الطلاب بنوع من الارتباك الخجول إلى خارج قاعة الدروس متمتمين عن اضطرارهم للعودة إلى منازلهم. ونحاول كلنا بكل تهذيب، ولكن دون نجاح، أن نخفي ارتياحنا لكوننا لم نعد مضطرين أن نتصارع مع ديكارت.

أتوجّه إلى اجتماع إدارة القسم. تعليم اللغة الإنكليزية هو الموضوع الرئيسي في لائحة المواضيع المدرجة. اجتمعنا حول طاولة المداولة غير مصدّقين تماماً بأننا سنجلس بالفعل وبكل برودة ونتكلّم عن تعليم الإنكليزية بينما تتساقط القنابل على الناس على مسافة بضعة أميال منا. ونستمر، ويتمتم أحد الذين وصلوا في الأخير: «أنا لا أصدّق هذا» ولكن ملاحظته هذه تشذّ من عزيمتنا. نتجاهل عدم تصديقه ونخفي مشاعرنا. «لو لم نكن مثابرين على ما

نفعل طوال هذه السنين، لما كان هناك من كلية اليوم،» يقول أحدنا بصوت ضعيف، غير مقنع أحداً بقوله.

صوت الراديو خارج غرفة الاجتماع يجتذب أحد الزملاء الذي يغادر القاعة ليعود بعد بضع دقائق ويقول لنا بهدوء «لننصرف إلى منازلنا. لقد حدث كذا وكذا في محلة كذا وكذا. أنا متأكّد أن لا أحد سيأتي إلى الدروس بعد الظهر، وأنا ذاهب إلى منزلي.» يجمع أوراقه، ويغادر دون أن يضيف شيئاً. ونعترف كلنا محاولين الحفاظ على بعض الهيبة أثناء ذلك ولكن شاعرين بالارتباك والزيف والسخط والإكراه. إننا لا نمثّل أي دور في تمثيلتنا الخاصة بنا؛ إننا نتبارى ضد خصم غير منظور يسنّ القوانين ويغيّرها بحسب مزاجه، وبالتالي ليس بالإمكان قهره. ولم نجرّب ألا نلعب على الإطلاق أو أن نرفض اللعب.

وبعد أن توقّفت حتماً لدى محلّ البقالة، حيث أتبادل تعليقات ساخرة متشائمة مع أمينة الصندوق، أعود إلى البيت بعد أن أجمع أولادي من جارتي الطويلة البال. لا أذكر أنني فتحت الراديو، ولكنه كان مفتوحاً كأنّ له إرادة مستقلة، يروي لي، بأشكال مختلفة، آخر التطورات في هذه الأزمة. أخيراً، لكي أتوصّل إلى تفهم أكمل للأمور، وبنوع من السعي اليائس لاستجلاء حقيقة ما يجري من بين الأخبار والروايات المتناقضة التي تبثّها الإذاعات المحازبة، أفتح محطة الإذاعة الرسمية مرة أخرى. أقول «مرة أخرى» لأنني حاولت قبل ذلك عشرات المرّات، وفي كل مرّة كنت

أتخلّى عن ذلك بنفاد صبر. ولم يكن اليوم أفضل من غيره.

محطة الإذاعة الرسمية دأبها تلطيف الأمور والتقليل من حدّة الحدث، وغالباً على طريقة تجهيل الفاعل. وبخلاف سائر المحطّات تحاول المحافظة على الحياد فلا تنجح إلا في زرع الفوضى والبلبلة. «تُسمع أصوات المدافع،» بدلاً من الجهة الفلانية تشتبك مع الجهة تلك. وفي كل مرّة تتكلّم، مضيفةً تراكب كلمات تعبّر عن واقع عجزها وإحباطها. فالدولة عاجزة مثلها مثل الفرد وهي تقوم بالحركات التافهة الروتينية ذاتها التي يتطلّبها وجودها. وأذكر في الأيام الأولى للحرب عندما كانت محطة الإذاعة الرسمية، مثل الدولة التي تنطق باسمها، تحاول أن توحي بأن كل شيء تحت السيطرة وتتجاهل ما لا تستطيع السيطرة عليه. كانت ليلة مخيفة. وكنا، كعادتنا، متحلّقين حول الراديو. محطات العالم كانت تذيع أخبارنا المرّة الواحدة بعد الأخرى. محطة الإذاعة البريطانية، صوت أميركا، موسكو، مونتي كارلو ـ العالم بأجمعه كان يبدأ أخباره بأحداث بيروت والمعارك الطاحنة الدائرة فيها. وعندما استدرنا إلى إذاعة بيروت، طالعتنا «الكومبرسيتا» تلاعب بألحانها الحالمة آذاننا المُنكرة. في خضم قلقنا رقصنا رقصة تانغو مرتجلة احتفالاً بجنوننا وبجنون عالمنا.

بعد ذلك بسنوات، طبعاً لم يعد ذلك مضحكاً، وأطفئ الراديو وقد ملّته نفسي وحيث أنني الآن منهكة القوى، متشنّجة وغير قابلة لأي نوع من النشاط المجدي، أبدأ بتنظيف بيتي بنشاط محموم. الشغل المضني الذي لا يتطلّب جهداً عقلياً هو أفضل علاج الآن.

لعدم تمكّني من تنظيم حياتي بشكل هادف، أعمل يائسة على فرض ترتيب لمحيطي المباشر. إنه الجزء الوحيد من عالمي الذي يمكنني التحكم فيه. وعليه أمتشق مكنستي وخِرَق مسح الغبار ولا أتوقف في جهدي الأحمق إلا عندما أشعر بالانهيار. أشعلت لفافة ورحت أتفحص بلا مبالاة ولكن بدقّة الخط الجميل الذي يزيّن صينية من النحاس حديثة الصقل. مصقولة أم لا، فالخط غير مقروء، أطرافه ملتفة بعضها فوق بعض ومتّصلة بلا معنى. إنه سرّ بالنسبة إليّ أين تبدأ الكلمة وأين تنتهي، فما بالك بالجملة. الكلمة الوحيدة التي تمكّنت من قراءتها هي «الله،» هنا وهناك، وذلك في فترات صفاء ذهني أكثر من الآن، وبالإمكان، استجلاؤها بسبب انفصالها عن الكتلة المتشابكة من الخطوط.

اتفاقات وقف إطلاق النار تأتي وتُنقض، والمعارك تستمر. لا شيء يُنجز. فالغايات غامضة على كل حال، لا أحد يدري ما الذي يُنوى إنجازه. وتيرة الحياة واضحة، زيارات إلى الملجأ تناوب على الحياة اليومية. في كل صباح، يأخذ مطلقو المدافع فترة استراحة، وعلى مدى بضع ساعات يهرع الناس لشراء مؤونتهم، أو تفقّد أصدقائهم أو التوجّه إلى العمل. وبين المعارك الضارية قد يخيّم الهدوء التام لبضعة أيام.

وخلال ذلك الهدوء تستمر الحياة، بلا معنى بالظاهر، ولكن في الواقع مثقلة بالمعاني في خضم العنف المحيط بنا. اعتناق الحياة بدلاً من الموت، والبهجة والتضامن بدلاً من الانقسام والكراهية، و«الاستمرار» صار يعني لا التمسك الأعمى الغبيّ

بماضٍ فات واندثر بل بياناً واضحاً عن مستقبل منظور لا مكان فيه لعداوات الحرب. إنه فعل رزين من المقاومة، وهو له خطره أيضاً. هذا ما لسنا نفهمه نحن أحياناً.

ذات أمسية رنّ الهاتف. «ألستم قادمين؟ إننا بانتظاركم. هل نسيتم أنكم مدعوون إلى العشاء؟» «أنتم تمزحون. قبل كل شيء، نسيت كل ما يتعلّق بهذا الموضوع. ولو أنني تذكرت لحسبت أنكم قد ألغيتم الدعوة.»

«لماذا نُلغيها؟» «الجميع هنا. تعالوا، هيّا، نحن بانتظاركم.»

و«لكن». . . «هيّا، تعالوا. ما في شي الليلة!»

أتشاور على عجل مع زوجي: في البدء نتفق على عدم الذهاب. من الجنون أن نخرج، وعلى كل حال من منا يشعر بأية رغبة في حضور حفلة عشاء في وقت كهذا؟ وبعد دقائق يهزّ كلانا كتفيه للآخر. لمَ لا؟ من واجبنا أن نعيش، وأن نغنم هنيهات الاستمتاع عندما تسنح.

الحفلة مرحة صاخبة، بعد توتّر الأيام القليلة الماضية غلب علينا شعور بالاستسلام للمرح. وارتحت لغياب الجدل السياسي عن الأسباب والنتائج وتوزيع اللوم: لا أثر لذلك التبادل الحميم للقيل والقال ذي الشأن الخطير وللروايات؛ لا تشخيص ولا نزاعات بين محازبين لسياسات مختلفة. سئمت كل هذه الأحاديث. كل شيء حولنا يتغيّر ما عدا هذه الأحاديث التي لا تنتهي، وتستمر بين مجموعات من الرؤوس المحنية والوجوه الكئيبة. مرة واحدة جيء على ذكر الحرب. أحد أساتذة العلوم السياسية الذي تؤخذ آراؤه

على محمل الجدّ قال: «لقد انتهى كل شيء. وقف النار هذا سوف يدوم.» ويأتي الجواب نوراً بدوي المدافع الرشاشة وقذائف الهاون وكلامه لم يزل يرنّ في أسماعنا. فيرفع كأسه بتحية ساخرة: «لتحيَ الحرب» يقول، مشاركاً الجميع بالضحك، ومعترفاً معنا بعدم جدوى محاولة فهم ما يجري.

وبتقدم السهرة تتعاظم المعركة في الخارج. فنتعشّى ونحن نحاول أن نحوّل انتباهنا عن الضجيج. وفي إحدى الفترات يتوقف أحد المدعوين وينظر حواليه إلى ما يبدو كأنه غافل عن الحوادث، ثم يقول لي: «من الضروري أن يسجّل أحد هذا الجنون. يجب أن يُكتب كل هذا.»

أخيراً لم يعد بالإمكان تجاهل الوضع إذ بدأت القذائف تتساقط بالقرب منا. فودّعنا بسرعة وتوجّهنا إلى منزلنا عبر الشوارع المقفرة. وعندما وصلنا كانت المعركة في ذروتها، وبالكاد أتيح لنا الوقت بأن نجمع الأولاد ونهرع إلى الملجأ. ولوقت قصير ظل دفء السهرة معنا يقوّينا، ولكن ما لبث هذا أيضاً أن خبا بعدما تفاقمت خطورة الوضع.

الراديو مفتوح على الدوام، طبعاً، ويتنقّل من محطة إلى أخرى ويقدّم آخر التقارير. لائحة المصابين تكبر، وتوسّعت المعارك. الجنوب يشتعل وكذلك الشمال والجبال والمدينة، ويذهلنا الاستماع إلى أسماء القرى والمدن التي تتعرّض للهجمات. لقد تعلّمنا الجغرافيا المحلية من روايات الأخبار هذه. البلاد تقصف، أفكر بسأم، ولن يبقى شيء. إنني متعبة، متعبة حقاً. وفي إحدى

الفترات كان يخيّل لي بأن الأرض تحت أقدامنا تتلوّى ألماً من القصف الدائم الذي تتعرض له، وأنها سوف تنتفض وتنهض من سخطها وتنفضنا عنها كشيء بغيض لا يمكن تحمّله. واليوم يبدو لي كأن الأرض ذاتها قد توقفت حتى عن الرغبة في الاحتجاج على الأذى الذي نلحقه بها وتتحمل معاناتها بصمت، منطرحة باستسلام مثل بهيمة بلهاء، مثلي، ومثلنا جميعاً.

يتركز القصف علينا الآن، كما سيظل على مدى الإحدى عشرة ساعة المقبلة. لا يوجد بالقرب منا هدف عسكري على ما نعلم، منطقتنا منطقة سكنية صرف، وهذا القصف ليس أوّل اعتداء وحشي في هذه الحرب الوحشية. نجلس جميعاً، الجيران والعائلات رابضين معاً الليل بطوله، يتحول الرعب والخوف إلى إنكار وسخط. ما الذي يحدث؟ من الذي يقصفنا؟ ولماذا؟ وإذ نستعد لما يبدو لنا بأنه الموت المحتوم ـ لأنه في إحدى الفترات لم يبقَ هناك أدنى شك لدي بأننا سوف نُدفن تحت بنايتنا المتداعية ـ أحسّ بذلك السخط والحنق أكثر من أي وقت مضى. إذا كنت سأُقتل وزوجي وأولادي معي، أريد أن أعرف من هو الذي يقتلني ولماذا.

والغريب أنني لا أخاف الموت. خفت منه كثيراً وفي مرات كثيرة إلى درجة أنني لم أعد آخذه بجديّة كما كنت في السابق. قربه الذي جعل طيفه مألوفاً نزع عنه تلك الهالة من الرهبة والمهابة، ولم أعد أشعر بالرغبة في تعفير وجهي بالتراب تحت قدميه. منذ سنوات عديدة، عندما كان ابني البكر في الثالثة أو الرابعة، ارتدى

مرّة بزّة مرعبة في عيد البربارة. عندما لمح وجهه في المرآة تهاوى وهو يصرخ من الرعب. ولكي أطمئنه وأطيب خاطره حملته وهو متشبث بي إلى المرآة وبيّنت له - عن طريق نزع القناع عن وجهه ثم إعادته إلى مكانه مرّة بعد الأخرى - إنها ليست إلا صورة من الورق المقوّى وهي التي أرعبته. وبالتدريج همدت تشنّجاته إذ تعوّد مظهره. وفي النهاية استجمع شجاعته وراح يحاول أن يسخر من القناع فيجري نحو المرآة كأنه يحاول مفاجأة القناع ثم ينكفئ هارباً عندما يقترب منه. وانقلبت صيحات الرعب إلى ضحكات ساخرة تعبّر ليس عن لهو بقدر ما تعبّر عن الحاجة إلى امتحان تلك الصورة وكشفها بينما ظلت بالنسبة إليه تحمل نوعاً من التحدّي الغريب.

هذا إلى حدّ ما يشابه ما أشعر الآن به عن الموت، أي موتي أنا. إلا أنني لا أنظر إليه بالمنظار ذاته عندما أفكر بإمكانية موت أحد أفراد عائلتي. لن يكون باستطاعتي أن أتحمل خسارة مفجعة كهذه على ما أعتقد.

وأتأمّل للمرّة الألف منذ بدء هذه الحرب اللعينة، في اغتباط صانعي السلاح والمتاجرين به والذخيرة. كل دويّ وأزيز وانفجار يتحول في مخيّلتي إلى ماكينة نقود، إلى رنين كؤوس الشمبانيا أو همهمة حديث في أحد المطاعم الفخمة في مكان ما. تلألؤ الشظايا والدخان المتصاعد سحاباً من منزل مهدّم وهدير المدافع الضخمة، جميعها تخلف أصداء في مخيلتي شبيهة ببريق المجوهرات ودخان السيجار المتصاعد بارتخاء من شفاه تستمتع به أو من وقع الطبول الراقصة المجنونة المتمايلة الأرداف. وعويل طفل مرعوب يحترق

يصبح قهقهات لدى هؤلاء الذين يجنون أرباح هذا الإعصار.

والقادة الزعماء أيضاً، فإن سخطي ومرارتي تشملهم أيضاً، من قوّاد أصغر التنظيمات المحلّية إلى قادة القوى العظمى، الإقليمية والعالمية، بمناوراتهم المشؤومة الساخرة الكلبية وخدعهم المتسلّطة وألاعيهم القتّالة وخطبهم ومؤتمراتهم الصحفية وسياراتهم المصفحة ضد الرصاص ذات العلم الصغير السخيف المتراقص في الهواء. إنها خليقتهم، هذه الحرب، وهذا الجحيم الضخم هو إنجازهم وصنيعتهم.

قذيفة متفجرة تتلو قذيفة متفجّرة. باستطاعتنا أن نسمع تحطم الزجاج وسقوطه وتناثر الإسمنت المسلّح ورنين الشظايا. الوهج الأحمر من السيارات التي تحترق في الشارع خارج بنايتنا يلقي بظلاله المرعبة علينا، مع النور المتراقص من مصباح غاز تركه أحدهم يُهسهس في إحدى الزوايا، ونوره يخبو ثم يشعّ.

خشيتنا من الكاراج تحت الأرض التي رافقتنا منذ بداية الحرب برّرت الآن. فقد أصابت إحدى القنابل السطح وسقط قسم من السقف، وسقط الحطام على إحدى السيارات. على مدى بضع ثوانٍ نحدّق بها ثم نسترخي بشيء من الارتياح. من حسن الحظ أنها انفجرت عندما لامست السطح، ولو لم يحصل ذلك لكنا الآن - ماذا؟ محترقين؟ مختنقين؟ هل كان باستطاعة قوة الانفجار أن تهدم البناية على رؤوسنا؟ كنا محظوظين هذه المرّة، وماذا إذا سقطت قذيفة أخرى، هل سننجو مرة أخرى؟ لا أحد منّا يجرؤ

على فعل أي شيء، من المستحيل على أي منا أن يفكّر حتى في محاولة إخراج السيارات. القذائف تتساقط كل بضع دقائق، ونحن عاجزون تماماً.

هناك فورة من الإثارة. «ليلى قد أصيبت،» يقول أحدهم. كانت جالسة في مكان نعرف الآن أنه معرّض، مع كونه نفعنا في العديد من المعارك الماضية. وهي تجلس الآن في مكان آخر، تغطّيها الدماء النازفة من جرح في رأسها. ومع وجود طبيبين معنا إلا أنهما عاجزان تماماً. فليس لديهما أية وسائل تطهير ولا ضمادات. كل ملابسنا أصبحت الآن متّسخة مسخّمة. ليلى تجلس في مكانها بكل بساطة تضع لفائف من الورق الشفّاف على الجرح وتستبدلها كلّما تشبّعت بالدم من خلال أصابعها، ولم تتمكن من الذهاب إلى المستشفى حتى اليوم التالي حيث طهّروا الجرح وقطبوه. إنها محظوظة فالليلة بالذات هناك رجل في الحي جُرح بفعل الزجاج المتطاير وسوف ينزف دمه ويموت في مكانه بينما يلتف حوله أهل بيته وأصدقاؤه وهم يشاهدونه عاجزين مرتاعين.

تمر الساعات، مع انبلاج الصبح، وبالتدريج يسود السكون. أوّل ما يتوجّب عمله الآن هو تقدير مدى الضرر. الرجال يصعدون الواحد بعد الآخر حاملين مضخّات إطفاء الحرائق لتفحص الشقق، كل عائلة تصلّي بأن تكون شقتها لم تُصب. وعندما يعود الرجال والارتياح بادٍ على وجوههم، نعرف أنه، بأعجوبة، وبالرغم من أن بنايتنا أصيبت بخمس أو ست قذائف مباشرة، جاءت كل الإصابات على بيت الدرج أو على الشرفات. ولكن الشظايا فعلت فعلها.

فليس هناك من لوح زجاج سلم من التكسير. كل شقة عبارة عن ركام من الألمنيوم الملتوي والزجاج المنثور، وغمائم الغبار الأبيض والسخام تغطّي كل شيء. يوجد ثغرات في الجدران والسقوف حيث وقعت الشظايا؛ الستائر الممزّقة المتطايرة في الهواء، ومصاريع النوافذ المحطمة والحروق في السجّاد تكوّن رسوماً بشعة من الظلال الخفيفة والدكناء، ولكن ذلك كان أسوأ ما حدث. إزالة الركام والتنظيف سوف يستغرقان أياماً، ولكننا كنا ممتنّين.

بعد ذلك نجازف بتفحّص الجيرة وتفقّد أصدقائنا وأقربائنا. المناظر تخطف أنفاسنا. إحدى عشرة ساعة من القصف المباشر على حيّنا تركت بصمتها. الشارع مليء بالسيارات المحترقة، كلها من اللون ذاته الخردلي الأصفر، بعضها ما زال الدخان يتصاعد منه، وإحداها تحترق بالفعل. بعضها منقلب على ظهره وأخرى على زوايا مجنونة الواحدة بالنسبة للأخرى، ونتذكر أصواتها عندما كانت تنفجر الواحدة بعد الأخرى، والدهشة التي كان الصوت يولّدها فينا عندما كنا قابعين تلك الليلة، ليس كدويّ ضخم، كما قد يخطر لك، بل نفخات لطيفة تكاد تكون شعرية، غنائية. الدكاكين بالقرب منا ـ أو بالحري ما تبقى منها، وهو ليس كثيراً ـ ما زالت تشتعل. الأشجار التي كانت تزيّن شارعنا شلّعها القصف وترك أغصانها متناثرة في كل مكان مع حطام الزجاج والحجر والسيارات المحروقة، تضفي منظراً عاصفاً على الدمار، خطوط الكهرباء ومصابيح الشارع تتدلّى بأشكال وأقواس غير منتظمة شبيهة

بفَرْضٍ هندسيّ من عمل تلميذ كسول. كل بناية حولنا مصابة بثغرات ومهشّمة، مصاريع نوافذها منحرفة وزجاجها مثلّم يتدلّى من إطارات الألمنيوم الملتوية، وفجوات كبيرة وصغيرة في كل مكان. الجوّ مثقل بالدخان وروائح البنزين والنار. الشوارع مغطّاة بنوع من النزّ الذي يشبه مزيجاً من الثلج الموحل الذائب. ولكن هذا ليس ثلجاً وأتساءل وأنا أدوسه شبه مسحورة أي نوع من النزّ هو. فكأن الشوارع تنزف دماً.

ويخيّم على الحطام صمت مخيف ونتبادل الكلمات همساً وكأننا في حضرة الموت. فكأننا نحن الآدميين الذين نخطر بتؤدة على الشوارع المحطّمة إنما نتطفل على حداد تلك الأشياء الجامدة، المكسّرة؛ وكأننا قد تعثّرنا واقتحمنا عزلة تشوّشها المحزنة.

❖ ❖ ❖

تمرّ الأيام، أعيد تركيب ألواح الزجاج في نوافذي، ولكنّها ما زالت غير نظيفة وعليها إشارات الشركة التي صنعتها وقد طمست بصمات أصابع عمّالها. ومن خلال النوافذ المتّسخة والستائر الممزّقة أتطلّع إلى البحر الهادئ. في الخارج، الآن، حلّ صوت البناء محلّ هدير المدافع: الطرْق والكشط والحفر والتكنيس وصبّ الإسمنت. وجُرفت الركام في كوَم منتظمة هنا وهناك، وكل يوم تنقل بعض تلك الكُوَم في شاحنات عتيقة معطوبة. السيارات المحترقة اختفت، والأبنية قيد الترقيع والترميم.

ولكن ليس من السهولة ذاتها إصلاح البشر. بعضهم لا يزال

ينام مرتدياً ثيابه، وبعضهم يرفض مغادرة منزله، قابع ينتظر. بعضهم يهب واقفاً وهو يرتعش، عند أقل صوت. في النهاية سوف يستمرون في حياتهم، إلا أن العديد منهم سيغادر البلاد. في الوقت الحاضر يوجد جماعات من الناس يحزمون حقائبهم وأمتعتهم، كما يحدث دائماً بعد كل جولة من جولات القتال.

وعلى بعد ألف ميل يُعقد مؤتمر للسلام. لا ندري ما ستكون النتيجة ولكننا نأمل خيراً، مع كوننا نحضّر للأسوأ. أستعد للذهاب إلى عملي. الصفوف ستعود اليوم بعد أسابيع من الانقطاع، والأولاد قد عادوا إلى مدارسهم. لم يتغيّر شيء.

قاموس الكلمات المستعملة في أوقات الأزمة

وباتّساع الحرب وتقدّمها، ظهرت لغة جديدة اقتبسها أهالي بيروت لاستخدامها في الأوقات العصيبة. أكثر الكلمات عادية تماماً، مصطلحات عامية أو تتعلّق بأمكنة اكتسبت معنى خاصاً بمثابة معالم في معارك عديدة، إلا أن ملامح فروقات دقيقة حوّرت معانيها كذلك. مع لمسة من السخرية هنا أو استخدام مجازي هناك، أو حتى في معناها الحرفي ولكن المشحون بأحاسيس عميقة، تبلورت هذه الكلمات لتمثّل مجموعة من التجارب والذكريات والآمال للمستقبل.

ومفردات اللغة، مثل كل كائن عضوي، في حالة دائمة من النموّ والتحوّر. الكلمات والمعاني تتحوّل إلى ما لا نهاية له.

واللائحة أدناه لا يمكنها إلا أن تُلمح إلى هذه الناحية الغريبة من الحرب وتوفّر دليلاً مقتضباً جدّاً للذين يريدون أن يفهموا.

علقانه
علقت

هذان التعبيران المشحونان بالمعنى يشيران إلى معركة بين فريقين أو أكثر (إما فردين أو، ربما الأرجح، فريقي ميليشيا، أو جيشين، أو جزءين من جيش واحد، أو أي فريقين يخطر للقارئ أن يتخيل). وبالإمكان استخدامها أيضاً للتهكم، مثلاً يقال «عِلْقِتْ» بين ولدين أو بين رجل وامرأته. في بيروت، ليس من السهل التميز بين المعنى الحرفي وبين السخرية، فالميزة الأولى للسخرية، ألا وهي الأمور البعيدة الاحتمال، هي إحدى ميزات الحقيقة في بيروت!

شو في؟
في شي؟
في شي.
ما في شي.

هذه التعابير التي لا تشير في الظاهر إلى أي أذى أو ضرر هي في الواقع جزء من دستور وقاية للحياة طوّره اللبنانيون في مواجهة العنف المفاجئ. قد تكون في سيارتك في خضم حركة مرور المدينة، أو على طريق جبلية ذات مناظر طبيعية خلابة، وتصل إلى زحمة سير أو إلى طريق خالية تماماً من أية حركة مرور. أي من

هاتين الحالتين قد تعني مشكلة: «شو في؟» «في شي؟» تسأل أحد المارّة أو أحد سائقي السيارات. «ما في شي،» «إنها زحمة سير أو عبارة عن طريق خالية،» يجيبك. أو ربما «في شي» - لقد سُمع صيحات أو طلقات نار، أو، على كل حال، شيء مشؤوم أو غير طبيعي - إنه ليس متأكداً ما هو. وقد تجيء هنا كلمة «علقانة» الحاسمة، ويليها السؤال المؤاتي: «بين مين ومين؟» وهذا قد يؤدي إلى معرفة معطيات الوضع والأطراف المتورطة. ومن جهة أخرى فقد تكون غير فاهم شيئاً، وتعود إلى منزلك نافضاً غبار الموت عن رأسك دون أن تعرف كيف ولماذا.

كذلك يمكن استعمال «ما في شي» بتهكم، مثلاً عندما تكون أبواب الجحيم فاغرة فاها وتقول أنت بابتسامة مريرة: «ما في شي.»

توتّر

تعبير لطيف عن عنف ابتدائي.

جِنِت

والصفة هنا ليست متصلة بالطقس بل بالمناخ السياسي.

خِرْبِتْ الدنيا
قامِتْ القيامه

هذه ملاحظات مغرقة في الغلوّ والمبالغة للدلالة على حدة القتال. في بلد صار العنف فيه أسلوباً للحياة، غالباً ما يجد

الناس مشقّة في انتقاء الكلمة لوصف أحداث أكثر هولاً. ففي إحدى الفترات تنافس محرّرو الصحف في استنباط عناوين من اللغة يمكن أن تعبّر تعبيراً لائقاً عن كل وضع. في نظري كان الفوز لجريدة L'Orient Le Jour «لوريان لوجور» الناطقة باللغة الفرنسية التي وصلت إلى مستويات فراوحت بين «flambée» إلى «Paroxysme de violence»، وانتهت إلى صيغة التفضيل «Journée d'Enfer»، وبعده توّجتها بـ«Cataclysme»، أي الكارثة العظمى.

خلّينا نروح نتضبّ

كلمة «الضبّ» تستعمل عادة لتوضيب بعض الأغراض أو الأشياء كالشراشف والمناشف أو غيرها من القِطَع أو الثياب في درج أو في خزانة. والجملة أعلاه يستعملها جميع الفئات من غير المحاربين للدلالة على وجود خطر أو أخطار في الشارع ومن الأفضل أن يمكث المرء آمناً في منزله.

قَعَدْنا بالممشى
نزلنا عالملجأ
ما تحرّكْنا

هذه الجمل بارومتر ـ أو مقياس ضغط ـ جيد لخطورة المعركة التي عاناها المتكلّم. المماشي تؤمن الحماية الكافية ضد معارك المدافع الرشّاشة، والملجأ تحت البناية هو المكان الذي يوفّر أقصى

الحماية للسكان في الحالات القصوى. وفي بعض الأحيان يقبع الناس في مكانهم لا يتحرّكون منه إذا اعتقدوا أن المعركة في الخارج غير جدّية أو غير قريبة، ولكن قد يظلّون في أماكنهم أحياناً كإشارة تحدٍّ محفوفة بالمخاطر أو كاحتجاج تهوّري ضد القذائف. وعدم التحرك يمكن أيضاً أن يشير إلى الجَبْرية، أي الإيمان بالقضاء والقدر أو إلى الإيمان بمبادئ «اليانصيب الوطني.» (انظر أدناه).

حرام، بيخاف/بتخاف كتير

إحدى نتائج الوضع الذي تكون فيه الأحداث المريعة ظاهرة يومية ـ وحيث ليس باليد حيلة لدرئها ولا مفرّ من تحمّلها ـ هو شطب الشجاعة والجبن من السلوك الشخصي.

اليانصيب الوطني

في الواقع ما زال هناك، حتى اليوم، يانصيب وطني قد تربح فيه ملايين الليرات. وعندما نستعمل هذا التعبير مجازياً فإنه يشير إلى المجازفة والأخطار التي تحيق بالفرد عندما يستمر في عمله، لأن الحياة اليومية في بيروت هي رهان آخر.

ماشي الحال

هذا التعبير الحزين يُستعمل عادة عندما يكون العكس هو المقصود ويدل على أنه، بالرغم من كل شيء، «بعدنا طيبين» على الأقل. وغالباً ما يُستعمل من قِبل شخص أصيب بيته بقذيفة، أو نُسف محلّه، أو سُرقت سيارته، أو أنه أصيب بنكبة مادّية مماثلة.

صحّتك بالدنيا

تُقال كلمات التعْزية هذه في غالبية الأحيان لشخص تعرّض لسرقة، أو أصيب منزله بقذيفة، أو نُسف مخزنه أو محلّه التجاري، أو سرقت سيارته أو تعرّض لخسارة مادية مماثلة.

لأ! هيدا باب

تُستعمل هذه الجملة عند سماع دوي قويّ ويهبّ الجميع هلعاً، فيقول أحدهم ـ «لأ، هيدا باب» بالمقارنة مع صوت انفجار. وقد تُستخدم الكلمات بتهكّم على الأخص عندما يكون من الواضح أن الصوت صوت انفجار، ونظلّ نقول إنه «باب.»

ابتهاج

هذا التعبير المطمئن يشير إلى أن وابلاً كثيفاً من الرصاص أو القذائف ليس معركة، بل احتفاء بمناسبة ما. المناسبة هذه قد تكون عيداً أو مهرجاناً، على وجه المثال عيد الميلاد أو الفصح أو المولد النبوي أو الأضحى، أو قد تكون عرساً (أو مأتماً)، أو عودة أحد الحجاج من مكة المكرّمة أو بانتصار (أو هزيمة) دولة صديقة (أو عدوّة) مثل انتصار آية الله الخميني أو اغتيال أنور السادات. «ابتهاج» أيضاً قد يُستخدم للتهكم.

عم يِتْسَلّو

هذه العبارة الساخرة غالباً ما تُستخدم عندما تُسمع أصوات

اشتباكات ومدافع بينما ليس هناك من أزمة.

طيّارات

تشير هذه الكلمة دوماً إلى تحليق طائرات إسرائيلية فوق المدينة، وهو حدث عادي يُعلنه انفجاران قتاليان يسبّبهما تخطي الطائرات جدار الصوت، ويتلوهما دويّ المدافع المضادة تصحبها رشقات المدافع الرشاشة المستخدمة ضد الطائرات.

الأسواق

كثيراً ما تستعمل هذه الكلمة للتطمين. فقد يرعبك صوت الانفجارات والصواريخ والمدافع الرشاشة، ولكن أحدهم قد يقول: «لا تقلقوا! إنها الأسواق!،» بمعنى أنها في قلب المدينة المهجورة، المدمّرة، والتي تستخدم الآن كميدان مباريات لأطياف مدافع وأشباح مدفعيّين.

المحاور التقليدية

التقليد هنا لا يشير إلى التراكم التاريخي للمدنية، بل لتقاليد السنوات القليلة الأخيرة للحرب. والجبهات التقليدية هي تلك المناطق من المدينة التي اكتسبت السمعة المحترمة كمناطق قتالية بالمقابل مع المناطق مستحدثة النعمة التي تثبت على نحو غير متوقّع في أي مكان.

خطوط التماسّ

يشير هذا التعبير دائماً إلى النقاط الفاصلة بين قطاعي المدينة، مع أنه يُستخدم أحياناً بسخرية للإشارة إلى انقسامات داخل أيّ من القطاعين. وقد أطلق عليه في الصحف والمجلات الإنكليزية تسمية «الخط الأخضر،» وهذا مثير للدهشة، لأنه ليس هناك من شيء «أخضر» في تلك الخطوط. أحمر، ربما، من الدم، أو أسود، بفعل الوحشية والألم ـ ولكن أبداً ليس أخضر.

المتحف

لم يكن المتحف الوطني في زمانه مركزاً ثقافياً عظيماً. كان يضمّ مجموعة متواضعة ولكن جذّابة من الأثريات الملتقطة من تاريخ البلاد الطويل. إلا أن الإشارة اليوم لم يعد لها أدنى صلة بالثقافة ـ ما عدا ثقافة الحرب ـ فالمتحف يقع على تقاطع الطرق عند خط التماس ويشرف، بمنظره المشوّه بفجوات الرصاص والقذائف، على المعارك التي لا نهاية لها وعلى الصف اللانهائي من الناس الذين يعبرون الخط.

ولكن التعبير «أخذنا طريق المتحف» له الآن على ما أعتقد معنى آخر، مستتر. التاريخ، القديم الأشيب الذي يقطن في المتحف، يراقب الجنون البشري بصمت. ربما هو على الأقل يفهم سرّ تصرّفنا ولسوف ينقل السرّ إلى الأجيال القادمة مثلما تولّى نقل أسرار هذه الكنوز المخبأة في طيات تاريخنا الطويل.

غاليري سمعان

(إحدى نقاط العبور الأخرى، وبالتالي، نقطة تقاطع).

في الواقع الاسم هذا لمتجر أثاث ومفروشات أعطى اسمه لتلك المنطقة وناله من الدعاية المجانية ما لم يعرفه متجر قبله في التاريخ. لا ريب بأن أصحاب المتجر كانوا يفضلون بأن تكون تلك الدعاية أقلّ لأن تلك النقطة تعدّ بين الأسوأ في بيروت ولم يبقَ من المتجر إلا الاسم.

كون الشهرة الدائمة حلّت على هذه المؤسّسة التجارية فذلك يليق بهذه المدينة المحاربة العريقة في التجارة.

مار مخايل

الكنيسة التي تحمل اسم القديس مخائيل ـ أو ما تبقّى منها من ركام ـ تقع خلف غاليري سمعان وقد ظلّت على مدى سنوات أحد أكثر ميادين المعارك مرارة في لبنان. وعلى المستوى ذاته كالمتحف فإنها جديرة بحمل لقب الفوز بين المحاور التقليدية (انظر أعلاه).

وقد سمعت عن اعتقاد قديم بأن بين مهام رئيس الملائكة ميخائيل كان استقبال أرواح الموتى. فكم هو لائق هذا الموضع لإقامة كنيسة مكرّسة لاسمه!

كذلك ورد في سفر الرؤيا عن إشراف ميخائيل على الحرب في السماء:

> وحدثت حرب في السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التنّين وحارب التنين وملائكته ولم يقووا فلم يوجد مكانهم

بعد ذلك في السماء. فطرح التنّين العظيم الحية القديمة المدعوة إبليس والشيطان الذي يُضلّ العالم كله إلى الارض وطُرحت معه ملائكته. سفر الرؤيا: الاصحاح ١٢ ـ (٧-٩).

ولا حاجة للتفتيش بعيداً عن الكنيسة لنجد أين يتجوّل الشيطان. فإذا كان هناك بقعة على وجه الأرض ارتُكبت فيها أسوأ الأعمال، فهي ذلك المكان. فالفئات المتحاربة تتصور في المعارك بينها مواجهة رؤيوية، كل فئة منها معتبرة أن الفئة المعتدية هي الشرّ المجسّد، بينما تعتبر ذاتها عنوان الخير والصلاح ـ كل فريق يسعى إلى نفي الفريق الآخر إلى الأبد.

مسلّحون

يُستخدم هذا التعبير لأفراد ميليشيا أو جيش يقومون بمهمة رسمية، على وجه المثال، عندما يقومون بسلب مكان، أو عندما يتعرّض أحد لمجابهة معهم (مثلاً في زحمة سير) وليس بإمكانه تحديد الطرف الذي ينتمون إليه؛ لأن المسلّحين يتصرفون بالطريقة ذاتها ضد جميع العُزَّل، والعُزَّل ينظرون إليهم كمصدر تهديد لهم.

وقد يُستخدم هذا المصطلح من قبل خصوم سياسيين عندما يتكلّم واحدهم عن أفراد ميليشيا الآخرين. فإذا كان جنود الفريق (ألِف) يُعتبرون في نظر الفريق (باء) كمسلحين، فإنهم في نظر (ألف) «أبطال،» أو «مُناضِلون،» والعكس بالعكس.

كما أن بالإمكان استخدام هذا التعبير المطاط عندما لا يريد

الشخص أن يشير بإصبع الاتهام إلى حيث يعرف الجميع بأنه يجب أن يُشار، ويظل على الحياد عندما يشهد على اغتيال أو اختطاف أو أي عدوان آخر.

قناص

تُردَّد هذه القصة في بيروت عن قنّاص عريق لمّا أراد أن يطوّع أحد معارفه ويرغّبه في هذا العمل واصفاً له ما يتوجّب عليه القيام به: «يُدفع لك أجرك تبعاً لعدد الرؤوس. لكل فرد تقتله تنال مبلغ كذا.» تساءل المجنّد العتيد «لكن كيف تبرهن أنك قتلت هذا العدد من الناس؟» أجابه الآخر ساخطاً: «ولو! إنهم يثقون بكلمتك. ألمْ يبقَ هناك شرف في العالم؟»

استنفار

مثلما تنتصب أشواك القنفذ أو الشيهم عندما يستعدّ ليدرأ عنه الخطر كذلك ينتشر المسلّحون في شوارع بيروت عندما يحصل الاستنفار. فيقف الرجال في بزاتهم في زوايا الشوارع أو وراء المتاريس وسلاحهم مصوّب. والاستنفار يكون على العموم تلقائياً، غالباً ما يجيء من الأفراد أنفسهم وليس من أوامر يتلقّونها، وكثيراً ما يكون بسبب تحدّ شخصي أو إهانة أو خلاف تافه. مواجهات كهذه قد تزول تدريجاً أو - ربما أيضاً، قد تنحط وتتحول إلى معركة مفتوحة. والمدنيون العاقلون يعرفون أنه من الحكمة الاستعداد للأسوأ والهرولة إلى البيت بأسرع ما أمكن.

استنفار مضادّ

إذا كانت فئة ما في حالة استنفار فإن الخصوم قد يشعرون بنوع من التهديد، ولئلا يتفوّق عليهم الخصم، يقومون بتجميع صفوفهم وإعداد «استنفار مضادّ» بمثابة الأداة التي يمكنها أن تحدّ من غطرسة الخصم.

خطف

أحد أنواع التسلية المفضّلة لدى المسلّحين هو الخطف. وضحية الخطف قد: (١) يُقتل، (٢) يُطلق سراحه سالماً، أو (٣) مبادلته لقاء مخطوف آخر من الجهة المقابلة. والمخطوف، إذا أطلق سراحه، غالباً ما ينشر رسالة شكر لخاطفيه يمتدح طيبتهم وحسن وفادتهم ومعاملتهم الحسنة، لئلا يكرّروا المحاولة.

عناصر غير منضبطة

كل فريق يدّعي بأنه مبتل بهذه العناصر، أفراد مسلّحين لا يمتثلون على ما يبدو لأي أوامر بوقف إطلاق النار، والذين يُحمّلون مسؤولية السرقات والاغتيالات والتفجيرات وخلافه من أنواع الأذى المتعمّد التي تحدث علانية في حيّهم، والتي يكتفون بالتنصّل منها. وثمة شك لدى السكان المدنيين العزل بأن هؤلاء الأشخاص غير موجودين إطلاقاً، أو على الأقل أنهم غطاء ملائم لنشاطات ضرورية ولكن ليس بالإمكان التغاضي عنها.

ويذكّرنا هذا بالملكة الإنكليزية إليزابيت الأولى، في بلاطها

وبحضور السفير الإسباني، تؤنّب «دْرَيْك» «وفْرو بِشَرْ» علناً بسبب أعمال القرصنة التي يمارسونها في عرض البحار، وبعد ذلك، وفي عزلة غرفتها الخاصة، تثني عليهما.

ألم يكن ملاحو السفن البريطانية القراصنة «العناصر غير المنضبطة» لبريطانيا في عصر الملكة إليزابيت؟

مكتب

لسبب ما، فقد اختارت الميليشيات المحليّة هذا التعبير الاستثنائي للتعريف عن مراكزها داخل المباني، والجميع يستخدمونه دون أدنى تهكّم.

ومن السهل الاستدلال على موقع «المكتب.» فهو يتميّز عادة بعَلَم بالٍ متدلٍّ من إحدى نوافذ الطابق الأعلى، وعليه شارة الميليشيا، النافذة بدورها محصنة بأكياس من الرمل. وعلى الزاوية خارج الباب المطوّق أيضاً بأكياس الرمل تقف سيارة جيب خالية من لوحات التسجيل غير أنها تحمل شارة الميليشيا. وعلى الجدران ألصقت منشورات ممزّقة وأوراق نعي لأفراد من الميليشيا تراكمت بعضها فوق بعض دون ترتيب أو نظام. وعلى الرصيف كرسيّ مملّع يجلس أحياناً فيه، أو يتكئ عليه، أحد الفتيان المكلّف بالحراسة. مظهره لا يدعو إلى الكثير من الاطمئنان وذقنه نابتة، حاملاً سلاحه أو يخبّئه تبعاً للظروف. فعندما تستدعي الظروف إظهار السلاح يرتدي لباساً مرقطاً. ولكن في أيام الهدوء يرتدي سروال «جينس» أزرق وقميص «T» قصير الكمين. ويشاهد فتيان

آخرون يدخلون أو يخرجون من المبنى. وسكان الأحياء يستعيذون بالله عندما يُفتح أحد هذه «المكاتب» في حيّهم، لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى وقوع «أحداث» بين «العناصر غير المنضبطة» (راجع أعلاه) في هذه المجموعة، والأسوأ أن المبنى حيث يقع «المكتب» سيصبح هدفاً محتملاً للقذائف. أمّا في الخارج، فالوضع ذاته يسمى «حاجزاً.» (انظر أدناه):

الحاجز

من هذا الموقع يتفحّص أفراد الميليشيا الهويات، فإذا وافقوا على هوية المارّ، سمحوا له بإكمال طريقه، وإلا...

قصف عشوائي
سيارة مفخخة
عبوة ناسفة

مرادفات لما سبق: قتل وتشويه ودمار. صاحب الأمر: غير معروف. المنفّذ: مجهول أيضاً، المشاهدون: أي شخص شاء حظه أن يكون في المكان الغلط في الوقت الغلط.

آمنة وسالكة

في الأيام الأولى للحرب ذاع صيت أحد مذيعي الأخبار في الراديو، ويحمل الاسم الرائع في معناه ومبناه شريف الأخوي، واكتسب ثقة وامتنان المستمعين غير المحاربين عن طريق تضمين

نشرات الأخبار التي يذيعها بانتظام تقريراً عن أحوال الطرق في بيروت. فإذا قال عن طريق ما إنها سالكة وآمنة اطمأن الناس إليها وجازفوا بسلوكها.

ولم يلاحظ أحد كيف خبا صوته من حياتنا إذ طغت عليه تدريجاً موجة المعارك باتّساعها واحتدامها. وبلغت أسماعنا إشاعات عن تعرّضه لانهيار عصبي ثم سمعنا فيما بعد أنه توفي بنوبة قلبية.

هل سبق أن اقترنت لباقة التعبير مع اسم المتكلّم بأحلى من هذه المصادفة؟

الأخبار

نشرات الأخبار هي الميزان اليومي في لبنان وهي متنوّعة في مصادرها ومصداقيّتها. فأخبار التلفزيون المسائية صارت جزءاً مألوفاً من حياة كل فرد إلى درجة أن انعقدت صلة حميمة بين المذيعين (أو المذيعات) والجمهور. ففي إحدى الليالي التعيسة، على وجه المثال، قد يبدأ المذيع بابتسامة حزينة وهزّة كتفين والقول «ماذا عساي أن أخبركم؟» إلا أنه في الليلة الأكثر هدوءاً قد يبتسم لطمأنتنا ويقول «تبدو الأمور أفضل اليوم.» على كل حال، درجة الخطورة أو الخفّة في وجهه على شاشة التلفزيون هي الإشارة الفورية لما يحدث في لبنان، وأحياناً لا يكون هناك حاجة للاستماع أكثر لمعرفة مدى سوء الوضع.

مصدر موثوق به

نظراً للانقسامات التي تعانيها البلاد ولوجود محطات إذاعة وصحف بعدد الفئات المتحاربة - أضف إلى هذا الخليط وكالات الأخبار الأجنبية المختلفة وإذاعاتها، والصحف والمجلات، فكل حدث سيُعلن عنه ويفسّر حتماً بشتّى الطرق. وعليه فمن الطبيعي أن يفتش الناس عن تأكيد لحقيقة الخبر ودقة التفسير. وليس هناك من يمكن اللجوء إليه إلا «المصدر الموثوق به،» والذي يكون، غالباً، غامضاً في درجة معرفته للأمور وغامضاً في هوّيته. بكلام آخر، هذا المصدر ليس إلا مرادفاً «لإشاعات، كلام مزين بالألسن.» (بحسب وليم شكسبير في مسرحية «هنري الخامس»).

بدها نفس طويل
عملية طويلة
عملية مشربكة

تردّد هذه التعابير عادة بتنهّد وبسمة على أثر جدل طويل يبدأ بمحاولة توضيح الأزمة الأخيرة، ولكنه لا ينجح إلا في إِظهار التعقيد الذي لا يُصدّق للأمور واليأس من الأوضاع.

المؤامرة
المخطّط

هذان هما المجرمان الحقيقيان وراء حربنا التي لا تنتهي. المبتدئ في شؤون السياسة اللبنانية قد يفكّر بأن هناك مؤامرة واحدة

أو مخططاً واحداً ـ ولعله موجود فعلاً، إلا أن هذا التفرد يختلف بين تحليل وآخر. هناك مثلاً المؤامرة الإسرائيلية، والمؤامرة الفلسطينية، والمؤامرة السورية. هناك مؤمرات روسية وأميركية، حتى إنه يوجد مؤامرات يتطابق فيها عدد من هذه المؤامرات، وأخرى تتصادم فيها.

وعلى القارئ ألا يتوقّع من مؤيدي نظريات المؤامرة أن يرتاعوا من انتشار أخبارها. على عكس ذلك، فهناك نوع من الارتياح المنحرف يأتي من الثقة بأن هناك شخصاً على الأقل يعرف ماذا يجري ولماذا.

متفائل
متشائم
بومة

ظل الناس، على مرّ السنين، يسأل واحدهم الآخر: «أأنت متفائل أم متشائم؟» هذا سؤال بالغ الأهمية لأنه على الجواب تتوقف خطط المستقبل؛ الصمود أم المغادرة. «سوف تكون الأمور على ما يرام» يقول المتفائل، ودون توافر أدنى سبب للتفاؤل؛ بينما المتشائم، الغارق أيضاً في جهله، يقول بكآبة: «الحالة سيّئة، وستصير إلى أسوأ.» الكل يأملون الالتقاء بمتفائل عند زاوية الشارع لتبادل الأحاديث العادية، إذ إن هذه التعابير تقال في سياق كهذا ـ لأن كلام التفاؤل يبعث على الرجاء ويقوي المعنويات، حتى ولو كان هذا الكلام قيل في فترة عابرة ولا يعني شيئاً، وأن ما يشير إليه

هو فقط من باب المجاملة التي يطيب سماعها. بعكس ذلك، فالمتشائم يترك محدّثه بنوع من الشعور بالإحباط لأنه يشير إلى ما هو واضح على كل حال.

إلا أنه في مطلق الأحوال من الضروري تحاشي «البومة» الذي يقف في آخر صفوف المتشائمين، على استعداد للسقوط في هاوية القنوط جارّاً معه كل من يستمع إليه.

كثيرة هي السّمعات التي فُقدت (وقليلة اكتُسِبتْ) في هذه المجازفة. الفرد الذي فتح كوّةً لبارقة أمل في مستقبل أكثر سعادة سوف يؤنَّب من قبل الذين استمعوا إليه لدى ضياع الأمل وتبدده. والشخص الذي أبدى توقّعات مظلمة كئيبة ـ وأمثاله كثر، وقد سجّلوا نقاطاً في هذا المضمار أكثر بكثير من الآخرين ـ فقد أثار الاستياء لأنه أصاب. أمّا «البومة،» الموسوم على الدوام بنظرته المتشائمة الكئيبة، فيصبح منبوذاً لأنه يجسّد الوضع نفسه الذي يصفه والذي يفضّل ألا يعترف به.

من الأفضل، إذا كنت مقيماً في لبنان، أن تجيب عن السؤال عما إذا كنت متفائلاً أم متشائماً بهزّة كتفين وابتسامة غامضة وتحاشي الإجابة كليّاً.

وقف إطلاق النار

قد يعني وقفاً لإطلاق النار أو لا.

هدوء نسبي

في هذه «النسبة» الغادرة يكمن الشرك المميت طبعاً. والنسبة

تُقرّر بالأرقام، وهذا ما يتبادر إلى الأذهان. وهكذا، في يوم سيّئ، قد يُقتل أو يجرح ثلاثمائة شخص، وفي يوم يسود فيه هدوء «نسبي» قد يقتل شخص أو شخصان أو ثلاثة. الجملة المطمئنة «هدوء نسبي» لا توفّر إلا القليل من العزاء للضحايا «القلائل نسبياً» وعائلاتهم.

اجتماعات مكثّفة
يتبعها عادة
لمعالجة الوضع

لو قال جنّي ذات يوم لكل السكان في لبنان بأن أعزّ مشتهاهم السرّي يمكن أن يتحقق بنفخة دخان سحرية، أنا على يقين بأن الأكثرية الطاغية تتمنّى بأن تكون روح غير مرئية بإمكانها أن تحضر أحد هذه الاجتماعات التي لا تنتهي وتعرف ما يجري، مما لا يصحّح الوضع فحسب بل يجعله أسوأ باستمرار.

راح يفتح المطار
راح يصلّحو الكهربا
مشي التلكس
التلفون مشي

أخبرني الصديق يوسف ايبش مرة عن لعبة اسمها «السَلَطَة» كان هو وأخوته وأنسباؤه يلعبونها عندما كانوا صغاراً في دمشق. يجلس اللاعبون في حلقة ويقول أولهم: «أريد أن أحضّر «سَلَطَة»

ولكن ليس عندي خس.» ويقول الثاني «أريد أن أحضر سلطة ولكن ليس عندي خس ولا بندورة.» ويقول التالي «أريد أن أحضر سلطة ولكن ليس عندي خس ولا بندورة ولا ثوم،» إلى آخره، كل لاعب معدّداً اللائحة بالترتيب الصحيح ومضيفاً مادة جديدة إليها. هذه اللعبة، قال الصديق، شبيهة بالعيش في بيروت. المطار يُغلق ذات يوم، وفي اليوم التالي يظل المطار مغلقاً، وتنقطع الكهرباء، ثم المطار والكهرباء يظلان منقطعين، ويموت التلفون...

قليلون هم الذين يتبنّون هذه النظرة الساخرة إلى معاناتهم اليومية. التعابير المدرجة أعلاه تُقال عادة بفرح عميق جدّاً وعاطفة جيّاشة ملتهبة إلى حدّ يدهش له من لم يشارك في هذه الاختبارات.

ثلاث ميمات:

المطار

المرفأ

المعابر

ظلت «الميمات» على مدى أشهر عديدة النقاط الشائكة في المفاوضات، وجرى القول بين السكان المحاصرين أنه عندما تفتح الميمات الثلاث فقط سيحلّ السلام. كان ذلك منذ سنوات عديدة، والآن أصبحت الأشياء التي تحتاج إلى إعادة فتح أكثر من ذلك بكثير.

الطائفية

التعايش الطائفي

تمت المشاركة في السلطة السياسية في لبنان على أساس المذاهب، كل من الطوائف السبعة عشر والفئات العرقية ممثّلة بنسبة عددها بين مجموع السكان. وحيث أن النسب الديموغرافية السكانية قد تغيّرت فإن الإلحاح في طلب تغير البنية أصبح أكثر إصراراً. هذا كان أحد عوامل الحرب. الحصة الأكبر كانت من نصيب الموارنة المسيحيين، تليها حصة المسلمين السُنّة ثم المسلمين الشيعة: المسلمون، بوجه عام، الشيعة بالأخص، اعترضوا على دور الهيمنة المارونية في السياسة اللبنانية، كما اعترضت الطوائف المسيحية الأخرى. العلمانيون من كل الطوائف عارضوا هذا النظام بكامله. ولم يحصل أي تعداد رسمي إحصائي للسكان منذ ١٩٣٢، وهكذا ظلت الخلافات على النسب الطائفية دون تسوية.

في العلن، جميع الجهات ضد الطائفية وتحتفل بالتعايش الطائفي. من إذن هو الذي يحارب؟

مُهَجّر ـ لاجئ

إذا كانت الحرب في لبنان تحتاج إلى عنوان أو رمز فالمهجّر حتماً هو ذلك الرمز.

اللاجئ هو الذي يفتش عن مكان آخر يؤويه. المهجّر له معنى أكثر سلبية، وهذا الفارق في المعنى له أهميته. كلمة «لاجئ»

تتضمّن الوصول إلى مكان آمن، أما «المهجّر،» فيدلّ على الرحيل والهجرة؛ وفي هذه الصيغة يوجد إشارة إلى «الإكراه على المغادرة.»

ومن بين مئات الألوف من الأشخاص الذين اقتُلعوا من منازلهم منذ بداية هذه الحرب، لم يُشَرْ إليهم قط على أنهم «لاجئون،» إذ إن هذا التعبير ظل وقفاً على الفلسطينيين الذين جاؤوا إلى لبنان طالبين اللجوء، وحتى هم، عندما أكرهوا إلى الانتقال مرة أخرى، أصبحوا مهجّرين في سياق الحرب.

الحوادث

يشير هذا التعبير إلى الحرب التي ابتدأت عام ١٩٧٥، إلا إذا كان هناك تخصيص مغاير: أي أن الناس يتكلمون أحياناً عن أحداث ١٩٥٨، أو أحداث ١٩٧٣. لا شيء يعبّر تماماً عن افتقار اللغة إلى تصوير اختيار مثل هذا التصوير الضعيف للحقيقة والذي، بِصِلَتِهِ الوثيقة بكلمة «حدث مصادف،» يلخّص ملحمة كارثية وطنية.

الفصل الثاني

بيروت: مسح جديد لسماتها

مياه البحر المتوسط الزرقاء حيث تقع بيروت تبقى كذلك في معظم أيام السنة بفضل مناخه المعتدل وتصبح مزبدة رمادية ـ خضراء في عواصف الشتاء، فتندفع حينذاك الأمواج صاخبة لتحطم على الصخور الرابضة تحت «الكورنيش،» الجادة المحاذية للشاطئ المزروعة بأشجار النخيل، وأحياناً، عندما تشتد العاصفة، تغمر المياه الجادة العريضة في بعض الأماكن، ولكن غالباً تلامس الأمواه الصخور بلطف. وإلى الداخل بمسافة قليلة ترتفع الجبال التي تحيط بالمدينة خضراء حيث تكسوها الأشجار، وأرجوانية في الأماكن الصخرية. وفي الشتاء تغطي الثلوج قممها. وهي تشمخ مباشرة خلف المدينة المبنية على رَعْنٍ شبه بهضبة داخلة في البحر. وهذا، مع البحر الذي يطوّقها، هو ما يميّز جمال موقعها الفريد.

كانت بيروت قبل الحرب مركزاً إقليمياً بالغ الأهمية للمالية والتجارة والتعليم والطبّ والحياة الاجتماعية. تعكس كوزموبولية المدينة وانفتاحها التعدّدية المرحة لمجتمعها المتعدد المذاهب الذي يضم مختلف المجموعات العرقية التي لجأت إليها هرباً من تقلّبات الحياة في المنطقة. كما أن بيروت نعمت بحرية التفكير والتعبير

وبصحافة حرة ونظام سياسي متعدد الأحزاب، والذي كان من دواعي اعتزارها.

ومع أن موقعها جميل جداً إلا أن بيروت لم تكن في العصور الحديثة مدينة جميلة بالمعنى التقليدي. كسائر العديد من المراكز التجارية كانت هندسة أبنيتها الحديثة عديمة الذوق إن لم نقل صراحة إنها بشعة. ولكن الأبنية العتيقة، الڤيلات وأبنية البلدية ومدرسة الحقوق، جميعها بقناطرها العظيمة المُعمدة ونوافذها المشققة الفتحات وسطوحها ذات القرميد الأحمر وحدائقها القديمة حيث ترتفع أشجار السرو والأرز والسنديان والصنوبر وعرائش صريمة الجدي والياسمين و«البوغنڤيليا» والدفلى ـ تلك الأبنية العتيقة، لهفي عليها، سقطت الواحدة بعد الأخرى فريسة الحرب وتقف اليوم مجرّحة، الثغرات في سطوحها الحمراء ومصاريع نوافذها الملتوية وشرفاتها المتهدّمة ونوافذها المقنطرة وقد تحطّم زجاجها الملوّن وبدت مثل عجائز فقدن أسنانهن؛ الحدائق دكناء محطمة والجدران المكسوة بالياسمين مهدّمة والأشجار مملّعة، والحفر والثغرات تغطي المكان.

حتى في أحسن الأوقات، في زمن ما قبل الحرب، كانت بيروت غارقة في الفوضى، وزحمة السير فيها فاقت الأساطير. أحياؤها المختلفة، كل منها بميزاته واختصاصه، كانت موحّدة عن طريق المركز التجاري في قلب المدينة، وجميع الطرقات تنتهي وتصبّ هناك؛ حيث مراكز الأعمال والمكاتب الرئيسة لكبرى المصارف وشركات الطيران والأعمال. هنا أيضاً كانت «الأسواق»

المخصّصة لتجارة معينة: سوق الذهب، سوق السمك، سوق الخياطين، سوق الزجاج، كل منها في زقاق عتيق متفرع من قلب المدينة أو من ساحة الشهداء أو «البرج» كما كانت تسمّى أحياناً، المزدانة بأشجار النخيل.

تلك الساحة بضجيجها وصخبها وازدحامها تميّزت بنشاطها المدهش وحيويّتها. كانت حافلات الركّاب وسيارات الأجرة تتلاقى في ظلال النخيل لتنقلك إلى حيثما شئت في البلاد، شمالاً إلى طرابلس أو جنوباً إلى صور وشرقاً إلى الجبال أو غرباً إلى البحر؛ وكان سوّاقوها الذين لوّحتهم الشمس يقفون إلى جانب سياراتهم، أكمام قمصانهم مرفوعة حتى المرافق، ينادون بأصوات عالية عن الأماكن التي يقصدونها وعدد المقاعد التي ما زالت شاغرة. «ثلاثة محلات إلى بعلبك،» يصيح واحدهم. «راكب إلى بكفيا،» يقول آخر، و«راكبان إلى عاليه،» «وثلاثة إلى صيدا،» تُسمع من هنا وهناك. وكانت تلك الأسماء تنتقل ببراءة على موجات الأثير؛ بعضها أصبح الآن من الأمكنة المحظورة.

سوق الذهب، المتفرع من البرج كان يحوي من الجهتين دكاكين ومخازن صغيرة ملتصق الواحد بالآخر، والزقاق على طوله مغطّى بخيمة من قماش الأشرعة وفي واجهات الدكاكين كانت تُعلّق مئات الأساور والخلاخل على أسلاك متقاربة، تبهر الأنظار ويتردد صدى رنينها عندما يلمسها أحد؛ وعقود وأقراط آذان مخرّمة تلمع في الشمس، وسلاسل طويلة من الذهب وخواتم وأزرار أكمام وقطع نقود، كل شيء يتألق ويتوهّج في الشمس الحارة ويتقلّب

ويتحرك. وفي بعض الأحيان، عندما يكون الطقس حاراً فوق العادة، يظلّل التجارُ الذهبَ بستائر من القطن الأبيض على الواجهة، ولكن يظل بالإمكان لمح البريق من خلال القماش.

وكانت الجوامع والكنائس تقف جنباً إلى جنب في المدينة: وتبدو ظاهرة أساليب الهندسة من إسلامية وبيزنطية وحديثة أحياناً في البنايات نفسها، دلالة هندسية على مرور الزمن والتاريخ. المسجد العمري، وهو بناء قديم، كان يهيمن على البقعة المحيطة به، بقببه وقناطره. وعلى مقربة منه، كنيسة الكبوشية العريقة برسومها الذهبية وسقفها المقوّس لم تكن روعة هندسية ولكن كان لها رونقها الخاص. كم تبدو منافسات ذلك الزمن بريئة اليوم، إذ تقف كل هذه الأبنية مخرّبة يتعذّر الوصول إليها. البناء الضخم بالقرب من المعهد الوطني للموسيقى القديم والذي يشبه كنيسة إحدى الجامعات الأميركية العريقة، وهو في الواقع كنيسة الطائفة الإنجيلية، لم يبق منه اليوم إلا جدار وحيد قائم في وسط الركام. ففي الأيام الأولى للحرب حطّموا آلات البيانو والأرغن الكبير بطريقة منهجية، وكان ثمة مغزى للتحطيم في ذلك الحين، إذ كانت الرموز تعني شيئاً، أما فيما بعد فقد أصبح التخريب عشوائياً وشاملاً.

في وسط المدينة، قرب مبنى مجلس النواب تمّ حفر مربّع صغير إذا وقفت على حافة الطريق ونظرت إلى الأسفل تجد أعمدة وأبنية رومانية أثرية. وليس بعيداً عنه، تحت بناء المجمّع التجاري الضخم المعروف «بالعازارية» توجد، كما قيل لنا، الأساسات الأثرية لمبنى مدرسة الحقوق الرومانية، عنوان اعتزاز «بيروتوس»

الرومانية. ولم يكشف عن هذه الأساسات بعد. وفي أمكنة أخرى وُجدت آثار فينيقية، وثمة أعمال تنقيب عن آثار جارية الآن تجعل تاريخ الرومان والفينيقين يبدو وكأنه الأمس. وقد اكتُشفت بقايا من العصر الحجري الحديث (النيوليثي) تحت بيروت، وهنا يمكن للمخيّلة أن تطفو على بحر الزمن. وفي إحدى فترات الحرب سمعنا إشاعة عن أن وسط المدينة لن يعود إلى وضعه الطبيعي وذلك عن سابق تصوّر وتصميم، وأن المدينة ستظل منقسمة بسبب أهمية الاكتشافات الأثرية التي عُثر عليها عندما هُدمت الأبنية. وهكذا يُضحّى بالحاضر والمستقبل في سبيل الماضي، وهذه إشاعة رومانطيقية حقاً ومثيرة للتأمل أكثر من التفاسير الأكثر خشونة والتي هي أقرب إلى التصديق.

سوق الطويلة كان شارعاً ضيّقاً ملتوياً. على الجانبين منه مخازن تبيع الملابس والثياب الداخلية ولوازم شغل الصوف والحياكة والزركشة والأقمشة من كل الأنواع والخرضوات المنزلية، حلقات للستائر، سحّابات، أزرار، كل شيء. وفي نهاية الزقاق المزدحم وبشكل عمودي تصل إلى زقاق آخر فيه أشهر مطاعم بيروت، العجمي. ومع أنه كان هناك أمكنة أكثر حداثة وأكثر أناقة، وفيها كل ما قد يشتهي الزبون، وكذلك مطاعم متخصّصة بالمآكل الفرنسية والإيطالية والصينية في آنية من أغلى الخزف والبورسلين وأدوات المائدة الفضية الخالصة، مع كل ذلك كان العجمي هو في قلب بيروت المطبخي.

إذ تجتاز المدخل المقنطر تمرّ على أكوام هائلة من المانغو

وثمار القشدة الهندية (القشطة) والرمان والعنب والتين وغيرها من فاكهة الموسم. وبعد أن تجلس إلى مائدة بعد انتظار قد يطول، وتحيي المعارف والأصدقاء المحتوم وجودهم هنا، وكذلك خدم الموائد الذين يظلّون هم أنفسهم سنة بعد سنة، تبدأ الصحون الخزفية الصغيرة البنّية اللون ترد إلى مائدتك، ملأى بالفول والحمّص والبابا غنّوج والكبيس والزيتون والبصل الأخضر وأنواع السَّلَطات. فتقطع جزءاً من رغيف الخبز المستدير الساخن الذي يُقدَّم إليك في سلّة من الأغصان الدقيقة المجدولة وتغمّس في هذه الأطباق واثقاً بأن هذا أشهى طعام من نوعه في العالم. وبعدها تأتيك الشاورما والشيش كباب أو السمك أو غير ذلك من المآكل، وفي النهاية يأتي دور الحلوى، مؤلفة عادة من الفاكهة الطازجة المعروضة على مدخل المطعم، أو بوظة مصنوعة من الفاكهة ذاتها. وختاماً تأتيك القهوة، مرّة أو حلوة، في فناجين صغيرة يطول الجلوس معها والتلذّذ بها. ويظلّ المطعم فاتحاً أبوابه ليلاً نهاراً، ومزدحماً باستمرار.

سوق السمك كان له رائحته الخاصة، والباعة فيه يعرضون أجناس الأسماك المختلفة مرفوعة في أيديهم تلتمع بريقها الفضّي أو مصفوفة على الجليد بقرب الموازين أو تسبح حيّة في خزانات صغيرة مملوءة ماءً. وفي سوق الخضار كان الناس يتصايحون ويتدافعون لشراء الكيلو بعد الكيلو من الخضار والفاكهة. وفي سوق الإفرنج بالإمكان اختيار أشكال متنوعة من الأزهار والفاكهة والخضار: الورود والكاميليا وأكوام المانغو والأناناس العارمة والفطر والأفوكادو والهندباء الإفرنجية والخس والبندورة والخيار

والحشائش وجوز الهند وكل صنف آخر قد تشتهيه. وفي سوق الزجاج كنت ترى كُوَماً من الصحون الملوّنة مشقوعة على الرصيف خارج الدكاكين، وآلاف الأقداح الملونة والفناجين معلّقة من عُقيفات أو تترنّح في كدسات على الأرصفة قرب الصحون. وكان الضجيج والصخب والأصوات في كل مكان، والنشاط والحركة والروائح والألوان والحياة.

أما اليوم، فالأسواق ميتة. في الأيام الأولى للحرب دُمّرت الأسواق وأحرقت المحلات وأصبحت ساحة البرج المنطقة الحرام بين قسمي المدينة، وبالتدريج نبتت فيها الأعشاب وغطت الأماكن التي كانت تعجّ بالنشاط الصاخب والحياة.

في البدء كانت خطوط المواجهة في وسط المدينة متحركة على مدى أشهر إلى أن استقرت أخيراً، قاسمةً المدينة إلى قطاع شرقي وآخر غربي على طول الخط الأخضر الذائع الصيت، كما أسماه الأجانب، أو خطوط التماسّ كما عرفها اللبنانيون. وهذا الانقسام كان في ذاته الأشدّ ضرراً بين التغيرات الكثيرة التي سبّبتها الحرب في محيطنا.

تحدّ خطوط التماس معالم من حياتنا العادية الماضية، متحف، مرفأ، كنيسة، متجر، شركة نفط، مدرسة، أعطت أسماءها لمعابر اكتسبت صيتاً مشؤوماً في سياق الحرب. هناك كان الناس يعبرون، تحت خطر كبير أحياناً، من بيروت الغربية إلى الشرقية وبالعكس، الطرقات الأخرى ـ التي كانت موجودة في الماضي عندما لم يكن هناك تجزئة للمدينة ـ مغلقة نهائياً بحواجز

ومتاريس من كوم الرمال أو الأبنية المهدّمة والإقفار الموجع للقلب، مثل ساحة البرج.

المعبر الأكثر استعمالاً هو الذي يمر بالمتحف الوطني. بناية المتحف ذاتها تستخدم الآن لغرض عسكري، بينما تروج شائعات غامضة تتعلّق بمصير ومكان وجود الكنوز الأثرية التي كان يحتويها المتحف. قرب المتحف تقف بعض الأعمدة الرومانية، تذكّرنا بالتاريخ القديم للمكان، وتحت الأعمدة هناك قبر الجندي المجهول. واليوم، أصبح هذا المصطلح، أي قبر الجندي المجهول، ويا لسخرية الأقدار، مبتذلاً بسبب العديد من الشهداء الذين سقطوا هنا والأقل تكريماً من الجندي المجهول.

الجادة التي تؤدي إلى المتحف عريضة تحف بها أشجار الجاكرندة التي تتوهّج براعمها الزرقاء الرائعة في فصل الصيف. في الأيام الماضية هنا كانت تُنصب المنصّات التي يقف عليها كبار الرسميين لمشاهدة العروض السنوية الخاصة بالعيد الوطني. وعلى جانب من الجادّة يوجد ميدان سباق الخيل، الذي كان يعج بهواة الخيل الأصيلة والمراهنات. واليوم يمكن رؤية حصان من وقت إلى آخر يمشي به السائس بين الركام، الحصان وسائسه رثّا المظهر مثل المحيط حولهما. وعلى الجهة الأخرى من الجادة تقف الأبنية التي كانت أنيقة فيما مضى ولكنها الآن خراب، بعض منها كان مقر سفارات. هنا وهناك يُشاهَد علم رثّ أو رمز مزّقه الرصاص متهدّل من شرفة كان يقف عليها دبلوماسيون يستقبلون ضيوفهم ويتبادلون الأحاديث ويدخّنون حاملين كؤوسهم.

يبدأ الذين ينوون العبور بتقديم أوراقهم أولاً في بداية الجادة ثم في آخرها، وهم يجازفون بأن يؤمروا بالعودة من حيث أتوا لدى أي من الطرفين. وبين الاثنين لا شيء سوى المسيرة الطويلة المُذلّة التي يجتازها الألوف كل يوم. وفي الجهتين يقف سوّاقو سيارات أجرة مستعدين لنقل الركاب من المعبر إلى أنحاء المدينة، وفي بعض الأحيان يوجد بائع مغامر يعرض فاكهة أو حلويات على المشاة المعذبين. وعندما تكون الأوضاع سيئة قد يبدأ القنص وتليه المعارك، وخلال السنين الماضية كثيرون هم الذين علقوا في وسط الطريق ولا ملجأ لهم يحتمون به قبل إغلاق المعبر. ويحمل الناس أمتعتهم ويمشون عبر الخط تحت المطر أو في حرّ الصيف الخانق تحت أنظار الجنود أو أفراد الميليشيات، والمهانة من جرّاء المسيرة تتضاعف سوءاً بسبب الجهد والتعب. وعندما يُسمح باجتياز المعبر بالسيارات، فصفوف السيارات لا تنتهي، وغالباً ما يطفئ السواقون محركاتهم بينما يترجّل الركاب ويتمشّون حول السيارة، ويقفون ويتحادثون حتى مع الغرباء الذين يعانون مثلهم مشقة الانتظار الطويل قبل السماح لهم بالعبور.

على مسافة من المتحف هناك معبر آخر معروف بمعبر الفرنسيكان، الذي يستمد اسمه طبعاً من مدرسة الفرنسيكان التي تقع ساحتها ذات الأعمدة وبناياتها المشوّهة بالقصف على ذروة الممر. هذا الممر مفتوح فقط للمشاة، مع أنك تشاهد أحياناً سيارة عسكرية تمر عبره. ويختلف أيضاً عن المعبر الآخر لأنه لا يتيح المجال المفتوح الذي يحتاج إليه المتمسّكون بالاستراتيجية

العسكرية: القناصون لا ينجحون كثيراً هنا. فالناس يمشون في الرمل أو الوحل، تابعين الممر المتلوّي عبر الأعشاب العالية. لا أحد يقصد هذا الممر دون أن يحمل معه حذاء خاصاً يقيه خشونة الطريق. وفي أحد الأوقات اشتهر معبر الفرنسيسكان «بالمناقيش بزعتر» التي نشط أحد الباعة ينادي عليها هنا، ساخنة وشهية على الأخص بعد مسيرة العبور الطويلة.

وهنا شهدت مناظر غريبة أدهشتني. مرة شاهدت عروساً تقف في الرمل بثياب العرس، حاملة باقة ورد وقرنفل ويحيط بها أفراد عائلتها، مع عدد من السيارات المزينة بالزهور. وعلى الطرف الآخر من الممر كان العريس واقفاً في الرمل أيضاً تحف به عائلته الكبيرة. وكانا ينتظران، إمّا القسّ أو الشيخ، على ما أظن، أو ربما أمراً آخر لأن الفريقين ظلا واقفين في مكانهما، إلا أن الجميع كانوا مرحين ينتظرون حدثاً سعيداً بفرح. وعندما مررنا بهم ابتسم لهم الجميع ولوّحوا بأيديهم متمنّين لهم السعادة. وهم ردّوا على الجميع بالشكر والابتسام.

والطريق الهامة الأخرى التي يمكن بواسطتها العبور من قسم من المدينة إلى الآخر هي الجادة التي تمر عبر مرفأ بيروت، الذي كان فيما مضى مركزاً هاماً للنقل البحري في المنطقة. هذا المعبر هو الأكثر هولاً لأن الدمار يظهر فيه بأجلى مظاهره. إذ تشاهد أبنية مهدّمة أُفرغت من كل ما فيها وأخرى متداعية غير قابلة للترميم، بينها الكثير من التي كانت أبنية جميلة وعريقة، بأقواسها وأعمدتها الرائعة وقرميدها الأحمر فوق حجارتها الرملية، ونوافذها المستدقة

في أعلاها والمقنطرة بزجاجها الملوّن يقيها وهج الشمس في أيام العيش الهنيء. وفي المرفأ على الجهة الأخرى من الشارع تُشاهَد هياكل السفن نصف الغارقة في المياه يأكلها الصدأ وتتماوج فيها حشائش البحر مختلطة مع زجاجات البلاستيك وعلب التنك القديمة. وتنتشر شباك صيد السمك العتيقة ممزقة وفارغة من هياكل مراكب صغيرة تهترئ في المياه. وهذا الركام الذي يحيط بالعابر يسيطر على ذاكرته مغلباً لديه الشعور بالوحدة والفراغ.

الحواجز التي كانت في أول الأمر مصطنعة، لم تفِ بمقصد الذين أقاموها إلا جزئياً. أما الآن فهناك فارق بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية لم يكن موجوداً قط من قبل. بيروت الشرقية عُنيت بأن تكون أكثر نظافة وتنظيماً، ما يعكس المستوى الأعلى من التجانس بين سكانها منذ بداية الحرب. أما بيروت الغربية فغدت أكثر فوضى من أي وقت مضى ولكنها ما زالت تفخر بتلك التعددية التي كانت مصدر اعتزاز سكان بيروت من قبل والتي أصبحت مهدّدة، حتى هنا في الغربية. ولكن الفارق بين الجهة الواحدة والأخرى يُلغيه ويُبطل مفعوله هؤلاء الدائبون العنيدون الذين يُصرّون على العبور بالآلاف يوماً بعد يوم، بعضهم للعمل، والبعض الآخر لزيارة الأصدقاء والأقارب، والعديدون فقط لتسجيل موقف.

لاحظنا هذه التغييرات الحسّية قبل أن نلحظ التغيير في أنفسنا بوقت طويل. كان علينا أن نرسم خريطة جديدة لعالمنا، وليس لدينا أدوات تساعدنا على ذلك ما عدا ذكاءنا وحواسنا. وكثيراً ما توقّفت حياتنا على دقّة تفسيرنا. إنها مهمة خطيرة يتوقف عليها مصيرنا.

بالإضافة إلى أبنية قلب المدينة تهدّمت كذلك شوارع وبنايات كنا نتردد إليها. بعضها تحوّل إلى خراب مريع مائل متفتّت ومشوب في معظمه بآثار الندوب والثغرات. أحراج جبلية غنّاء تحوّلت إلى قفار مفحّمة قاحلة. شواطئ رملية أصبحت أحياء قذرة مزدحمة بالسكان أو تجمّعات أكواخ أو غرفاً مبنية بالإسمنت. وكلها عبارة عن أصداء مرئية للدفق الديموغرافي السكّاني. لاجئون أتوا بأعداد كبيرة أقاموا هذه الأبنية البشعة بالسرعة التي فرضتها ظروفهم. وهؤلاء اللاجئون لم يكونوا كلّهم فقراء، والأبنية المختلفة تعكس البحبوحة النسبية لمالكيها. ومجمّعات الشقق أو الطوابق الفخمة يمكنها أن تشوّه المنظر الطبيعي بالمقدار ذاته ـ أو ربما أكثر ـ من الأبنية الواطئة من الإسمنت العاري التي يقطنها الفقراء، والتي تبدو أقلّ ديمومة.

شوارع بيروت، حتى تلك غير المدمّرة نسبياً، تثير ذكريات متغيّرة من الحسرة والأسى. مثلاً، في كل مرة أمرّ فيها بهذا المنزل، أتذكّر بألم صديقة كانت تقطن فيه وقُتلت على المعبر ذات ليلة منذ سنين عديدة. وعلى زاوية أحد الشوارع، أذكر عندما سقطت القذيفة وقتلت أمّ أحد أصدقاء ابني، وعند منزل آخر أفكر في العائلة التي اختُطِفت وضاع أثرها. وكذلك عند منزل ثالث، أذكر الصديق الذي غادر البلاد إلى غير رجعة. كل من هذه المعالم الحسيّة، والكثير غيرها، هي معالم في رحلة الألم الداخلي التي أقوم بها. الذكريات تطغى على الخريطة، ويغيّر ظلالها تراكم الزمن.

ولكن هناك نوع آخر من التغيير يصعب وصفه أكثر: في بعض

الأمكنة يكون تغيّر المظهر من فعل تحوّل عضوي، كنوع من المسخ من حالة وجود إلى حالة أخرى، ومن معنى ومَهَمّة معيّنة في حياة المدينة إلى أخرى، ومن رمز أو نموذج اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي إلى آخر. وفي بعض الحالات، المعنى المتغيّر لمكان ما هو انعكاس مباشر للمعنى المتغيّر للبلاد ولتطوّر الحرب. أنا أقطن في القسم الغربي من بيروت، وباستثناء قلب المدينة، فهذا القسم شهد أكثر مقدار من التغير من هذا النوع. وليس من مثل على ذلك أكثر بلاغة، مما جرى في أحد أهمّ شوارع بيروت الغربية، شارع الحمراء. يقع هذا الشارع في المنطقة المسماة رأس بيروت التي تهيمن عليها الجامعة الأميركية في بيروت والعديد غيرها من معاهد العلم. وتعتزّ هذه المنطقة بميزتها الأساسية حتى اليوم ألا وهو خليط سكّانها المنتمي إلى المذاهب المختلفة التي تتعايش معاً بالانفتاح الفكري الذي يواكب هذا التعايش.

قبل الحرب فتح العديد من المصارف والشركات الرئيسية فروعاً له في منطقة الحمراء. حتى أن بعضاً منها نقل مقره الرئيسي إليها. أضِفْ إلى ذلك أن المقاهي الكوزموبوليتية والمطاعم ودور السينما الحديثة ومخازن الأزياء الأكثر أناقة في المدينة جعلت منها محورَ بيروت الاجتماعي للطبقات المتوسطة وللموسرين. كما أن قرب الجامعة الأميركية ومكاتب الصحف الكبرى جعلت منها أيضاً مركزاً للنخب الفكرية.

الزيّ والأناقة كانا من العناصر المهمة في واقع بيروت قبل الحرب ـ وربما يمكن القول إنه، حتى خلال الحرب، بقي هناك

أناقة ورشاقة أكثر من العديد من الأماكن التي شهدت عنفاً أقل. وتآكل قشرة الأناقة والحيوية التي رافقتها أمرٌ محزنٌ ليس في ذاته بل بالخسارة الموازية لإحساس بالدعابة وباللامبالاة التي تقوم على تجاهل الأمور الأكثر أهمية واعتبارها تافهة لا شأن لها. فالزيّ والأناقة كانا، بطريقة ما، وبتركيزهما على العابر والحديث، نوعاً من الدفاع عن الجديّة المتجهّمة التي جرى بها تبنّي النظريات والأيديولوجيات الاستبدادية في الأمكنة الأخرى من العالم الحديث.

هذا المرح وهذه الخفة كانا رمزاً، بطريقة مرحة نوعاً، لشيء جسّده شارع الحمراء: تسامح لا حدود له وحرية تفكير. هذا ما جعل الحمراء محوراً للمنطقة بأجمعها. مقاهيها كانت ملتقى المنشقين والمفكرين واللاجئين. فيها كانوا يستطيعون الكلام والإصغاء وقراءة كتب بعضهم البعض والتباحث فيها، تلك الكتب التي غالباً ما كانت تُنشر في بيروت حتى ولو كانت محظورة في بلادهم. أهل الصحافة من كل مكان كانوا يرسلون تقاريرهم عن مناطق واسعة من آسيا وإفريقيا، وعن العالم العربي أيضاً، من نقاط تنصّتهم هنا. طلاب ومدرّسوهم من عدة جامعات في بيروت كانوا يمضون ساعات في جدال وبحث مُفعم بالحيوية والانفعال عن شؤون قومية وإقليمية. بيروت كانت نافذة مفتوحة على الدنيا وكل ما فيها، من أحدث أزياء الفساتين وألوانها إلى آخر ما استُحدث من أفكار. أما الآن فهناك خطر على هذه النافذة أن تُغلق، مع أنها لم تُغلق بعد، حتى الآن.

في الواقع شارع الحمراء ما قبل الحرب والمنطقة المحيطة كان

بمثابة هيكل مقدّس لسكان الطبقة المتوسطة من المدينة الذين يحبّون الأناقة، ومنهم العديد ممن غادروا المدينة نهائياً عندما راح العنف يسيطر ببطشه الذي لا يرحم. فالدولة وكل مظاهرها، بما فيها الشرطة والجيش، أخذت في الانحطاط، تتحدّاها قوى الميليشيات الجديدة. وبتطوّر الحرب وانتشارها اجتاحت المدينة جموع من الأحياء الفقيرة من الضواحي ومعسكرات اللاجئين، والمناطق الريفية. وفي معظم الأحيان كان أبناء هؤلاء الجموع من حملة السلاح والدلائل المرئية لثورة اجتماعية ظهرت في أوضح مظاهرها هنا. كون الدولة والمؤسسات التي تجاهلت وأهملت تلك الطبقة التي جاءت اليوم لإثبات وجودها، تتجلّى الآن هنا في الشوارع المفتوحة للمدينة.

بدأ القادمون حديثاً بالتحرك في المناطق «المقدّسة» بحذر شديد، ولكن عندما اكتشفوا أن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك بكل سهولة وأن الحواجز كانت فقط في مخيّلتهم، أخذوا يتدفّقون على المنطقة بأعداد متزايدة حتى تغيّر طابع المكان نهائياً. فالجماهير التي تتجوّل في الشوارع اليوم مكوّنة في معظمها من شباب يمشون وكأنهم تائهون، لابسين قمصاناً بلا سترات، وفي وسط الشارع في كثير من الأحيان، غير عابئين بسواقي السيارات الذين يتبادلون وإياهم أحياناً الشتائم الدعابية في زحمة السير التي لا تنتهي. وكان بعضهم مطلقين لحاهم، شُعْثاً يرتدون قبعات رعاة البقر الأميركيين «كاوبوي» والجزمات العالية، وكلها ظهرت بكميات ضخمة، وبطريقة غامضة خلال الحرب وسرعان ما غدت نوعاً من البزّة

المميزة لهؤلاء الشبان الذين سيطروا على الحمراء أثناء القتال وجعلوا منها مملكتهم. فكانوا يجوبون الشوارع في سيارات الجيب، المجهّزة برشاشات الدوشكا، ومدجّجين، بمختلف أنواع الأسلحة من مسدسات في قُرُبِها وخناجر في أغمادها إلى قنابل تتراقص على خصورهم، والكلاشينكوف الدائم الوجود. وهنا وهناك تشاهد قميص تي شيرت وعليه اسم إحدى الجامعات الشهيرة "Penn State" أو «أكسفورد،» أو أبطال الرسوم المتحركة لوالت دزني أو سواها من التي يروج سوقها في أميركا أو أوروبا.

والنساء في هذه الجماهير يختلفن تماماً عن اللواتي سبقتهنّ. والكوزموبوليتية التي تميّزت بها الطبقة المتوسطة سابقاً انحسرت تماماً. وفي الأمكنة التي كانت تخطر فيها السيدات الأنيقات المقلّمات أظفار الأقدام أصبحت الآن تمشي فيها أقدام تبدو عليها الخشونة وشظف العيش. هنا وهناك تلتمع بارقة لون على ثوب امرأة كردية بزيّها التقليدي ووشاحها الأبيض الطويل يتطاير في الهواء. وشاهدت مرة عجوزاً تجتاز شارع الحمراء ببطء وهي ترتدي قميص تي شيرت مطبوعاً عليه بالإنكليزية «حافظوا على نظافة أستراليا» Keep Australia Clean. وقد يصدف أن تمرّ في بعض الأحيان إحدى اللواتي كنّ يترددنَ إلى الحمراء في السابق وتُشاهَد علامات السخط والقرف مرسومة ليس فقط على وجهها بل على وقفتها والأسلوب الذي تُرى فيه مهرولةً عبر الشارع.

وتنتشر أكوام الزبالة في الشارع. وشاحنة الزبالة التابعة للبلدية تبدو مستسلمة لتنفيذ مهمة لا تنتهي إلى الأبد تشبه مهمة سيزيف.

فما تكاد كومة عارمة من القمامة تُجرف وتحمّل في الشاحنة حتى تنبت كومة أخرى في مكانها. علب سكاير، جرائد، أكياس سندويش، أكياس بلاستيك، يكنسها كنّاسو البلدية بكل جهد ودأب كل صباح، أو على الأقل صباح الأيام التي لا تحتدم فيها المعارك ـ كل هذه تظهر مجدداً مثل السحر. وبالرغم من ذلك المجهود المتواصل تبدو الحمراء وكأنها لم تغسل قط من قبل، ومثل حيوان مريض جَرِب تظل مشوّهة بقمامتها.

العديد من النشاطات التي كانت في وسط المدينة في السابق انتقلت إلى الحمراء. أمام المخازن الأنيقة (البوتيكات) السابقة التي أُغلق كثير منها أو انتقلت ملكيتها، وبعضها ما زال يمارس تجارة مختلفة اليوم، يفرش الباعة المتجوّلون، الذين كانوا في الماضي أصحاب دكاكين ومحلات صغيرة في الأسواق، بضائعهم: بيجامات، كنزاتٍ، قمصاناً، ربطاتِ عنق، مراويل، قمصان نوم، سترات جلد، شماسي ومظلات، أحذية ـ مختلف أنواع البضائع مفروشة على الأرصفة أو على ظهر سيارات. وتكون في بعض الأحيان معلّقة على أسلاك شُدّت بين عمودي كهرباء. ويشاهد أحياناً أفراد يجرّبون قياس أثواب في وسط الشارع كأنهم في غرفة معزولة، غير عابئين بمن حولهم.

وهناك عربات يجرّها الباعة في الشارع، منادين على بضائعهم. هنا عربة مكوّمة باللوز الأخضر؛ وأخرى محمّلة ثياباً داخلية من صنع «تد لابيدوس؛» وغيرها متروسة بعُلب السجائر المهرّبة. هنا عربة مغطّاة بساعات اليد والقداحات ونظارات الشمس

وعلاقات المفاتيح تبهر الناظر بصفوفها: هناك عربة تعرض كل أنواع العطور التي عرفتها فرنسا. وفي وسط ذلك الازدحام وحول السيارات وما بينها، يروح ويجيء باعة الكاسيتات يدفعون عرباتهم التي ركّبوا عليها مكبرات الصوت العاملة على بطاريات السيارات، ومضيفين إلى ذلك الصخب والضوضاء نوعاً من العرض السمعي الذي لا ينتهي. وتتردّد في الأجواء أنغام الأغاني الشعبية والدبكة والأكورديون والكمنجات وأصوات المغنين الناشزين، وكلّها تتنافس على اجتذاب الزبائن، كل يسير في طريقه، وكل يختار موسيقاه ما يخلق مزيجاً من الضوضاء والصخب يكاد لا يُطاق.

ويسيطر صخب وهرج على حركة المرور، فتسمع زمامير السيارات تطلق أنغاماً مثل بعض قطع الموسيقى الخاصة بنشيد الثورة الأميركية ضد الإنكليز مع نغمات من سمفونيات بيتهوفن وغيرها وتتمازج مع زمامير السيارات العادية من نوع فيات أو رينو العتيقة غير المزودة بهذه الأنغام. وفي زحمة هذه الضوضاء يأتي عويل صفارات الإنذار المركبة على سيارات قديمة، مصدومة، مبعوجة يأكلها الصدأ، ولكنها مشحونة بشبّان يتلهّون مرحين، وكل منهم قد نذر نفسه كي يحطّم قوانين قيادة السيارات التي تتّصف بالمجازفة. وتأتي اللمسة الأخيرة على هذا الخليط من أصوات السيارات من سيارات صغيرة نُزعت منها أدوات كتمان الصوت (أشكمانات) عمداً، ومجهّزة بتروس يدوية لتغيير السرعة، مضاف إليها صرير العجلات ثم حفيفها على الإسفلت عند التوقف المفاجئ، كل ذلك مع هدير الدراجات النارية المنطلقة بأقصى

سرعتها. ويتخلّل ذلك أصداء الشتائم والنداءات والقهقهة مثل وقع النايات الصغيرة في الفرقة الموسيقية.

ومقاهي الحمراء العديدة تغيّرت عما كانت عليه ما قبل الحرب. ومع كونها ما زالت مقصداً للصحفيين والمثقفين إلا أنها خسرت شيئاً من طبيعتها الكوزموبوليتية. ومع أن القهوة «الإكسبرسّو» و«الكابوتشينو» ما زالت تُقدّم فيها، ففي بعض منها حلّت الشاورما محل «الشاتوبريان» كَلَون غذاء أساسي من صنع رئيس الطهاة، وحلّ الأكل الشعبي السريع محلّ الوجبات التي كانت تُتناول بتروٍّ وتلذّذ منذ قبل. ولم تعد سيدات المجتمع البيروتي يجلسنَ في هذه المقاهي، وأصبح الرجال هم العنصر الطاغي.

وطالما كان هناك متسوّلون في الشوارع، أمّا اليوم فقد أصبح عدد مظاهر البؤس البشري أكثر بكثير مما باستطاعة أية مؤسّسة عاملة أن تعالج. وزائر الحمراء اليوم لا بد أن يُجابَه بمناظر تشوّه ومسخ جسدي يثير في النفس ردّة فعل يتضاءل معها الشعور بالعطف والتحسّس بما يطغى عليه من شعور بالاشمئزاز. فهناك المرأة البدينة الكهلة تمدّ كفّاً وبالكفّ الآخر تسند ما يبدو كأنه جزء من مصران نانئ. وهناك الضرير الذي لا يبدو عمره ـ إذا استطعت أن تُنعم النظر ـ بأنه يزيد على ثلاثين سنة، إلا أنه يبدو هرماً. صوته الذي يُنشد آيات من القرآن الكريم، يطغى على كل الأصوات الأخرى. وهو يمشي، بل يجرّ قدميه جرّاً، يسانده طفل لا يتجاوز العاشرة من عمره، تكذّب سحنته الهادئة تعاسة عيشته. ويبدو الرجل وكأنه فقد السيطرة على عضلاته، فينتفض ويرتعش ويظهر

وكأنه سيهوي كلّما خطا بضع خطوات، إلا أنه يظل مكملاً طريقه متفضاً ومرتعشاً، جارّاً قدميه، والطفل يقوده عبر الشارع، مبسوط الكف. وعلى إثرهما يأتي ولد صغير منحنٍ على ذاته، دبّ على أربع، ويتلوّى ويدور بألم في فناء الطريق.

أمراض الجلد كثيرة، والأعضاء المشوّهة تُعرض على خُضر قذرة. هناك تشكيلة من الأطراف المبتورة، مآسي الطبيعة مضاف إليها ما خلّفته الحرب. أجساد تنتهي عند الأوراك تتنقّل بمختلف الوسائل. بعضها مربوط عليها عجلات تزحلق صغيرة، أو مشايات وأخفاف على اليدين، أو أنواع مختصرة من عربات اليد ذات العجلة الواحدة. ووسط ذلك الازدحام يشعر الإنسان بطغيان ألم الوحدة الذي يعيشه كل من هؤلاء التعساء.

هناك أولاد صغار، حفاة قذرون، يتتبّعون خطى المارة، ويلمسون أطراف ثيابهم فيدفعهم المارة كالذباب. هناك عجائز من الرجال والنساء، مصابون بالرجيف، يجلسون مسندين ظهورهم إلى جدران المرمر، بعضهم حاني الرأس في نوم الشيخوخة، بعضهم رافعون وجوههم المجعّدة الشحيحة النظر، يستعطون. وآخر أيضاً منظره أبعد من اليأس، يحدّق فيك بنوع من الفضول الذاهل، متسائلاً كيف أنك وهو تتقاسمان هذا العالم الغريب.

بعض الشحّاذين المكفوفين كانوا قبل الحرب من المناظر الدائمة الثابتة مثل واجهة مكتبة أنطوان البيضاء. واحد منهم على الأخص أصبح مألوفاً تماماً. كان يقف أمام مكتبة أنطوان، عصاه ممدودة في اليد الواحدة، وفي اليد الأخرى الأوراق الخضراء

للميانصيب الوطني. عيناه محاطتان باللون الأخضر ذاته. وكثيراً ما تساءلت عمّا إذا كان قد اختار مركزه أمام مخزن بيع الكتب كإشارة تهكّم مقصود.

الأولاد الأشقياء، بائعو «العلكة» المنتشرون في كل مكان والذين كانوا يتجولون قبل الحرب حاملين علبهم الصغيرة قد اختفوا إلى حدّ كبير وربما تدرّجوا إلى حمل السلاح بدلاً من العلكة. إلا أن الفتيات الغجريات، من النور وغيرهم، ما زلنَ يُشاهدنَ، وأسنانهن الذهبية تلتمع، مردّدات دعاءهن الآلي «الله يحفظكم،» «الله يخلّي أولادك،» «الله يخلّي صحتك،» أو ما يناسب الحالة: «الله يبعث لك النجاح،» أو «عروساً،» أو «عريساً،» أو «النجاح في المدرسة.» ثم كانت هناك، وما زلنَ موجودات، الأمّهات اللواتي يحملن أطفالهنّ شبه عراة، يجرّونهنّ وراءهنّ قسراً أو في أحضانهنّ، نائمين أو مخدّرين أو مرضى، لاستدرار عطفك وإحسانك.

والآن، ومنذ بداية الأحداث، أُضيف هؤلاء المشلولون عقلياً مثلما شُلّت أجسام الآخرين الذين اختاروا الحمراء مكاناً لوجودهم المفضّل. هناك امرأة تُشاهد أحياناً مستلقية على الرصيف أو جالسة على حافته، يفشخ فوقها المارّة وهي غير عابئة بالسيارات التي تكاد أحياناً أن تصدمها، وتحدّث نفسها حديثاً طويلاً مرفقاً بالكثير من إشارات التحدّي والغضب. وجهها يبدو ملتوياً، وإحدى عينيها مفتوحة والأخرى مغلقة، كأنها في حالة غمز دائمة. ومن آن إلى آخر تفغر فمها عن بسمة ملتوية تشق وجهها القذر وتكشف عن لثة

نصف أسنانها ما زال سليماً والنصف الآخر خالٍ. ويضفي عليها شعرها الرمادي هيئة عجوز، إلا أنني لحظت مرّة عندما التقيتُها وجهاً لوجه أنها قد تكون ما زالت في صباها. ويبدو أنها ما زالت على قيد الحياة بفضل إحسان باعة الأطعمة الكثيرين في المحلة، والذين يتصدّقون عليها، بسندويش فلافل أو زجاجة كولا أو شريحة شاورما في رغيف.

وهناك الرجل ذو الكرش الضخم الذي يجلس القرفصاء، على طريقة اليوغا، وبكل قذارته على الرصيف، يمزّق قطعاً مستطيلة من الألمينوم ويرصفها كوماً صغيرة. وهناك الرجل الأنيق الذي يخرج منحرفاً من أحد المداخل المعتّمة ليهمس بذاءات في أذن أحد ضحاياه الذين ينفرون منه مرتاعين ويهرولون مبتعدين عنه. وعندها يتراجع إلى الظلال بانتظار هجمته التالية. وهناك الآخر الذي يبدو دائماً وكأنه يتعرّى في شارع الحمراء. وذات مرّة، إذ انتبه إلى أنني أنظر إليه، حوّل عينيه نحوي وراعتني النظرة القاتلة في عينيه.

وإذا كان هؤلاء الناس يمثّلون أتعس درجات الانحطاط البشري، فلهم شركاء كثيرون في التعاسة. فهم يؤلّفون نوعاً من الجوقة المريعة، أحدهم يرتّل، وآخر يغنّي، وواحد يستجدي وواحد يُنادي وآخر يحاول تسويق أشياء تافهة وآخر صامت. ولكوني الشاهدة العاجزة أمام هذه الآلام والمعاناة صرت أتحاشى المرور في هذه المنطقة، غير راغبة في النظر إلى ما لا أستطيع معالجته، ومتحسّسة بالألم إلى درجة أنني أُصاب بالصدمة مجدّداً كلما رأيتها.

ومن المرّات النادرة التي مررت فيها بالحمراء مؤخّراً اصطحبت زوجَين أصدقاء لنا كانوا خارج البلد سنوات عديدة وعادوا الآن لزيارة قريب لهم على حافة الموت. وكان بعدهم عن ويلات الحرب قد وقاهم وظلّوا مفعمين بالنشاط وبالحرص على الأزياء والموضة، وعبّروا عن هولهم وعدم تصديق ما يرون من تردّي أوضاع منطقتهم وأخذوا يردّدون عبارات مثل «هذا لا يُصدَّق! ما الذي حدث للحمرا؟ كانت شانزليزه Champs elysée بيروت، الجادة الخامسة في نيويورك، شارع ريجنت في لندن!»

ومشيت معهم بحنق متزايد، على ما أظن، وقبلت دعوتهم ـ متردّدة ـ لتناول فنجان قهوة في أحد مقاهي الرصيف. ولتحاشي الضوضاء، قررنا أن نجلس في الداخل بدلاً من الجلوس حول إحدى الموائد على الرصيف. وعند دخولنا التقينا بأصدقاء لم يكونوا قد التقوهم منذ سنوات وتجاذبنا لبعض الوقت أطراف الحديث. وتناولت ببعض الارتياح عدد جريدة «الأوريان لوجور» L'Orient Le jour الذي لم أكن قد تصفحته بعد ونظرت إلى العنوان: «يوم جهنّمي في الجنوب» ـ وقرأت عن آخر الأحداث المريعة في الجنوب. كما قرأت رواية المعركة التي جرت بالأمس بين تنظيمي ميليشيا في بيروت الغربية، الذي خلّف العديد من القتلى والجرحى والذي بدأ على أثر حادث مرور، كان الخبر الرئيسي الثاني ذلك اليوم. وعندما فرغت من قراءة هذه الأخبار، نظرت بنوع من التسلية إلى الإعلانات عن تنزيلات في مخازن بيع منتجات «إيف سان لوران» و«شارل جوردان» وعن الافتتاح العتيد

لمطعم فخم في المنطقة الشرقية والذي بشّرت به الدعاية منذ أشهر، عن سخائه وفخامته، وقرأت عن افتتاح دار جديدة للسينما بين العدد الذي لا يُحصى لدور السينما الجديدة التي تُدَشَّن في بيروت الشرقية. وطالعت آخر أخبار السطو المسلّح والسرقات في جهتي المدينة وكنت على وشك البدء بقراءة آخر الأخبار عن الفشل في تأليف حكومة عندما عاد الصديقان وطلبا القهوة.

وفجأة تردّدت أصوات الطلقات النارية في الشارع خارجاً، وهرع عشرات الأشخاص للاحتماء في المقهى. وعلمنا من أحد خدم المقهى، الذي قام باستجواب امرأة كادت تفقد صوابها من جراء ما حدث أنّ اثنين من الباعة، اللذين ينتميان إلى فئتين متحاربتين من الميليشيا، تخاصما، فسحب كل منهما الكلاشنكوف من بين بضائعهما وأخذا يتراشقان بالرصاص في الحمراء.

وفجأة أقفر الشارع. فالبيروتيون حطّموا جميع الأرقام القياسية في تدبّر «الهرب من الدرب» في الوقت المناسب. والسرعة التي يمكن لشارع مزدحم بالمارة أن ينقلب فيها إلى فراغ مخيف تكاد لا تصدّق. الباعة يُغلقون أبواب محالّهم الحديدية والأمهات يحضنَّ أولادهنَّ ويهرولن، والباعة يتسلّلون بعيداً بعرباتهم وبعد ضوضاء مكثّفة لزمامير السيارات تتبخّر زحمة المرور بلحظة.

وبالعجلة ذاتها التي بدأت فيها الفوضى توقفت، وبالسرعة نفسها التي فرغت فيها الحمراء من الناس عادت وامتلأت من جديد؛ وخلال دقائق رجعت الحياة إلى طبيعتها كأنّ شيئاً لم يحدث.

خلال هذه المرحلة الاعتراضية جلس الصديقان جامدَين

يتوقّعان حدوث كارثة، وإذ انتهت بدا عليها الارتياح وسألتني الزوجة عندما شاهدتني أشعل سيكارة: «ألا تخيفك هذه الأحداث؟» «طبعاً،» أجبتها، «أليس بإمكانك أن تلاحظي اضطرابي؟» وحاولت أن أتخلّص من الشعور بأنّهما يراقبان ما إذا كنت أظهر دلائلَ على شيء من الاضطراب العقلي!

واقترب مني الصديق وقال محدّقاً إليّ: «اسمعي: لماذا لا ترحلون من هنا؟» ولما هززت رأسي رافضة صرخ منفعلاً، بينما ظلّت زوجته تحدّق إليّ، «ألا ترين أنه لا يوجد مستقبل هنا؟ هذا المكان هو حالة ميؤوسة.» ثم أضاف: «فكّري في أولادك. هل هذا مكان مناسب لتربية عائلة؟ في وسط هذه المعارك بالرصاص والانفجارات والقنابل والقذارة والفوضى وغياب القانون؟» واقترب منّي محدّقاً وقال: «هل تذكرين ما قُلتِهِ في الأيام الأولى للحرب إنه يتوجب على الفرد إمّا أن يحمل مسدسه أو أن يغادر؟» والواقع أنني لم أتذكّر أنني تفوّهت بمثل هذا الكلام قط، إلا أنني حنيت رأسي ولذتُ بالصمت: فقد كان من السهل التفوّه بمثل هذا التصريح في بداية الحرب عندما كان كل شيء يبدو أكثر وضوحاً، والخيارات بدت متاحة بذلك الشكل. «حسناً، لماذا بقيتم هنا إذن؟»

بقيت جالسة أهزّ رأسي ولا أتكلّم، وبدا هو وكأنه أخذ يفقد صبره ثم نادى الخادم وسدّد الحساب ثم قال لزوجته باقتضاب: «لنذهب.» وغادرنا المقهى معاً ثم افترقنا بعد تبادل مصافحة شكلية.

وأثناء توجّهي إلى المنزل طغى عليّ شعور عابر بالهلع عندما فكّرت أنه ربّما كان على حق في تأنيبي. ربما كان أحد أسباب نقمة

الذين صمدوا هنا خلال الأحداث على الذين غادروا ـ بالرغم من إنكارهم ذلك ـ هو أن الذين رحلوا كانوا دوماً يذكّروننا بأننا أضعنا فرص المغادرة عندما سنحت لنا. إنهم يذكّروننا بأننا ربّما ارتكبنا خطأً مميتاً ـ مميتاً بالمعنى الحرفي ـ عندما اخترنا البقاء. ولكن سرعان ما نفضتُ عني هذا الشعور المزعج الذي خلّف وراءه نوعاً من الأسى.

وفي طريق عودتي إلى المنزل توقفت في منزل إحدى الصديقات، ولما لم أجدها، دخلت، كما كنت أفعل غالباً، إلى محلّ صغير لبيع الكتب بالقرب منا. في المرة الأولى التي تغيّرت فيها الهيمنة العسكرية في الحي بعد معركة، وهو ما حدث عدة مرات خلال السنوات، راعني وآلمني أن تكون واجهة المحلّ تغيّرت إلى هذا الحدّ. فأغلفة الكتب المعروضة أعلنت أيديولوجية جديدة لموجودات المحلّ، أكثر تماشياً مع أفكار المسيطرين الجدد. ولكن عندما دخلت المحل وتكلّمت مع صاحبه، الذي كان يجيبني بصوت يقارب الهمس الحَذِر، اكتشفت أن الموجودات ظلّت على حالها، إلا أن ترتيبها قد تغيّر. الكتب والمجلات نفسها كانت موجودة، ولكن العثور عليها صار أكثر صعوبة. وهكذا أدّى الحذر الذي فرضه الخطر القريب إلى الرياء والنفاق الاحتراسي، وحُفظت حرية التفكير. وقد لحظت هذه الظاهرة في مناسبات عديدة وفي مكتبات أخرى، وكنت دائماً أشعر بالارتياح.

كان الوقت متأخراً وقد أظلمت السماء، لذلك لم أتباطأ بل اتجهت صوب الزقاق قرب منزلي. وكانت الأنوار مطفأة في

الزقاق، اثنان أو ثلاثة منها مزّقها الرصاص، والأخرى فريسة الإهمال المستديم. النور الوحيد كان من أشعّة القمر المخيّمة بأصابعها الباردة على كل مشاكلنا، ومن نور المصباح الكهربائي الصغير الذي أحمله على الدوام. ولما أصبحت بمواجهة الزقاق توقفت للحظات مترددة قبل ولوجه فقد بدا لي فارغاً مقفراً. فكومة القمامة باتت أصغر مما هي عادة، ولا من هرّة واحدة تبحث عما تأكله. وورشة إصلاح السيارات في الخارج ـ التي كانت تعج على الدوام طوال النهار بالسيارات التي ثقبها الرصاص وتحطم زجاجها الأمامي ـ كانت مُقفلة وعمّالها ذهبوا إلى بيوتهم.

وهناك شجرة فيكوس ضخمة تظلّل الزقاق كأنّها غطاء طبيعي. هذه الشجرة الضخمة كانت من بقايا العهد الذهبي القديم عندما كانت بيروت حديقة غنّاء تزدان بأشجار السرو والسنديان وتين البنغال. أما اليوم فبالكاد تُرى لمسة خضراء في أيّ مكان. وحتى هذه الشجرة القليلة الحظ بدأت بالاضمحلال مثل الكثير من الجمال الطبيعي هنا بسبب الإهمال والاستغلال والحماقة. فمن أحد أغصانها السفلى تتدلّى لوحة خشبية تُعلن فتح مخزن جديد. الأغصان المتوسطة الارتفاع بدأت تيبس تدريجاً نتيجة تعليق تشكيلة من الأسلاك الكهربائية والهاتفية حتى وحبال الغسيل؛ وجذعها مصبوغ لسبب مجهول بلون أزرق بشع يتناسق مع ألوان الجدران الداخلية لمحل سمانة قريب. كما أن المارة يكسرون أطراف الأغصان السفلى وهم شاردو الذهن؛ والضرر الأكبر تسبّبه الشاحنات التي تصدم أطراف الشجرة. ولا ريب بأنها سوف تُصدم

أو تُقطع أو تُزال بطريقة أو بأخرى، على الأرجح لتفسح في المجال أمام بناية بشعة أخرى.

تلك الليلة، حتى الشجرة كانت ساكنة. فمشيت في الزقاق، أحاول قراءة آخر ما أضيف من كتابات على الجدران لكي أتناسى إمكانية وجود لص مختبئ في إحدى الزوايا أو قنبلة بين القمامة. بين أحدث الكتابات قرأت «الشاه دمية في يد الاستعمار،» «ثورة حتى النصر،» و«قوّات أبو فلان وفلان مرّت من هنا.» قرأت ملصقات تطالب بالإفراج الفوري عن الإمام موسى الصدر، الذي اختفى منذ عدة سنوات؛ وإعلانات عن آخر الأفلام السينمائية التي تُعرض في الدور القريبة. عشرات أوراق النعي، بما فيها تلك الممهورة بإشارات الميليشيات وصور الأبطال الشبان يستقبلون الموت باسمين.

وكلما تقدمت في الزقاق كانت ثقتي تزداد ـ كشعور غريب بالدفء ـ كلما اقتربت من نهايته. هذا الزقاق القبيح الصغير بدا مستحقاً للشفقة، وشعرت بنوع من العطف أثار دهشتي، أنا التي تعوّدت ألا أشعر إلا بالاشمئزاز تجاهه. فالشوارع كثيراً ما ذكّرتني بتلك الأجساد المسكينة المشوّهة التي كنت أشيح عنها بعجز. ولكن الآن، في ضوء القمر ولأنني استغنيت عن النور الكهربائي الصغير الذي أحمله، فقد اكتسى الزقاق جمالاً موحشاً مثيراً للشفقة ولبث عالقاً في ذهني طويلاً.

الفصل الثالث

المرايا أو المتناقضات:
صورة ذاتية

ولدتُ في القدس، ونشأت في القاهرة، وترعرعت في أميركا، ومتّ في بيروت.

حضنت هذه الجملة على مدى سنوات على أمل أن أبرزها يوماً في مطلع سيرة ذاتية ثقافية تستطيع تصوير بعض الصراعات التي يصعب معالجتها والتي تفجّرت في هذه المنطقة، وذلك عن طريق استعمال حياتي بمثابة صورة مصغّرة لهذا العالم. ومع أن حياتي كانت في معظمها لا تمثّل حياة الأكثرية الساحقة من السكان هنا، فهذا بحد ذاته يبدو بطريقة غريبة يركّز على طبيعة الجسم الذي أنتمي إليه ولو بطريقة عرضية. وإذا كانت بيروت، الكائنة في قلب الأمور، قد عبّرت عن تصادم آراء اجتماعية، دينية، سياسية، وثقافية، أغرقتها في هذه الفوضى من العنف ـ الذي هو بحد ذاته فكرة ـ إذن أجد أنا نفسي قابعة في قلب بيروت، غارقة أتخبط في القلب الهاوي.

ولدتُ في القدس، في فلسطين. أن يكون المرء ولد في القدس يعني أنه مرتبط بذكرى وبشعور من الفقد والخسارة. محاولة استرجاع فلسطين هي ركيزة السياسات في المنطقة؛ وأن يكون

جواز السفر ممهوراً باسم القدس فيعني ذلك أن هذه المحاولة هي هويّته وسيظلّ مرتبطاً بها إلى الأبد. الجزء الكبير من الحرب في لبنان مرتبط بالمسألة الفلسطينية، ووجود منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت كان على أقل تقدير أحد العوامل التي ساعدت على إشعال هذا النزاع.

نشأت في القاهرة، حيث درست في مدارس إنكليزية وكانت عائلتي، المعتبرة من الغرباء، تنتمي إلى طبقة ذات امتيازات. في أوائل سني مراهقتي خبرت الثورة المصرية التي كانت موجّهة ضد الغرباء وضد الموسرين. ومع أن كل تعاطفي كان مع الثورة، إلا أنها قوّضت حياتي. في حرب لبنان، يلعب التناقض الطبقي أيضاً دوراً مهمّاً، مقنّعاً أحياناً وسافراً أحياناً. كما أن هناك الكثيرين ممن قد ينظرون إلى الحرب على أنها جزء من حركة مضادة للاستعمار كانت الثورة المصرية سباقة فيها.

ترعرعت في أميركا. هنا تبدأ جملتي الفاتحة أن تكون مجازية. ذهبت إلى أميركا للدراسة الجامعية وفوراً أرهقني الجهد في محاولة تجسير الهوّة بين عالمين، العالم العربي والغربي. وضعي الدقيق كان بسبب أنّ قدميّ كانتا مغروستين واحدة في العالم العربي والأخرى في العالم الغربي، أدّى بي إلى الشعور كأنني المارد «أطلس» الأسطوري، يسند جبلاً من الخصومات يهدّد بالسقوط وتحطيم كل ما تحته، أو مثل أنثى «جانوس» ولها وجهان، وجه ينظر إلى هذه الناحية والوجه الآخر إلى الأخرى. شعرت بأنه يتوجّب عليّ أن أوفّق ما بين العالمين وأفسّر الواحد

للآخر، كما كان عليّ أيضاً أن أؤلف وأركّب خواص من العالمين تتحارب في داخلي. كلا النزاعَين، الداخلي والخارجي، بدآ قبل أن أشعر بهما، فِعْلاً، في قِدَم الزمن الجماعي والشخصي ـ وما زالا حتى هذا اليوم، في لبنان كما في أي مكان آخر، تماماً مثل السياق المُعَتّق والمرهق الذي يولّدانه.

والمقطع الأخير في الجملة ـ **ومتُ في بيروت** ـ يبدو لي بمثابة الذروة التي توّجها، ليس فقط لكونها تشير إلى الموت ـ الحي الذي أصبحت هذه السنين الأخيرة من الحرب تعنيه. فأنا في الواقع أعيش في ظلّ الموت في هذه المدينة الخطرة ما يعني أن المجاز قد يُترجَم إلى واقعية. فالماضي المشوّش والحاضر والمستقبل أصبحت كلّها مرتبطة معاً. والضمير «أنا» في جملتي يتوسّع هنا، من التخصيص إلى التعميم إذ إن خطر الموت لا يجابهني وحدي، ولا الألوف من الآخرين الذين أعيش وإياهم والكثير من أفكارهم وآمالهم ومُثُلهم فحسب، بل مجتمع بكامله أيضاً. سكّان بيروت يناضلون لأجل تحديد ما الذي يموت هنا، ومقداره، ومدّته. هل الموت يعني الانقراض؟ وهل البعث، أو القيامة، ممكنة؟ أو التقمّص؟ هل سيكون هناك محاكمة؟ هل سينتج من ذلك وضع أفضل؟ أم لعنة أبدية؟

الآن وقد توصّلت إلى هذه المصطلحات الدينية، فأنا أقل رضى عن جملتي الافتتاحية لأنها لا تتطرّق إلى الكثير مما هو معقّد وذو مغزى. خذ مثلاً مشكلة كوني مسيحية أعيش في عالم مسلم في الزمن الذي كنا نظن أنه زمن عدم الإيمان، ولكن نتج منه دول

خاضعة لرجال الدين وحروب دينية. وفوق ذلك أنا لا أنتمي إلى الكنيسة المسيحية الشرقية، حتى ولا بتراث أجيال من البخور والأيقونات والتراتيل الرائعة المبهمة وأجراس الكنائس التي يتردد رنين أصدائها في الجبال والوديان عند المغيب. فقد نشأت في ما يبدو أنه طريقة قليلة الاحتمال، مستحيلة ومعزولة، الكنيسة الأسقفية، مع «ليكن الله معك... ومع روحك» مع إيقاع الترنيمة قابعة بثبات على الأرض التي هي ذاكرتي، بينما السكان الطبيعيون أصحاب الحق في تراثي السلفي الثقافي يجلسون مثل لاجئين متوسّلين، موجودون هناك ظاهرياً، ولكن تفصلهم الأسلاك الشائكة التي نصبها الاستعمار.

وهكذا، كوني بروتستانتية يجعلني ليس فقط أحد أفراد أقلية، بل أقلّية بين الأقلّيات. إلا أن ذلك يثير ـ بل يركّز على ـ قضية الأقليات والأكثريات وما يعني صدامهما. أن يكون الفرد بروتستانتياً في لبنان معناه أن يُحشر، طوعاً أو كرهاً، في تلك الفئة المصنفة «المسيحيين،» في تسمية مضلّلة وبائسة في التركيبة اللبنانية، والمُساء استعمالها من قبل العديد من المنتمين إليها، والمحبوبة من قِبل الصحافة الأجنبية وجميع الذين يحبّون أن يُبسّطوا التاريخ. هذا الصراع ـ ضمن ـ الصراع يُضطرني إلى إثارة موضوع معنى الحياة المسيحية والتراث المسيحي. وكوني نشأت في ظل الكنيسة الإنكليزية بالتحديد يعيد إلى الذاكرة حقائق الماضي الاستعماري، بكل آثاره، بما فيها، وفوق كل شيء، اللغة، وسيلة السلطة التي لا تُثَمّن.

كذلك يكمن صامتاً في تلك «الأنا» الواردة في جملتي الافتتاحية المُلْهَمَة، ذلك الجزء مني، النموذجي وفي الوقت ذاته غير النموذجي، والذي ينظر إلى العالم من خلال عيني الأنوثة المريرة عموماً. أتأمل في الخراب حولي، والذي لم يكن لي يد فيه، وبالسخرية التي يتفرد بها المغرّر به والمنسيّ، أفكر في حقوق الإنسان التي تطالب بها جميع الفئات المتحاربة هنا. ويحتدم في داخلي صراع آخر إذ التحديث يتحارب ضد التقليد: الرغبة في إحراق مشدّ الصدر والتخلّي عنه كتعبير رمزي تناضل ضد اللجوء إلى الحجاب بالمعنى الرمزي. أنا أعرف الاتجاهات الحديثة، ولكن التقاليد القديمة يصعب إزالتها، والأشكال الموروثة عن الواجب والطاعة لا تختفي بين ليلة وضحاها. في كل الأحوال لم يعد الحجاب اليوم اصطلاحاً رمزياً. آلاف النساء عُدنَ إلى ارتدائه، مُغَطّين وجوههنَّ وأجسامهنّ، بينما تراقبهنَّ ألوف أخرى، ذاهلات، وفي الوقت عينه هناك ألوف أكثر يكافحن لرفع الحجاب عن وجوههنَّ.

كذلك هناك معانٍ أكثر مخبّأة في تلك «الأنا.» أعيش وأعمل في نطاق أهل الفكر من الطبقة الوسطى، التي أخذت على نفسها مهمة بلورة رغبات وأماني جموع الشعب الذين تشعر بالعطف الكبير تجاههم. إلا أنه في الواقع ساهمت طريقة عيشنا وممارستنا في إبعادهم عنا. فلهم صوتهم الناطق باسمهم وغالباً ما يتبرّأون من صوتنا.

يقال إنه عندما يغرق الإنسان تمرّ جميع مراحل حياته في فكره بلمحة قبل أن تغمر المياه جسمه وعقله معاً. الذاكرة هي آخر زفرة في الحياة إذَنْ. هنا، في بحر اليأس والضياع والأسى الذي هو بيروت، تستثير الأحداث هنيهاتٍ تلتمع من ماضيَّ وتفسّر الحاضر. فتقودني عبر ممرّ من المرايا تِهتُ فيه أفتش عن الإدراك. وإذ أنا مدفوعة بمعاناتي الخاصة أطوّح بذراعي ضد قوة الأمور الطاغية التي لا ترحم من حولي، أتوقّف فجأة أحياناً بالانعكاس وأحياناً أخرى بالواقع. وليس باستطاعتي أن أميّز دائماً الواحد من الآخر.

(١)

ولدتُ في القدس ووالدي وُلد في القدس ووالداه من قبل. أبوه كان دليل دورات منظمة للسياح الذين يزورون القدس. وهناك صورة قيّمة لدينا يبدو فيها جدّي راكباً حصاناً، وأخرى فيها جدّتي وعلى فمها ابتسامة خفيفة، ولمسة من الحَوَل، وهي تحدّق في آلة التصوير. والدتي وُلدت في الناصرة حيث كان والدها قسيساً معمدانياً. والدتها، الجدّة الوحيدة التي عرفتها، كانت من لبنان، حيث ما زال ذلك الفرع من العائلة معروفاً.

وقبل أن أولد بسنوات، كان والدي قد ذهب إلى القاهرة بهدف توسيع أعماله التي أسّسها في القدس مع ابن عمه. وبينما كنا في القاهرة، وكثيراً ما كان والداي ينتقلان بنا إلى القدس، إلى موطنهما. وبعد أن نجتاز الصحراء بالقطار، كنا نقيم في منزل العائلة حيث كانت عمتي الأرملة تعيش مع أولادها في غربي

القدس، حي الطالبية والتي احتلّها الإسرائيليون في حرب ١٩٤٨.

كانت آخر سنة لنا في القدس في العام ١٩٤٦-١٩٤٧. أخي انخرط في مدرسة القديس جورج التي درس فيها والدي قبله، بينما أرسلونا أنا وأختي الأكبر مني إلى مدرسة راهبات القديس يوسف للبنات. كل ما أذكر من المدرسة ساحة اللعب، والراهبات يقرعنَ جرساً نحاسياً صغيراً يحملنه باليد عند انقضاء الفرصة. ثم نقلونا إلى مدرسة راهبات أخوات صهيون لأن أختي كانت تكره مدرسة القديس يوسف وهربت منها عدة مرّات لأن إحدى الراهبات كانت ترعبها. فقد كان من عادتها حمل صنوج مصغّرة بين أصابعها تطقطق بها لحفظ النظام في أرض الملعب، وكانت إحدى رفيقات أختي قد أخبرتها أن الراهبة المذكورة تحمل في كفّها عظام الفتيات غير المطيعات اللواتي قتلتهنَّ.

وتدّعي أختي أنها روت لي هذا الخبر من قبل، إلا أنني لا أذكر ذلك، ولا شاركتها على ما أذكر في ثورتها لأن تلك الشائعة المريعة لم تبلغ مسامعي. وتتمحور ذكرياتي عن مدرسة أخوات صهيون أيضاً حول الملعب. هناك انطباع في ذهني عن راهبة لها شاربان متصابان، ولكنني لا أعرف إذا كان هذا الطيف في المدرسة الأولى أو الثانية.

عند عودتنا إلى المنزل مشياً مع الفتيات الأخريات، وحقيبة كتبنا على ظهرنا، كنا نمرّ أمام جنود بريطانيين قابعين وراء متاريسهم من أكياس الرمل عند زوايا الشوارع. وفي ذهني ذكريات مبهمة عما سمعناه عن انفجار فندق الملك داوود غير البعيد عن منزلنا على ما

أعتقد؛ وما عدا ذلك فذكرياتي عن القدس بعيدة تدور حول المنزل والعائلة.

كان بيتنا كبيراً، له دَرَج مهيب تحفّ به الأغراس في آنيتها الفخارية، يؤدّي إلى سطيحة مفتوحة كنا نقضي عليها كثيراً من الأوقات. وأذكر الحديقة بوجه خاص، بصفوفها الممتدة من أزهار المرغريتا اللؤلئية الطويلة. أتراها كانت طويلة بقدر ما أذكرها؟ مرغريتا طويلة جدّاً، وفي كل مكان. أذكر رائحة البيت، رائحة زيت الزيتون والصابون البلدي، ورائحة الطعام الطيبة. أذكر حركة دائماً من النسوة، بينهنّ والدتي وعمتي، حول مدخل المطبخ، يصْنَعْنَ العجائب من ذلك الحرم الداخلي، وهنّ يمسحنَ أيديهن على مناشف صغيرة مربوطة إلى خصرهنّ عندما كنّ يرتّبنَ بعد الأكل. وأيام عيد الفصح كانت النساء يجلسنَ حول طاولة واسعة مستديرة، يصنَعْنَ المعمول والكعك، وكنا أنا وأختي نُطلب للمساعدة في كبس عجين المعمول في القوالب أو «تقريص» التصاميم والرسوم على عجينة الكعك بواسطة كمّاشة خاصة معدّة لذلك. صنع هذه الحلويات عمل مملّ ودقيق، ولا أخال إلا أننا كنا حتماً أكثر إزعاجاً مما كنا نساعد. ولم أكتشف إلا مؤخراً أن كعكات الفصح لها معنى رمزي: المعمول المستدير المحشو بالجوز المطحون والسكّر والمطيّب بالقرفة وماء الزهر يرمز إلى الإسفنجة المملوءة بالخلّ التي قدّموها للمسيح على الصليب؛ بينما الكعك المحشوّ بالتمر يرمز إلى إكليل الشوك. أما بالنسبة لي، فالكعك والمعمول يمثّلان على الدوام المجتمع العائلي، ويعيد إلى ذهني صورة والدتي وعمتي

وهما يحضّرانها في القدس أيام عيد الفصح. وحملت والدتي التقليد هذا إلى القاهرة وبعدها إلى بيروت، ولم ينقض فصح واحد دون الإنتاج التقليدي للمعمول والكعك. ومع أنني كثيراً ما شاركت في صنعهما، إلا أنني لم أفعل قط بمفردي ولست متأكّدة ما إذا كنت سأتحمل مشقّة ذلك يوماً ما. وحتى إذا فعلت فسيكون ذلك لسبب وحيد فقط، للإبقاء على هذه الصلة بالماضي حيّة.

كنا في القاهرة عندما اندلعت حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وتسرّب عبر السنين صور وظلال عن ذلك الوقت.

كنا دوماً نجلس حول مائدة الطعام، وأنا في مكاني المعهود إلى يمين والدي، جالسة على وسادة لأستطيع الوصول إلى الطعام. من ذلك المكان كان باستطاعته أن يرسلني بسهولة عن طريق إشارة سرّية، كنت دائماً مستعدّة لها، لجلب سجائره في الوقت الذي تكون والدتي فيه أقل احتمالاً لملاحظة ذلك. ولدى إشعال عود الثقاب وانتشار أوّل نفخة دخان كانت تحاول كالعادة أن تقنعه بعدم التدخين، ثم، كالعادة أيضاً، تَيْأس من ذلك بعد أن يتجاهل التماسها. أعمام وعمّات وأبناؤهم وأصدقاء: كان هناك منهم على الدوام موكب على المائدة الواسعة. كانوا يجيئون من القدس، من صفد، ومن حيفا. وكنت أعرف دائماً أنهم أتوا حتى قبل أن أراهم، من المقاعد الإضافية المعدّة على المائدة ومن الطعام الإضافي. كانت تلك الزيارات تعْني لي أنه سيكون هناك انتباه أقلّ لما آكل وكيف، وإِلحاح أقلّ عليّ بضرورة استهلاك آخر لقمة خضراوات، لأن انتباه أهلي كان يتركّز على القيام بواجبات الضيافة

وتوزيع انتباههم على جهات مختلفة، والإصغاء إلى الروايات التي يقصّها الزوّار وتبادل الأخبار معهم، وجميعهم يضحكون مسرورين لرؤية واحدهم الآخر مرة أخرى.

وذات يوم، ومع أنه لم يفسّر أحد، كان من الجليّ حتى لطفلة صغيرة أن شيئاً مريعاً قد حدث، وأنه حدث في مكان بعيد. فقد وصلت عمتي فجأة آتية من القدس، وجلست منكمشة على ذاتها، مكوّمة، تمسح دمعة من وقت لآخر بمنديل المائدة، رافضة بلا نفس أطباق الطعام التي تُقدّم إليها. وكان أولادها الشباب يقفون ويجلسون، ثم يجلسون ويقفون، ويأكلون ويتكلّمون ويومئون ويشيرون بالأذرع ويخطرون بضع خطوات أحياناً، أصواتهم عالية أقوى من شهقاتها الخافتة. لم يكن أحد يرتدي الأسود فعلمت أنه لم يمت أحد من أفراد العائلة، وكنت أصغر من أن أدرك أن الحداد على موت بلد يكون بطريقة أخرى. ولم يُعرني أحد أي اهتمام فاستطعت بارتياح كبير التسلّل من غرفة الطعام واللجوء إلى غرفتي بعيداً عما هو بغيض إلى هذا الحدّ.

وسيتكرر هذا المشهد مرات عديدة عندما كان يجيء الأعمام والأخوال وأبناء العم والأصدقاء أنفسهم الذين كانوا قد زارونا في السابق، وجميعهم تغيّروا ووجوههم متجهّمة بالطريقة ذاتها ومناقشاتهم مشحونة صاخبة. وصرت أتخوّف من الزيارات التي كنت أتطلّع إليها بشوق فيما مضى. في الأيام القديمة كان هناك هدايا صغيرة وابتسامات، أمّا الآن فلم يبقَ إلا الوجوم والكآبة. والدي صار يدخّن أكثر من السابق، ولكنه لم يعد يكلّف نفسه عناء

القيام بتلك التمثيلية التحزيرية وألغيت مهمّتي الخاصة التي كنت أقوم بها على مائدة الطعام. أصبح يجلب السكاير معه جهاراً ويُشعل الواحدة بعد الأخرى، ولم تعد والدتي تزعج نفسها بتأنيبه لإفراطه في التدخين.

لا أدري إذا كانت التفاصيل الصغيرة عن تلك السنة الفاصلة وخسارة فلسطين، وما كانت تعنيه تلك الخسارة، قد لمْلمتُهُ من الأحاديث المتبادلة خلال وجبات الطعام الكئيبة، أو أنني جمّعتها ورصفتها، مثلما نرصف بتلات ساقطة من آلاف الأزهار الميتة عندما كانت تروى القصص مجدّداً سنة بعد سنة: «كل ما أخذته معي كان صور العرس.» «لم يكن لدي الوقت حتى لجلب مجوهراتي.» «كنا نعمل في الحديقة.» «فقط بالثياب التي علينا، ولا شيء آخر.» «ماذا عن المخزن؟» «ماذا عن أشجار الزيتون؟» «كنا آخر من غادر.» «كنا وحدنا، ما بمقدورنا أن نفعل؟» «لا أدري ما حدث له. آخر مرة رأيته كانت في بيت أخي، ثم لم أسمع شيئاً عنه.» «لقد ذهبت إلى بيت أقربائها في بيروت.» «وصلت الشاحنة لتنقلنا الساعة السادسة. لم يكن هناك وقت لتوضيب شيء.»

بعد ذلك بفترة طويلة، اكتسب العام ١٩٤٨ في وعيي عظمة التاريخ، والعدالة والسياسة والمصير الطبيعي والأخلاقية الدولية. إلا أنه، في زاوية صغيرة من عقلي، سيظل التاريخ يعني التحطيم المأساوي لحياة أفراد بأيدٍ ظالمة، وتفرّق بشر مذهولين يترنّحون من لطماته.

منذ ١٩٤٨ طبعاً لم أرَ القدس الغربية. إلا أنني قمت بعدة زيارات للقدس الشرقية قبل العام ١٩٦٧ عندما سقطت هي أيضاً بيد الإسرائيليين مع الضفة الغربية. وقد أمضيت الساعات العديدة أستكشف القدس القديمة، وزرت مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وكنيسة القبر المقدّس. كما مشيت في «طريق الآلام» عبر الأزقة الضيّقة، ووقفت في حديقة، «جتسماني» المكان المفضل لديّ في المدينة، أتملّى جمال المنظر ـ وأقولها بلا خجل أو إرباك ـ ومن قدسية المكان. ومرة حضرت قدّاساً في الكنيسة الروسية، مع جوقته الرائعة من الراهبات.

آخر مرة كنت فيها هناك كانت في العام ١٩٦٦، وكان والدي معي. فهو لم يزر القدس منذ ١٩٤٨، إذ كان قد تحاشاها منذ أن انقسمت، كارهاً أو غيرَ قابل لاحتمال رؤيتها هكذا. ولم يوافق على المجيء هذه المرة إلا لكون ابن عمي سيتزوج وطلب إليه أن يحضر العرس.

صعدنا إلى أعلى بناية جمعية الشبان المسيحيين قرب بوّابة «مندلباوم،» ودلّني بإصبعه المرتعشة، عبر الحواجز والسنين، على الشوارع التي أمضى فيها طفولته. كانت ذاكرته قد شحّت بمرور الزمن والتغيرات التي أدخلها التحديث الذي لا يرحم، وبالدموع التي اغرورقت بها عيناه عندما شاهد، بعد كل هذه السنين، المدينة، التي كانت تعجّ بالأهل والأقارب والأخوة. وعاودته ذكريات مغامرات الطفولة، وقصص المزحات الولادية التي كانت تتحمّلها والدته الطويلة الأناة، والتي نعتها الآن بالقداسة لطول

صبرها معهم. وروى لي كيف كان هو وأصدقاؤه يتلهّون بخداع الحجّاج السذّج ويضلّلون خطاهم الورعة عندما كانوا يسألونهم عن إرشادات. والآن وقد تقدّمت به السنون أصبح يشعر بالتعاطف مع ضحايا طفولته، ويفكّر كيف أن أقدامهم كانت تتعب، ولكن عينيه ما زالتا تبرقان. وأظن أن استعادة ذكريات حياته هناك على سطح مبنى جمعية الشبان المسيحيين، على حدود المدينة المقسومة، ورواياته لي كانت نوعاً من العلاج المسهّل للأمور؛ وربما توصّل إلى نوع من التفهم للأمر الواقع والقبول بالخسارة والحواجز. ولكنه في رواية تذكاراته لي حمّلني أيضاً حمل الذكرى، الفلك المركزي للقضية الفلسطينية.

(٢)

في القاهرة عشنا بيسرٍ وسط فقر عميم. وكنت في الحادية عشرة من عمري عندما اندلعت الثورة بقيادة جمال عبد الناصر؛ والاضطرابات التي سبقت الثورة من شغب ومظاهرات كانت تسبب في إغلاق المدارس أياماً. الثورة غيرت نمط المجتمع في مصر، بالأخص بعد حرب السويس، وأُمّمت المؤسّسات الأجنبية والخاصة. وأخيراً انتقل أهلي إلى بيروت العام ١٩٦٢.

أتذكّر القاهرة، القاهرة أيام طفولتي، مغمورة بشمس الصيف الباهرة؛ مدينة بيضاء مشرقة. كنا أيام السبت نركب السيارة إلى منزلنا في الزمالك، عبر الشوارع الحارّة المزدحمة بالبشر والسيارات والدراجات، كلها تومض بضبابية حرارة الصحراء. رجال الشرطة

بزّاتهم البيضاء وصفاراتهم في أفواههم، ويدهم الواحدة المتميّزة بقفازها الأبيض مرفوعة لإيقاف هذا المجرى من السيارات، واليد الأخرى تشير إلى المجرى الآخر بالاستمرار في المرور. أتذكر إطلالي على الكورنيش وشارع «ماسبيرو» بعد اجتياز كاتدرائية «جميع القديسين،» ذلك النصب للاستعمار، الذي دُمّر وأزيل من الوجود منذ ذاك الوقت، وبعد ذلك إلى كوبري بولاق والجزيرة. الشمس المتألقة الباهرة تضرب غطاء محرك السيارة وزجاجها الأمامي وتنعكس على نوافذ الأبنية البيضاء الضخمة على جانبي الشارع، على هذه الضفّة من النيل وعلى الضفّة الأخرى.

وفي وسط هذه الرؤيا النيل، النهر العظيم، يتلألأ وينساب، طويلاً صامتاً، سلسلة متألقة طويلة من الهدوء عبر القرون إلى قلبي وذاكرتي.

أذكر مشاوير التبضّع في تلك السيارة العائلية عبر شوارع ما قبل أيام الثورة. كنت أتبع خطى والدتي إلى داخل المحلات التجارية، حيث كانت جميع البائعات يعرفنَ والدتي ويُحيّنَها بالاسم. وكانت تفحص الأقمشة باللمس، عن معرفة، من النوعيات المختلفة من الحرائر والقطنيات والجلود، وكنت أشعر بنوع من الرهبة أمام تلك المعرفة وطالما تساءلت إذا كنت سأتعلّم يوماً ما التميز بين القطن الجيّد والآخر الذي لا يناسب. وكان يتبع ذلك مرور سريع، ربما إلى محل «غروبي،» حيث كانت قطع الحلوى ذات الهندسة الرائعة مصمودة بجلال على صوانٍ فضّية. ومن جرار ضخمة من الشوكولاته والحلويات كانت والدتي تختار احتياجاتها الأسبوعية

التي كانت تغلق عليها لاحقاً في أحد الصناديق. وأيام عيد الفصح كنا نذهب إلى محلات «غروبي» للتفرّج على الأرانب والبيض المصنوعة من الشوكولاته، والمعروضة بترتيب مدهش. وأيام عيد الميلاد كنا نحجّ مرة ثانية إلى محلات «غروبي» للتفرّج على الأشجار المصنوعة من السكر والبيوت المخبوزة من كعكة الزنجبيل وحلوى الميلاد.

بيتنا كان يعجّ بالحركة: خمسة أولاد، ووالدي وجدّتي التي كثيراً ما كانت تزورنا وتقيم معنا. كما كان هناك خدم بمن فيهم، في تلك الأيام قبل ماكينات الغسيل، غاسلتا الملابس اللتان كانتا تأتيان عدة مرات في الأسبوع لغسل الكمية الوافرة من ملابس العائلة، والرجل الذي كان يقوم بكيّ الثياب، ومكواته المحماة بالفحم. وهناك أيضاً لوسي، خيّاطة الثياب الأرمنية التي كانت تأتي وتقيم عندنا عدة أيام في كل مرة. لوسي وأنا كنا شريكتين خلال وجبات الطعام. كانت شهيّتها ممتازة وكانت تجلس إلى جانبي أثناء الغداء. وتحت غطاء المائدة كنت أُمرر لها سرّاً كل ما كنت أكرهه من المآكل على صحني والذي كانت والدتي تُصرّ عليّ كي آكله: السبانخ مثلاً والبامية والسمك ـ ولوسي كانت تلتهم كل ذلك بالإضافة إلى كميات ضخمة من الأطعمة المكوَّمة في صحنها. كما كانت هناك «نينيت» معاونة لوسي التي تأتي بانتظام لتساعد والدتي على رتق الملابس.

كان والداي يأخذاننا في نزهات مسائية على ضفاف النيل، ووالدي وراء مقود السيارة بعد يوم عمل في المكتب. وكان يذهب

بنا إلى مكان ما خارج المدينة، حيث كنا نتوقف فترة طويلة ونرمي الحصى في المياه الصامتة ونتفرّج على الحلقات تتنامى وتتّسع، بينما كان أخي يعكّر السكون ويحاول أن يبتزّ أخواته الأربع ويوصل حصاه إلى ضفة النهر الأخرى. وكثيراً ما كنا نتوجّه إلى الصحراء حيث كنا نتّبع الخنافس السوداء ونضعها في مرطبانات زجاجية بعد أن نجعل ثقوباً في الأغطية كي يدخل الهواء. وكانت والدتي تقذف بالمراطبين فيما بعد والخنافس عالقة في داخلها. أمّا نزهاتي المفضلة فكانت إلى الأهرامات. كنا في بعض الأوقات نركب الجمال ونطوف حولها. وكنت أتسلّق ظهر الجمل البارك ثم أشعر برعشة من الخوف عندما يقوم، قائمتاه الخلفيتان أوّلاً فأحسّ كأنني سأقع فوق رأسه، ثم القائمتان الأماميّتان عندها أشعر كأنني سأقع إلى الوراء. وبعد ذلك يبلغ توازنه، فيغمرني إحساس من الابتهاج إذ أجلس على ارتفاع عظيم فوق كل شيء، أتهادى بلطف على وقع خطى الجمل. وكنا في بعض الأحيان نركب على الحمير، وعندما كبرنا، على الخيول. وكان والداي يتناولان الشاي في فندق مينا هاوس، على سفح الأهرامات، ونعدو نحن في الرمال بجانب أبي الهول أو في حدائق الفندق حيث كانوا يربّون بعض الغزلان. وكثيراً ما كنا نذهب إلى حديقة الحيوانات حيث كنا نركب على الفيل ونرمي فتات الخبز إلى البطّات في البحيرة ونتفرج على القرود على مدى ساعات كل مرة.

في غمرة هذه الذكريات السعيدة أحسّ بصدع، أو نقص، شعور بأنه حتى في ذلك الوقت لم تكن الأمور على ما يرام. خلال

أيام السبت المذكورة لاحظت أن هناك قاهرتين على ضفاف النيل، مرتبطتان به ومحدّدتان به، وتتمازج رؤيتان، وتمّحيان الواحدة بالأخرى، وتختلطان بالماء ثم تتفارقان إلى شكلَين مختلفَيْن. من جهة هناك الأبنية الضخمة، الكاتدرائية، المكاتب والمحلات المتألقة في الشمس: هذه القاهرة خاصتي. على الجهة الأخرى، الأشكال القائمة للنسوة المتّشحات بالملايات الألوف منهنّ، المتحرّكات عشوائياً، مع أطفال رُضّع على أثدائهنّ التي يخرجْنَها بلا مبالاة من تحت عتمة ملاءاتهن. أطفال رضع ونساء يتحركن عشوائياً ليس فقط هنا في ذكرياتي عن القاهرة، القاهرة خاصتهنّ، بل أبعد من ذلك على ضفاف الزمن، عاملاتٍ في الحقول، ورجالهنّ بالجلابيّات البيض، وجميعهم منحنون منهمكون في حرث أرضهم الخصبة.

أذكر وصولي إلى منزلنا في الزمالك المزروعة بالأشجار حيث يخيم الهدوء، بسفاراتها التي يحرسها رجال شرطة ببزاتهم البيض. الكلاب مهذّبة ترفع قوائمها عند أشجار جافّة وتمسك بأرسانها سيدات أنيقات أو خدم؛ الأولاد يتدفقون من السيارة الكبيرة ويتسابقون إلى برودة العتمة في البناء الذي نسكنه. والبواب النوبي المهيب بردائه الأبيض والعمامة، يقف إلى جانب الباب مثل شبح عملاق ممسكاً بباب المصعد مفتوحاً. وعندما كنا ندخل راكضين من النور البرّاق في الداخل، كل ما كنا نستطيع رؤيته كان ذلك الشكل العملاق الغريب القوي بالأبيض، ووجهه ويداه تختفي نتيجة تأثير ظلال الشمس على العينين؛ ولم يكن هناك أثر للاستكانة في

إمساكه بالباب مفتوحاً؛ فقد كان مثل صورة مؤلفة من الضوء والظلّ، من الأبيض والأسود يتبادلان مراكزهما، الواحد يصبح الآخر، ثم يتغيّر مرّة أخرى، والمعنى الحقيقي للصورة في الحركة الآن، والآن في قوة ذلك الجسد وهذا الرداء.

ومع ذلك، حتى في تلك الأوقات الغافلة - والتي لم تكن غافلة إلى هذا الحدّ في الواقع ـ كنت أتساءل لماذا عليه أن يفتح لنا الباب، ولماذا، حتى عندما كنا نحن الأولاد نتسابق إلى المصعد، كلٌّ منا مهتم بأن يكون له شرف الضغط على الزر، كانت اللمحة الخاطفة لذلك الشكل الأبيض تسبب نوعاً من الإرباك العابر الذي سريعاً ما يختفي عندما كنا نهرول إلى البيت وكل ما فيه من وسائل الترفيه ومائدة الطعام العامرة. وربما منذ تلك الهنيهة والألوف غيرها مثلها انبثق الشعور بأنه يتوجّب علينا، كنوع من المعاملة بالمثل، أن نمسك بالباب مفتوحاً له ـ ولهم ـ ولكن يظلّ ممزوجاً بالذكرى التي لا تمّحي عن إمساكهم بالباب مفتوحاً لنا.

على الدوام كان هناك ذلك الصدع في راحة بالي واطمئناني. وثمّة ليلة معينة تبرز في ذاكرتي. كانت تلك أوّل مرّة أذهب فيها إلى الأوبرا. دخلت ممسكة بيد والدتي وأنا أفكّر كم هي رائعة في فستانها الجميل وكم هي فخمة دار الأوبرا بمقاعدها المكسوّة بزئْبَر المخمل الأحمر والمطلية بالذهب وأضوائها البلّورية المتلألئة. وشاهدت الأميرة، أخت الملك بجمالها الأخّاذ وكل العيون مصوّبة نحوها. كانت ترتدي المخمل الأسود مقوّراً عند العنق بحيث بدا جلدها ناصع البياض، مضيئاً، وشعرها المفروق من الوسط أسود

لمّاعاً. وعندما كانت تتحادث مع أشخاص إلى يمينها أو يسارها وترفع يدها الرشيقة كانت الأضواء تنعكس من مجوهرات الألماس في معصمها وأصابعها وأذنيها؛ وتتلألأ حتى كاد أن يغمى عليّ من الإثارة. ولم أعد أذكر أية أوپرا شاهدنا تلك الليلة ولكنني أتذكر التصفيق والنشوة لكوني في هذا المكان المدهش مع جميع هؤلاء الناس الأنيقين، وبالأخصّ الأميرة. وعندما غادرنا، شاهدتُها تنزل السلّم وتركب في إحدى السيارات الحمراء والسوداء المخصّصة للعائلة المالكة ـ ما من أحد في مصر كان يحق له اقتناء سيارة حمراء سواهم ـ وانطلقت الأميرة بمواكبة الدراجات النارية.

وعندما وصلنا إلى سيارتنا فتحت والدتي لي الباب لأركب، وبعدها تبخّر السحر إذ تقدّم طفلان، حافيان بأطمار بالية، وراحتهما ممدودة، بيني وبين والدتي. وأظن أنه منذ تلك اللحظة أدركت أن عالمي هو عالم أحلام، مكوّن من دور أوپرا وأميرات جنّ، وأن العالم الحقيقي ـ عالمهم هم ـ كان عالم أطمار بالية وارتجافات وقساوته ليلة شتاء باردة.

وبالفعل، في يوم سبت من كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، قامت الجماهير في القاهرة ثائرة ساخطة وأحرقت أجزاء من المدينة ودمّرتها تماماً. من شرفتنا في الزمالك حيث كنتُ في مناسبات أكثر سعادة، أتتبّع حالمةً تحليق الصقور عالياً في السماء، ثم انقضاضها المفاجئ، والغربان المرفرفة بجلبة حول الحدائق العامة قرب منزلنا، من تلك الشرفة شاهدنا أيضاً الوهج الأحمر بعيداً عبر نهر النيل. ذلك السبت، كانت قطع الأوراق المفحّمة تطوف في

الهواء، وكان ثقبا أنفي أسودين عندما كنت أفركهما. محلّ والدي كان من جملة المحلات التي أُحرقت، إلا أنه لم يشعر بالحقد. وتلقّى الخبر بحزن وتجلّد. وفي اليوم التالي ذهب إلى المحل لينظّفه بعد المشاغبين ورجال الإطفاء. «لقد بنيته من قبل،» قال لنا «وسأبنيه ثانية.»

وفي تموز/يوليو من تلك السنة حدثت الثورة. أُخرج الملك فاروق من مصر وحيّته المدفعية بإحدى وعشرين طلقة وعلى أنغام النشيد الملكي الذي لن يُسمع بعد ذلك أبداً. وبعد فتح قصوره أمام الشعب وتجوّلنا في القاعات الكبيرة حيث عُرضت بعض الحوائج والأغراض الشخصية للملك ولبطانته، كنا ذاهلين أمام الغنى المدهش للعائلة المالكة. والكل خرجوا من تلك القصور يهزّون برؤوسهم ومردّدين كم كان ذلك النظام غير عادل. ولم نعد نرى السيارات الحمراء والسوداء بعد ذلك، ولكن التأثير الكامل للثورة لم نشعر به إلا بعد بضع سنوات، أي بعد أزمة السويس.

في القاهرة أُرسلت إلى مدارس إنكليزية. سنتي الأخيرة في المدرسة صادفت وقوع حرب السويس ونهاية الوجود البريطاني في مصر. بداية ذهبت إلى مدرسة ابتدائية إنكليزية قريبة من منزلنا. وفي ذلك الخليط الكوزموبوليتي الواسع الذي كانت فيه القاهرة في تلك الأيام، كان الأولاد من كل الألوان والفئات مجبرين على ارتداء زي من السترات القطنية الرمادية وقبعات البيريه والقمصان البيض، مع ربطة عنق زرقاء. كان هذا زي مدرسة الجزيرة الابتدائية.

كنا نسير إلى قاعة الاجتماع بالصف كل صباح منقسمين إلى فِرَق تحمل أسماء آلهة الرومان: ديانا، مينيرفا، أورورا، مارس. كنا نمشي على أنغام موسيقى عسكرية إنكليزية تلعبها لنا على البيانو إحدى المعلمات، فندخل إلى دار الاجتماع وبعد ذلك إلى صلاة الصباح. هذه التشكيلة من الطلاب المتعدّدي القوميات والمذاهب تقف وقفة التأهب وتنشد تراتيل الحمد الإنكليزية تسبيحاً للخالق الذي كنا نتخيّله على شكل «جنتلمان» إنكليزي مهيب وملتح تقدّمت به السنون. وكنا كلنا، المنتمين إلى عدة أديان، نقدم الطاعة للكنيسة الإنكليزية ونصغي إلى كلام كتاب الصلاة الموحد والكتاب المقدس الذي صدر على عهد الملك جيمس بحيث كانت اللغة الإنكليزية ـ بالرغم من الدروس العربية الخاصّة التي كنا نتلقّاها في البيت ـ تُغرس في رؤوسنا بمسامير من الفولاذ، يوماً بعد يوم.

ومثل معظم صديقاتي وزميلاتي في الدراسة، كنت «جرموزة» مبتدئة في عالم الحركة الكشفية. اجتماعات «الجراميز» في القاهرة في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كانت غريبة: كانت الثورة تختمر، وفلسطين تدمَّر، وأنا كنت أحضر اجتماعات الجراميز. تُقسم الجراميز إلى ثلاث فئات: جنّيات صغيرات والأشباح والأقزام الخرافية. (كنت أنا بين الأشباح) وغير ذلك من تلفيقات المخيّلة الإنكليزية. البومة البنّية اللون ـ ولماذا على البومة أن تقود مجموعة من الجنّيات الصغيرات لم أعرف قط، وإذا كنت عرفت، فقد نسيت ذلك ـ تستهل الاجتماع عن حبك العقدة، أو الإسعاف الأولي أو غير ذلك من النشاطات التي قال عنها اللورد بادِنْ باول

إنها مفيدة، وذلك بعد التلفظ بكلام غامض شعائري: «توفوتْ توفوتْ توْفُوْ» ونجيب نحن بجوقة من الأصوات الصغيرة: «توفوتْ توْفوتْ توفُو.» وما زالت أسرار تلك الاحتفالات الشعائرية عالقة في فكري كرمزٍ لتلك الوقائع المصطنعة الغريبة والتي كنت جزءاً منها.

كل أول أيار/مايو كانت قاعة دار الاجتماع المهيبة تُحوَّل إلى ملعب أخضر يمثل الحقل الأخضر في بريطانيا. وتنصب في وسط هذه القاعة سارية يقوم بها فرّاشون مصريون اعتادوا القيام بهذه المهمة وكانت هذه الأشياء تبدو بالنسبة إليهم ـ على ما أعتقد عندما أستعيد ذكراها ـ قمة الجنون. حول تلك السارية، ممسكين بشرائط زرقاء وبيضاء ووردية اللون، كنا ندور في رقصات معقّدة احتفالاً بالربيع حسب التراث الشعبي الإنكليزي أمضينا الأسابيع الطوال في التمرّن عليها. عند ذلك، طبعاً يكون صيف مصر قد داهمنا ممّا يجعل الممارسة مزعجة بقدر ما هي نافرة.

في تلك المدرسة الابتدائية تعرّفت إلى نظام التفويض الإنكليزي وإلى تراتبية السلطة بدءاً من مفوّضي الصف (العرفاء) وعرفاء بيت الطلبة، والأرفع شرفاً بين المهمّات عريف المدرسة. العرفاء كانوا طلاباً تختارهم الإدارة لحفظ النظام بين الصفوف، وكانت مهماتهم تشمل أيضاً فرض عقوبات وما يناسب من القصاص على المخلّين بالنظام ـ الذين كانوا يتكلّمون عندما يكون الصمت إلزامياً مثلاً أو يُسيئون السلوك في الملعب أو في مكان آخر. وكان القصاص أحياناً بشكل كتابة عدد من الأسطر مثل

«سوف أمتنع عن التكلّم في الصف،» أو «سوف لن أدفع أحداً.» عدد الأسطر كان يتوقف على فداحة الذنب وعلى قساوة العريف: عشرون لذنب بسيط وحتى المئتين لذنب خطير أو مِن مفوّض شديد القساوة. والقصاص الأكثر هولاً كان الإلزام برسم خريطة: «ارسم خريطة وادي نهر الراين.» وأذكر عدة مناسبات عوقبت فيها بهذا مع «إضافة ثلاثين مدينة» أو «ارسمي خريطة أوروبا وحدود دولها وأنهارها.» قصاص الصبيان كان يتضمّن نوعاً من «الفَلَق» تُستعمل في تنفيذه أحذية التنس على مؤخرة مستحق القصاص.

كانت هناك طبقات بين المعلمين أيضاً، تؤدي طبعاً إلى السلطة العليا للرئيسة. أذكر يوماً جاءت فيه هذه السيدة الجليلة إلى صفّنا وقالت لنا: «أيها الأولاد، انهضوا واقفين.» وبدا هذا أمراً لا حاجة لإصداره إذ كنا نهبّ واقفين كلما دخلت معلّمة إلى الصف، فكم بالحري الرئيسة. إلا أنني ما زلت أذكر ذلك الأمر: «أيها الأولاد، انهضوا واقفين!» كل منا ينظر إلى الآخرين ويتساءل ما هو الذنب الذي أتيناه حتى نستحق هذا الانتباه الخاص. «أيها الأولاد، لدي أخبار محزنة لنا جميعاً. لقد مات الملك. عاشت الملكة.» صرفونا من المدرسة لذلك النهار على ما أظن وأنا متأكدة بأنه لم يخطر على بال أحد منا أن يشك بأنها يمكن أن تشير إلى ملك مصر بدلاً من الملك الوحيد الذي يُحسب له حساب: ملك إنكلترا.

المدرسة الإنكليزية في القاهرة The English School, Cairo التي كنا ندرج إليها بعد تخرّجنا من المدرسة الابتدائية كانت امتداداً للنمط نفسه. فتيات المدرسة الثانوية كن يرتدين تنانير رمادية،

والصبيان سراويل رمادية ـ قمصان بيضاء، ربطات عنق وسترات رمادية. في الشتاء كنا نضع قبعات البيريه، وفي الصيف قبعات قش. كنا نُقسم إلى بيوت طلاب متنافسة، لكل منها شارته وربطة عنقه. بيوت الطالبات كانت تسمّى بأسماء الدوقيات الإنكليزية: وندسور، كنتْ، غلوسترْ، يورك، بينما تكنّى بيوت الطلاب بأسماء أبطال إنكلترا التاريخيين أمثال رالي، دْرَيك، غرنْفيل، وفْروبيشرْ. كنا نتعلم لعبة الهوكي وكرة الشبكة وكنا نُدرَّب ليس فقط على الفن الرفيع في لعب الكريكتْ بل حتى على الفنّ الأكثر دقّة، ألا وهو استحسانها وتشجيعها ـ فهي تتطلّب نوعاً من التصفيق المهذّب بدلاً من الهتاف الحماسي المسموح به لتشجيع مباريات الرياضات الأخرى من جري وقفز وغيرهما. كما كنا ندرّب على الأخلاقيات الإنكليزية النبيلة: التمسك بقواعد اللعبة وروحيتها، وعدم إظهار العواطف على قسمات الوجه، وغير ذلك. إضافة إلى تعلّم آداب السلوك الإنكليزية والتصرف في المجتمع، مما كان يتسبب في نتائج هزلية صاخبة أحياناً كما حدث عندما طُلب إلينا أن نأكل التمر بالشوكة والسكين.

كان منهاج المدرسة يُعدّنا لتقديم امتحانات نيل شهادة الدراسة العامة (GCE)، والتي كانت تأتي من إنكلترا ثم تعاد إليها للتصحيح. بحسب معلوماتي، الامتياز الوحيد لكوننا في مصر كان في الاختيار الذي قرّرته المدرسة بموضوع امتحانات الجغرافيا في السنة التي نلتُ فيها شهادة الدراسة العامة. فبدلاً من السؤال عن وادي نهر الراين كان الامتحان عن وادي النيل؛ كلا السؤالين كانا

يُطرحان من قِبَل الهيئة الفاحصة على مستوى مسطّح تحتل فيه كل المواقع الجغرافية مركزاً مشابِهاً في وَعْيِنا، كوننا نعيش في مصر ونشكّل جزءاً منها كان حقيقة ثانوية: الحياة الحقيقية كانت محدّدة بكونها تتمحور حول الجزر البريطانية.

أستعيد تلك الأيام الماضية بالكثير من المرح الحنون لأنه، بالرغم من كل شيء، أفادنا هذا التثقيف المنطوي على مفارقات تاريخية إفادة جيدة. وإذا كان يبدو من المضحك أننا لم نُلقّن تاريخ مصر أو العرب إلا من وجهة النظر الأوروبية وكحواشٍ لتلك الفصول في كتبنا المدرسية التي تحمل عنوان «المسألة الشرقية،» فإن الدراسة المكثفة للتاريخ الإنكليزي علّمتنا الكثير: المنهج في الدرجة الأولى، والتحليل في الدرجة الثانية، ثم القياس، وحتى لو كانت دراستنا تدور حول الفضائل الملكية التي تجلّت في عهد الملكة إليزابيت الأولى، فمزايا حكامنا كانت حتماً موضع شك. وإذا كنا ملزمين أن نحفظ غيباً وبصورة مطوّلة التاريخ المعقد لحركات الإصلاح الإنكليزية في القرن التاسع عشر، فذلك ساعد في توضيح الإصلاحات العاجلة والمتعدّدة التي كان المجتمع حولنا يطالب بها.

لم يعلّمونا الأدب العربي، وأسماء كبار شعرائنا ظلت بالنسبة إلينا في ذلك الوقت مجرّد أسماء فقط، ولكن دراسة الأدب الإنكليزي، الذي تعلّمناه كما يجب وبعمق، لم يكن بأقل أهمية. صحيح أنه عرّفنا بالقبّرة والعندليب والنرجس البرّي والورد الإنكليزي، وتركنا جاهلين لحيوانات وطيور مصر ونباتاتها، وجعلنا

نفكّر تبعاً للفصول في إنكلترا وليس في مصر، مما تركنا غير منسجمين مع مناخنا. على وجه المثال كان هناك قصيدة علينا أن نحفظها غيباً. كانت تتكلم عن شهر نوفمبر/تشرين الثاني وصوّرت ذلك الشهر بأنه معاناة كئيبة ممطرة إنكليزية صرف. الواقع أن شهر نوفمبر هو أحد أجمل أشهر السنة في القاهرة، وكون هذا الوصف السلبي جدّاً له كان مناقضاً للحقيقة الواقعة لم يبدُ لنا، لسبب ما، بأن له أهمية. ولا أدري إذا كنت قد لاحظت هذا التناقض في ذلك الوقت. فكنّا كمن يعيش في عالمين في الوقت ذاته، الواحد منهما لا يتعدّى على حقيقة الآخر، بل كنا معلّقين في اللاواقع تماماً.

ومع ذلك، فدراسة الشعراء الرومانطيقيين يشيدون بجمال الأرياف الإنكليزية، التي لم أكحل عيني بمرآها، علّمني أن أنظر إلى رمال مصر الصفراء، وإلى جبال لبنان المغطّاة بالصنوبر والأرز الشامخ، وإلى زرقة أوراق شجر الزيتون المتلألئة بالفضة، وإلى الزرقة العميقة لبحر المتوسط المتلاشية في ألوان فاتحة حتى الأفق.

اضطراري إلى استظهار الخطابات العظيمة في هاملت وماكبث لشكسبير علمني أن أفكّر بذُرى الإنسانية وكذلك بأعماقها، والتعرف وتفحّص الدوافع، وكره الطغيان والظلم في كل أشكاله. قرأت روايات تشارلز ديكنز وشاهدت بعينين أكثر حدة القذارة والفساد والرياء حولنا. قرأت جوناثان سويفت أحد كبار الساخرين، وفي النهاية تمكنت أن أتوصّل إلى النظر إلى العالم بعين الهجّاء، هذا العالم الذي خان مثله العليا.

في هذه الأثناء ظلّت هناك مجموعة مفارقات تتعايش في

حياتي، ولو بدرجات متفاوتة. فإذا كانت الإنكليزية اللغة التي أستسهل أكثر، فغنى اللغة العربية وجمالها وتنوّعاتها كان يجتذبني على الدوام. والداي وبالأخص والدتي بذلت الكثير من الجهد لكي نتعلم العربية، ولاحقاً سعى كل منا لاكتساب طلاقة وفصاحة أكثر في هذه اللغة الرائعة التي تطوّر حبنا لها مع مرور السنين. وإذا لم نكن قد تعلّمنا الأدب العربي في المدرسة فتقاليدها وأشكالها ستغدو مصدر إلهام لنا فيما بعد. وجمال فنّ الخط العربي تجلّى لنا في البدء من خلال جمال خط والدتي المتقن، وكان النموذج الذي اتّبعناه في تعلّمنا الكتابة، وفيما بعد، طبعاً، في روائع الفن الإسلامي العظيمة.

ولا يسعني في هذا السياق إلا أن أذكر بشيء من المرح أنني من خلال أفلام سينمائية وكتب عن روبن هود وغيرها من المصادر، وربما من دراساتي للتاريخ في المدارس، سمعت لأول مرة عن صلاح الدين. بالطبع كان صلاح الدين الأيوبي معروفاً كمثل للبطل العربي في التاريخ، الرجل الذي جابه الصليبين بالجرأة المقرونة بالنبل التي ملأتنا اعتزازاً. المساجد العظيمة وغيرها من الأبنية في التاريخ الإسلامي في القاهرة والقدس كانت جزءاً من حياتي والجغرافيا التي أعرفها. ومضى وقت طويل قبل أن أدرك أن سالادين Saladdin الذي درسناه في المدرسة هو نفسه صلاح الدين البطل الذي نعرفه، ولكن النظرة الشاملة إلى التاريخ هي التي تختلف.

في بيتنا تلقّينا دروساً في البيانو وتعرّفنا إلى أصول الموسيقى

الغربية. ذهبنا إلى الأوبرا وحضرنا بوتشيني وفيردي وحتى غرشوين، من تقديم بعض أعظم المغنّين العالميين في ذلك الزمن. والموسيقى العربية، التي لم ندرسها، احتلت أيضاً مركزاً مماثلاً في وعينا، بالرغم من كوننا لم نتعمّق فيها. فالموسيقى كانت موجودة حولنا باستمرار، في الراديو، وفي الشوارع. ووالدتي كانت في بعض الأحيان ترافق أخاها، الذي كان يحسن عزف العود، على الدربكّة، حاملة الآلة في حضنها وهي تتابع الإيقاع بمختلف أساليبه بتحسّب مُرهَف.

ودرست أنا وأخواتي «الباليه» وكان علينا أن نشارك في تأدية رقصات آخر السنة الإلزامية. كنا نلبس الأخفاف الخاصة ونرقص على رؤوس أصابع أقدامنا على أنغام تشايكوفسكي وشوبان. ولكنني شُغفت بأشكال الرقص العربي وكنت أطرب للإيقاع الشعبي في رقصات السيف والدبكة وفوق كل ذلك للبراعة الفنيّة لراقصات فرديات أمثال تحية كاريوكا العظيمة التي شهدتها ترقص ذات مرة، ولا أنسى تألّقها. وأجفل اليوم من رؤية أداء من يسمّونهنّ «راقصات البطن» في الأفلام الغربية وتعاودني على الدوام ذكرى رشاقة تحية كاريوكا الفنيّة.

وإذا كنا نذهب إلى الأوبرا بانتظام، فقد كنا نذهب أيضاً إلى المسرح، حيث كنا نتملّى التقاليد المضحكة المصرية المرحة. في تلك الأيام كانت السينما الأميركية تسيطر على شاشات القاهرة. وكانت الأفلام المصرية حينذاك تُشاهد في دور السينما الرخيصة ويُعلن عنها باقتضاب وبساطة بأنها «فيلم عربي» كأنه ليس من

الممكن لأي عنوان أن يحررها من كونها منتجةً محلّياً. وحبّ المسرح المصري الضاحك أدّى بي فيما بعد إلى الإعجاب بالأفلام المصرية وأن أشكو، كما ما زلت أفعل، بأنها بين الأقل تقديراً في السينما العالمية والأكثر بخساً لحقّها.

وكنا نذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، إلا أن صوت الأذان المُنبعث من المآذن كان جزءاً متمّماً من حياتي بقدر ما كان عليه المغيب أو الهواء الذي أتنشّقه. وكنت في بعض الأحيان أرقب أحمد السفرجي، وهو يصلّي في البيت، صامتة أشعر بتقواه وإيمانه. وخلال شهر رمضان كنت أقف على الشرفة عند المغيب وأنتظر، كما لو كنت مسلمة، صوت مدفع الإفطار يدوي من بعيد، فوق صمت الانتظار الذي كان يغطي المدينة وكأنّه ملموس. العديد من صديقاتي كنَّ مسلمات، وكثيرات كنَّ يهوديات، وغيرهن كنّ ينتمين إلى مذاهب مسيحية مختلفة، بحيث أن التعايش الديني في تلك الأيام لم يكن مسألة نظرية أو مبدأ أو عقيدة. بل كان بكل بساطة، طريقة العيش، وكان سائداً بشكل طبيعي فيما بيننا حتى أنني لم أشعر به إلا بعد أن أصبح مهدّداً فيما بعد.

كنا نذهب إلى مختلف الكنائس في القاهرة: الكنيسة الأميركية الإنجيلية، كنيسة القديس أندرو الأسكتلندية، ولكن في أكثر الأحيان إلى كاتدرائية جميع القدّيسين، الكنيسة الإنكليزية التي تمثّل روح الوجود البريطاني في مصر. في هذه الكاتدرائية ذهبت إلى مدرسة الأحد وتعلّمت أصول الدين شفهياً وأخيراً مُنحت التثبيت على يد مطران الكنيسة الأُسقفية للشرق الأوسط. وفي الكاتدرائية

تشرّبنا مرّة بعد المرّة الإيقاع العظيم للغة الإنكليزية ورنينها، يلقيها على نحوٍ كامل وبكل موسيقاها وجلالها القساوسة الإنكليز والمطارين الذين كانوا يرأسون القدّاس.

ووقع حادث خلال أزمة السويس ظل بارزاً في ذهني لأنه للمرة الأولى تبيّن لي أن العلائق بين هذه المجموعات المختلفة التي تميّزت بهذا النوع من التعايش الهنيء في حياتي أنا كانت منحرفة إلى أقصى حد. ومع أننا لم نتناقش قط في السياسة في البيت أو في المدرسة، كان من المستحيل في أيام أزمة السويس أن لا نفعل ذلك. عندما أمّم قنال السويس كنت في الخامسة عشرة من عمري وبدا لي، بكل بساطة، أن هذا التأميم عمل عادل للغاية. وعند حدوث الغزو المشترك البريطاني والفرنسي والإسرائيلي لمصر بعد التأميم كنت ساخطة ناقمة. وبسذاجة نابعة من الثقة التامة بهؤلاء الذين لقّنوني التقيّد بقوانين اللعبة المشروعة ومبادئ العدالة التي نشأت وتطوّرت في المجتمع الإنكليزي والتي ظلت على مدى تلك المدّة هدف دراساتي، افترضتُ بأن البريطانيين، على الأقل هؤلاء الذين يعيشون في مصر، يشاركونني سخطي ونقمتي.

اندلعت حرب السويس وأخذ البريطانيون الذين كانوا يعيشون في مصر بمغادرة البلاد. المدرسة الإنكليزية أغلقت أبوابها؛ وسوف تفتح قريباً ولكن تحت إدارة مصرية واسم جديد: «مدرسة النصر.» صديقاتي وأنا قمنا بزيارات وداعية إلى معلّمينا ومعلّماتنا. كنا حزينات لمغادرتهم ولكننا لم نكن ندرك خطورة الوضع حقيقة.

كانت صور عبد الناصر في كل مكان، والأنغام الحماسية الوطنية تنبعث من كل راديو في المدينة. كانت هناك أنوار كشافة في السماء في الليل، وطلينا نوافذنا وأضواء السيارات باللون الأزرق. وانطلقت صفارات الإنذار مع أن المعارك كانت بعيدة، وسوف تتعرّض القاهرة لبعض الهجمات.

يوم الأحد ذاك في بداية الأزمة، كنا في كنيسة القديس أندرو الأسكتلندية. كنت أجلس بين صديقتي وأختي، وضحكنا المخنوق، مثل عدوى منتشرة، تظهر عوارضها في اهتزازات أكتافنا ونخرات غريبة. رؤوسنا كانت محنية بتقوى مزيّفة وخشوع كاذب، وأيدينا تضغط على معداتنا لئلا ننفجر ضاحكات، وشاعرات ـ مع أننا كنا نحاول أن نُظهر العكس ـ بتقطيب وجهي والدينا ونظراتهما الجانبية المؤنّبة.

ووقف القسّ على المنبر، وبلهجته الأسكتلندية الكثيفة راح يُرعد، بقدر ما كانت قامته الهزيلة تسمح له أن يُرعد ويتوعّد، مردّداً العبارات القديمة من سفر «الخروج» التي تروي قصة انهزام جيش فرعون.

ما إذا كان قد لوّح بقبضته علينا أم لا، متسلّحاً بسلطة العهد القديم الرنّانة، كل ما أذكره عنه أنه ألقى عظته تلك عن هذا الموضوع، وأظن أنه رأى نفسه كتجسيدٍ للامبراطورية البريطانية المظلومة، وهي بصدد الثأر لنفسها، والله إلى جانبها.

«وضرب الله المصريين،» صاح بلكنته الأسكتلندية المميّزة. والمضحك فعلاً في تلك التمثيلية المرحة كون هذه اللهجة القتالية

غير المألوفة تأتي من فم رجل عُرف بخجله ولطف كلامه ورقّته وتلعثمه وتردّده في بعض الأحيان. ولكنه وقف أمامنا الآن وقد تغيّر مظهره من فرط غضبه وسخطه وإحساسه بأن كتابه أعطاه الحق بأن يقول بلغته: «وضرب الربّ المصرين.»

إلا أن سخرية هذه الكوميديا وطرافة الحادثة قلّلتا من سخطنا وغلّبتا روح النكتة على الشعور بالإساءة التي سبّبها لنا باسم الحق والسلطة الربّانية. ولطّفت الكوميديا من حدة هذه الكلمات الجارحة. والشعور بأن ثقافة بكاملها يمكن أن تُسخّر وتُطلق مثل أفعى عملاقة تقرصنا عشوائياً، كان شعوراً جديداً بالنسبة إلينا، وإن لم يكن ذلك جديداً بالنسبة إلى أهلنا؛ ولكن في هذا الحين كان لنا وقايتنا من شقاوتنا، والضحك كان سلاحنا القاطع.

أمّا فيما بعد، فلم يعد ممكناً قتل الأفعى بهذه السهولة.

(٣)

بعد إنهاء السنة المدرسية في مدرسة النصر، والتي تضمّنت معلومات مختصرة عن التاريخ الحديث ـ بالأخص تقريراً عن الاستعمار البريطاني ـ توجّهت إلى الولايات المتحدة لدراستي الجامعية.

قبل الجامعة كانت رحلتي الوحيدة إلى أميركا عندما كنت في السابعة وأُرسلت إلى مخيم صيفي في ولاية «ماين.» وأذكر بلذّة كبيرة تقاليد المخيم الصيفي، التجذيف والسباحة في البحيرة، المشي في الهواء الطلق واكتشاف الطبيعة وأمسيات نيران المخيّم،

الأكواخ المبنية من جذوع الأشجار وبيوت الخلاء المعزولة بقربها، والبعوض ونبتات اللبلاب السامة (وقد حاولت في وقت لاحق، بدون نجاح، أن أنفخ في أولادي حماستي ذاتها لهذا النوع من المخيمات)، ولكنني لا أذكر شيئاً آخر تقريباً عن أميركا في تلك الرحلة.

منذ بدء وعيي لها بدت أميركا لي من خلال أساطيرها التقليدية؛ بلاد الفُرَص، والحرية والمساواة والعدالة للجميع. معظم هذه المثل نقله لي والدي الذي ذهب إلى الولايات المتحدة في مطلع صباه وقضى سنينَ هناك قبل أن يعود إلى فلسطين. وفي يوم الشكر كنّا نذهب إلى الكنيسة الأميركية في القاهرة، حيث تعلمنا ترتيل God of Our Fathers وبعد ذلك كان الغداء ديكاً رومياً وبطاطا حلوة. وفي الرابع من تموز/يوليو كنا نشارك في احتفالات السفارة الأميركية في الهواء الطلق، حيث كنا نأكل «الهوت دوغ» Hot Dog وحبوب الذرة المحلاة ونتفرّج على الرقصة التربيعية.

هوليوود أعطتني الانطباع بأن الشعب الأميركي شعب جميل، الكثيرون منهم ذوو أصوات جميلة يعيشون في بيوت جميلة. ولمناسبة عيد ميلادي بعد أن تعلّمت القراءة أعطيت مجموعة من السِّيَر المقتضبة عن رجال عظام، ولا ريب أن الناشر كان أميركياً فجميع الرجال العظام فيها كانوا أميركيين. وكان من تلك المجلّدات العاطفية التي تناسب فتاة في عمري، مع العديد من الصور البهيجة: لنكولن، طبعاً، واقفاً أمام الكوخ المبني من جذوع الأشجار، وبِلْ وإديسون واقفين بتعجّب أمام اختراعاتهما.

واشنطون كان يركب حصانه وينظر إلى الوراء على أمر لفت انتباهه غير أنني لم أستطعْ تمييزه مع أنني حاولت جهدي. جفرسون وفرانكلين كانا دون ريب يوقّعان وثيقة إعلان الاستقلال، ومع أن المعنى الدقيق لهذه الوثيقة فاتني، كنت متأكّدة أنها سامية جدّاً ولها علاقة بالحرّية.

ونتيجة كل ذلك، كنت أفكّر في الأميركيين على أنهم هؤلاء الذين كافحوا ضد العبودية، وليس كهؤلاء الذين كانوا يمتلكون العبيد. أمّا عن سكان أميركا الأصليين وتاريخهم المأسوي فلم أكن أعرف شيئاً اللّهم ما عدا الذي علّمتني إياه هوليوود ـ أنهم كانوا جماعة متوحشين نصف عراة، شرسين، يصبغون وجوههم وأجسادهم بشكل مرعب ويرتدون أقنعة مضحكة مصنوعة من الريش، وأنهم كانوا ـ إذا تكلّموا على الإطلاق ـ يتفوّهون بلغة إنكليزية خاصة بهم. وكانوا ينقضون ـ بلا سبب وهم يطلقون صرخات دموية ويلوّحون بفؤوسهم ـ على النساء الضعيفات والرجال الشجعان كما أرتنا الأفلام السينمائية، ويحرقون كل شيء ثم يختفون وهم ما زالوا يطلقون صيحاتهم، تاركين وراءهم خراباً يتصاعد منه الدخان وأجسام القتلى، مع طفل صغير يبكي قرب أحد الموتى في غالبية الأحيان. ومضى وقت قبل أن أحس بالتعاطف العظيم مع الأميركي الأصلي، ليس فقط لخساراتهم التي لا تُقدّر وتحويلهم من شعب معتزّ حرّ إلى وضعهم الحالي، بل كذلك إلى الطريقة التي جُرّدوا فيها من كل شيء في هذه الأفلام والتصاوير وحُرموا حتى من الكرامة التي قد تعوّضهم عن تلك الخسارة.

أيام المدرسة نادراً ما كنا نذكر الولايات المتحدة، وعندما كان هناك ذكر لها، في دروس الجغرافيا مثلاً، كان المعلمون والمعلمات يلفظون أسماء الولايات والمدن بطريقة تختلف عن تلك التي يلفظها بها أهل تلك البلاد. وكنا نهزأ من طريقة لفظهم لبعض الكلمات، دون أن يخطر على بالنا أن طريقة اللفظ للكلمات ذاتها أو ما يشابهها ـ والتي نستعملها كل يوم ـ ليست أقلّ غرابة وشذوذاً من القواعد.

في التاريخ، أُدرجت أميركا تحت الفواصل المكرّسة لعصر النهضة، وكريستوفر كولومبس كان يوصف على العموم بأنه أحد أفراد المعارضة الذي قدّم الغنيمة إلى الكاثوليك. كان الأبطال، بالطبع، درايكْ ورالي وزملاءهما في القرصنة، الذين استطاعوا بمراكبهم الصغيرة ومهاراتهم البحرية أن يتغلّبوا على المراكب الشراعية الحربية الإسبانية الضخمة. وأذكر في هذا السياق أننا أُعطينا قصيدة طوية للشاعر جون مايْسْفيلد كي نحفظها غيباً لأنها تتضمّن وصفاً لتلك المراكب الشراعية الإسبانية وعظمتها ورغم ذلك استطاع الإنكليز التغلب عليها.

غالبية أساتذتنا كان لهم ماضٍ استعماري، وعلّموا في مستعمرات بريطانيا في إفريقيا أو آسيا قبل مجيئهم إلى مصر؛ مُمْباسا، وليس نيويورك، ونايروبي ودلهي، وليس بوسطن وسان فرنسيسكو ـ هذه كانت الأسماء المألوفة لديهم. وعندما درسنا الثورة الأميركية، كان ذلك من منظار الملك جورج، مع فقرة أو فقرتين كتمهيد لذلك الحدث العظيم الذي هو الثورة الفرنسية.

وحتى الثورة الفرنسية نظرنا إليها بأعين إنكليزية، مثل كتابات ادموند برك أو ديكنز.

وهكذا، عندما وصلت إلى أميركا أخيراً، لم أكن مستعدّة لحقيقتها على الإطلاق. كان ذلك في أواخر الخمسينات، وكنت في طريقي إلى الجامعة. ولن أطيل الكلام عن الصدمات المألوفة التي جابهتني بها أميركا. بالدرجة الأولى على ما أعتقد، دهشت لضخامة حجم كل شيء، الشوارع، الأبنية، السيارات، وأكواز المرطبات المثلجة والناس أنفسهم. وشعرت كأنني مثل «غاليفر» في بلاد العمالقة، وأعتقد أن هذا ما يشعر به كل من يزور أميركا للمرة الأولى. كما أنني لن أتوقف مطوّلاً عند الصدمات الشخصية التي واجهتها كفتاة آتية من كنف مجتمع محافظ إلى أقصى حد وانغمست بصحبة فتيات نشأن في غاليتهنّ في نيويورك وضواحيها. وأتذكر المرّة الأولى التي رأيت فيها فتاة من عمري تطال سيجارة وتشعلها. كاد يغمى عليّ. ولم تفعل ذلك باسترقاق، أو تلتفت حولها، حتى ولا بتحدٍّ جريء، بل فعلت ذلك بكل بساطة وطبيعية. وبعد ذلك، وعندما اقترحت مرة صديقاتي الجدد أن «نخرج معاً» وجدت نفسي في أحد البارات. وبينما كنَّ يشربنَ بيرة كنت أنا جالسة يلفّني الوَجَل، وقدح البيرة أمامي لم يُمسّ، شاعرةً بأنني قد دنّست شرفي إلى الأبد. وبعد ذلك أيضاً استطعت أن أفهم نوع العلاقة بين تلك الفتيات والرجال ـ وهو أمر غير قابل للتصوّر بالنسبة إليّ في ذلك الوقت.

ومع ذلك، كان من الممكن تحمل تلك الصدمات بفضل

الأعراف والتقاليد الاجتماعية التي نشأت عليها. فتقاليد أجيال كان باستطاعتها أن تصمد أمام الهجمات الضارية. ولكن القراءات هي التي غيّرت جذرياً الطريقة التي أنظر فيها إلى الأمور، في بلادي، وفي الخارج، وتغلغلت ليس في العالم الذي أتيت لأعيش فيه فحسب ولكن العالم الذي تركته أيضاً. وبعينين جديدتين أعدتُ تقييم كل شيء ووجدت نفسي متآلفة مع الثقافتين وبالوقت ذاته غريبة عنهما.

كانت أميركا في صدد تجريد ذاتها من الأساطير يحثّها على ذلك حركة الحقوق المدنية التي ازدهرت في ذلك الحين: ليتل روك (المدينة التي شهدت أول اختلاط للسود مع البيض في المدرسة وبحماية أمنية) كانت محور الأخبار حينذاك. مادة الإنكليزية للسنة الجامعية الأولى المقرّرة لي صُمّمَتْ لكي تهزّ فتيات الطبقة المتوسطة الأميركية من حالة اللامبالاة والرضى عن أنفسهنّ، وجرفتني الموجة مع هذا التيّار. وإذا تعلّمتَ مرة أن تنظر إلى أسطورة وتفهمها على حقيقتها يصبح من ثاني المستحيلات أن تحترم أخرى غيرها.

دراستي للكاتب هـ. ل. مِنْكِنْ (وللمناسبة، تعرّفي إلى تعبير «مُحطّم الأيقونات المكرسة») كانت ممارسة فكرية لم تصدمني بالقدر الذي فعلت مع الكثيرات من زميلاتي في الصف، لأن مواضيعه كانت في غالبيتها أميركية صرف إلى درجة أنها لم تكن مألوفة لدي. ما همّني هو الطريقة التي حطّم بها «الأيقونات،» المعتقدات الأميركية؛ وبوجودي هنا في بيروت بعد ذلك بعقود

فإنني أشعر بالغياب الحقيقي في المحيط الفكري لأي شيء يماثل فظاظته الساخرة، لأنه يوجد هنا عدد غير قليل من الأيقونات المكرسة على المستوى السياسي والثقافي والاجتماعي والجديرة بأن تُحطَّم.

ودراستي لجايمس بولدوينْ وهو روائي أسود أجبرتني على التفكير ليس فقط في الظلم والجور الذي عاناه الأميركيون السود ومطالبتهم بالتعويض، بل أيضاً في المصير المحزن لجميع المقموعين في أي مجتمع كان بسبب خلافاتهم مع أكثرية مناهضة، ودراستي لشعر إِيْ. إِي. كمينغزْ ومقال جورج أورويل «السياسة واللغة الإنكليزية،» كذلك كتابه «١٩٨٤،» جعلني أدرك الأهمية الكبرى للغة واستعمالها كأداة سلطة ذات قوة هائلة، وكتعريف لاستقامة الرأي وقبوله.

كتاب برتراند رسّل «لماذا لستُ مسيحياً» وغيره من المقالات، وكتاب فرويد «محاضرات تمهيدية عن التحليل النفسي،» ومسرحيات إِبْسِنْ بالأخص «بيت دمية» و«أشباح» بالإضافة إلى المجلد الملحق، كتاب شو «خُلاصة آراء إِبْسِنْ» كانت، على ما أذكر، المنجنيق الذي حطّم من أمامي الأبواب الفكرية والمعنوية. لم يعد بعدها وارداً لديّ أن أقبل دون سؤال بأية معطيات عن المجتمع الذي نشأت فيه. وهكذا، هدم البيت الذي تربّيت فيه حجراً بعد حجر. كان من الأسهل بعد ذلك أن أقبل وأُعجب بهذه المظاهر من أميركا والتي لولا ذلك لبقيت عبارة عن غوامض غريبة - النضال من أجل المساواة؛ الفعالية العملية لحياة يتولّى فيها كل

فرد إنجاز ما يحتاج إلى عمله بنفسه، غير مقيّد بالكياسات والأعراف الاجتماعية؛ وشجاعة أفراد يسعون إلى تحقيق مثلهم العليا، ويدفعون ثمن ذلك غالياً أحياناً؛ والعلمانية التي تصون المعتقد الشخصي؛ والانفتاح الذي يميّز العلائق الشخصية؛ والفكرة، مهما كانت سيئة التطبيق، عن المساواة أمام العدالة؛ والعقلانية والبرغماتية؛ والتطلع الدائم نحو المستقبل، مثل روّاد الفضاء الذين باشروا رحلتهم آنذاك والذين جسّدوا هذه الفكرة، بإمكاناتها التي لا تُعدّ من الهلع الممزوج بالأمل، بدلاً من الالتفات إلى ماضٍ طاغٍ دائم الحضور.

ومع ذلك، لم يُستمل إلا جزء منّي فقط وبفضل ما علّموني إياه في طفولتي، سيظل هذا الجزء من تأثير المنهاج الثقافي الغربي على الدوام، مغترباً عن القيم والأعراف التي ورثتها عن أسلافي. والجزء الآخر مني مُنَفّر إلى أبعد حدود من الثقافة المقتبسة ويتشبّث ـ بولاءٍ تدعمه الاختبارات وفشل التواصل ـ بذلك الشعب الذي تم التفريق ما بيني وبينه وقيمه وتاريخه.

والابتهاج الذي غمرني عندما وجدتني في عالم جديد عكّره لا الحنين الطبيعي إلى الدفء المنزلي فحسب. بل وجدتني، بمرور السنين واتساع حلقة معارفي واختباراتي، سعيدة بصداقاتي الشخصية ومشاعر العطف، ولكن ذلك كان مشوباً بضغينة وامتعاض. اكتشفت هناك صورة عن العالم العربي انطبعت في الذهن الأميركي، أقل ما يقال فيها أنها عدائية. كانت صورة عن همجية وظلم، وجهل وبربرية ومكائد شريرة ووثنية وكذب واستجداء

وجشع. وكنت أُصدم بهذه الصورة، المرة بعد المرة، تروّعني ضراوتها وشرّها، في التلفزيون والعروض والأفلام وفي الكلمات المتقاطعة ومسلسلات الرسوم الهزلية والروايات والمسرحيات، وفي كل مرة كنت أحسّ بالجرح مجدّداً.

وفي مواجهة هذه الصورة كان عليّ أن أقيس حقيقتي أنا. وأصبح جزء جوهري من حياتي أن أدافع عن نفسي - فذلك الهجوم كان وابلاً شملني أنا وكل الذين أعرفهم. وفي سياق دفاعي كان لزاماً على أن أتمعّن بوجودي ذاته. وفي النهاية أصبح جزءٌ منّي مثبّتاً في وقفة تحفّز دائم للملاكمة وغير قابل للاسترخاء، لئلا يسدّد الخصم الذي أعلن نفسه ضربة مميتة. وأصبحت أكثر تعلّقاً بكل ما كان يسيئون فهمه وينكرونه. وفي التزامي الدفاع عن ثقافة بكاملها ضد اتهامات غير دقيقة كان عليّ أن أوضّح أفكاري عنها وبالتالي التعرف إليها أفضل مما كنت فعلت بدون هذا التحريض؛ لانتقاء المزايا الأفضل من الأسوأ وبالنظر إليها بعطف متزايد. وهكذا صرت رهينة ماضٍ ربما كنت تحرّرت منه، أو خلعته عنّي مثلما تخلع الحية جلدها القديم عنها، لو أنني تُركت لأمري. ولكن تحت الهجوم، كنت أنا والماضي مكبّلين معاً بقيد واحد.

وبقيت حتى اليوم بعقل وروح منقسمين، الجزآن مني مشتبكان الواحد بين ذراعي الآخر، في إحدى الفترات يتعانقان بحرارة، وفي الأخرى يتصارعان معاً صراعاً يائساً، يتنافسان على السيطرة. ويظل الجزآن متساويين في القوة، وإذا برز أحدهما منتصراً مرّة فمن المحتوم أن ينبري له الآخر ويرميه أرضاً، ويعاود الصراع مجدّداً.

إنهما ضدّان متشابهان تماماً، مرايا متعاكسة كل واحد منهما يعكس حقيقة الآخر، ولكن كل واحد منهما يُظهر الآخر كأنه غير حقيقي، غير كامل، ممسوخ. ولا أدري إذا كان من الممكن لهما أبداً أن يسترخيا ليؤلّفا مركّباً أكثر إنتاجاً إلا أنني أعرف أنه لو كان ذلك ممكناً لشعرت أنا بالطمأنينة وكان مستقبلي أكثر غنىً وازدهاراً.

وحدثت نقطة تحوّل في ذهني عندما دُعيت ـ أظن أن ذلك كان في نهاية سنتي الجامعية الأولى ـ للمشاركة في بحث مع حلقة من الأشخاص موضوعه مكانة المرأة في العالم العربي. وكانت معلوماتي عن هذا الموضوع شبه معدومة ما عدا ما اختبرته أنا بنفسي: لم يكن لدي إحصاءات، ولا مفاهيم إسلامية عن الموضوع، ولا إحساس من أي نوع عن نتائج التنافس بين الواجبات المهنية والمنزلية وتأثيرها على التقاليد. كنت عبارة عن فتاة غادرت منزلها وغطست في عالم جديد، وصرت أميّز الفارق بين الطريقة التي نشأت عليها والطريقة التي تربّى عليها صديقاتي الجديدات. وصرت أقبل بطريقتهم، بعد أن استفقت من صدمتي الأولى، على أنها طريقة طبيعية بالنسبة إليهنَّ وصرت متحمّسة لتسليتهنَّ بروايات من حياتي أنا، ظنّاً مني أن ذلك سيسلّيهن ويجعلهنّ يتفهّمْن ببساطة، أن هناك طريقة أخرى، وعالماً آخر، ونظرة أخرى إلى الأمور هنَّ غافلات عنها. وكنت قد تغيّبتُ عن بلادي وقتاً كافياً لجعلي أرى أن هناك العديد من الأمور المستغربة، حتى والمضحكة، في الطريقة التي تربّيت فيها. فاستعداداتي لحلقة البحث إذن اقتصرت على التفكير في الفوارق بين حياتي وحياة

رفيقاتي وتجميع بعض الذكريات التي أستطيع بها تسليتهنّ.

أساساً كنت سأخبرهنّ كم كانت حياتي محمية من الرجال وكل ما يتعلق بالجنس: كيف أنني لم أخرج مع شاب قبلاً وكيف أن هذه الأمور هي مما يستهجنه الأهل ولا يسمحون به. بالنسبة إليّ، الفارق الأكثر تأثيراً بين حياتنا وحياتهنّ هو أن صديقاتي الجدد كنّ يتعاطين مع الرجال بسهولة وبساطة: كان بإمكانهنّ التكلّم معهم والضحك معهم دون أي وخز ضمير؛ بينما أنا، فريسة تحالف تزمّتي بين البروتستانتية والإسلام، كنت أُصاب بنوبات شلل خجول مرتبك عند وجودي في تلك الاختلاطات مع شبّان في مستوانا الجامعي ولكن من جامعات أخرى، والتي لم أكن مستعدّة لها على الإطلاق.

وسرعان ما خبا تحمّسي. الحضور الذي بدا لي أكبر بكثير مما يستدعيه الموضوع المطروح للبحث، والذي كانت الوجوه المشجّعة لصديقاتي مرشوشة بين الكثير من الوجوه التي لم أَرَها من قبل، هذا الحضور كان ضيّق الصدر بالموضوع، وعند الانتهاء من العبارات التمهيدية وإعلان افتتاح الجدل، انهالوا عليّ بهجوم من الأسئلة خطفت أنفاسي بالفعل: «لماذا تكرهون اليهود؟» «لماذا تريدون إلقاءهم في البحر؟» «لماذا لا يستطيع مائة مليون عربي ترك مليوني يهودي بسلام؟» «ألم يتألّموا ما فيه الكفاية؟» «لماذا تحرمون اليهود من حقّهم في بلاد أجدادهم؟»

ولوّحوا بقصاصات من جريدة «نيويورك تايمز» واستشهدوا ـ أو ادّعوا أنهم يستشهدون، بأعداد من الكتب والمقالات لأشخاص

لم أسمع بأسمائهم من قبل؛ وحرّفوا تصريحات لجمال عبد الناصر وقذفوني بها؛ وأخذوا التاريخ الذي عشته والذي عرفتُه من كوني عشته فقط ومسخوه وقلبوه وداسوه. لم يكن لدي سلاح أدافع به ما عدا معرفتي التي عشتُها: كان العام ١٩٥٦ ما زال حيّاً في ذهني، وحتى في نظري غير المسيّس للأمور كان تأميم قناة السويس جوهر عمل تاريخي مبرّر وغزو مصر الذي أعقبه على يد البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين لا تجيزه أية أعراف أخلاقية. وكنت في سذاجتي أفترض أن جميع الأميركيين الذي يؤمنون بالحرّية يشاطرونني هذا الاعتقاد. ألم تتدخّل أميركا بقوّتها لتضع حدّاً لذلك الغزو المشترك؟

أما بالنسبة إلى مجمل المسألة الفلسطينية واليهود، فقد كنت أعرف أن اليهود كانوا الضحايا في أوروبا، ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا كذلك في فلسطين: فالحياة المحطمة لجميع أقاربي هناك تشهد على ذلك. وأعرف أيضاً أنه لم يخطر قط على بالي أن أكره اليهود. فذكرى جميع الأولاد والبنات اليهود الذين شاركوا في طفولتي في القاهرة كانت طاغية عليّ، والفارق بين الصهيونية واليهودية واضح تماماً في ذهني. وبالطبع لم يكن لدي أية طريقة للبرهان على ذلك. وإذ أعود بالذاكرة إلى تلك الحقبة الآن، يخيل لي أنني دافعت بشجاعة، ولكن المعركة كانت خاسرة قبل أن تبدأ.

لم يكن لدي تواريخ ولا أسماء ولا خرائط ولا قصاصات جرائد أستطيع بها تفادي هجماتهم. كنت في الواقع جاهلة للسياسة وربما ظللت كذلك لو لم تأتِ هذه الحادثة والآلاف غيرها. فمن

باب الاضطرار كان عليّ أن أفكّر في أشياء ربما لم أكن لأفكّر فيها لو لم أُستفزّ، والمجادلة بقضية، كلما زادت المعارضة العمياء لها، توضّحت لي وبالتالي أصبحت أكثر إلزاماً.

بعد ذلك، وأنا ما زلت في دوار من وقع مرارة ذلك الاختبار، توجّهت إلى المكتبة ودرست التاريخ الحديث من وجهة نظرٍ جديدة تماماً. قرأت عن الإمبراطورية العثمانية وأول اختلاجات القومية العربية الحديثة: قرأت عن مراسلات مكماهون مع حسين، التي يعد فيها بالاستقلال للعرب إذا ساعدوا البريطانيين في قتالهم ضد العثمانيين؛ وقرأت كيف أنه، بينما كانت هذه الوعود تُغدق، كان سايكس وبيكو، الشريكان في الخيانة الملكية، منهمكين بتقسيم خريطة العالم العربي، ودرست «وعد بلفور» وخلفياته وتطوّره، وقرأت عن بدء الحركة الصهيونية، وقرأت عن هرتْزل وغيره. وتتّبعت الأروقة عبر الحربين العالميتين والإنجاز الأخير لإسرائيل. قرأت مذكرات ويوميات وكتباً وصحفاً؛ كنت مصمّمة على ألا أؤخذ قط على حين غرّة. كنت خجلى من جهلي ومصمّمة على تجاوزه. وفهمت أخيراً ما الذي حدث في فلسطين: التواريخ، الأسماء، الرسائل، التصريحات، الوعود، الأكاذيب، المآسي، عرفتها كلّها. أصبحت الآن قادرة على الجدل وتيقّنت أن العقل والمنطق والبرهان التاريخي كانت كل ما ينقصني. ظننتُ أن فشلي كان بسببي أنا وحدي، وأنني لو كنت أفضل استعداداً لكانوا فهموا القضية كما يجب أن تُفهم.

ولكن الاكتشاف الأكثر مرارة كان أنه، بالرغم من المعرفة التي

اكتسبتها عن التواريخ والأسماء والأمكنة، وبالرغم من منطق التاريخ الذي أصبح الآن ورائي، لم أكن في وضع أفضل في المجادلات التي جاءت فيما بعد. هذا النوع من العداء، على ما يبدو، لا يُرَدّ بالبرهان ولا بالجدل. إنه قائم على أمر غامض غير ملموس، قريب جداً من الأساطير، التي هي بدورها ذات مناعة ضد المنطق.

ظللت في أميركا أكثر من عشر سنوات بعد الجامعة، بعد أن نلت شهادتي البكلوريوس تزوجت وانتقلت إلى بيروت. كنت قد تعرفت إلى زوجي سمير المقدسي في ضهور الشوير، قرية جدتي في لبنان، حيث كنا نمضي فصل الصيف في كل سنة. وكان منزل أهله الصيفي قرب منزلنا، وكان أهله وأهلي أصدقاء قدامى. وبعد زواجنا مباشرة عدنا إلى الولايات المتحدة وسكنّا في إحدى ضواحي واشنطن، العاصمة. والتحق زوجي بعمل مع منظمة دولية، وأنا تابعت دراستي العليا للأدب الإنكليزي. في هذا المكان قضى أولادنا أوائل طفولتهم.

العيش في أميركا في الستينات كان يعني العيش في زمن اضطراب وانتعاش. حركة الحقوق المدنية للسود، وحرب فيتنام والاحتجاجات ضدّها، الحركة النسائية وغزو الفضاء ـ كل ذلك حدث في ذلك الحين. بالنسبة إليّ، كانت هذه الفترة مكوِّنةً للعديد من مواقفي اللاحقة.

بين المواضيع الأكثر استحواذاً في تلك الأيام كانت المطالبة بالعدالة من قِبَل السود الأكثرَ بروزاً. وتتّبعت الجدل بين القائلين إن

الهدف لا يمكن بلوغه إلا عن طريق العنف وبين دعاة اللاعنف. وشهدت قيام ثم سقوط الفهود السود، واغتيال مالكوم إكس وبعد ذلك اغتيال مارتن لوثر كينغ. وشهدت الشغب الذي تلا ذلك، ووجوه العنصريين وكلابهم المزمجرة. ولسوف أبقى إلى الأبد أفكر في العنصرية على أساس تلك الصورة البدائية. وشهدت المسيرات العظيمة والخطب الرنّانة، وقرأت الكثير من أدب الكتّاب السود وحركتهم. وأصبح ذلك بالنسبة إليّ المثل الأكثر تجسيداً للمبدأ الذي طالما تكلم عنه والدي: «يجب أن تقف وتناضل من أجل معتقدك.» كان الناس يناضلون لأجل العدالة ضد قوى مذهلة، مغيّرين العالم بالرغم عنه.

دخلت حرب الفيتنام إلى غرفة الجلوس في بيتنا عن طريق التلفزيون، كما فعلت حركة الاحتجاج التي أثارتها. وشاهدت بشاعة الحرب ووحشيتها وكذلك الاحتجاجات ضدها. وقرأت الكثير عن الجدل العنيف في تلك الفترة، وتوصلت إلى الاستنتاج القائل أن ليس من حجّة تحت الشمس تستطيع تبرير الظلم الذي لا يمكن وصفه لأية حرب.

ولما انفجرت الحركة النسائية، استمعت إلى محاضرات وشاركت في مباحثات محتدمة مع أمهات شابات أخريات عن طبيعة حياتنا وتوقعاتنا. قرأت وناقشت وراقبت بعضاً من صديقاتي ومعاصراتي يَقَعْنَ فريسة الأفكار والأيديولوجيات الجديدة ـ فمواقفهنَّ القديمة التي لم تكن نتيجة تفكير حطّمتها مفاهيم جديدة. ومع أنه بالنسبة إليّ لم تكن الأفكار جديدة، إلا أن التحمّس لها

وتعميمها كان جديداً، وانغمستُ بها كلّياً. خلال كل ذلك توضّحت لي عدة أمور. إذا لم يكن العالم عادلاً، فمن الممكن ومن الضروري السعي إلى العدالة. وإذا كان الجنس البشري قادراً على ارتكاب أبشع أنواع الظلم، فهو أيضاً قادر على خوض أعظم المعارك ضد الظلم. وإذا كانت عدة الواحد من السلاح تضم القنابل والبنادق والسكاكين فهناك عدة أخرى توازيها قوة ألا وهي الكلمات والمنطق والمواقف. وإذا كان التحامل الأعمى يؤدي إلى كره يحده اغتيال، إذن فالتضامن والإيمان بالعدالة يمكنه أن يحطّمه.

في ذلك الوقت، وبلا شك كان هناك سعي إلى العدالة، وثمة تقدّم قد أُحرز في هذا المجال؛ وأن الخير يتغلّب على الشر؛ وأن السلام يحلّ محل الحرب، وأن المثالية والعلوم والعقلانية في تقدّم، وأن كل ذلك يحدث في الولايات المتحدة.

كم كان أفظع وأشد إِرباكاً لي إذن، عندما تفتّقت حرب ١٩٦٧ في الشرق الأوسط عن موجة من الكره الثقافي لا سابق لها في اختباراتي. لم يُستقبل اندحار الجيوش العربية أمام إسرائيل كحدث سياسي أو تاريخي بل كحدث معنوي، كانتصار كينونة ثقافية ضد قوة همجية. وبينما كانت هذه النظرة منسجمة مع المنحى الأخلاقي لتلك الفترة، بالكاد كان هناك أي محاولة أو جهد، حتى من قبل أكثر المعلّقين المحنّكين، بمن فيهم هؤلاء الداعمون لحركات الحقوق المدنية المناهضة للحرب ـ بأن ينظروا إلى الوضع في سياقه التاريخي أو لتوضيح خيوط النزاع. الجماعات نفسها التي نادت صاخبة بطلب العدالة في أميركا غالباً ما بدت غافلة عن الطلبات

الموازية العربية للعدالة؛ وبعد ذلك، وبدون سبب، هلّلوا لاحتلال عسكري كأنه انتصار للروح. ووصف العرب كجماعة أشرار ظالمين، شرسين، ومعركتهم ضد الإسرائيليين ليست إلا بدافع الكره لليهودية والعداء الطبيعي لكل قيم المدنية. قصة فلسطين وظلم وتشريد شعبها أُغفلت تماماً. وكذلك التاريخ العربي والإسلامي وثقافته في جميع أشكالها: العلوم والشعر والفلسفة والتصوّف والهندسة المعمارية ـ اعتُبرت كلا شيء وأُنكرتْ، وصُوّرتْ على أنها دوماً كانت مسيّرة بدافع واحد: إفناء اليهود الذين انتصروا في إحباط المخططات الشريرة ضد وجودهم. وفي هذه الصورة كان هناك خليط بين طلبات العرب للعدالة وبين اضطهاد النازين لليهود؛ ظُهرت المدنية ذاتها وكأنها أُنقذت على يد الجيش الإسرائيلي الباسل، كأنها بطريقة خفيّة تمكّنت من إبطال التاريخ بمفعول رجعي.

وتفنّن الممثلون الهزليون والخطباء بالتنكيت على حساب الجيوش المهزومة، واستجاب لهم السامعون بضحكات عارمة. واستخدم مصوّرو الكاريكاتور السياسي صورة رمزية لتمثيل العرب عموماً وقادتهم خصوصاً: كريكاتور شخص ذي أنف ضخم معقوف وعينين صغيرتين ووقفة شرسة ـ من المهازل أن تلك الصورة شبيهة تماماً بالصورة التي كان أعداء السامية يصورون بها اليهود. اللباس العربي، الكوفية والعقال والعباءة أصبحت رمزاً لكل ما هو مكروه وهمجي. كان ذلك إعلاناً للحرب على ثقافة بأكملها وصُعقتُ من هولها.

بالنسبة إليّ، كان الحضيض الذي بلغناه في تلك الفترة في اليوم الذي فتح فيه الإسرائيليون القدس. فقد بد وجه معلّق الأخبار على شاشة التلفزيون. وكان خالعاً سترته، بدون ربطة عنق: فالخبر الذي سيعلنه من الأهمية بحيث لا يتحمل أي تأخير، وكان في عجلة من أمره لكي ينشر الخبر السارّ دون الاهتمام بهندامه.

كان مبتهجاً، وربما رأى نفسه كملاك إلكتروني في بيت لحم إلكترونية. «القدس،» أعلن بغبطة، «أيها السيدات والسادة، القدس قد حُرّرت!»

حُرّرت؟ حُرّرت مِمَّن؟ وعلى يد من؟ أي عدوّ لهذا الرجل كان قد احتلّها وجرى الآن تحريرها؟ أي طاغية خُلِعَ وتحررت منه الآن؟ ومن كان هؤلاء المحرّرون النبلاء الذين حرّروا القدس من عبوديتها؟ عن أية معركة كنا نتكلم، وبأي إطار تاريخي نستشهد؟

وإذ أقيم اليوم في بيروت بعد سنوات عديدة أسأل نفسي إذا كان ذلك الرجل السخيف الذي احتفل «بتحرير» القدس ما زال يحتفل. هل انفتحت عيناه بعض الشيء منذ ذاك الوقت؟ هل شهد نتائج الحدث وتداعياته، والألم منذ «تحرير القدس» بتعبيره التعيس؟ لقد فاضت دموع القدس حتى غمرت بيروت، والقدس وبيروت مدينتان توأمان في الكرب، القدس هي الخط العمودي، وبيروت هي الخط الأفقي: معاً يؤلفان الصليب الذي نحمله اليوم.

أثناء وجودي في أميركا كوّنت العديد من الصداقات وصرت

أعجب بالكثير مما رأيت. حتى خلال تلك الفترة العصيبة سنة ١٩٦٧ ـ كثيرون من الناس استمعوا إليّ وسألوني. دعيت إلى كنيسة في إحدى الضواحي، غير مرة، لكي أخبرهم عن الوجه الآخر من الصورة؛ وألقيت محاضرات غير رسمية ومقتضبة عن تاريخ فلسطين الحديث. المشكلة الأكثر خطورة التي واجهتها كانت خوف الناس الطيّبين أنهم في استماعهم إلى وجهة نظر عربية، قد يرتكبون جرم التعاطي مع أحد المتعاطفين مع النازية، وكنت أحرص على طمأنتهم من هذه الناحية على الدوام، وصرت أقدر بوجه خاص، وأحبّ الذين كانوا دائماً على استعداد لبذل المال في سبيل قضايا الخير؛ الذين كانت أحذية المشي في متناول يدهم دوماً للمشاركة في مسيرة أخرى في سبيل العدالة. كما أتذكّر أيضاً هؤلاء الأفراد في كنائس الضاحية الذين كانوا يتصارعون بصدق مع قضايا الإيمان. كثيراً ما كان صراعهم شخصياً، مع أنه كان لديهم بعض المشاغل الاجتماعية ليتجادلوا فيها. وأظن أن العديد بينهم شاركوا في المسيرات إلى واشنطن.

هذا الإيمان بالخير المنعش بصفائه ـ وربما المحصور فقط بالأميركيين ـ هذا الإيمان بأنه يمكن للفرد أن يبادر إلى جعل العالم مكاناً أفضل، كان الأكبر إثارة للإعجاب.

هنا، في بيروت، في هذه الحمأة من التقاتل الديني ـ حيث يبدو الإيمان نفسه من أقلّ التفصيل في الصورة، حتى هؤلاء الذين يعتقدون بأن جُهداً ما يتوجب أن يُبذل باتجاه السلام والعدالة، لا يمكنهم أن يؤمنوا بأن النصر النهائي لجهودهم الشخصية ـ هذا

التفاؤل البسيط، واليقين بأن باستطاعة الفرد أن يغيّر العالم ـ يبدو أنه سلاح فائق الأهمية وأنه قد فُقِد.

(٤)

في العام ١٩٧٢ قَبِلَ زوجي مركزاً تعليمياً في الجامعة الأميركية في بيروت. فبعنا بيتنا وانتقلنا إلى بيروت التي كانت وقتها في ذروتها كمركز مالي وتعليمي وفكري وسياسي واجتماعي وسياحي في المنطقة. وكان لنا آمال كبار بأننا، حتى في استمتاعنا بالحياة الاجتماعية، سنتمكّن من المساهمة في تحسين البنية الاجتماعية والحياة الفكرية والتربوية في البلاد. لم نحلم قط حينذاك أن الكارثة المتربّصة بنا ستقع؛ وحتى هؤلاء الذين تكهّنوا بحدوث مشاكل لم يتخيّلوا قط حجمها وأبعادها.

بالنسبة إلى زوجي، كانت العودة إلى بيروت تعني الرجوع إلى الديار ولملمة خيوط الحياة التي خلّفها وراءه. لم يكن هناك أي شك في ذهنه أنه سوف يعود إلى لبنان. بالنسبة إليّ، وبما أنني لم يسبق لي أن عشت في بيروت، فالعودة كانت تعني الأمل بأن أتمكّن من تكوين بيت آوي إليه وأستقرّ فيه نهائياً. وبدا لي أنه من السهل التصوّر بأنني سأفعل لأن العديد من التناقضات التي عانيتها في حياتي بدت وكأنها حُلَّت هنا. فالشرق والغرب ظهرا وكأنّهما يستمتعان بالتعايش بسلام. في طفولتي كان ذلك الوضع السعيد قد ساد عالمي الصغير ولكنه كان خيالياً، غير واقعي، وكانسجام وهمي

لا وجود له في الواقع. هنا في بيروت ظهر وكأنّه يحدث حقيقة، وخلتُ أنّ سعيي إلى أسلوب تعايش مريح بين الثقافتين قد تحقّق.

بيروت كانت مركزاً، وكما يقول البعض، المحور، للعالم العربي. في الوقت ذاته، ربّما كانت الثقافة الغربية أوسع انتشاراً وتمثيلاً هنا من أي مكان آخر في المنطقة. كانت المدارس الأميركية والفرنسية تدرّس العربية وتاريخ العرب، والمدارس الوطنية تدرّس الإنكليزية والفرنسية. الأوروبيون والأميركيون والإفريقيون والآسيويّون كانوا في كل مكان مع أشخاص من كل أنحاء العالم العربي والإسلامي. المكاتب الإقليمية لمعظم الصحف الدولية كانت هنا. المسارح ودور السينما كانت تتناوب على عرض الأفلام والمسرحيات العربية مع الغربية. الكنائس والجوامع كانت متجاورة الواحد قرب الآخر. وكانت القضية الفلسطينية تُعتبر قضية عادلة من الجميع، حتى من الأجانب. وكان الناس يتكلّمون العربية والإنكليزية والفرنسية بين غيرها من اللغات، والموائد ذاتها كانت تباهى بتقديم ألوان طعام غربية ولبنانية. كان هناك صحافة حرّة، وكانت الأفكار السياسية من كل الاتجاهات تُتناقل وتبحث وتجادل علناً دون أية تحفظات. المدارس والجامعات كانت الأفضل في المنطقة، كذلك المستشفيات وكان الموظفون فيها من العرب والأجانب. والمهرجانات السنوية الفنيّة، التي تُقام في هياكل بعلبك الفخمة كانت تضم أعظم الموسيقيين والراقصين والممثّلين في العالم، وكانت ذروة المتعة في حفلات كل موسم اشتراك أشهر المغنّين والمغنيات العرب من أمثال أم كلثوم وفيروز وكذلك

حفلات الرقص الشعبي التي كانت تنفد تذاكر الدخول لحضورها حالما تطرح.

سبع عشرة مجموعة دينية كانت مزدهرة هنا، تضم مذاهب مسيحية وإسلامية وجالية يهودية لا يستهان بها. النظام الطائفي الذي قامت عليه الحياة السياسية، والذي وزّع السلطة السياسية على أساس مذهبي، بدا وكأنّه ينحسر وكان، على كل حال، غير وافٍ ومصطنعاً. وكان السكان يعيشون دون أي التفات للفوارق المذهبية: فالعائلة الواحدة كانت على الدوام ذات صداقات مع أفراد من طوائف أخرى؛ والزيارات التي كانت تُتبادل في الأعياد المختلفة كانت عادات اجتماعية ثابتة. الكل كانوا يحضرون مآتم الجميع وأعراسهم، مشاركين في أية طقوس مفروضة في مناسبتها. والزواج المختلط من طوائف مختلفة لم يكن مستغرباً. العديد من العلمانيين كانوا يتطلّعون إلى اليوم الذي بدا وكأنه قادم حتماً، عندما سيُلغى النظام الطائفي السياسي بكامله.

كانت الحياة الاجتماعية تجمع بين السخاء العربي المشهور ورفعة الثقافة الكوزموبوليتية المنفتحة. وكانت السنن والعادات المحافظة للمنطقة معتدلة بسبب انفتاحها وتأثّرها بالغرب الأكثر ليبرالية وتحرّراً؛ وتوصّلت إلى صيغة وسطية بين الاثنين. بالطبع كانت الحياة العائلية محور كل شيء، والضمانة العاطفية من العائلة الواسعة ـ والتي تشمل أصدقاء الصغر في حواشيها ـ كانت توفّر الراحة والعزاء في الأيام العصيبة.

لست أنوي الادعاء بأنها كانت الحياة المثالية، ولا التقليل من

أهمية تلك المشاكل التي انفجرت بشراسة فيما بعد. ومع ذلك فالتغاضي عن غنى الطاقة المفعمة بالأمل في ذلك المجتمع يكون بمثابة إنكار لجانب من الأسى العميق والحزن والشعور بالقحط لضياعه، والذي أعانيه اليوم.

بعد وصولي مباشرة صُدمت بالتناقض الواضح بين الغنيّ والفقير. ووجود طبقة متوسّطة وهي الأوسع بفارق كبير بين الطبقات، لم يلعب أي دور في تمويه عدم الانصاف الكبير في كلا الطرفين من الميزان. هاتان الفئتان من السكان كانتا ظاهرتين: الواحدة في إفراطها بالتبذير، والأخرى بأحيائها الفقيرة البائسة - إلى درجة أن كلاً منهما كانت تشعر تماماً بوجود الأخرى. وكان الجميع في الطبقة الوسطى شاعرين بعدم الارتياح لهذا الوضع.

وأذكر ذات ليلة استشعاري للطاقة المكبوتة في الحياة التحتية للمدينة. كانت ليلة رأس السنة لعام ١٩٧٤، ولم نكن ننوي المشاركة في احتفالات تلك المناسبة لأن زوجي كان مصاباً بزكام شديد وملازماً فراشه. وقفت على شرفتنا أتفرج على جموع من الشبان - غياب العنصر النسائي بينهم كان لافتاً للنظر - يتدفقون في الشوارع أمامي. لم يكونوا يقومون بأعمال مؤذية، مكتفين بنفخ الزمامير والصفارات والطرطقة على علب التنك الفارغة التي علّقت في ذلك الوقت بأعمدة الكهرباء، والضرب بعنف على أغطية محركات السيارات المتوقفة، والقهقهة والصياح والمناداة أحدهما للآخر بأصوات صاخبة تحدث ضوضاء وجلبة. وكانوا يضعون على رؤوسهم قبعات ورقية ويرمون بقصاصات الورق الطويلة الملتفّة

يتخلّلها في بعض الأحيان رمي قنانٍ فارغة وعلب تنك يلتقطونها من بين النفايات في السلال المعلّقة، مقلّدين هكذا ويسخرية الحفلات الأكثر أناقة وفخامة والتي كانت عامرة في تلك الليلة خلف الأبواب المقفلة في المنازل والنوادي الليلية. ولست ادّعي التنبّؤ بالغيب، ولكنني شعرت بتخوّف عميق تلك الليلة، شاعرة أن احتفالاتهم، مع أنها تبدو مرحة، إلا أنها لم تكن كذلك تماماً؛ وأن الخط الفاصل بين جمهور ضاحك وجموع الغوغاء الغاضبة دقيق جدّاً، وأن أبسط شرارة قد تؤدي إلى تحويل الجمهور المرح إلى مجموع من الغوغائيين الحانقين.

ولم ينقضِ على هذه الحادثة أربعة أشهر حتى ابتدأت الحرب؛ وبإمكاني الافتراض أن العديد من الشبان الذين قاتلوا ونهبوا وتسببوا في الخراب في مستهلّ الأحداث كانوا من بين هؤلاء الذين شاهدتهم ليلة رأس السنة تلك. صحيح أنه كان هناك في الأيام الأولى للحرب، بعض القضايا الواضحة وتصادم الأفكار والقوميات، فقد كان هناك أيضاً نوع من التصريف المعمّم للسخط؛ أو إحباط جماعي ما زال مستمراً حتى الآن وإلى ازدياد. ربما لأن الكثيرين من الشبان الذين يستخدمون السلاح يفعلون ذلك للتفريج عن حنق ضد عالم لم يعاملهم إلا بالسوء، وعندما يطلقون الرصاص فهم يصوّبون على استيائهم وعدم رضاهم بقدر ما يصوّبون على هدف معيّن.

كانت هناك أمور كثيرة أخرى تخيّب أملي وتحبطني، ولكن لم يكن لديّ متّسع من الوقت لتوضيح وترتيب أفكاري بشأنها قبل أن

تدهمنا الحرب. فقد بدت هذه الأمور بسيطة في البداية، ومحدودة، إلا أنها كبرت تدريجاً في تعقيداتها حتى شملت كل مظاهر الحياة والفكر تبعاً لتوسّعها جغرافياً وازدادت حدّة حلقات النزاع المتموّجة في بحيرة من العنف مسبّبة حلقات مماثلة في وجودي وبعثت إليّ بأجزاء مشذّرة من الوعي.

وشيئاً فشيئاً شاهدت انحلال هذه الخيوط المختلفة من الثقافة التي خلتها معقودة معاً بوثوق. وشاهدت بعضاً من تناقضات نشأتي واختباراتي، كذلك تناقضات جديدة، تبرز لتُجابِهَ إحداها الأخرى هنا؛ ووجدت نفسي مغلوبة بالجهد لتدبّر أمر المعارك الداخلية والخارجية. كل مظهر من مظاهر الحرب شعرت فيه من صميم قلبي. كلما سمعتُ حجة إحدى الجهات تُشرَح وتُفسَّر كنت أستبق سماع الجهة الأخرى فوراً؛ والواحدة بدون الأخرى كانت تبدو لي مفرطة البساطة، مزيّفة. لذلك كان بإمكاني أن أقبل أو أنبذ في وقت واحد جميع حجج الحرب وفي الوقت ذاته كنت أرفض الحرب ذاتها بشكل مطلق.

❖ ❖ ❖

عندما وصلت إلى بيروت شعرت بارتياح عميق لكوني هنا في مكان قصة فلسطين الحديثة معروفة فيه ومقبولة ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجميع معارفي. وما عدت بحاجة إلى التفسير باستمرار، أو الاحتراس ضد التحيّز الغادر الذي كثيراً ما أفسد فترات من إقامتي في الولايات المتحدة.

إلا أن شعوري بالارتياح كان قصير الأمد. فبينما كانت الأكثرية العظمى من الشعب تتعاطف مع القضية الفلسطينية إلا أن الإحساس المتزايد بوجود الجماعات الفلسطينية المسلّحة، المتأهّبة للقتال ضد إسرائيل، زادت من حدة التوتّر الذي كانت الأجواء السياسية اللبنانية مشحونة به. وكان الوجود الفلسطيني مبعثاً للرعب بالأخصّ للذين عيّنوا أنفسهم حماةً للسيادة اللبنانية، التي بدأت تُقضم، في نظرهم، من قبل الفلسطينيين، وكذلك الحلقة الأكثر أهميّة التي تربطهم بالثقافة الغربية، والتي شعروا أيضاً أنها مهدّدة. وكان الفلسطينيون مدعومين من اليسار اللبناني، وأيضاً من المسلمين، وكذلك من المسيحيين الكثيرين المعادين للنظام الموجود، وللدور الماروني الذي يملك أرجحية فيه. ورأوا جميعهم في منظمة التحرير الفلسطينية رأس الحربة الثورية التي ستساعدهم على تغير النظام.

في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٥، جرت محاولة اعتداء فاشلة على حياة بيار الجميّل، زعيم ماروني ومؤسّس حزب الكتائب الذي كان قد نظّم جناحاً عسكرياً وقد أصيب فيها أحد المحازبين. بعد ذلك بساعات قليلة كانت حافلة تقل فلسطينيين تجتاز ضاحية عين الرمّانة؛ فوقعت في كمين وقتل ستة وعشرون من ركابها. وحدثت معركة مسلّحة وهكذا بدأت حرب لبنان. بالأساس، كانت الحرب بين مقاتلين موارنة وفلسطينيين، ولكن تباعاً اتّسع النزاع واحتدمت المعارك بين عدد متزايد من الميليشيات من الجهتين.

بالنسبة إليّ، شكّلت الانقسامات العنيفة المتزايدة بين اللبنانيين

والفلسطينيين مشهداً موجعاً مأسوياً. شعرت بأنني ملتزمة مطلب الفلسطينيين بالعودة وبالعدالة. وفي الوقت ذاته شعرت أنه ـ بالرغم من النظام السياسي المنطوي على مفارقات سياسية، والهوة المتّسعة بين الغني والفقير؛ وبالرغم من الحاجة إلى ألف إصلاح عاجل ـ كان هناك شيء ذو قيمة عظمى في لبنان، فوق كل شيء، على ما أعتقد، ألا وهو جو التسامح السائد.

كان من الواجب ألا يكون هناك تناقضات بين المصالح الفلسطينية واللبنانية. على عكس ذلك. بدا لي حينذاك وما زال أن العطف الإنساني في لبنان هو الذي جعل منه المنطلق الطبيعي للجهد الفلسطيني للمطالبة بالعدالة؛ وأنه بدعمه لهذا الجهد يكون لبنان قد حقق قدره. كان الاثنان في عقلي ينتميان معاً، هاتان القوّتان، وقد أبيت سنين عديدة أن أنظر إليهما على أنهما منفصلتان. ففي تقاتلهما الواحدة ضد الأخرى، كانت كل واحدة تخون ليس الأخرى فحسب بل تخون ذاتها أيضاً.

وازدادت الدنيا ظلاماً في عيني أكثر وأكثر على مر السنين إذ أخذ يتّضح لي أن القضيتين اللبنانية والفلسطينية، وهما تعبير رحب لإنسانية مشتركة، قد أخذتا تقحمان في قوالب ضيّقة من القوميات الحصرية التي كان محتماً عليها ـ كما يبدو ـ أن تستمر في خط تصادم قد لا ينجو منه أي منهما.

وفي نهاية المطاف كان الناس من الطرفين، السكان العاديون العُزّل، هم الذين دفعوا ثمن هذا التصادم وثمن كل النزاعات الأخرى في الحرب.

بتطوّر الحرب وازدياد تعقيدها، أصبح وصفها بأنها «حرب أهلية» بين «فئات مسيحية وإسلامية متنافسة» يبدو سخيفاً. فهذا الوصف غفل عن الفوارق الأيديولوجية والطبقية والإقليمية والدولية، عدا عن النزاعات الكثيرة الداخلية والأخوية. ومع ذلك، مثل الكثير من الكليشهات، كان هذا الوصف مبنيّاً جزئياً على الحقيقة؛ ومهما ترددنا في قول ذلك، فمن الواجب الإقرار بأن نزاعاً طائفياً حدث أيضاً.

كان الوجه الطائفي للحرب معقّداً بشكل خاص. كان بالإمكان النظر إليه على أنه منبثق من النزاع اللبناني الفلسطيني، إذ إن الذين كانوا أشدّ استنكاراً للوجود الفلسطيني كانوا مسيحيين موارنة وخصوصاً أن غالبية الفلسطينيين من المسلمين السُنّيين. وهناك الذين يقولون إنه ـ من الناحية الأخرى، ليس النزاع اللبناني-الفلسطيني إلا انعكاساً للانقسام الداخلي بين المسيحيين والمسلمين، الذي بدونه لم يلجأ مسلمو لبنان إلى الفلسطينيين طالبين مساعدتهم في تغيير النظام. بالطبع كان للنزاع الفلسطيني-الإسرائيلي بعدٌ ديني هام، الذي كان في أساس كل النزاعات الأخرى، إذ إن الحصر اليهودي للإسرائيليين كان الموضوع الأكبر. وعلى صعيد آخر، وبمرور الزمن، أصبحت رقعة النزاع المتّسعة تبدو وكأنّها تشمل حرباً ثقافية بين الشرق والغرب، عبارة عن إعادة عصرية للحروب الصليبية؛ مع الغرب، بصفته المدافع عن إسرائيل، يمثل قوة عدوانية تحاول السيطرة على عالم عربي، أو إسلامي.

على كل حال، وخلال السنوات، جرت في لبنان سلسلة مريعة من أعمال طرد فئات كاملة من السكان من مواطنها، وبالنتيجة، صارت البلاد تزداد تقسيماً طائفياً.

أثناء كل ذلك، شعرت أكثر من مرّة بأن الدين، أو الطائفية استخدم بمثابة دمغة أو ختم، شبيه بالميسم الذي توسم به الماشية. وشاهدتُ هذه العملية عدة مرات في الأفلام السينمائية إذ يقوم راعي البقر الكاوْبوي بمطاردة العجل بلا هوادة، ثم يرميه بحبل في طرفه أنشوطة يطبق على رقبته ويُمسك به، ويترجل عن حصانه ويرمي العجل أرضاً. وفي الهنيهة التي يهدأ فيها العجل مستسلماً يُكوى جلده الأسمر بالميسم المحمّى بالنار، ويُسمع طشيش الجلد المحروق، الذي يعني الغلبة والخضوع، يتلو ذلك صيحة ألم: ولدى اكتمال مهمته، وبحركة سريعة يرخي الكاوبوي الحبل ويقفز مبتعداً عن ضحيّته الغضوب التي تهب واقفةً وتنطلق برفض ساخط؛ ولكن على وجه الكاوْبوي ترتسم علامة رضى متجهّمة: فالعجل قد وُسم غصباً عنه، ولم تجده مقاومته نفعاً.

وهكذا نحن جميعاً، شئنا أم أبينا، وُسمنا بمكواة الحديد المحمّاة التي تشير إلى انتمائنا الديني. مؤمنين كنّا أو غير مؤمنين، الواحد مثل الآخر، ومهما قاومنا، فإننا نُحشر في حظائر منفصلة مع المصنّفين مثلنا طائفياً بواسطة الأحداث التاريخية لتلك الفترة. المعتقد والرؤية السياسية لها تأثير أقلّ من التعريف الخارجي أو الوسم.

وبالرغم من أنني، بحسب هذا التحديد، مسيحية فأنا أعتقد أن

الإسلام يشكل جزءاً كبيراً من تراثي، وأنا أجلّه في حدّ ذاته. الحضارة الإسلامية هي حضارتي وأنا مرتضية إياها. أنا ابنة المسيحية والإسلام بالتساوي، ولكنني كثيرة القلق لأن هذا الزواج بينهما في خلفيتي التاريخية مهدّد بالخطر. أنا لا أريد أن أختار بينهما، إلا أن هذا الخيار يُفرض عليّ من عناصر لا أستطيع التحكم فيها بسبب تحوّل المزايا الروحية والثقافية إلى مناخ سياسية وعسكرية وديموغرافية. فالوضع الذي أجد فيه نفسي هو مثل مشاهدتي لاغتصاب ماضيّ. فخذا جسم واحد تُفتحان بالقوة فيربل الغاصب مثل الضحية بالخزي والعار الأبدي.

كثيراً ما رُدّد القول بأن نبوغ الشرق ديني وأنه عبّر عن ذلك باليهودية والمسيحية والإسلام. ولكن في القمم الرحبة السامية للروح البشرية التي تجسّد هذه الأديان ليس هناك إلا أثر ضئيل يمكن العثور عليه في التفسيرات الضيقة العسكرية لهذا الوقت.

وهكذا ارتُكبت أفظع الجرائم باسم الدين. شارات ذهبية عُلّقت حول أعناق السفّاحين بلا رحمة في قلوبهم، أثناء ارتكابهم للمجازر وتدمير المدن والقرى. أنا أرفض أن ألعب لعبة الأرقام: «من الذي ارتكب جرائم أكثر من الآخر؟» هو سؤال غير أخلاقي. «من الذي قام بهذا العمل أوّلاً؟ ومن بدأ أولاً» وهذا أيضاً سؤال لا أخلاقي. «من الذي بدأ بالأعمال الشريرة؟» هذا أيضاً سؤال لا أخلاقي: فمجرّد طرح السؤال يعني ضمناً أن الثاني أقلّ ذنباً من الأوّل. ولكن هذه هي الأسئلة التي كان الناس يطرحونها.

وكيف يعمل الوسم؟ كيف يسقط الإنسان في براثن ذلك

الكاوبوي حامل الميسم المحمّى؟ كيف يشعر الفرد عندما يكويه الميسم ويطشّ لحمه؟ لقد شعرت به أحياناً - في المحادثات ربما، أو من خلال اتّهامات وُجّهت جزافاً وشملتني وأجبرتني على الإنكار وبالتالي استارت سخطي. يمكن أحياناً لتأثير عابر أن يثير معنى الدين وتاريخه ويجعله موضع شك. كما أن بإمكان ذكرى توقٍ أن تفعل ذلك. على كل حال، من الواضح أن جزءاً من هوّية الفرد تتكوّن إذ يكويه الميسم، مهما ناضل ولبط وحاول التملّص.

بند: يستخدم الناس كلمة «مسيحي» في أكثر الأحيان عندما يتكلّمون على أحزاب سياسية معيّنة. يجعلني هذا أرتبك وأتلوّى. فالأمران مختلفان: الأيديولوجية السياسية والتراث الديني الثقافي شيئان مختلفان. ويصح ذلك طبعاً عندما يتكلم الناس على المسلمين. فعلى مدى سنين ظل مراسلو الصحف الأجنبية يتكلّمون على «المسيحيين اليمينيين» و«المسلمين اليساريين،» وكنا نعاتبهم على هذا التبسيط الساذج لتاريخ معقّد لهذه الكليشهات والصيغ المبتذلة التي سقطنا فيها ووُسمنا.

بند: كثيراً ما كنا نجتاز «غربي بيروت المسلمة» إلى «شرقي بيروت المسيحية.» وأعترف، بنوع من الحقد، بأن بيروت الشرقية أكثر نظافة وترتيباً وأهنأ عيشة منها في الجهة الغربية. ولكن بأي ثمن؟ تكوّنت المنطقة الشرقية عن طريق الطرد الإكراهي للذين لم

يكونوا من المرغوب فيهم. لم يكن فيها أحياء فقيرة ولا مخيّمات لاجئين تزعج النظر أو تُغمّ النفس أو تهدد ما يحيط بها. الأحياء الفقيرة والمخيّمات التي كانت هنا هدمت بكاملها ومُحيت آثارها و«طُهّرت» أماكن وجودها. في جونيه كانت محلات الأزياء والمطاعم تزداد عدداً كل يوم، ودور السينما نظيفة فخمة تعرض أحدث الأفلام. كان الناس متأنقين، مصقولين في هذه الأماكن، والجوّ عابقاً بأطيب العطور الفرنسية وأغلاها ثمناً، وليس بروائح الكرنب المهترئ في القمامة كما كان الحال في بيروت الغربية. كانت محلات الأزياء في الأسواق المقنطرة تتكاثر، عارضة أحدث ما أنتجته أوروبا، بينما كانت الأكواخ البشعة تنبثق في المنطقة الغربية. وكانت أسماء العديد من المحلات والمخازن تشابه أسماء مؤسّسات باريسية شهيرة.

هل هذا هو جوهر المسألة؟ قد يُطرح هذا السؤال على الذين دافعوا عن هذه النظرة إلى التاريخ. أهذا هو التراث المسيحي؟ هل هذه جنشماني والجلجلة؟ أين يمكن إيجاد أثر لهما في هذا الحصن المُقام لروح البورجوازية؟ هل هذا ما مات لأجله ألوف البشر ـ أسواق تجارية مقنطرة ومطعم فاخر؟

ومع ذلك لنكن منصفين: كان هناك مطارنة وبطاركة وقسّيون ورهبان، الذين رفضوا كل هذا، والذين نادوا بعودة الإيمان إلى شكله الصحيح. هناك أساتذة وأصحاب محلات تجارية وسوّاقو تاكسي وربّات بيوت وفلاحون وملاكون رفضوا أيضاً. إلى ذلك، هناك أعداد غفيرة من الناس الفقراء هنا، الذين يعيشون بالشقاء

والتعاسة، دون مساعدة أو منفعة من النظام الذي من المفترض أن يكون لمصلحتهم.

كنت دائماً أرتاح عندما أرجع إلى الجهة الغربية من المدينة، بروائحها الكريهة وضوضائها وازدحامها. إنها حقيقية زاخرة بالحياة. لا يعني ذلك أنه لا يوجد أشخاص معصّبون هنا؛ يوجد الكثيرون منهم، ولكن هناك خليط من الناس، والخليط هو الحسن والمقدّس، ليس كقداسة أي من الجهتين والذي تسبب في كل هذا الشقاء والعذاب.

هذا الخليط مهدّد: في الجهة الغربية، خُطفَ مسيحيون وقُتلوا، ونُسفت محلاتهم التجارية. مناطق بكاملها في الجبل وفي الجنوب أُفرغت من أهاليها المسيحيين. كثيرون منهم قُتلوا، والآخرون طُردوا. قرى عديدة هُدمت وأحياناً طُمست آثارها.

ولكن لنكن منصفين. ما زالت أجراس الكنائس تقرع أيام الأحد. شيوخ ورجال علم وسواقو تاكسي وربات البيوت وأصحاب المحلات التجارية والطلاب استنكروا جميعهم أعمال العنف والتفرقة. وما زال هناك مسيحيون بأعداد كبيرة في بيروت الغربية، ليست كبيرة بالقدر الذي كانت عليه قبلاً، ولا هي مرتاحة تماماً، ولكنها ما زالت هناك، وما زالت تؤكد إيمانها بهذا الخليط.

بند: بعد انسحاب الإسرائيليين من جبال الشوف العام ١٩٨٣ على أثر الاجتياح، وقعت سلسلة من المذابح بين مختلف الطوائف. المسيحيون قتلوا دروزاً، والدروز قتلوا مسيحيين.

وتكمن فظاعة هذه الجرائم ليس في ذاتها فقط بل في مضامينها. بإمكاني أن أرفض ارتكابها ولكن ليس باستطاعتي منع حدوثها لي، كما لا يعني أن أرفض ارتكابها باسمي، مع كوني أرفضها وأنكرها. لذلك أنا عالقة في فخّ مخيف. لم يعد هناك مسألة منطق أو إرادة أو معتقد أو خيار: لم يبقَ هناك إلا الوسم.

بند: في العام ١٩٧٩ انتصر الخميني على الشاه. فكانت هناك مظاهر ابتهاج عظيمة وصاخبة، وأكثر مما يُتوقع، في بيروت. ماذا يعني ذلك؟ الجميع راضون عن زوال الطغيان. لماذا هناك نوع من القلق في بعض الدوائر إذن؟ القومية والدين ممتزجان معاً في خليط موحل. رفض الاستعمار الغربي أصبح يعني رفض الغرب وكل ما يتعلّق به، بما في ذلك المسيحية؛ معناه قبول ماضٍ مسلم صرف. كيف يكون ذلك إذا لم تكن مسلماً؟ بل كيف، حتى إذا كنت مسلماً وأردت أن تعتنق لا الماضي ولكن المستقبل؟ كيف يمكن ذلك إذا كنت ترفض الفكرة بأن المسيحية هي ظاهرة غربية صرف؟

في إحدى الليالي، بعد الثورة الإيرانية بوقت قصير، جرى جدال حادّ في منزلنا بين اثنين من أصدقائنا لم يسبق أن تعارفا. وأصغيت مأخوذة. المسلم قال للمسيحية: «لماذا تشعرين بأنك مهدّدة من الجمهورية الإسلامية؟ متى كان الإسلام إلا أكثر الأديان تسامحاً؟ ما الذي تستطيعين إيجاده في تاريخك المسيحي العنيف بموازاة ذرى التسامح في الإمبراطورية الإسلامية، حيث كان اليهود والمسيحيون آمنين؟ ألم يكن المسيحيون، بعد سقوط الحكم

الإسلامي في إسبانيا، هم الذين اضطهدوا المسلمين واليهود؟»
فكان جوابها: «صحيح، كل ذلك صحيح. لا أنكر تسامح الماضي المسلم. ولا يمكنني أن أنكر أن كياناً إسلامياً مستقبلياً يمكن أن يكون متسامحاً مثله. ولكنني لا أريد أن أكون غير مضطهدة فحسب. لا أريد أن يُسمح لي بممارسة ديني أو أن أعيش كمظهر من مظاهر تسامحكم. أنا أرفض هذا السماح. أريد أن أكون مواطنة عصرية في دولة عصرية، أتمتع بحقوق مدنية وسياسية لا تقل عن حقوق أي شخص آخر.»

بند: لنا صديق ماروني يثور غضباً في كل مرة تستخدم كلمة «ماروني» كمرادف «لكتائبي،» أو كأنّ الكلمتين تشيران إلى الأمر نفسه. فعندما يتكلم أفراد من أثرياء المسلمين أو الدروز، ممّن لهم ارتباطات عائلية قوية، ويذكرون أنهم مضطهدون بالنسبة إلى النظام الطائفي القائم، كثيرون من المسيحيين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة أو الفقيرة يكادون يُصابون بالسكتة.

بند: في جنازة إحدى قريباتي كنا في كنيسة القديسين بطرس وبولس للروم الكاثوليك في بيروت الغربية. إلى جانبي كانت سيدة درزية من معارفنا تقف وتجلس، تبعاً للطقوس. إلى الجهة الأخرى كانت تقف جارتي، وهي من طائفة الروم الأرثوذكس. بالقرب منها كان طبيب شيعي من أصدقائنا، وزوجته، يقفان ويجلسان تبعاً للطقوس. كما كان هناك ماروني أعرفه، وآخر سُنّي.

في الملجأ تحت البناية حيث كنا نحتمي، طالما جلست مع

أشخاص من كل الطوائف والقوميات. كنا نؤاسي واحدنا الآخر، ونتشجّع ونتقاسم الطعام والشراب ونتشارك في استعمال الأغطية والبطانيات والشموع. بيئتنا كانت مختلفة، مشكّلة: هذه هي الحقيقة الواقعية، وهذا هو الشيء الأهم المهدّد والمعرّض للانقراض؛ خبرة حياتية إنسانية ثرية بثقافتها، ومهدّدة بالتشرذم وبالانفصال العقيم.

بالرغم من كل الذي حدث، وبالرغم من الأذى والوحشية، فمعظم الناس يرفضون الانقسامات الدينية التي انتشرت مثل سرطان مخيف. فالورم الخبيث قد تضخّم ـ لا ريب في ذلك ـ والكيان برمّته مهدّد. التعصّب الديني يبرز رأسه البشع كل يوم حولنا. ولكن في كل مرة يظهر فيه يقوم هناك رفض له، علنياً مدوياً أحياناً، وهمساً أو ضمنياً أحياناً أخرى. هناك أمل في ردة الفعل هذه بأن المرض قد يُغلب. قد يستطيع مجنون مهووس واحد أن يخيف ضمائر ألف شخص وحتى أن يقودهم إلى أعمال حقد وكراهية. بمواجهة ذلك، كما بمواجهة العنف، لا جدوى من النقاش، فقط هناك الرفض الكامل والإنكار. من الممكن أن توجد الشجاعة، وقد يكتشف الجميع أن خطر الاستسلام أسوأ بكثير من الرفض.

الخطر الأسوأ في كل هذا الحمّام الدموي الذي غطّسنا فيه ليس خسارة الحياة، بل خسارة الإيمان. ولا أعني خسارة الإيمان بالله. بل أعني خسارة الإيمان بالإنسانية وواحدنا بالآخر.

❖ ❖ ❖

انعكست الأبعاد الدينية للنزاع على عدة أفكار اجتماعية، بما في ذلك قضية النساء. أية فكرة اجتماعية كانت الأكثر بحثاً ضمن أية ثقافة في الأزمنة الحديثة؟ وكم هي بالتالي أكثر إشكالية هنا؟ ومع أن هناك حركة نسوية هامة تقوم على التقاليد العربية والإسلامية، فالانبعاث الديني الحديث قد أثار المواضيع القديمة وأقلق الكثيرات من النساء هنا. وقد تجلّى لي تعقيد هذه المسألة منذ بضع سنوات، قبل أن يبلغ الانبعاث الإسلامي المستويات التي وصل إليها أخيراً، وذلك من خلال محاضرة استمعت إليها في الكلّية حيث أدرّس.

كانت هذه المحاضرة جزءاً من مادة عن المواضيع الثقافية، وألقتها سيدة أميركية. ومع أنها عاشت في بيروت سنوات عديدة، إلا أنها كانت غارقة في معهد ينتسب إلى أصل أميركي ولم يكن قد قدّم بعد التنازلات الجدية إلى الثقافة المحلّية التي سوف تفرضها الحرب وتداعياتها ضمن سنوات قليلة. وقد بنت محاضرتها بتلك الحماسة لنظرية النسوية والتي كانت ما زالت حديثة العهد في الغرب. واستشهدت بأعظم الكاتبات: سيمون دي بوفوار، جرمين غرير، وكايت ملّتْ. وقالت كل ما يجب قوله ـ وإن كان بعضه أصبح مبتذلاً إلى حدّ ما ـ وبالترتيب الصحيح.

لماذا إذن كنت أتلوّى ارتباكاً في مقعدي خلال محاضرتها؟ لماذا غلب عليّ شعور مريع بالسخافة؟ لماذا هذا الإحساس الملح بنوع من التطفّل غير اللائق، والانزعاج لرؤية سيدة ذكية تماماً تحاول التأثير بموضوع لا تفهم عنه شيئاً، وغافلة تماماً عن كنهه؟

طبعاً لم يكن ذلك لنقص في اندفاعي للنسوية. لا لأن الظرف لم يكن مؤاتياً لكي تثور النساء هنا: على عكس ذلك، فقد آن الأوان. وليس لأنه لم تكن هناك مظاهر على اضطهاد النساء جليّة، في كل أنحاء العالم. وأنا التي عشت في العالمين، أعلم بوجودها.

لماذا إذن؟

أعتقد أن السبب هو كونها أبرزت حجّة تقوم ليس على الحياة الحقيقية للنساء هنا بل على مجموعة نظريات جاهزة للاستهلاك الفوري، ومتناسية الفرق. مثل كل النظريات الأيديولوجية، انبثقت هذه النظرية من ظروف معينة في ثقافة محددة. في الغرب كانت قضية النساء قد نضجت مثل فاكهة جاهزة للقطاف. هناك الكثير من المسائل التي كانت قد بُحثتْ، من علمنة المجتمع بواسطة ثورات وإصلاح على مدى مئات السنين، عدا عن التقدم الأخير في ميادين العلوم والطب. فالشجرة قد نمت ورُويت ورُشّت وتم تعهّدها كما يجب. الاعتراف بمكانة النساء أصبح الخطوة القادمة بديهياً، ليس ضرورياً فقط للثمرة بل لوجود الشجرة بالذات.

هنا، من ناحية ثانية، تأتي القضية النسائية في مؤخرة المسائل وليس بالإمكان تحريكها بدون قلب النظام بأكمله. محاولة وضعها بطريقة أخرى وإثارة الموضوع لكي يتماشى مع الأحداث هنا، وبحثها يؤدي إلى فتح وكر دبابير من المسائل والقضايا غير المحسومة، والتي يتّصل بها بطبيعته. أيمكن فصل قضية النسائية عن المناظرات الدينية؟ هل يمكن فصلها عن المجادلات الاجتماعية والثقافية؟ أليس هناك صلة بين الاضطهاد الطبقي واضطهاد النساء؟

أليست القيم الغربية والشرقية قضيةً هنا؟ أليست كل هذه المسائل بين تلك التي اشتعلت حرب بشأنها؟ أو ليست النساء في كثير من الأحيان رموزاً لهذه المواضيع؟

إذا كان من المستحيل معرفة المعتقدات السياسية للرجل من لباسه، فمن الأسهل نسبياً معرفة معتقدات النساء. جميع أفراد الميليشيات يتشابهون بالمظهر: بقطع النظر عن الجهة التي ينتمون إليها، يلبسون الثياب نفسها ويحملون أسلحة متشابهة. ولكن من ناحية أخرى، نساؤهم وبناتهم لسنَ متشابهات. بين البيكيني والتشادور هناك مجال من الخيار في الملابس ينطق بمجالٍ موازٍ عن المعتقدات وطرق السلوك. ومع ذلك، وبالرغم من أن لا شيء أثار الانفعالات مثل ظهور التشادور في شوارع بيروت أو البيكيني على الشواطئ، فليس هناك ما أُسيء فهمُهُ أو تعرّض لتفسيرات سخيفة مبسّطة مثل هذه الملابس. لأنّه، إذا اعتُبر التشادور رمزاً لخضوع النساء، أليس بالإمكان أيضاً اعتباره رمزاً لثورة سياسية ولاحتجاج؟ وإذا كان البيكيني قد اعتُبر رمزاً لتطلّع منفتح مستقبلي، أليس بالإمكان أيضاً اعتباره رمزاً لانحطاط تخلّفي قليل التفكير؟ بالإضافة إلى ذلك، فإنّ امرأتين تلبسان التشادور ليس لديهما بالضرورة النظرة ذاتها للأمور، كما أن هذا ينطبق على اثنتين تلبسان البيكيني. ولكن ضمن حدود المنطق من الممكن تصنيفهنّ تقريباً بنظرات عن العالم مختلفة تماماً.

بانتظار حل الأمور المتقاتل عليها، وبينما تستمر الحرب، عاشت النساء حياتهنّ بقدر ما يمكن تخيّله من الطرق. وريثما يحين

الوقت الذي يمكن فيه بحث الموضوع ضمن إطار منطقي، بدلاً من هذه الدوّامة من المجاري المتناقضة العنيفة، أجد نفسي متراجعة وأفكر في وضع النساء بطريقة هادئة تأمّلية.

لو كنت أنا التي أُلقي المحاضرة، فكيف أفعل ذلك؟ أرجّح أنني كنت أكتفي فقط بتقديم صورة، ذكرى ما زالت منزوية في خيالي منذ سنين، كثيراً ما استعدتها وتمعّنت فيها وتلذّذت بمعناها، ثم أعدتُ طيّها في ذهني، كما يفعل الإنسان بتذكار من رحلة قام بها منذ وقت طويل.

تتسكع الفتاة الصغيرة وراء أخيها الأكبر الذي تعبده. في الاحراج، يعكّر السكون وقع أقدامهما تدوس أوراق الصنوبر اليابسة في عزّ الصيف في جبال لبنان. من آنٍ إلى آخر يرفس حجراً أمامه، وترفسه هي بدورها من فرط محبتها لأخيها. وهنا وهناك، تحت شجيرة شائكة، تُرى علب تنك أكلها الصدأ. ويشقّان طريقهما عبر أغصان منخفضة يضطرّان إلى إزاحتها فتخدش وجههما أو يديهما. وعندما يصلان إلى فسحة مفتوحة يشعران بالشمس الحارقة فيشد كل منهما قبّعته القطنية على رأسه لحمايته من الحرّ ويمسحان العرق عن الجبين فيترك ذلك مشحات موحلة.

إنهما لا يتكلّمان. هو، الأكبر حجماً منها بكثير، يسبقها بعدة خطوات، وتضطر إلى القفز والجري عدة خطوات بين الفينة والأخرى ليظلّ في مرمى نظرها. سمح لها بمرافقته في هذه النزهة وهي متورّدة ابتهاجاً بشرف هذا التنازل.

هو في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره، أول رجولته، التي يمتحنها الآن. الصيد رياضة لا ميل لها في قلبه، ولكنه يشعر بأنه ملزم بممارستها لانها جزء من الطريق التي عبّدها له الذين سبقوه. إنه طقس محاكاة، وتقليد يُحسّ بأن عليه أن يقوم به.

يرى الهدف، فيركع في التراب ويصوّب ويطلق النار. عند دوي الطلقة تخبّئ وجهها وترتفع يداها تلقائياً لتغطية أذنيها. وهو الذي لم يكن أقل جزعاً وارتياعاً منها، ينظر مشدوهاً إذ يسقط عصفور عن الشجرة ويقع بصوت مكتوم على بعد خطوات أمامه. ترفع رأسها وتنظر إليه، ثم يتقدمان معاً بضع خطوات باتجاه الجسم الصغير الميت. يقفان معاً ينظران إلى العصفور بصمت، بأسى وحزن. اخيراً، يعلّق بندقيته بكتفه ويسير، مفتّشاً عن ضحيته التالية.

تراقبه هي وهو يبتعد، ثم تعاود النظر إلى العصفور. هذه هي اللحظة التي كانت تتحاشاها: المهمة الآن مهمتها. هذا هو الثمن الذي عليها أن تدفعه لقاء صحبته الجليلة.

تنحني وتلتقط الجسد. إنه دافئ، رطب، ناعم في أصابعها المرتعشة. عندما تصل إلى المنزل فيما بعد سوف تغسل يديها تكراراً، ولكن مثل لايدي ماكبثْ في مسرحية شكسبير، لن تتمكّن من التخلّص من الشعور البغيض المروّع.

استطاعت أن تلجم رغبتها بالتقيؤ وكبح ذلك الجزء من ذاتها الذي يرفض أن يقوم بما عليها أن تفعل، وعلّقت الهيكل الصغير بعلاقة الطيور المدلاة من الزنار حول خصرها: هذا

ليس سهلاً: فالجسد الرخو لا يعلق بالحلقات الفولاذية. وتضطر أن تشدّ وتدفع، وكل عصب في جسمها يرتعش بالاشمئزاز والهلع، إلى أن يعلق عنق العصفور في قبضة التعليقة. هناك نقاط دم على يديها، وبسرعة يائسة تنحني وتمرغ يديها بالتراب وتفركهما حتى يكاد جلدها ينسلخ. كانت منهمكة بإزالة الدم عن يديها حتى أنها لم تشعر أولاً بجسد العصفور يضغط على فخذها. ولكن ما كادت تشعر بذلك حتى قفزت واقفة وأدارت الزنار، هذه الجهة أولاً ثم تلك، ولكن لا فرق كيف أدارته، فإنها ما زالت تشعر بجسده على جسمها.

تلتفت باحثة عن أخيها، ولا تراه في أول الأمر، ثم، عندما تراه، تجري باتجاهه، بشيء من الارتياح. في فرحها لرؤيته تنسى للحظة تعاستها وتناديه باسمه. يلتفت إليها بانزعاج: فقد أفسدت عليه تصويبه وطار العصفور هارباً. ربما ارتاح إلى ذلك. إلا أنه يعرف بان عليه الآن أن يكمل بحثه عن عصفور آخر والاقتراب منه، وكان يقسّي قلبه ويقوم باللازم.

بعد بضع ساعات، يرجعان إلى البيت. يسبقها حاملاً بندقيته. هي تتسكّع متعبة وراءه، كل العصافير الميتة، تحتك بفخذيها وجنبيها وبنطلونها «الجينز» الأزرق يلطّخ بدمها. وهو لا يلتفت إليها، بل يقدّم غنائمه بنوع من الانتصار المكبوت، مشيراً إلى ناحيتها، ثم يختفي في داخل البيت، مسرعاً، وهي تدرك ذلك، ليكون الاسبق إلى الحمام الذي يشعر كل منهما بأنه بحاجة ماسّة إليه، وتخلع الزنار في

المطبخ وتتركه على المائدة، كومة من الجلد والفولاذ وكرات من الريش واللحم الميت.

لم يشارك أحد منهما في العشاء تلك الليلة. في ذلك الصف المنظّم من العصافير المقلية الملقاة وسيقانها إلى أعلى، في الطبق، تعاود كلاً منهما أطياف تلك المخلوقات المحلّقة، المزقزقة، التي قتلاها. يتبادلان نظرة سريعة مؤلمة، شريكان في الجرم. هو يجيب بوجوم عن عبارات الإطراء لمهارته في الصيد، ولكن لا أحد يذكرها بأنّ لها حصة في المجازفة. وخطرت لها، للحظة فقط، أن تطالب بقسطها من الإطراء، لأنه بدونها لما كان هناك عشاء الليلة، بل بضعة طيور ميتة ملقاة في الأحراج. ولكنها تلزم الصمت اتقاءً، ضحيّة راضية، ولكنها تخونه وتخون حبها له بمجرّد كونها حائزة هذه المعرفة السرّية، ولكونها تضمر امتعاضاً تخفيه.

❖ ❖ ❖

جميع حُجَج الحرب تقريباً، تلك التي تعاطفتُ معها وما كنت أفقت، انتهت بالعنف. هناك من يقولون إنه في عالم عنيف، فيه طغاة شرسون وأعداء قُسَاة، الطريق الوحيد للتحرير هو باستعمال العنف. القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها «هؤلاء،» وبالتالي الطريق إلى عالم أفضل. من الواضح أن هذه الحجّة مقنعة تماماً، لأنها أقنعت الكثيرين من الناس. بالإضافة إلى ذلك، هناك من يقولون إن العنف هو في طبيعة البشرية، وأنه كان وسيبقى دائماً اتجاهاً وغريزة لا يمكن كبحها.

نحن الذين لم نحمل سلاحاً ورفضنا أن نفعل، لم يبق لنا إلا زاوية صغيرة نقف فيها، زاوية يبدو لنا أحياناً أنها الوحيدة التي لها قيمة، وأحياناً بأنها الأقل جدوى، المعزولة، والنقطة الأضعف في مجمل بنية الكون.

كل حياتي، على ما يظهر، أمضيتها في ظل العنف، وما زلت لا دفاع لي إلا الرفض الفوري الكلّي، ولا حجّة ضدّه باستثناء أن أشير إلى الدمار والخراب حولي. أي سلاح هناك إلا هذا، وما فائدته؟ من بين المعارك اليائسة التي شُنَّت، هل هناك ما هو أكثر يأساً؟ لا شيء سوى إصبع اتّهام لمقاومة مؤسّسات عسكرية ضخمة، ولمجابهة الصناعات الكبيرة لإنتاج الأسلحة، ولمقاومة أكوام من الحجج الفلسفية والسياسية والاجتماعية، ولمقاومة التاريخ البشري ذاته.

يُقال إن «رفع الكلفة» يولد قلة الاحترام. ورفع الكلفة، أو الدالّة مع العنف يولّد الازدراء وقلة الاحترام ـ لمن؟ للناس؟ للحياة؟ للطبيعة؟ للخير؟ للجمال؟ للصلاة؟ لله نفسه؟ بالنسبة إليّ، رفع الكلفة مع العنف ولّد المقت والازدراء للعنف، وفقط للعنف، لأنني رأيت ما فعل، وهو مما لا يدعو أبداً إلى الاعتزاز.

إذا كانت الحرب في لبنان أصبحت تعني شيئاً بالنسبة إليّ، فإنها تعني إطفاء الأنوار؛ إنها إفساد قضيّة بعد قضيّة بالأيدي التي كان يُفترض أن تحميها. كانت المثاليات في الماضي تُزرع بعناية في الأرض، التي يُفرض أن تنبت منها بالوفر والجمال، ولكن أرضهم الزراعية قد أصبحت قبوراً بدلاً من ذلك. الحصاد مصاب بآفة،

ونحن نقف في قفر من الكلمات الفارغة وأعمال العنف الخالية من المعنى. ففي النهاية، القتل هو قتل، والرصاصة الواحدة تشبه أي رصاصة أخرى تماماً، وكل هذه الرصاصات تئزّ حول أذني تجعلني أود أن أهب واقفة وأصرخ. كفى! كفى!

باسم قضية مقدسة بعد أخرى، وطنية أم ثقافية أم سياسية أم دينية، أو قضية البقاء فقط، تقوم أنصاب لروح قضايا مقدّسة كتلك التي رُفعت في جبال لبنان ومدنه وقراه ومخيّمات اللاجئين. باسم القضايا يرتفع صراخ الأطفال وعويل الأمهات ودخان الأرض المحروقة. باسم الإنسانية تقع الغارات الجوّية اللاإنسانية، والدبابات والمدافع الرشاشة، وأعناق مذبوحة من الوريد إلى الوريد يتدفّق منها الدم.

وفي خضم هذه العربدة من العنف، رقصة الموت هذه، والإفراط في اللهو بالقتل، ما الذي يمكن فعله إلا الرفض؟ بإمكانك، إذا أردت، أن تصنّف هذا الرفض بأنه ليس إلا ردّة فعل بورجوازية صعبة الإرضاء، وتنبذه بازدراء. لا جواب لديّ إلا القول بأنني قد رأيت ما رأيت.

الفصل الرابع

صيف ١٩٨٢: الاجتياح الإسرائيلي

كان من المفترض أن تقام حفلة منح الجوائز للرياضيين في الأنترناشونال كولدج، قرب الجامعة الأميركية، يوم الجمعة في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . وسيتسلم ابني الأصغر، وعمره إحدى عشرة سنة، جائزة في لعب كرة القدم. اتفقنا، إخوته وأنا، أن نوافيه إلى الملعب بعد الظهر ونحضر الحفلة. وإذ كنت واقفة على حافة الملعب، أومئ إليه، ابتدأت الحرب. وكانت الساعة بعد الثالثة بقليل.

مضت بضع دقائق قبل أن يسجّل ذهني بأن ثمّة أمراً خطيراً يحدث. راحت السماء الزرقاء تتوشّح بالخيوط البيضاء التي تخلّفها الطائرات النفّاثة المندفعة كالسهام، وأشكالها الفضية تلتمع في انقضاضها ودورانها وعودتها إلى الانقضاض، ثم الابتعاد، بعويلها المدوّي، وهي تتقيّأ صواريخها البرّاقة والبالونات الحرارية. وخلال بضع ثوانٍ أصبحت السماء منقطّة أيضاً بانفجارات المئات من قنابل المدافع المضادة.

في البدء، وقفنا جميعاً، الأولاد على الملعب والأساتذة الذين

خرجوا من البنايات المدرسية والسائقون المتكئون على باصاتهم الخضراء والبيضاء، وغيرهم من المارة، وأنا أيضاً، جمدنا في أمكنتنا، مسمرّين، متطلّعين نحو الطائرات.

ظل الإسرائيليون يقصفون لبنان بالقنابل على مدى سنين. في معظم الأحيان كانوا يضربون الجنوب ثم يمرّون زاعقين فوق رؤوسنا في بيروت. وكانوا يمرون أحياناً على علوّ منخفض بحيث يتسبّب دويّ اجتيازهم لجدار الصوت في تحطيم زجاج نوافذنا، بالإضافة إلى أعصابنا. وكانت تُقابَل الطائرات عادة بنيران المدافع المضادة المنصوبة على الشاطئ ومن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. لم يكن هناك إمكانية على الإطلاق لأن يتدخّل سلاح الجو اللبناني لاعتراض الإسرائيليين. فالواقع أن سلاح الجوّ بطائراته القديمة طالما كان موضع سخرية واستهزاء بين السكان. منذ زمن طويل توقفت صفارات الإنذار عن الانطلاق لدى اقتراب الإسرائيليين، ومنذ مدة طويلة توقفت الحكومة عن إصدار تحذيرات وتعليمات للدفاع المدني من أي نوع، معترفة بذلك بحتمية مرور الطائرات في سمائنا. كان المدنيون، من هم خارج مخيمات اللاجئين، أحراراً في تقرير ما يجب اتخاذه من احتياطات خلال مرور الطائرات. كان الناس، على العموم، يهرعون إلى شرفاتهم أو يشرئبون بأعناقهم في الشوارع لرؤية أفضل، ويدلّون بنوع من الانجذاب العجيب على الاتجاه الذي سلكته الطائرات.

كانت هناك علاقة فريدة بين البيروتيين والطائرات الإسرائيلية، تكاد، إن جاز التعبير، توصف بأنها رومانطيقية. في موقف السكان

كان هناك تخالط من المقت والتمنّي، التنفير والانتماء، والألفة والبرودة. كانت إلى حدّ ما إعجاباً بالتكنولوجية المذهلة التي تخطف الأنفاس بروعتها؛ وبالرشاقة المطلقة التي تلتمع فيها بلونها الفضيّ في السماء الزرقاء الصافية؛ وبأناقتها الفاتنة. كما أنها كانت إلى حدّ ما ذلك الشعور بالتحليق الذي يشعر به الإنسان عندما يكون مثبّتاً على الأرض، يراقب الطائرات تستدير لتعضّ ثم تنطلق محلّقة كالبرق، حرة، رشيقة، سيّدة الفضاء بلا منازع. كان هناك نوع من الاختبار المشترك، الصالب والمصلوب متّحدين في تلك الهنيهات، في إمكانية الألوهية فينا جميعاً، القتل وتحمّل موت التضحية، كنا دائماً ننظر إلى القتل الذي يسبّونه بأنه تضحية. من ناحية، كان في لفت الأعناق والإشارة بالأصابع والمجازفة برفض الاحتماء في الملجأ نوع من الاستحواذ الرمزي على التكنولوجيا ومن السيادة على هذه الصرخات الفضية المنطلقة كالبرق بزعيقها في الفضاء.

كما أن النظرة إلى الطائرات كانت تدلّ أيضاً على نوع من الإعجاب بالإسرائيليين. فهم على الأقل قد نجحوا حيث فشل الآخرون. كنا نحن نتخبّط في العنف الذي ابتُلينا به منذ سنين، وهم كانوا هناك، أسياد الموقف واللعبة، يراقبون تعاستنا ويسجّلونها في تحليقهم فوقنا سنة بعد سنة، هازئين من تهديدات مدافعنا المضادة للطائرات.

على الدوام كان الإسرائيليون يعلنون أنهم قد ضربوا «أهدافاً فلسطينية،» أو «قواعد إرهابية.» ودائماً كنا نمتلئ بالسخط والمرارة، ليس بسبب الغارات نفسها، بل للنفاق الذي يتضمّنه هذا

الإعلان. حتى ولو كانت الأهداف مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في كثير من الأحيان، فإنها كانت، وفي أحيان كثيرة أيضاً، قرى وبلدات لبنانية؛ وإذا كان بعض المقاتلين قد قُتلوا، فإن غالبية الضحايا في الحالين كانت من المدنيين. فالصور في الصحف كانت دائماً هي ذاتها: أطفال وعجائز، فلسطينيون ولبنانيون، ينطرحون جثثاً أو في حالة النزاع؛ أشلاء أجسام ومحلات تجارية وسيارات؛ ومنازل مهدّمة غدت أنقاضاً؛ وامرأة عجوز تمسح دموعها، وتشقّ طريقها بين أطلال بيتها، حاملة صورة، ربما، أو مقلاة أو آنية ملتوية أو معطوبة ـ أدوات كانت جزءاً من حياتها ذات يوم والآن فقدت كل معناها.

بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، أخذ التلاميذ يتنافسون الواحد مع الآخر في تمييز أنواع الطائرات، وهم يشيرون إلى السماء متحمّسين. «كانت هذه «أف ١٥» قال أحدهم، «كلا، إنها طائرة فانتوم» أجاب الآخر. «كفير،» قال ثالث. لم يكن وضع الأولاد وموقفهم يختلف عن موقف الأكبر منهم. فكان التعويض عن عدم امتلاكِكَ طائرات كهذه يمكن أن يكون بالمقدرة على تعيين نوعها. وبإطلاقك اسماً على طائرة تكتسب نوعاً من العلاقة بها. وهكذا وقفنا جميعنا وراقبنا.

كنا على يقين في ذلك اليوم أن الطائرات لن تتجه إلينا هنا في حِمانا، في رأس بيروت. كنا نعرف كلّنا أن هدفها هو مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في ضواحي المدينة، بحيث يمكننا أن نقف ونتفرّج بحصانة. والواقع أن الخطر الداهم علينا من رأس بيروت

بعد ظهر ذلك اليوم لم يكن من الطائرات ذاتها بل من القنابل المضادة التي أطلقت باتجاهها.

فقد جُرح عدة أولاد من الشظايا المتساقطة من الجو. وفي الوقت الذي تمكن فيه موظفو المدرسة أن يدخلوا الجميع بحزم إلى الداخل، بدا واضحاً أن هذه الغارة لم تكن هجمة إسرائيلية أخرى سريعة، فالواقع أن تلك الغارة دامت نحو ساعتين.

وقفت داخل مبنى المدرسة يحيط بي عشرات الأولاد بأجسادهم المبلّلة بالعرق، شاكرة أنني على الأقل مع أولادي ولا حاجة بي للقلق عليهم في ذلك اليوم، مثلما تقلق كثيرات من الأمهات، على سلامة أولادهن، وما إذا كانوا على الطريق في العراء، أو أنهم احتموا في مكان ما.

بعض الأولاد الأصغر سنّاً في الممشى المزدحم من المبنى كان يبدو عليهم الخوف، وعلى حافة الدموع. بعض الأولاد الأكبر سنّاً، اللامبالون والذين لم يعد يؤثّر فيهم الخوف على ما يبدو بعد سنين من الحرب، استمروا في الهرج وتبادل الكلمات وإبداء الملاحظات الساخرة. وكان يقف ورائي فتى في حوالى الخامسة عشرة من عمره، بثور الصبا على وجهه، ويتحادث مع صديقه، وصوته يراوح بين اليفاع والرجولة. قال بمرح: «أظن أن هذه ردّة فعل الإسرائيليين على محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن يوم أمس.» ثم أردف بنبرة لاذعة: «إذا قاموا بهذا لأجل سفير واحد، فكّر بما يمكن أن يفعلوه لأجل سفيرين!»

في الواقع، سمعنا خلال الأيام القليلة التي تلت الكثير عن

ذلك السفير. ومع أن منظمة التحرير الفلسطينية أنكرت مسؤوليتها عن محاولة اغتياله، فإن إسرائيل حمّلتها المسؤولية وطالبت، كالعادة، بحقّها بالردّ. وبعد فترة لم يعد أحد يذكر السفير إلى الحين ـ بعد عدة ألوف من القتلى وعدة مئات ألوف اللاجئين فيما بعد؛ وبعد أن تهدمت أجزاء كبيرة من صور، صيدا، الدامور وبيروت عدا عن عشرات القرى والمدن ـ ظهر خبر صغير في الصحف أن السفير قد شفي وأنه خرج من المستشفى.

لم نعرف مدى خطورة الغارة إلا بعد أن هدأت الأمور وهرولنا إلى البيت، ناسين توزيع الجوائز على الرياضيين، وفتحنا الراديو. كان هناك مئات الإصابات وخسائر مادية جسيمة.

كان الخامس من يونيو (حزيران) ثاني يوم الغارة، الذكرى الخامسة عشرة لبداية حرب ١٩٦٧. كنا على الغداء مع أصدقاء، وشربنا نخب تلك الذكرى، مازجين بين المزاح والمرارة، وأخذ كل منا يتذكّر مكان وجوده وردات فعله في تلك الفترة الموحشة، ولم يخطر لنا أنه خلال أيام قلائل سوف تبدو سنة ١٩٦٧ باهتة بالمقارنة مع ١٩٨٢. وأثناء تبادلنا الحديث عن غارة الأمس تجادلنا عما إذا كانت ستُكرّر. معظمنا اعتقد بأنها لن تتكرّر، إذ إن اليوم هو السبت، يوم عطلة اليهود، والغارة السابقة انتهت قبل مغيب الشمس بقليل. إلا أنه سرعان ما اضطررنا إلى الهرولة إلى الممشى عدة مرات ـ بالرغم من عطلة السبت ـ وحتى إلى السرداب تحت المبنى في إحدى المرّات، عندما عاود الإسرائيليون هجومهم. قمنا بعدة محاولات لمغادرة البناية، ولكن في كل مرّة كنا نضطر إلى

العودة إلى الداخل بسرعة إذ كانت الغارات تتوالى. وأخيراً، وبعد مرور نصف ساعة من الهدوء، جازفنا بالعودة إلى منازلنا.

حوالى ظهر اليوم التالي، ٦ حزيران (يونيو) علمنا أن الغزو جدّي. وأن الجيش الإسرائيلي عبر الحدود. وفي البدء كان عدد الألوية التي ذكرت مذهلاً بحيث اعتقدنا أن ثمة شيئاً من المبالغة في التقارير. فمنذ بدأت مسألة انسحاب إسرائيل من سيناء تبحث، وقبل أن تتم فعلياً بوقت طويل، بدا واضحاً لكل فرد في لبنان بأن ثمن السلم المصري سيُدفع هنا. كما أن هناك مثلاً شاع وانتشر بين الناس على مر السنين: «متى تلبّدت الغيوم في العالم العربي، أمطرت في بيروت.» وهكذا في النهاية، دون أن يفاجئ ذلك أحداً، حدث الغزو بعد الانسحاب الإسرائيلي من سيناء بأسابيع قليلة، ولكن حجم الغزو ومداه والضربة كانت فوق حدود التصور والحسبان.

شاهدنا التلفزيون تلك الليلة والخرائط في يدنا. أعلنت إسرائيل أنها أطلقت على العملية اسم «السلم للجليل،» وأن هدف إسرائيل هو إقامة «منطقة أمن» بعرض أربعين كيلومتراً لحماية سكان الجليل من «الإرهابيين» الذين كانوا، قبل ذلك بأيام قليلة، قد أطلقوا الرصاص على السفير في لندن. مرّة أخرى جوبهنا بمطالبة إسرائيل بالحاجة إلى تأمين حدودها، وبتبرير أخلاقي لهجومها. في مفهومنا، كانت إسرائيل معتدية مطلقة اليدين، منحها العالم غطاءً معنوياً - على الأقل العالم الغربي - بقبوله ادعاءها بتقيّدها بالأخلاق دون اعتراض. في الغرب، كانت أعمال العنف المتكررة التي

ترتكبها إسرائيل تعتبر دائماً بمثابة انحراف أو شذوذاً عابراً.

بعد أن استمر في الحديث عن الدار الواسع الذي سببته الغارات الجوية في الأيام الثلاثة الماضية، عرض علينا برنامج الأخبار حادثة أظهرت تفاهة كل شيء آخر بالنسبة إلى اختبار الفظاعة الفعلية.

طيّار إسرائيلي قُتل في تحطّم طائرته، ووقعت جثّته بين أيدي أهالي قرية في الجنوب. كانوا منهالين عليها بالضرب، والرفس والشتيمة، ووجوههم محترقة حنقاً. كنت في حجرة الجلوس المريحة الهادئة في منزلي في رأس بيروت أشاهد هذا الفاصل المرعب، وحاولت أن أقفل التلفزيون ضنّاً بأولادي أن يشاهدوه. إلا أنهم أبدوا فضولاً ـ وأعتقد أن ذلك طبيعي في أولاد بعمرهم ـ وأصرّوا على المشاهدة. فرضخت أخيراً لشعوري بأنهم قد عانوا الكثير من هذه الحرب وتعرّضوا إلى الموت مرّات عديدة لذلك لا يحق لي بأن أحجب حتى أبشع حقائق الحرب عن اطلاعهم. وتجادلنا بمسألة ردّة فعل أهالي القرية. «ماذا كنت فعلت لو أننا قُتلنا؟» سألوني: «وماذا لو كنا خسرنا كل شيء في غارة جوّية؟» فأجبتهم: «آمل أنني لن أفعل ذلك أبداً.»

لا ريب بأن القرويين أُوقفوا عن الاستمرار في عملهم هذا أخيراً، وتم تخليص الجثة من بين أيديهم؛ ولكن من أنا، الجالسة مرتاحة في بيروت، كي أستهجن ردّة فعلهم وعجزهم عن مواجهة الغارات الإسرائيلية المتكررة، التي تحطّم، سنة بعد سنة، أهلهم ومنازلهم ومحصولاتهم وأراضيهم، والتي تجلّت في هذا العمل

المجنون من الثأر والكراهية؟ وفي الأشهر التي تلت كثيراً ما فكّرت في تلك الحادثة.

يوم الأحد ذاك صدر أوّل تحذير للأجانب من حكوماتهم ليغادروا البلاد. في جميع الأزمات التي حدثت في السنين الماضية، كان البارومتر هو هذا القرار بالذات، ولهذا السبب كثيراً ما كان اللبنانيون يسألون الأجانب إذا كانوا قد تلقّوا أمراً كهذا من سفاراتهم. كون التحذير هذه المرة جاء أول يوم من الغزو ومن الولايات المتحدة ـ المعتبرة دائماً بأنها الحليف الرئيسي والمدافع عن إسرائيل ـ عنى للكثير من الناس بأنه دليل على شيء ضخم قيد الإعداد. وكما كان الوضع عند الكثير من العائلات، طُرح السؤال في عائلتنا عما إذا كان يجب أن نغادر. ولكنني عقدت ميثاقاً مع زوجتي: في هذه المرة، مهما حدث، سوف لن أصطحب الأولاد وأهرب. الأمر الوحيد الذي كنت أفكر فيه في هذا الوقت كان ما حدث في العام ١٩٧٦. فبعد عدة أسابيع من تحمل القذائف بعد تهديم بيتنا، أخذت الأولاد وغادرت، وما كنت أعتقد أنه سيدوم بضعة أسابيع استمر ثمانية أشهر مزرية. لذلك، ومنذ مدّة طويلة، مع الألوف غيري، قررت أنه في أوقات كهذه من الأفضل أن أظل موجودة ومطّلعة على ما يحدث بدلاً من أكون بعيدة، أتلقى الأخبار المجزوءة.

يوم الاثنين ٧ حزيران استفقنا على خبر بأنه لا مدرسة للأولاد، مع أن الجامعات ظلّت مشوّشة. في بادئ الأمر تأجّلت الامتحانات النهائية للمدارس والجامعات بعد ذلك أُلغيت بكاملها.

تقريباً كل مدرسة في بيروت الغربية حُوّلت بالنهاية إلى مركز للّجوء أو إلى مستوصف؛ وكان السؤال في ذلك الصيف ما إذا سوف تكون هناك سنة مدرسية على الإطلاق بعد الغزو. ومع ذلك تمكن المعلّمون من إصدار علامات نهائية لكل تلميذ، وأكملت السنة الدراسية بالرغم من كونها اختُصرت.

بعد ظهر يوم الثلثاء، وبنتيجة الغارات الجوّية على الجيّة، جنوبي بيروت حيث توجد محطة توليد كهربائية رئيسية، انقطع التيار الكهربائي، وكان من المفروض أن يعاد التيار في اليوم التالي، ولكن مع تقنين؛ وفي وقت لاحق طبعاً، خلال الحصار، تعلّمنا أن نعيش دون كهرباء على الإطلاق. ولكن في هذا الوقت كان هناك تهافت على إفراغ الثلاّجات التي كانت قد عُبّئت بالمأكولات في اليوم الأسبق خوفاً من حدوث نقص في الأغذية. وفي الأيام القليلة التالية، إذا مرّ أحد لزيارة صديق وتبادل الأخبار، كان يقدَّم إليه أنواع من الأطعمة التي أُزيل صقيعها على عجلة، من فطائر أو سمبوسك أو كبّة أقراص، بحيث كان هناك شعور مزيّف من الاحتفالات بهذه الزيارات. مرّة أخرى كان الناس يُشاهدون حاملين أوعية من البلاستيك ملأى بالماء، من أي مكان يستطيعون الاستقاء منه: فالمشكلة الأولى من جراء انقطاع الكهرباء كانت دائماً انقطاع الماء.

في منتصف الأسبوع وصل الإسرائيليون إلى صيدا، وبدأت تسمع روايات عن الفظائع التي عاناها الجنوب. بالنسبة إلى أهالي بيروت لم يكن ذلك إلا مجرد روايات، وبيروت نفسها ظلت غير متأثرة نسبياً ما عدا الأسراب المتوالية من الطائرات في جوّها وعدداً

من الغارات الجوية على ضواحي المدينة. وفُصل الجنوب تماماً عن سائر العالم: لم يكن هناك من خطوط هاتفية، وحتى المراسلون الجسورون عادة لم يتمكنوا من الدخول إلى المنطقة أو الخروج منها. كل ما عرفناه بالتأكيد كان أن صور أولاً ثم صيدا بعدها كانت تتعرض لضرب مكثّف بالقنابل من الأرض والجوّ والبحر. واستمرت المعارك يوماً بعد يوم، ويوماً بعد الآخر كان الذين لهم أقارب في الجنوب يزدادون تلهّفاً إلى أخبار عنهم.

ذهبت ذات مرّة لزيارة صديقتي دعد. كان وجهها شاحباً، وعندما سألتها إذا كان لديها أخبار عن أهلها في صيدا ترقرقت الدموع في عينيها. وأدارت الراديو، الذي كانت تحمله في يديها عندما دخلت مكتبها في الجامعة، وهزّت كتفيها، ثم أطفأت الراديو، يائسة. «أعرف بقدر ما تعرفين أنتِ، الراديو لا يفيد إطلاقاً.» قالت لي. أمها وأخوتها كانوا في صيدا. لم تكن تعرف إذا كانوا أحياءً أو أمواتاً. إذا كانوا أحياء، كيف كانت أحوالهم؟ هل ما زال منزلهم قائماً؟ هل لديهم غذاء؟ ماء؟ هل جُرح أحد منهم؟ هل بإمكانهم الوصول إلى المستشفى؟ هل ما زالت المستشفيات تعمل؟ لا أحد يعرف شيئاً.

سمعنا أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر طلبت من الإسرائيليين الكف عن الضرب بالمدافع والموافقة على هدنة، ولو لساعات قليلة، ليصار إلى نقل الجرحى للمعالجة، ولإرسال المؤن، ولرفع الجثث ـ ولكن الإسرائيليين رفضوا. المقابلات التلفزيونية مع موظفي الصليب الأحمر اللبناني وهيئة الدفاع المدني

قدمت تفاصيل مخيفة عن عدد الإصابات، وكان من الواضح أن كثيرين من الذين يمكن إغاثتهم سوف يموتون.

وذات صباح في ذلك الأسبوع رنّ جرس باب بيتي: أختي وزوجها قدما لزيارتي. كانا قد قدما إلى بيروت في عطلة، بعد أن انتقلا إلى أوروبا منذ بدء الحرب، وأصبحا الآن عالقين، فالمطار مغلق، وسوف يظل مغلقاً لخمسة أو ستة أشهر تالية، والطرقات البديلة لم تظهر بعد. «ليس بإمكاننا الجلوس هنا والاستماع إلى الراديو،» قالا: «علينا أن نفعل شيئاً.» في هذا الوقت كانت هناك تنقّلات جماعية للسكان في بيروت. كثيرون من اللاجئين الفلسطينيين هربوا من المخيمات، التي كانت تُقصف باستمرار؛ هؤلاء الذين كانوا ساكنين في الجوار هربوا أيضاً، وكثيرون من أهل الجنوب انتقلوا إلى بيروت من أمام الجيش المجتاح. ألوف الناس كانوا يتنقّلون من غير انتظام، يحتلّون الشقق الفارغة أينما وجدوها، ويستقرون في الحدائق العامة، في أبنية المدارس والمساجد، ويدبرون أحوالهم. كان الوضع مروّعاً. وافقت مع أختي وزوجها. علينا أن نفعل شيئاً، ولكن ماذا؟ مساعدة اللاجئين لم يكن أمراً باستطاعة قليلين من ذوي النية الطيبة المتطوعين أن يقوموا به: إذ لا تتوافر لدينا الوسائل ولا السلطة للتعامل مع مشكلة بهذا الحجم. موظّفو الصليب الأحمر والدفاع المدني الذين جرت مقابلتهم على التلفزيون أوضحوا أن حاجتهم لم تكن لمتطوعين غير مدرّبين، الذين قد يعيقون جهودهم على الأرجح، بل إلى السماح لهم بالقيام بالعمل الذي يمكنهم أن يُنجزوه إذا استطاعوا الوصول إلى الأمكنة المنكوبة.

فكّرنا أخيراً أننا قد نستطيع الإفادة من خلال تنظيم طريقة لإيصال الأخبار إلى أفراد العائلة المفرّقة واحدهم إلى الآخر. وتوجّهنا إلى وزارة الإعلام بفكرتنا، فتبنّوها في الحال وباشروا بوضعها موضع التنفيذ ولكن دون أية مساعدة منا، فشعرنا بأننا ما زلنا عديمي الجدوى.

وعلى مدى أسابيع بعد ذلك كنا نسمع من الراديو، بين نشرات الأخبار، رسائل تطمين موجهة من أفراد إلى عائلاتهم في أمكنة مختلفة من البلاد، معظمها إلى الجنوب؛ أو، الأكثر إثارة للحزن والأسى، طلبات من أفراد فقدوا كل اتصال مع ذويهم يرجون فيها الاطمئنان. وكنت أجلس أحياناً وأستمع إلى الأسماء المذاعة، محاولة تخيل الأوجه والتجارب التي تُعَدّد ومتسائلة ما إذا كانت هذه الرسائل تصل فعلاً إلى أصحابها.

وجعلتني هذه الحادثة أحسّ بالشعور المألوف بعدم قدرتي على المساعدة. وصدمة الواقع أحالتني بالذاكرة إلى حياتي الماضية وأعتبرها بمثابة تمهيد لتمثيلية لن يقوم أحد بتمثيلها، بينما التمثيلية التي نشهدها لم يمارس أحد أدوارها، ولم يحلم بها أحد. مرّة أخرى ظهر فشل مجتمعنا بوضوح: في مواجهة الأحداث المأسوية التي تتكشف أمامنا، كنا شعباً مشلول الحركة، غير مهيّأ إطلاقاً وعديم الجدوى. مواهبنا الفردية، التي لا يستهان بها، كانت مهدورة، مثل أنبوب ماء مثقوب ألف ثقب يرشح منها الماء بدلاً من أن يصبّ بقوّة في مجرى مفيد.

ووصلت المعارك إلى مشارف بيروت. ومنذ ذلك الوقت

أصبحت «معركة بيروت» هاجساً يتهدّدنا إلى أن أدركنا فجأة أنها لم تكن تهديداً بل إنها واقعة فعلاً منذ البداية.

وكيف نصف هذه المعارك؟ كيف يمكن لكلمات أن تصور هول تلك الأسابيع؟ السماء برتقالية اللون من الضوء غير الطبيعي لقنابل الفوسفور المتفجّرة؛ الزعيق الصارخ للطائرات النفّاثة المنقضّة للقصف؛ الجمال الرشيق للقنابل المضيئة النازلة بهدوء في قلب الليل، كرات ذهبية ملونة تنزل على مخمل أسود، تنير العالم كلّه كما يبدو، وسحرها يموّه مقاصدها الفتّاكة. وأصوات المعارك ـ نتحاشى استخدام كلمة «رعد» أو «هدير» في وصفها لأنها أضعف من أن تفيها حقّها. كانت مثل دويّ أصدره جميع أبالسة الجحيم من طبول هائلة تحت الأرض وفوقها، دويّ مثل دويّ البحر يتخطّى حدوده أو كصوت وحش مخيف ثائر فقته قشرة في الأرض.

يجب أن أتكلم أيضاً على الخوف المتغلغل مثل سم بطيء، وهلع ينتشر بصمت؛ على سفن حربية تمخر عباب البحر برشاقة ووقاحة؛ على الصفير والانفجار المفاجئ للقنابل التي تطلقها: على الهرولة بجنون إلى الملاجئ المشكوك في فعاليتها تحت البنايات؛ وعلى النكات التافهة المتبادلة لتهدئة الأعصاب؛ وعلى الشعور المتزايد بالانتماء وبعدم إمكانية التملّص. تجربة الحرب فريدة في نوعها، وكل ما عداها ـ مدنية وعادات، قانون، حقيقة، أكاذيب ـ كل شيء يصبح باهتاً لا معنى له.

كثافة الهجمات وتكرار الغارات ونوعية الأسلحة وحجمها كانت مذهلة بالمقارنة مع ما خبرناه قبلاً. استمعنا بسخط إلى

نشرات أخبار المناقشات في الولايات المتحدة عما إذا كان الاستخدام الواسع من قِبَل إسرائيل للقنابل العنقودية كان من باب الدفاع، وبالتالي شرعياً. ولمرة وجدت نفسي أحبّذ البيانات التي كانت تزعجني من قبل، ومصطلح «الإبادة» الاتهامية لم تعد تبدو لي من باب المبالغة. لا شك عندي أن الإسرائيليين أرادوا أن يدمّروا ليس منظمة أو جيشاً فحسب، بل إبادة شيء إبادة تامة؛ بالأخص، فكرة «فلسطين» في أذهان الفلسطينيين ومناصريهم.

وفجأة، مساء ٢٥ حزيران، خيم سكون وأُعلن توقّف إطلاق النار. وسمعنا أن ألكسندر هايغ قد استقال من منصبه كوزير لخارجية أميركا، وهلّلنا فرحاً لظنّنا أن ذهابه يعني تغييراً في السياسة الأميركية وأننا قد نُستثنى ونُرحم.

ولكن يوم الأحد، في ٢٧ حزيران، سُمع أزيز فجائي لطائرة تلاه انفجار، ثم انهالت كدسات من الأوراق من الجو. كانت نشرات خبيثة من قوات الدفاع الإسرائيلية مطبوعة على أوراق وردية، خضراء وصفراء، تساقطت بمرح حولنا، بينما أخذ الناس يتناتشونها ويلحقون بها والهواء يتلاعب بها، مثل أولاد يلهون بفقاقيع الصابون. وجاء في الرسالة:

«إلى مواطني بيروت: إن قوات الدفاع الإسرائيلي لم تستخدم بعد كل الوسائل المتاحة لها لقهر الإرهابيين. انجوا بحياتكم وحياة أحبائكم. غادروا بيروت. الطرقات التالية مفتوحة ـ خلّصوا حياتكم.»

كانت هذه الوسيلة قد مورست في صيدا. المذلّة في أن يجد

المرء نفسه في وضع يطلب فيه السلامة، مع العلم بأن السلامة ليست إلا عن طريق الهرب المخزي الذي تعرضه إسرائيل ـ كانت هذه مرارة زادت منها ذكرى الهرب من فلسطين في الجيل الذي سبق. المنزل الخالي، والحقل المتروك، واللاجئ يحمل حياته في حقيبة ـ كل هذه كانت الرموز ليس للوجود الإسرائيلي فحسب بل لعجزنا نحن أيضاً.

عندما قرأت النشرة، انتابني خوف ما لبث أن غمرته فجأة موجة من السخط الطاغي. لن أغادر؛ مهما حدث، لن أرحل.

ولكنني رحلت. زوجي ألحّ. مثل العديد من اللبنانيين، فقد تعلّم الدرس من فلسطين، وعليه سوف يبقى هو؛ ولكن من أجل سلامة أولادنا، عليّ أن أصطحبهم وأرحل. جادلت وتوسّلت وقاومت، ولكنه غلب. «هل بإمكانك» صاح بي «هل بإمكانك أن تحملي المسؤولية إذا احترق أولادنا أو أصابهم مكروه؟» رؤية تلك الجثث الصغيرة المحروقة التي شاهدناها على التلفزيون جعلته يتقيّأ، وأنا لم يكن لدي الجرأة حتى على المشاهدة.

لم أتمكن من إيجاد حجّة مضادة. «خذهم أنت، وأنا أبقى،» حاولت بوهن. لم يكن يحق لي أن أحكم على الأولاد. شعرت بالخجل والمذلّة والغضب وأنا أحزم الحقائب في الظلمة ـ كان التيار الكهربائي مقطوعاً في تلك الليلة ـ ولم أكن أعرف أو أهتم بما كنت أرمي في الحقائب. غضبي كان دولاباً ذا مئة شعاع: غضب على زوجي لإكراهي على التخلّي عن تصميمي الذي لم يعمّر طويلاً، ولكونه نقض الميثاق الذي تعاقدنا عليه من قبل، والذي

تناساه الليلة كأنه هباء؛ غضب على أولادي لمجرّد ظلم وجودهم الذي يجعلني دائماً في المقام الثاني بعد مصلحتهم؛ على أصدقائي لأنهم لم يساندوني في موقفي، وهم بدورهم قرروا الرحيل؛ وعلى أختي المتباهية بكونها ستبقى، والتي جابهتني بقولها: «ليس عندي أولاد أقلق عليهم»: وعلى نفسي لكوني لا أملك القدرة على تنفيذ قناعاتي؛ على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى الحكومة اللبنانية اللتين لم تبحا لي قط، حتى ولا الآن، مخرجاً من هذه المعضلة التي ساعدتا على إيجادها، لعدم تقديم اقتراح ولا إنكار ولا شجب، ولا طلب مساعدة مني، ولا إعطائي أي شيء أستند إليه، ولصمتهما في هذه الفترة الأكثر رمزية وهولاً؛ وعلى المجتمع الذي عشت فيه لأنه تخلى عني، بحيث أنني في هذا الوقت بالذات أجد نفسي من غير نفع، عبارة عن مستهلكة أخرى لمصادر تتناقص بسرعة، أو جسد، معرّض للإصابة بجروح أو بالقتل ـ عبارة عن لا شيء إطلاقاً.

وهكذا، في ٢٨ حزيران، وأنا ملأى بشعور أنني خادعة ومخدوعة في آن، غادرت بيروت الغربية للإقامة لدى أصدقاء لنا في الجهة الأخرى. كانت بيروت الغربية تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية ومناصريها، بينما كانت بيروت الشرقية تحت إشراف القوات اللبنانية الذين كانوا آنذاك متواطئين مباشرة مع إسرائيل. وكان هذا بالطبع زاد من تردّدي في الرحيل.

كان بيت أصدقائنا على تلّة تطلّ على المدينة. كل منزل في تلك المنطقة كان يعجّ بزوّار من بيروت الغربية. على مدى ثلاثة

أسابيع مكثت هناك، أستمع إلى الراديو بلا انقطاع وأتسلّى باللعب بأوراق «شدة» قديمة كنت قد وضبتها في الحقيبة على عجل.

كان مصير بيروت في الميزان. وكان السؤال الكبير في ذهن كل واحد ما إذا كان الجيش الإسرائيلي، الذي أنذر السكان، سوف يقتحم المدينة. فيليب حبيب، المبعوث الأميركي، كان يتنقّل مكّوكياً ذهاباً وإياباً بين قصر الرئاسة في بعبدا وبين منزل السفير الأميركي في اليرزة. شفيق الوزّان، بصفته وسيطاً ورئيساً لوزراء لبنان، كان يتنقل باستمرار بين اجتماعات مع فيليب حبيب ومنظمة التحرير الفلسطينية. وبينما كانوا يتحدّثون، كانت المعارك مستمرّة.

بين الفينة والفينة كنت أصطحب الأولاد في نزهة في تلك التلال الأخّاذة. كانت الطرقات مزدحمة بالسيارات المليئة بالناس من بيروت الغربية، من الذين لم يكن عندهم أصدقاء في الشرقية، وليس بإمكانهم الإقامة في فندق، والفنادق كانت مليئة على كل حال. فكانوا يخيّمون في سياراتهم. منهم من وصلوا أجهزة تلفزيون إلى بطاريات سياراتهم وجلسوا مرتاحين يتفرّجون على مباريات كأس العالم في كرة القدم. أولادي، عشاق كرة القدم، كثيراً ما كانوا ينضمون إليهم ويجلسون على الصخور على حافة الطريق. وليلة المباراة النهائية، بدا كأن الحرب توقفت تماماً: وقيل أنه حتى الجنود الإسرائيليون كانوا يتفرّجون على المباراة، ويشجّعون الإيطالين ضد الألمان.

وكان يأتي أناس آخرون ويتوقّفون في تلك البقعة لأسباب أخرى: فهذه البقعة كانت تُطلّ على بيروت بأكملها، لذلك كان

بالإمكان مشاهدة المعارك؛ وهو ضرب غريب من ضروب التسلية. وكنا نصعد أحياناً إلى سطح منزل مضيفينا ومن هناك نراقب ما يجري تحتنا: القنابل المضيئة تتساقط، الصواريخ تنطلق حمراء في سماء الليل متقاطعة معاً بآلاف الأشكال والأنماط، والانفجارات الفوسفورية، تتصاعد بسكون، يتبعها الدويّ بعد ثوانٍ.

ذهبت بالسيارة ذات يوم إلى برمانا لزيارة أقرباء لنا ولأبتاع معجوناً للأسنان. وفي مخزن صغير للحاجيات شاهدت أول جندي إسرائيلي. هناك، في تلك المهمة التافهة التي كنت أقوم بها، تمت المجابهة التي لوّثتها تلك التفاهة بالذات التي سبّبتها. جنديان شابان، البندقية على الكتف، كانا يبتاعان بعض الأشياء ـ سكاير والعلكة. الرفض الهائل الذي تدفّق في داخلي أخمدته تلك التفاهة. حدّقت فيهما غير مصدّقة، شابان خجولان نوعاً ما، يعدّان نقوداً غير مألوفة بمساعدة باهتة من صاحب المتجر. بعد ذلك، وبشعور من الاختناق الذي سبّبه رفضي، تركت معجون الأسنان وهربت، محاولة أن أظهر وكأنني أخرج احتجاجاً. ولكن في الواقع كان يغمرني الخزي الذي جمعني بهما في رضوخ دنيوي للاحتياجات اليومية التي نتشارك بها.

وإذ أستعيد هذه المصادفة اليوم، أتساءل ما إذا كانا قد شعرا بأنهما واقعان في الشرك مثلما شعرت أنا؛ ما إذا كانت ظروف خارج إرادتهما قد وضعتهما في موقف قتل الناس، وقتل شعب، بينما كنت أنا في شرك الذلّ لكوني شاهدة فقط على مقتل شعبي؛ كلانا واقعان في الشرك وغير واقعين، نفعل ما نفعله من غير إرادتنا

ولكننا نقوم به على كل حال، ونرضخ له، وبالتالي نحن مذنبون. وتساءلت هل يا ترى انضمّا إلى صفوف الشبان الاحتياطيين الذين احتجّوا ضد الحرب في النهاية والموقف الذي وضعوا فيه بسبب ذلك؟ أم أنهما نفّذا الأوامر بالقناعة الكاملة بأن ما يقومان به حق، أو على الأقلّ أمر لا مفرّ منه؟

على كل حال، في الوقت الذي حدثت فيه تلك المصادفة عانيت مما قد يُسمى دوار معنوي. كان الجيش الإسرائيلي قد اجتاح لبنان بخشونة وشراسة قضت على ألوف الأشخاص، لبنانين وفلسطينين، وأنا لجأت إلى ذلك الجزء من البلاد الذي تسيطر عليه الفئة التي كانت متواطئة مع الإسرائيليين. وتذكّرت ملاحظة أبداها أحد أصدقائنا مازحاً منذ سنوات، خلال الأيام المشؤومة لحرب ١٩٧٦. «هل سمعتم؟» سأل: «هل سمعتم ما قال فلان؟ إنّ وضعنا ميؤوس منه، ولكنه غير جدّي.» وشعرت أن وضعنا قد يكون ميؤوساً منه، إلا أنه أصبح جدّياً. لم يعد بالإمكان تفادي العنصر المعنوي؛ الالتجاء إلى الموقف الحيادي معناه القبول بالعنف الإسرائيلي. إما أن نتحمّله، أو نسمح به، لم يكن هناك موقف وسط.

بعد ظهر ذات يوم، استقبلت ليلى ومنير بزيارة مفاجئة. في أوائل أيام الغزو توقّعا هجوماً إسرائيلياً على بيروت وغادرا المدينة إلى منزلهما العائلي في بحمدون. بحمدون بلدة ذات أهمية إستراتيجية كبرى، تهيمن على الطريق الدولي الذي يصل دمشق ببيروت، وكانت موقع معركة كبرى. وبقي أصدقاؤهما بدون أخبار

منهما على مدى أيام. أخيراً، تلقينا اتصالاً تلفونياً مقتضباً منها «نحن على قيد الحياة.» هذا كل ما استطاع أن يقول بصوت بعيد غريب، «ليس بإمكاني أن أزيد على هذا.» بعد ذلك لم نعد نسمع شيئاً عنهما.

وفي أصيل ذلك اليوم بالذات، استهدوا إلى عنواني وجاؤوا لزيارتي. بَدَت ليلى شاحبة هزيلة. شعرها الطويل الأسود اللماع قصته قصيراً، وهيئتها المتغيّرة زادت من غرابة مزاجها وتباعدها. وبصوت فاتر يكاد يكون رتيباً أخذت تروي لي ما عانوه. فقد فوجئوا عندما حدثت المعركة. كانت هي في سوق القرية، تتحوّج، واضطرت إلى اللجوء إلى دكان لمدة ساعات. وفي برهة هدوء تمكنت من الرجوع إلى البيت جرياً بين «قادوميات» وطرق مختصرة غير مألوفة. ووصلت إلى منزلها في الوقت الذي عادت فيه المعركة إلى الاحتدام بشراسة متناهية. وبما أن منزلهما بدا وكأنّه أوفر ضمانة مما حوله، لجأ إليه العديد من العائلات. وجرت بينهم وبين المقاتلين مشاحنات مرّة. فقد طلبوا منهم عدم وضع مدافعهم قريبة جداً من المنزل حيث يمكن أن تتعرض لقصف إسرائيلي. والمقاتلون الذين كانوا بلا ريب قد لاقوا الردّ نفسه من جميع سكان البلدة، رفضوا الانتقال. فظلوا مسجونين في الداخل على مدى ساعات إذ بلغت المعركة أشدّها، وتعرّض منزلهم لكثير من الضرر بالقذائف والرصاص. أخيراً، وخلال فترة هدوء في الرابعة صباحاً، تمكّنوا من الفرار، فقادت السيارة وفيها ثلاثة عشر شخصاً ـ وظهرت على وجهها ابتسامة خافتة وهي تروي لي هذه الحادثة،

وتحدثني أن أستطيع زجّ ثلاثة عشر راكباً في سيارة في ظروف عادية. «لا أدري كيف انحشروا فيها، ولكنهم فعلوا.» وركب زوجها درّاجة «الفسبا» وهي درّاجة صغيرة جدّاً بمحرك ـ ووراءه رجل. فأسرعوا إلى زحلة حيث أمضوا يوماً أو يومين، ثم غادروها، ولكن مع أولادهم فقط هذه المرّة. واضطروا إلى القيام برحلة خمس ساعات لبلوغ بيروت الشرقية، مجتازين الطريق الطويلة من البقاع عبر الأرز وإلى الساحل نزولاً.

عندما كانت تستعيد المعركة في ذاكرتها كانت وكأن مشاعر جديدة تبرز؛ طائرات ودبّابات ومدافع ضخمة، تدكّ المنزل مرة أخرى، وكانت هي قابعة في زاوية، متيقّنة بأنهم سيموتون كلّهم. ولما كانت في حديقة منزل مضيفنا، محاطة بزهور إبرة الراعي وبالورود وأشجار التين، ترشف الشاي، بدت تلك المحنة التي مرت بها كأنها حلم، وغير واقعية.

إلا أنني شعرت وكأنها مرّت بشيء غيّر حياتها إلى الأبد. الشعر القصير غير المألوف، الارتعاش في يدها عندما كانت تشعل لفافة بعد الأخرى، الرتابة الكلية في صوتها الذي كان يرنّ غنيّاً، كل ذلك يدلّ على تغيّر في حالتها جعلت حالتي أنا أصعب تحمّلاً.

رغبتي في اختبار ما عانَتْهُ لم تكن من باب المازوشية بل من فروغ الصبر والشعور بالإحباط لكوني أُبعدت عن جوهر الأشياء ولم أعش ما كان يجدر بي أن أعيشه، وأن يكون التاريخ قد نُثِرَ عليّ بدلاً من أن أكون قد تذوّقت مرّ كأسه. وشعرت أكثر من قبل برغبتي في العودة إلى منزلي.

وتحقق تصميمي أخيراً بالصدفة إلى حدّ ما. فقد «قطع» زوجي إلى الشرقية ذات يوم لقضاء بضع ساعات معنا. وأغرقني في موجة من الروايات عن المشاق والأخطار في بيروت الغربية لإقناعي بأنني أكثر أماناً حيث أنا. الأولاد ـ الرهائن بين والديهم في سعيهم إلى ما هو أفضل لهم ـ لأنني أردت أن أرفع عن كاهلهم ـ وعن كاهلي أنا، حمل أي امتياز ـ كانوا هم أيضاً متلهّفين إلى العودة. فقد ضجروا من التسلية المتاحة لهم في الجبال، وكانوا ـ مثل كل أولاد هذه البلاد ـ قد عانوا القلق لبعدهم عن أحد الوالدين. وإذ كنا نتابع الجدل، سمعنا أن الإسرائيليين قد أغلقوا نقطة العبور بين الشرقية والغربية.

شاركنا زوجي في نفينا وأصبح أكثر تفهّماً لوضعي. وكنا قد سمعنا، بعد يومين أو ثلاثة، أن إحدى نقاط العبور قد فُتحت ولكن فقط للذين يحملون تصريحاً خاصاً. ومحاولاتنا للحصول على تصريح أُحبطت: سُمح فقط للأطبّاء بالعودة، أو حاملي بطاقات الصليب الأحمر، أو الدبلوماسيين. حتى لهؤلاء، كما سمعنا، كان يقول الجنود الإسرائيليون: «لماذا تريدون العودة إلى هناك؟ سوف تموتون!»

بعد يوم أو يومين، فُتحت جميع نقاط العبور. في هذا الوقت كان هناك ثلاثة معابر يمكن منها الوصول من بيروت الشرقية إلى بيروت الغربية. الأول كان طريق المرفأ، المخصصة للدبلوماسيين وعناصر الصليب الأحمر والأطباء الذين كان مصرّحاً لهم بالعبور بالسيارة، حيث كان الإسرائيليون يُخضعون كل فرد، حتى الدبلوماسيين، إلى تفتيش دقيق، ويصادرون الأطعمة. المعبر الثاني

كان طريق المتحف الوطني الذي كان مغلقاً أمام السيارات؛ كان على العابرين أن يحملوا متاعهم ويقطعوا المسافة مشياً. المعبر الثالث كان عند غاليري سمعان. هذا المعبر كان الأكثر خطورة ولكنه الوحيد الذي يمكن للعموم أن يعبروه بالسيارات. المشكلة كانت أن الإسرائيليين كانوا يفتحون أو يغلقون الحاجز تبعاً لمزاجهم، والمواعيد المحدّدة لم تكن تحترم دائماً.

ركبنا السيارة إلى غاليري سمعان بعد أن أجزلنا الشكر لمضيفينا على حسن وفادتهم. كانوا مترددين في الموافقة على ذهابنا. فقد كان من الواضح لهم، ولنا أيضاً، أن الحرب لم تزل قائمة وأننا نعرّض أنفسنا لخطر أكيد. عند وصولنا إلى ساحة دار الصياد في الحازمية وجدنا صفّاً طويلاً من السيارات التي تنتظر السماح لها بالعبور، والأمر المدهش كان أنه، بالرغم من كل شيء، شاهدنا أشخاصاً راجعين إلى بيروت الغربية أكثر بكثير من الذين كانوا يحاولون الهرب منها. ربما هؤلاء أيضاً أحسّوا بشقاوة النفي وألمه، وأنه أسوأ من شقاوة الحرب وأخطارها.

انتظرنا ساعتين في الشمس الحارة قبل أن نعود أدراجنا. وأدخلنا السيارة إلى مرأب مضيفينا حيث سوف تبقى لبضعة أسابيع. وذهب زوجي إلى المتحف واجتاز المعبر سيراً على الأقدام. وفي صباح اليوم التالي ركبت سيارة أجرة مع أولادي إلى المتحف وحملنا حقائبنا مجتازين المعبر، تحت مراقبة الجنود الإسرائيليين في دباباتهم، ووجدنا زوجي منتظراً في الجهة المقابلة مع سيارة أجرة على بعد حوالى مئة متر.

أخيراً عدت إلى منزلي في رأس بيروت، وكانت حينذاك في أحلك ساعاتها. حصار بيروت كان قد ابتدأ. انقطعت المياه والكهرباء ومُنع دخول الأطعمة على مدى أسابيع. في تلك الأيام من الحصار، كانت بيروت مكاناً فوق العادة. الشاعر الفلسطيني محمود درويش أسماها «مدينة مقدّسة» وهكذا أعتقد أنا، فالروح التي تجلت فيها والآلام التي مرت بها قدّست نضالها وسعيها إلى البقاء.

كانت القمامة منثورة في الشوارع، فأعمال جمع النفايات توقفت منذ مدة طويلة. كانت هناك أكوام من النفايات ما زالت تتصاعد منها أعمدة الدخان، والهواء نتن من الروائح الكريهة والدخان ورطوبة الصيف المزعجة. رائحة العرق من أجسام الناس الذين لم يغتسلوا كانت قوية، والرجال أهملوا في معظمهم حلق ذقونهم. صباغ الشعر على الأخص لدى السيدات بدأ يفقد لونه ويخالطه الشيب، بينما ظل الأولاد يتلهون بألعاب الحروب المثيرة للشفقة في الشوارع المفتوحة. النساء اللاجئات استمرّين في التغلّب على وضعهنّ المستحيل بروح المرح والشجاعة، قاطعات الشوارع حاملات أوعية بلاستيكية مملوءة بالماء العزيز المستقى من الآبار على الورك، وعلى الورك الآخر أطفالهنّ. والمدهش مع ذلك أنني شعرت بنوع من النشاط والخفّة لا يمكن تفسيره إلا بسبب وجود الشعور الموازي بالموت الرؤيوي الذي يخيّم على المدينة.

كل شيء تضاءل في تلك الأيام ما عدا الشعور بأننا «نحن» المدافعون ضد «هم» الغزاة المعتدين. كل فرد في بيروت الغربية كان «نحن»: المقاتلين، اللاجئين، المراسلين الأجانب، الأغنياء،

الفقراء، المسيحين والمسلمين، اللبنانيين، الفلسطينيين، الرجال، النساء، الشباب، العجائز، الشرطة، وربما القتلة واللصوص، كنا كلنا معاً وشعرنا بنوع من التقارب، نوع من الوحدة ربما لم تكن لتخطر ببال في الأيام العادية. كنا نتبادل التحيات ونُتف أخبار مختلفة مع أشخاص لم يسبق لنا أن شاهدناهم ولن نشاهدهم مرة أخرى.

كان لدي شعور بنوع من السرمدية، كأن الحصار كان دائماً موجوداً وسيبقى دائماً؛ كأنني لم أعرف حقيقة أخرى. لم يكن هناك عمل ولا لهو، ولا وقت مناسب للقيام بعمل ما أو بسواه، للنوم أو للقيام. كنا ننام عندما نستطيع ونستفيق عندما نضطر إلى ذلك. بنية الوقت تداعت، وتساقطت الساعات حولنا مثل حجارة الطلل. أيام الآحاد وسائر أيام الأسبوع كانت متشابهة وفقدت مزاياها، كذلك كل تواريخ الشهر.

حتى ذلك الحين، ربما لم تكن الحرب التي ابتدأت في العام ١٩٧٥ واضحة البتة، ولا نقية؛ أما الآن، في هذه المجابهة فشعرت بشيء مماثل لرؤية واضحة جليّة عن دورنا. ذواتنا البشرية المألوفة دُعيت لمقارعة «هم.» وهم، «الآخرون،» أصبحوا لاإنسانيين تماماً. من المياه الموحلة للسنين السبع الأخيرة برز الشرّ الحقيقي: إسرائيل ظهرت هكذا أخيراً، في العراء، غير متنكّرة، وبشراسة لا تُغتَفَر. كل ما كان لديّ من تردّد تبخّر: هنا لم يعد يوجد شك. هذه كانت معركة شعرت فيها أن بإمكاني التحيّز. لجهة دون سؤال. كل انتقاداتي الموجّهة ضد سلك منظمة التحرير الفلسطينية

في لبنان ـ وكان هناك كثير منها ـ تراجعت، لأنها حاربت مباشرة وببسالة، ضد قوة إسرائيل الساحقة. كل ما لدي من شجاعة وخيال ومثالية وشعور بالماضي عُبّئ وتركّز على ضرورة المقاومة، والتي أصبحت بالنسبة إليّ أكثر الأعمال السياسية جدوى في حياتي.

ولكن كيف يمكنني أن أقاوم قوة ساحقة كهذه؟ لم يخطر ببالي للحظة أن أتطوع في جيش. كان الوقت قد فات لأتطوع للخدمة في المستشفيات: حاولت ولكنني أُجبت بأن لا وقت هناك لتدريبي. مقاومتي كانت فقط في وجودي هناك، والعناية بعائلتي، والإجابة بالنفي عن المناشير الداعية إلى الهرب. ربما ما فعلته كان عملاً أحمق، عبارة عن عمل فارغ لم يُفِدْ أحداً بشيء. إلا أنه بالنسبة إليّ لم يكن فارغاً ومن الواضح أنه، للألوف غيري الذين اختاروا الخطّ ذاته، لم يكن فارغاً قط.

هناك تعبير بالعربية استُخدم كثيراً في لبنان في السنوات الأخيرة، ولكن ليس بالمقدار الذي استُعمل به في تلك الأيام: الصمود. إنه مرادف للتشبّث، والرسوخ والثبات والتصميم والاحتمال واللاغلبة ـ كل هذه الكلمات معاً، بمعانيها المختلفة المتقاربة، توحي معنى هذا التعبير النبيل: الصمود.

كون هذه الكلمة استُعملت بهذا المقدار ومن مثل هذا العدد من الناس بكل ثقة بالنفس يدل برأيي ليس فقط على ما يراه الناس في أنفسهم بل أيضاً على حقيقة الموقف. ليس من أحد على ما أعتقد، خلال تلك الأسابيع الطويلة من الحصار، كان يتخيّل قط أن بالإمكان قهر الإسرائيليين. هذا هو الأمر المدهش الذي يدعو إلى

الإعجاب: إن المقاومة كانت يائسة تماماً دون أمل، ومع ذلك حصلت.

في بداية معركة بيروت، كان هناك انقسام والكثير من السخط ضد منظمة التحرير الفلسطينية. كان هناك هؤلاء الذين كانوا يشيرون إلى الوضع اليائس ويتّهمون المنظمة بمسؤولية زجّ البلد في هذا الموقف من الخراب الوشيك المحتوم. في كل مرة كان أحد من المنظمة يجازف بالتصريح بأن بيروت ستكون ستالينغراد العرب، أو هانوي العرب ـ وتصريحات من هذا القبيل كانت وللأسف كثيرة ـ كان بعض سكان بيروت الأصليين يردّدون غاضبين. «بيروت ليست إحدى المدن الفلسطينية» هذا ما كنا نسمعه دائماً: «إذا أردتم ستالينغراد أوهانوي، فليكن ذلك في إحدى مدنكم، وليس في مدننا.» «بيروت ليست ملك أبيكم،» كان يردد البيروتيون. ولكن بازدياد الهجمات الإسرائيلية شراسة ووحشية، وإذ بدأ يظهر أن الإسرائيليين لم يكونوا يستهدفون المنظمة فقط بل ربما بيروت ذاتها، ولما ازداد عدد القتلى بين السكان وعدد البنايات المهدمة، أخذت الانتقادات ضد المنظمة تتقلّص بانتظام. وبدأ الناس يشاركون أكثر بالشعور مع المقاتلين الصامدين أمام الإسرائيليين. قالت لي سيدة من معارفي، من اللواتي كنَّ على مدى سنوات ينتقدنَ وجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، يوم ٥ آب/ أغسطس بعد هجمة إسرائيلية ضارية حاولوا فيها دخول بيروت ورُدّوا: «ألم يكن شبابنا رائعين؟ عافى الله الشباب، والله، عافاهم. برافو.»

كيف كانت الحياة اليومية في أيام الحصار؟ لم يكن بالإمكان الحصول على منتجات طازجة، ولكن كان هناك مخزون من المآكل المعلّبة والمجففة، وحتى عندما شحّت هذه، قام العديد من المطاعم في المنطقة ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ وأضافوا مخزونهم الخاص إلى الكميات الموجودة. المشكلة الأكثر خطورة كانت عدم وجود ماء ووقود. ما كان موجوداً من الماء كان مشتركاً. بعض الأبنية في بيروت ـ وبنايتنا كانت من بينها ـ كانت مزودة بآبار إرتوازية وبمولّدات، وأصبحت هذه مصدر البقاء لمئات الألوف. في البدء كنّا نشغّل المولّد الكهربائي عدة ساعات يومياً، ولكن عند نفاد الوقود، أصبحنا نشغّله حوالى ساعة فقط كل يوم، ما يكفي لضخ الماء.

من الفوائد الإضافية لمحرك يضخّ المياه تَرَفُ برّاد شغّال، وهو نعمة نادرة في تلك الأوقات. بالطبع، البرّاد لا يعمل جيّداً بساعة أو ساعتين من التيار الكهربائي في الأسبوع في فصل الصيف الحار، ولكنه كان يكفي للحصول على قدح بيرة أو جرعة ماء لم تكن باردة ولكنها كانت أفضل من فاترة.

كانت الصفوف تنتظم حيثما وُجدت مضخّات تعمل وتضخ الماء. صفوف طويلة من الرجال والنساء وحتى الأولاد، واقفة بصبر وبانتظام، حاملة أشكالاً مختلفة من الأوعية البلاستيكية الملونة. لم يكن ماء الآبار الارتوازية صالحاً للشرب، ولكن الكثيرين كانوا يشربون منه. وعندما طال الحصار ونفدت كميات قناني الغاز، لم يعد باستطاعة الناس غلي الماء، واللاجئون الذين

لم يكن لديهم أفران غاز لم يكونوا قادرين على غليها على كل حال. إلا أن المشكلة الكبرى في مياه البئر أنها كانت ذات ملوحة. ولما نفدت مياه الشرب في بيروت الغربية بدأنا نسمع عن أطفال يموتون بسبب استهلاكهم الملح. عند هذا بدأت العديد من السيدات، بينهنَّ زوجة رئيس الوزراء، بالاعتصام في الجامعة الأميركية في بيروت للاحتجاج على وحشية الحصار الإسرائيلي.

كنت أخرج كل صباح ـ أي عندما كنت أستطيع ـ لزيارة والدتي ولتطمينها، لأن التلفونات كانت على العموم في سبات عميق، بأننا ما زلنا أحياء ولأطمئن إليها أيضاً. فنجان قهوة «على السريع» في المطبخ عندها، حيث يقف مخزونها من ماء الشرب في زجاجات البلاستيك على المنضدة؛ وحديث سريع مع ضيوفها، الذين أصيب بيتهم بالقنابل فاستضافتهم، وتبادل سريع للأخبار، ثم أهرع نزولاً على الدرج إلى حيث أستجدي بعض الأطعمة مما بقي لدى محلات البقالة، وهي المخازن الوحيدة التي بقيت مفتوحة. حاولت أن أطهو العدس والمعجّنات والأرز بدون بندورة أو ثوم أو زبدة، فمطبخي كان قد فرغ منذ زمن من كل شيء ما عدا بعض المآكل المجفّفة والحشائش والتوابل.

ربّات البيوت من أمثالي تحرّرن لأول مرة في حياتهنّ من كدح الواجبات اليومية البغيضة. أتكلم على تفاصيل كهذه لأبدي نوعاً من الولاء لتلك الأيام وللتعويض عن أية لمسة من الرومانطيقية التي قد تظلّ عالقة حول ذكراها: لأنّه حتى في خضمّ أكبر الكوارث من الضروري غسل ثياب الأولاد واستنباط أساليب للحفاظ على نظافة

بيت الخلاء؛ ولتدبير المأكل والمشرب والتدخين. لم أتكلّف قط عناء ترتيب الأسرّة أو تغيير الشراشف: الماء كان أكثر ضرورة لغسل الثياب. الطهو اختُصر إلى غليان المعجّنات ورشّ الأعشاب التي تعطيها طعماً سائغاً. الدخان والسخام المنبعث من الحرائق جعل من المستحيل المحافظة على النظافة. على كل حال، لم يكن أحد يهتم بذلك. في ذلك الوضع من الإحساس المتزايد وعالمنا يحترق حولنا ويهتز ويموت، من كان يهتم بالأسرّة المشوّشة أو البلاط غير النظيف أو الطاولات المكسوّة بالغبار؟ ومع ذلك أذكر أنني كنت بين الفينة والفينة أُصاب بنوبة من التنظيف المنزلي، إلا أن ذلك كان من قبيل الرغبة المهووسة في تنظيف العالم كله، العالم الغاشم كله، عالم القتل والأطفال الذين يموتون من شرب الماء المالح ومن الآفاق المسخّمة، من النيران والألم.

كان الأولاد يتلهّون بلعب «المونوپولي» و«السكرابل.» وغالباً يتشاحنون، وكثيراً ما كانوا ينامون على الأرض. وكانوا يتجادلون في السياسة ويراقبون السفن الإسرائيلية خلال فترات الهدوء ويوجّهون إليها «إصبعهم الوسطى» من خلال المنظار المكبّر، دون أن يخشوا التقريع منا على بذاءتهم. من شرفتنا كانوا يصوّرون المعارك البعيدة ظنّاً منهم أن باستطاعتهم التقاطها على شريط مصور ولكنهم لم يحصلوا إلا على صور دخان بعيد. وحدث ذات يوم أثناء قيامي بجولتي اليومية أن قامت الطائرات الإسرائيلية بالإغارة على المدينة. وعندما تسنّى لي أخيراً أن أهرع إلى البيت كنت أرتجف غضباً على نفسي لأنني تركت الأولاد وحدهم؛ زوجي وأنا

كنا نتناوب على الخروج من المنزل بحيث يظل أحدنا على الدوام مع الأولاد. وجدتهم في الغرفة «الآمنة،» يراجعون علوم الجبر التي كان واحد منهم قد وجد صعوبة فيها خلال السنة.

ومع ذلك، في تلك الساعات الطويلة، التي كان يتخلّلها هرولة إلى الملاجئ من وقت لآخر، كان الضجر والسأم يشكلان تهديداً رئيساً لكل واحد منا. لم يكن باستطاعة أحد أن يركّز على القراءة. وجدت نفسي قادرة بالكاد أن أقرأ صفحة بكاملها أو صفحتين، ولكن عندما كنت أقرأ كنت أجدني غير قادرة على تحمّل أي شيء ما عدا روايات جاين أوستن. أظنّ أنني كنت أجد بعض العزاء في عالمها المستقر، السحيق، والمنظّم. كنت أقرأ عن رجال نبلاء مهذّبين راكبين خيولهم في طرق خاصة مفروشة بالحصباء عندما يتوجّهون للزيارة؛ وعن سيدات يرشفن الشاي ويتبادلن الأحاديث عن آخر أخبار الخلل باللياقات؛ وعن بطلات شابّات يتجاهلنّ أرامل النبلاء؛ والعقيلات الممتلئات الجسم يُصَبْنَ بنوبات من الهستيريا؛ وعن العشاق الذين ينتهي بهم الأمر إلى التلاقي والتلاحم بعد معاناة متوازية من سوء التفاهم ـ عالم من اللغة المصقولة والبنية المتماسكة. البنية: هذا، باعتقادي، كان أقصى ما أتمنّاه، بنية منيعة أستطيع أن أحافظ عليها في عالم يتداعى فيه الإسمنت من حولي.

كان الناس يتزاورون، فهذه كانت أيام الصداقات. المعارف أصبحوا خلصاء مقربين. الشفاه المغلقة عادة بصمت متحفّظ صارت تهمس بأسرار لم تكن لتباح في ظروف عادية. الأصدقاء القدامى

أصبحوا أكثر وثوقاً وتقرّباً مما يمكن تخيّله؛ أصبحوا ضرورة حيوية واحدهم للآخر، ولوجود كل منهما.

بنايات كثيرة تهدّمت في القصف المدفعي، والعديد من الناس قضوا مدفونين تحتها، بحيث إن من أكبر المشاكل التي كنا نواجهها كانت قضية المكان الذي نلجأ إليه. الكاراجات تحت الأبنية التي كنا نحتمي فيها خلال تبادل القذائف المدفعية لم تعد تضمن لنا حتى وهم الأمان. على عكس ذلك، أخذنا نشعر أثناء الغارات الجوية بأننا مهدّدون من الأبنية التي كنا نحتمي فيها في السابق. ومع ذلك لم يعد بإمكاننا البقاء في شقّتنا ما عدا تلك الهنيهات التي كان يسيطر علينا فيها التسليم للقدر، بسبب نيران المدفعية. بالإضافة إلى ذلك، كان علينا أن نتحاشى السفن الحربية الإسرائيلية، وبما أن تلك السفن كانت دائمة التنقّل، لذلك كان من المستحيل تقريباً معرفة أية جدران توفّر لنا حماية من نيرانها.

واخترنا الحل الوسط بالاحتماء في الطبقة الثانية من بنايتنا. المحامي الذي استخدمنا مكاتبه لهذه الغاية كان يسكن في الجهة الثانية من المدينة ولذلك لم يحضر إلى مكتبه. وكان قد ترك مفاتيحه في عهدتنا. وعليه كنا في الأيام العصيبة نحتمي في ردهة الاستقبال الأنيقة في مكتبه، محاطين بالوثائق القانونية وغير ذلك من وسائل الحياة المتمدّنة، والتي ذكّرتنا وسط تلك الظروف وبسخرية هازئة، بالهوة التي تفصل بيننا وبين العالم العادي العملي.

في تلك الفترة سرت إشاعة بأن البابا ينوي المجيء إلى بيروت ليشارك في معاناتها وليضع حدّاً لهذه المعاناة. الفكرة بحدّ ذاتها

أطارت عقلي فرحاً. أخيراً! أمر جليل، نبيل، نقيّ. صحيح أنه عمل رمزي، ولكن ما أجلّ المعنى المرتبط به، وأية فخامة. ولكن مع الأسف، انطفأت الإشاعة، والجميع هزأوا مني لأنني صدّقتها بالأساس. «لا تكوني مغفّلة،» قالوا لي، «إنها زيارة محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى البابا ومجيئه قد يورّطه أكثر مما يريد. فهناك بالنهاية وضع دولي دقيق والفاتيكان في نهاية المطاف هو جزء من المؤسسة الدولية. لا تكوني بلهاء.» قالت لي إحدى صديقاتي وهي تحدّق فيّ بتمعّن: «هل صدّقت ذلك حقيقة؟ لا يمكنني أن أصدّق أنك صدّقت!»

في أحد الأيام شاهدت امرأة كردية كنت ألتقيها بانتظام في الشارع. وكنا عادة نتبادل التحية بابتهاج، وكانت تفترّ عن ابتسامة عريضة تلتمع فيها سنّان لها من الذهب الخالص. أما هذا اليوم فبدت مهمومة، كئيبة. «ماذا حصل؟» سألتها. صهرها وولدان له قتلوا في غارة جوية في اليوم الأسبق، قالت لي، ولكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر. الأسوأ كان أن القصف العنيف منعهم من الوصول إلى المقبرة ولذلك اضطروا لرمي الجثث في البحر. «ما الذي يمكننا فعله؟» قالت لي، «الجميع يفعلون ذلك.»

كانت هناك محرقة قديمة أصبحت شبه معطوبة لقلة الاستعمال في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، ولكن حتماً ليس بإمكانها تلبية الطلبات نظراً لتكاثر عدد الضحايا. لست أدري أين دفن العديد من القتلى في تلك الأيام وكم منهم رُمي في البحر. كل ما أعرفه أنه إلى حين أخبرتني تلك المرأة بذلك لم يكن الأمر قد

خطر ببالي، وحاولت تناسيه فوراً لكونه مؤلماً إلى حدّ لا يمكن تحمّله.

وكنا نتعرّض بانتظام لما صار يُسمّى غارات وهمية. تنقضّ الطائرات وتمر فوقنا زاعقة كالشهب فجأة وبدون إنذار وبدويّ مرعب فتخطف أنفاسنا. وكانت تحلّق على علوّ منخفض إلى درجة تشعرنا بدنوّ نهايتنا. ثم فجأة، ومثلما جاءت، تنصرف الطائرات دون أن تلقي حتى ولا قنبلة واحدة. هل كان ذلك نوعاً من الحرب النفسية؟ أم هو مزاح سمج؟ أهو لعبة؟ إعلان تفوق جويّ ـ أو احتكار للجو؟ أم هو مناورة؟ لا أدري، ولكن إذا كان الإسرائيليون يحاولون إثارة حقد أكبر عليهم، فقد نجحوا في ذلك.

وخلال كل ذلك بقي هنا وهناك نثار من تلك اللامبالاة الأسطورية التي تميزت بها بيروت. صباح اليوم، إذ كنت خارجة من المتجر/سوبر ماركت سميث حاملة خبيثي من المعكرونة، صادفت صديقتي سلوى، ولهنيهة لم أدرك لماذا أجفلني مظهرها، ثمّ فجأة أدركت السبب: سلوى، قلت لها بتعجّب: «تبدين كأنّك صفّفت شعرك عند المزيّن!» «هذا ما فعلته،» قالت ضاحكة بلهجة الانتصار، وقرّبت شعرها مني لأتنشّق عطر السائل المرشوش على شعرها. هناك مزيّن نسائي أعد مخزوناً متواضعاً من الماء ووصل دكّانه بمحرك كهربائي وراح يزاول نشاطاته ومهامه من الغسل بالشامبو و«السيشوار» وصباغة الشعر وغيرها. وهكذا، وبهذا الشارع على الأقلّ، كانت تشاهد سيدات أنيقات المظهر يمررن بانتظام الواحدة تلو الأخرى فيعوضن عن صورة كل ذلك الخراب.

وفي مناسبة أخرى، ذات يوم هادئ اقترح عليّ زوجي، من فرط قلقه، أن نخرج لمزاولة المشي. استغربت فكرة خروجنا في نزهة في وقت كهذا. ولكن سرعان ما انطلقنا، نمشي في حرم الجامعة الأميركية، كنت عصبية جداً بادئ ذي بدء. فالآفاق المفتوحة بدت لي محفوفة بالمخاطر، وأصبحنا نمشي بالفطرة قرب جدار وعيننا مفتوحة على أي ملجأ مناسب إذا لزم الأمر، ولم يمضِ إلا وقت قليل حتى هدأ روعي أمام مناظر حرم الجامعة الخلابة، وأشجار السرو العالية والنخيل وألوان الزهور والدفلى والخبيزة ومباني الجامعة المحاطة باللبلاب وعدت بالذاكرة نوعاً ما إلى الأيام العادية والحقائق الأخرى.

مشينا إلى أن وجدنا أنفسنا أخيراً قرب منزل آل ثابت.

«أندخل؟»

«حسناً.»

وبالرغم من أنه كان منشغلاً بشأن عاجل يتعلّق بالجامعة إلا أن زوجته وأختها التي أصيب منزلها بالقنابل ولا يصلح للسكن كانتا في الحديقة معاً حيث انضممنا إليهما، واعتقدت لهنيهة بأنني مصابة بهَلْوَسَة، ولكن سرعان ما رحت أضحك بمرح. هناك، على بساط العشب الأخضر، أعدّت طاولة فرشت عليها لوازم الشاي وملحقاته، إبريق الشاي وغطاءه الدافئ المصنوع من النسج المحبوك، النوع الذي تشتريه من «بازار» الكنيسة الخيري؛ الفناجين كانت من البورسلين، وملقط قطع السكر الفضي وملاعق شاي فضية، وغطاء كتّان مزركش مع فُوَط، وصحن فضيّ صغير فيه

بسكوت. وكانت كل منهما ترتدي قفطاناً طويلاً قطنياً من أحدث زيّ، وكانتا أنيقتين وحمرة شفاههن متقنة. وكانت السيدتان جالستين، عندما دخلنا، وكانت سيدة البيت تجلس وساقها فوق ساقها الأخرى بكل أناقة، وفي يدها تحمل فنجاناً من الشاي واليد الأخرى تداعب كلبها الرابض بقربها. وبدت وهي ترشف الشاي، كأنها لم تسمع بالحرب قط.

قلت لها: «ليس بإمكاني تصديق ما أرى. أشعر وكأنني في حلم. كيف تفعلين ذلك؟»

«يا عزيزتي، إذا لم أفعل ذلك سوف أُجَنّ. إننا نعيد هذه التمثيلية بعد ظهر كل يوم الساعة الخامسة، إلا إذا كان ذلك غير ممكن عملياً. لماذا لا تنضمّان إلينا؟» ويبدو أن عدم التصديق كان ما زال على وجهي، لأنها استطردت قائلة: «ماذا تريدين أن أفعل؟ أن أموت؟ عندما تأتي ساعتي، سوف أموت. في أثناء ذلك، أتناول الشاي كل يوم بعد الظهر.» «ولكن هذه السفن..» وأشرت إلى البحر حيث كانت تلك الوحوش الرمادية ظاهرة تماماً. والواقع أن منظر السفن من حديقتها، قبل أن تؤثّر في شجاعتها، كانت قد هزّتني. «طبعاً، عندما تكون الأوضاع سيّئة، فإننا نمتنع عن هذا، أليس كذلك؟» ولوّحت بيدها كأن الموضوع كله لم يكن سوى مجرد تفصيل بسيط.

«خبّريني،» قالت لي وهي تسكب لي فنجاناً من الشاي، «ما هي أخبار أمّك؟» وهكذا جلسنا نرتشف الشاي ونتحادث، ووجدتني أنسجم مع المناسبة، وعندما تركنا المكان بعد الزيارة

الطويلة وجدت عزيمتي متجددة بفضل تلك الحفلة المدهشة.

بالنهاية، تغلغل الاستنزاف تدريجاً عبر التجلّد. تذكّرت الهيئة المنهكة على كل وجه، والدوائر السوداء تحت العينين، والهزال الذي يعتري الجميع. كنا نعيش بين الموتى والمحتضرين، غير دارين متى سيأتي دورنا في الانضمام إلى صفوفهم، وعليه لبسنا هيئة الموتى. كنا ننتهز فرص النوم كلما أتيحت، في أوقات غير منتظمة، وكان نوماً مؤرقاً. كانت هناك الأدراج والسلالم التي يجب علينا تسلّقها في البنايات العالية العصرية لأن المصاعد أصبحت عديمة الفائدة، وصارت عبئاً في الواقع. الحداثة والتكنولوجيا لم تعد تظهر حقيقة إلا بالسلاح؛ كل مظهر آخر من مظاهر الحياة تقلّص وأعيد إلى العادات القديمة البدائية. آلات الحرب وعتادها كانت شغّالة تماماً، وكل ما عداها بالكاد كان يعمل.

أتذكّر الخوف المجرد ـ الرعب المحض ـ الذي كان ينهش أكثر الناس شجاعة ويضعفهم. وأذكر وأنا أنظر إلى أولادي، كيف أخذ ابني الصغير يدي ووضعها على قلبه النابض بسرعة ليشعرني بخوفه، وأخوه ذو الثلاث عشرة سنة جالس بصمت وسكون، ولكن ملتصقاً بي، يهمس لي في ٤ آب/ أغسطس: «ماما، سوف نموت اليوم... بكل تأكيد، سنموت كلّنا.»

تلك كانت الأيام الجائحة، أيام الكوارث: أول آب والرابع منه والثاني عشر. في اليومين الأولين حاول الجيش الإسرائيلي ـ بدون نجاح ـ أن يدخل بيروت الغربية. تلك كانت أسوأ الأيام وأفضلها، الأكثر هولاً، ولكنها الأكثر فخراً، لأنهم لم يتمكنوا من الدخول.

يوم الأحد، في أول آب، بدأ الهجوم الإسرائيلي حوالى الرابعة صباحاً واستمرّ بكثافة شرسة إلى حين إعلان وقف إطلاق النار الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر. في اليوم التالي، وكان هادئاً نسبياً، قررنا زوجي وأنا أن نخرج ابننا البكر، الذي كان مقرّراً أن يذهب إلى الدراسة في الولايات المتحدة الأميركية، مصطحباً والدتي التي أخذت تفقد قدرتها على الصعود والنزول على سلالم بيتها.

عثرنا على وكيل سفر كان يقوم بترتيب انتقال الناس من وإلى أية مدينة في العالم تقريباً. وحجزنا لابني ووالدتي في الطائرة من دمشق، إلا أن الصعوبة كانت في إخراجهما من بيروت. تقررت تلك الرحلة يوم الأربعاء في ٤ آب (أغسطس)، ولكن عند الواحدة صباحاً تبيّن أن لا مجال لأحد أن يغادر إلى أي مكان، إذ إن معركة كانت محتدمة.

يوم الخميس في ٥ آب ذهب زوجي إلى الجامعة الأميركية لرؤية ما يمكن عمله لإيجاد قوافل تغادر بيروت الغربية، وعاد مسرعاً ليعلن بأن هناك قافلة قيد الإعداد في ذلك الوقت بالذات. فوضّبنا كل شيء بسرعة وبضمّة هادئة ودموع صامتة ودّعنا ابني ووالدتي وراقبنا مغادرتهما لكاراج مستشفى الجامعة الأميركية، كجزء من قافلة مكوّنة من عشر سيارات. وبعد ساعة كانا قد رجعا. كانت الطرقات غير آمنة، والقنص سُجّل على معبر غاليري سمعان. كلاهما كان يرتجف مما شاهداه في رحلتهما الفاشلة. البنايات كانت ما زالت تحترق، والشوارع المألوفة لم تعد تُعرف بسبب

القصف. وكانت الدموع قد جفّت على خديهما المغبّرين، ولكننا كنا مرتاحين لعودتهما سالمين.

في صباح اليوم التالي، الساعة الثامنة، غادرت قافلة أخرى، وكانا في عدادها. ووعدا بأن يعلمانا بطريقة أو بأخرى بوصولهما، ولكننا كنا نعرف بأنهما يمكن ألا يقدرا. وفي الساعة الواحدة والنصف، بعد خمس ساعات على مغادرتهما، جاءتنا مخابرة هاتفية من الدورة، في الطرف الآخر من بيروت، من مكتب وكيل السفر، حيث كان من المفترض أن يلتقيا سيارة الأجرة في دمشق. لم يكونا قد وصلا بعد. فتهالكت على كرسي قرب جهاز الهاتف، متيقّنة تماماً بأنهما قُتلا. جلسنا، زوجي وأنا، نحدّق في البحر، دون أن نتبادل كلمة واحدة. لم يكن هناك طريقة لمعرفة ما حدث لهما. كنا عاجزين تماماً.

أثناء جلوسنا هناك، دوّى زعيق مفاجئ للطائرات النفّاثة. لم يدم إلا دقائق: زعيق وانقضاض وصدى انفجار ودخان أسود تبعه صمت. كنا قد هببنا واقفين عند أول صوت وناديناا ولدينا إلينا، ولكن عند عودة الهدوء رجعنا إلى مراكزنا قرب الهاتف.

بهدوء ظاهري تام تناول زوجي الراديو وأداره، مفتّشاً عن الأخبار بصورة آلية. سمعنا أنه كان هناك اجتماع بقيادة أبو عمار (ياسر عرفات) في بناية من ثماني طبقات في حي الصنائع، يأوي إليها بين مئتين وثلاثمئة لاجئ. وقد ضرب الإسرائيليون هذه البناية بالقنابل، مع أن أبا عمار كان قد غادرها بسلام قبل ذلك ببضع دقائق. واستُعمل في هذه الغارة سلاح جديد ـ قنبلة «فراغ،»

أسموها. لم يبقَ شيء من البناية أو الذين كانوا يقطنونها.

بكيت. يا رب، يا ربّ، أي نوع من البشر هم الإسرائيليون؟ لأوّل مرة في حياتي عرفت الكراهية الصرف. في تلك اللحظة أظن أنه كان بإمكاني أن أقتل. في تلك اللحظة فهمت القتل والحرب والقلب الأسود للثأر.

رنّ الهاتف. والدتي، التي لم تستطع الاتصال بنا، كلّمت جيراننا وهم يبلّغوننا الرسالة: وصلوا سالمين إلى الدورة بعد كل هذا الوقت. استغرق ذلك ست ساعات ونصف الساعة لمسافة تُقطع عادة بربع ساعة أو عشرين دقيقة. وكان الارتياح مصحوباً بشعور من الاستنزاف التام. ونظر إليّ زوجي وقال بهدوء: «سوف تصحبين الأولاد وتغادرين وإياهم يوم الأحد.» أخوه، الذي كان مضطراً إلى السفر لأجل أعماله، كان قد قام بالترتيبات اللازمة ليسافر ذلك اليوم. هذه المرّة لم أجادل ولم أقاوم: كنت مرهقة. إلى جانب ذلك، كان هناك أمر صغير ينكد عيشي لم أكن قد ذكرته لزوجي بعد: في المطبخ لم يبقَ لدينا سوى زجاجتين من ماء الشرب.

قبل أن أغادر بيتي صباح ذلك الأحد، تمشّيت فيه، أحدّق بكل غرفة بعناية. أتكون هذه آخر مرة أراه فيها؟ هل سيبقى زوجي حيّاً؟ فكّرت في جميع هؤلاء الذين غادروا فلسطين في الجيل الذي سبق. هل سيحتل الإسرائيليون بيروت؟ هل سيسمحون للناس بالعودة؟ لم أكن حزينة ولا مذعنة عند مغادرتي. كل شيء أصبح فارغاً وبلا معنى. نشاط وخفّة الأسابيع القليلة الماضية تبخّر وتفتّت

مثل المدينة حولي. العنف الذي لا ينتهي، والموت والخراب؛ عويل سيارات الإسعاف الذي لا ينقطع؛ النمط المستمر للمحادثات في بعبدا، المتقطع أحياناً بغارات جوّية ونيران المدفعية؛ تقلّص الحياة لتصبح نوعاً من الاستجداء للبقاء؛ وسيل اللاجئين إذ كانت المنازل تُدمَّر الواحد بعد الآخر ويسقط جزء من المدينة بعد الآخر؛ وبلبلة التكهّنات عن مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية ومستقبل لبنان، كل ذلك كان مثل حلم مريع، مزيج من الصور الهلوسية المخيفة.

غادرنا مع قافلة من السيارات من كاراج مستشفى الجامعة الأميركية في السابعة والنصف صباحاً. جلس زوجي إلى جانب سائق السيارة القائدة؛ لمواكبتنا فقط إلى حدود بيروت الغربية، التي كانت تقع آنذاك عند كنيسة مار مخايل في الشياح. اجتزنا المدينة وراء السيارة القائدة، بقيادة الرجل الفائق الخبرة بعمله. فمنذ بداية الأحداث العام ١٩٧٥ جعل هذا الرجل من الممكن للناس بأن يذهبوا من مكان إلى آخر في بيروت، وفي كل لبنان، أية طرقات كانت ملغومة، أيتها موبوءة بالقناصين، وأيتها آمنة، مهمّته كانت أن يعرف، مع أنني لم أستطع قط أن أتخيّل كيف يعرف ذلك(*).

(*) في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٨٥ قتل هذا الرجل الشهم والنبيل الحاج عمر فاعور، بينما كان ينقل ممرّضات من مستشفى الجامعة الأميركية إلى منازلهنّ في الجهة الثانية من المدينة. ومن باب التكريم والإجلال واكب أطباء المستشفى والممرضات والموظفون موكب جنازته عبر شوارع بيروت، لابسين ستراتهم البيضاء، ماشين وراءه بصمت وسكون.

منذ أن بدأ الحصار لم نكن قد خرجنا من حيّنا، رأس بيروت، الذي كان المكان الأكثر أمناً في بيروت الغربية؛ والآن، ونحن نجتاز المدينة بالسيارة في الشوارع الضيّقة والأزقّة، حاولنا أن نتعرف إلى الأمكنة وكنا نشهق كلما وقع بصرنا على مكان نعرفه في خضم ذلك الخراب والدخان. لم نكن أول ناس في التاريخ يرون مدينتهم مهدمة أطلالاً، وأعتقد أننا لن نكون الآخرين، ولكنّه اختبار فائق الحزن والأسى. حتى الأمكنة التي لم تكن تعجبنا، هندسة كانت في الأيام العادية تضايقنا، اكتسبت في وضعها المأسوي الحالي نوعاً من الجمال المجلّل بالدخان.

لدى وصولنا إلى الكنيسة، توقفت السيارة القائدة إلى الجانب وأشارت علينا بالإكمال. فأسرعنا عبر الخط الفاصل، الخمسماية متر من الطريق المتنازع عليها بين كنيسة مار مخايل ودائرة الحازمية. واستدار الأولاد لإلقاء نظرة أخيرة على والدهم، الذي لوّح لهم بيده من السيارة المغبّرة.

قضينا أربعة أيام مخيفة في منزل ابن حموي في المنصورية، في التلال فوق بيروت. كنا مرة ثانية في المنطقة التي تحتلها إسرائيل، والقذائف المصوّبة إلى بيروت كانت تمر فوق رؤوسنا. كنا نتفرّج على دباباتهم تهدر صاعدة ونازلة على طريق عاليه عبر الوادي، تؤدي مهمّاتها. ومن التلال كنا نشرف مرة أخرى على المدينة وعلى المعارك التي كانت ما زالت دائرة. وفي الليل كنا نرى القنابل المضيئة تنير هذه المنطقة أو تلك من المدينة حيث كانت الحرائق مشتعلة والفوسفور يتوهّج.

من هذا المكان شهدت اليوم الأخير، الذروة الكبرى للغزو. يوم الخميس، في ١٢ آب بدأت الغارات الجوية حوالى السادسة صباحاً واستمرت دون هوادة إلى حوالى السادسة مساءً. وقفت على الشرفة وحدّقت غير مصدّقة: موجة بعد الأخرى من القنابل تتساقط. كأن الإسرائيليين قد جُنّ جنونهم، وبلغت نوبة الحقد أوج حدّتها وعنفها؛ نوع من الحافز المجنون الدافع إلى التقتيل ومحو كلّ شيء حيّ من الوجود، وألا يتركوا حجراً على حجر، بل اجتثاث المدينة من أصولها. لم يكن هناك من غاية عسكرية ذلك اليوم. المفاوضات الطويلة وصلت إلى نهاية مرضية للإسرائيليين وتوصلوا إلى اتفاقية على إجلاء منظمة التحرير وأعلنوها. وشعرت وأنا واقفة هناك أنظر أن بإمكاني مشاهدة كل التاريخ المأسوي الظالم للإنسانية بشكله المكثّف؛ كل الحروب، والاضطهادات، كل الشر، والجرائم الكبيرة والصغيرة، والقتل الجماعي والقتل الإفرادي، والكراهية والظلم والثأر والهيمنة والشر في كلّ أشكاله، جميعها أطلقت لها العنان مرة أخرى في تلك الساعات الطوال من القصف.

وظهر على التلفزيون شفيق الوزّان، رئيس وزراء لبنان. كان معروفاً بدبلوماسيته المملّة عادة وبإطالته بالشرح، ولكنه انفجر هذه المرّة. ماذا يريدون أيضاً؟... لقد قدّم الجميع ما يستطيعون تقديمه. إن الفلسطينيين قدّموا كل ما يريدون، لماذا هذا؟ كفى. كفى. إذا أرادوا تدمير بيروت وقتلنا جميعاً فليفعلوا. كفى. كفى. وليتحمل العالم مسؤوليته. ولتحمل أميركا مسؤوليتها.

لم يكن هناك توسّل في صوته، ولا كآبة، بل غضب لا قرار

له. كان يقذف الكلمات من فمه ووجهه ملتوٍ من الحنق ويداه تلوّحان كأنهما تخرجان الكلمات أسرع. لم يعد رئيس وزراء فحسب: كان بيروت، متحدّيةً غاضبة، فخورة، لا تلين. خرج من آخر اجتماع وتوجّه إلى منزله ليقبع فيه، مثل كل بيروت، وينتظر حتى ينتهي الإسرائيليون من فِعْل أسوأ ما باستطاعتهم. لم يكن هناك شيء آخر يمكن فعله.

غادرت لبنان في اليوم التالي مع أولادي. ركبنا السيارة إلى طرابلس ثم إلى حمص وبعدها إلى دمشق. من هناك طرنا إلى لندن ومنزل أختي، حيث تركت ولديّ الصغيرين وطرت إلى الولايات المتحدة لملاقاة ابني البكر وترتيب انتقاله إلى مدرسته الجديدة. بعد أن قمت بذلك رجعت إلى إنكلترا وجلست أنتظر مجيء زوجي إليها.

على شاشات التلفزيون الإنكليزية والأميركية شاهدت مغادرة المقاتلين الفلسطينيين من بيروت وأخيراً، ياسر عرفات ذاته. جميع الحسابات الخاطئة والأغلاط التي ارتُكبت في السنين الأخيرة، فالبطولة والبسالة في الأشهر الأخيرة أعطت ثمارها في تلك المغادرة. الجماهير التي اصطفّت في الشوارع وعائلات المقاتلين المغادرين الذين كانوا يعرفون أنهم ربما لن يروهم أبداً، والشخصيات اللبنانية التي ودّعت عرفات رسمياً ـ شعر الجميع بالتأكيد أن منظمة التحرير وبيروت سوف يكونان الخاسرين في هذا الطلاق. وجود منظمة التحرير الفلسطينية كان عاملاً هاماً في إبقاء نافذة بيروت مفتوحة على العالم وروافد التاريخ الحديث. الآن وقد

أصبح السؤال عمّا سيحدث للمنظمة ولبيروت مسألة تجريدية، كان هناك دموع وهتافات؛ يأس وأمل، ارتياح وقلق ممتزجة كلها في الأجواء.

بعد تأكّده أن الحرب انتهت حقيقة بعد وصول القوات المتعددة الجنسية، التحق بنا زوجي في إنكلترا لعطلة قصيرة. إلا أنه بالكاد أتيح لنا أن نستمتع بها. كان قد وصل يوم السبت. يوم الثلاثاء سمعنا أن الرئيس الجديد المنتخب للبنان، بشير الجميّل قد اغتيل وأنه في صباح الأربعاء دخل الإسرائيليون إلى بيروت الغربية. بالنسبة إلينا في إنكلترا لم تكن المسألة أن نعود بل إذا كان باستطاعتنا أن نفعل ذلك، وكيف. مع كل التقارير الصحفية عن أحداث بيروت، التفاصيل التي كانت تهمّنا لم تكن موجودة. هل فُتحت الطرقات؟ هل بالإمكان الوصول من دمشق إلى بيروت؟ هل يمكن الاجتياز من بيروت الشرقية إلى الغربية؟ حتى السفارة اللبنانية لم تتمكن من الإجابة عن هذه الأسئلة، وعليه قررنا أن نصل إلى دمشق ومن هناك توقّع الأفضل.

طرنا إلى دمشق ومن هناك ركبنا سيارة أجرة إلى الحدود، حيث استقللنا سيارة أخرى أخذتنا إلى شتورة في البقاع. كانت رحلة موحشة وخطرة. الدلائل على الغارات الإسرائيلية قبل بضعة أيام بدت ظاهرة في كل مكان، وليس من سيارات أخرى على الطريق. في شتورة استأجرنا سيارة أخرى. السائق الجديد لم يكن يدري إذا كان بالإمكان الوصول إلى بيروت ولكنه كان مستعداً أن يحاول. الرحلة عبر حمانا – فالوغا، المتين وضهور الشوير كانت

رائعة الجمال، ونسيم أيلول عابق بعطر الصنوبر، والجوّ صافٍ كما يكون الخريف دائماً في جبال لبنان. ولم ندرِ إلا لاحقاً بأن رحلتنا التي خلت من الأحداث كانت شديدة الخطورة، وأن كثيرين من الناس قتلوا على تلك الطريق المنعزلة في الأيام القليلة الأخيرة.

وتبيّن في النهاية أنه لم يكن هناك أية حواجز إلى بيروت الغربية ووصلت بنا السيارة إلى منزلنا، ولكن دخول المدينة في ذلك الطرف كان أمراً محزناً باعثاً على اليأس. بيروت الأبيّة المقاومة سقطت أخيراً والدبابات الإسرائيلية كانت واقفة في جادة صائب سلام المعطوبة. فقط بعد رحيل المقاتلين الفلسطينيين والانسحاب غير المفسّر للقوات المتعددة الجنسية دخلت القوات الإسرائيلية المدينة. حتى عندها واجهوا مقاومة، ولكن المقاتلين الباقين لم يستطيعوا إلا القليل بعد أن فقدوا سندهم العسكري.

قبل أن نغادر لندن اتصلت بأختي تلفونياً من مطار «هيثرو» حيث كانت رحلتنا قد تأخرت بسبب سوء الأحوال الجوية، وكنا مقطوعين عن الأخبار. قالت لي أختي بهدوء: «هل سمعت؟ يبدو أن قد حدثت مجزرة في بيروت. ليس هناك من تفاصيل بعد، ولكن بعض المراسلين توجّهوا إلى مخيّمات اللاجئين وشاهدوا مئات الجثث.» ثم وصلنا إلى دمشق وهناك تثبّتنا من الخبر، مع أنه ظل مبهماً.

أما الآن، في بيروت، فقد تكشّفت الحقيقة المروّعة عن أحداث صبرا وشاتيلا. الناس هنا تلقّوا خبر المذابح برعب وذهول وأسى، ولكن ليس مثل الصدمة التي أحدثتها هذه المذابح في أمكنة

أخرى من العالم. نقطة التشبّع قُطعت منذ فترة بعيدة، التشبّع من الآلام التي لا تنتهي. وقد أخبرتني إحدى صديقاتي عن التعب الذي تعانيه، والذي وجدت التعبير عنه في إحدى الجرائد الفرنسية: «لم يبقَ للبنانيين دموع.» استبدل كلمة «لبنانيين» بكل فرد في لبنان، فلسطينيين ولبنانيين وأجانب ـ كل من قاسى ما قاسيناه كلنا في هذه الأرض المعذبة.

ومع أنه أُعلن فوراً تحقيق رسمي بالقضية، لم يدهش أحد، بالرغم من غضب الكثيرين، بأن هذا التحقيق سيكون سرّياً، كون السلطات رأت من الأفضل عدم فتح هذا الملفّ من التحقيقات، إذ أن الاتهام سوف يجر الاتهام والمرارة سوف تتضاعف، بدا وكأنه تفسير مُرضٍ. إلا أن البعض كانوا يشعرون أنه إذا لم تفتح الملفات ولم تجرَ التحقيقات وجراحات كل السنين لم تُطهّر وتضمّد، وإذا لم توجّه أصابع الاتهام إلى حيث يجب أن توجّه وإذا لم ينفّذ القصاص ولم يكفَّر عن الذنوب ـ فالجرح سوف يتقيّح والسّم سوف يؤدي إلى آلام أسوأ. على مدى سنين كانت هناك فكرة بأنه من الواجب إعلان عفو عام عن كل الجرائم، ولكنها كانت تؤجل لأنها محفوفة بالمخاطر. الخط الدقيق الفاصل بين الأعمال الحربية والجرائم العادية أصبح على مرّ السنين عريضاً، ومع أن في الظروف الحاضرة كانت الجرائم واضحة بلا سؤال إلا أنها سوف تتسبّب حتماً في إبراز مشاكل أخرى أكثر صعوبة.

على كل حال لا الحجج الأخلاقية ولا القانونية يمكن أن تكون أكثر وزناً من الحجة العملية السياسية؛ دعوا كل شيء على

حاله. كفانا ما كفانا. لا تهزّوا المركب الذي يكاد لا يستطيع الحفاظ على توازنه. ما من أحد بريء. كل واحد مذنب؛ لو كان علينا أن نحاكم كل واحد، البلاد بأجمعها تصبح سجناً؛ من يحاكم من عندما يكون الكل مذنبين؟ بالإضافة إلى ذلك، أليست المصالحة الشاملة أفضل من العتاب والقصاص؟ جميعنا متعبون، ومن الأفضل أن ننسى. وهكذا، في هذه الأمواه العكرة الاغتيال تلا الاغتيال، والمذبحة تلت المذبحة الثأرية، وكل واحد ظنّ أن كل مذبحة ستكون الأخيرة، ولكنها لم تكن كذلك. وحتى اليوم بقي السؤال الذي لم يسأله أحد ـ من كان المسؤول وهل يجب أن يُعاقَب؟ ـ ظل هذا السؤال يتاب ضمير البلاد.

الإسرائيليون أيضاً قاموا بتحقيق ومن فظائع صبرا وشاتيلا غنموا نصراً معنوياً مزيّفاً. لجنة كاهان اعتبرها الجميع هنا عبارة عن تزوير، مما لا يعني القول بأن وجودها ذاته لم يُلحق العار بالصمت المدوّي هنا. هذا التزوير برز لأن الجريمة أُعطيت حجماً طمس الجرائم الأخرى. التقارير عن مذابح صبرا وشاتيلا ذكرت في تقرير كاهان وفي الصحافة الأجنبية بمثابة انحراف وقتي، أو حدث عابر شوّه سجلّ إسرائيل الأخلاقي الإنساني. في مقالة في مجلة «نيوز ويك،» بتاريخ ٤ أكتوبر (تشرين الأول) بعنوان «روح إسرائيل المعذّبة،» والزاخرة بِجُمَل وتعابير مثل «النضال في سبيل ذاتها» و«نور للأمم،» و«الصدمة المعنوية» و«القيم الإنسانية» و«الرؤيا» و«الافتداء» و«المجتمع العادل» و«وجهة النظر الأخلاقية» و«الروح المنحطّة،» والرعوي، والإنساني، والديموقراطي، والحسّاس،

والقيم، الحق، إلخ. (ولا يسعني هنا إلا أن أسجّل أنه في الوقت نفسه، كانت كلمة «العرب» تُقرن دائماً بتعابير مثل: مترصّد، كارِه، يذكّي النار، يهدد بالإتلاف، الكراهية، الأعمال اليدوية الأكثر انحطاطاً، إرهابيين، أقل من بشري، اليد العاملة العربية الرخيصة، إلخ). هذا «النور إلى الأمم» العادل المهذّب لم يكن إسرائيل التي نعرفها، بل وليد مغالطة وخداع كلامي كهذا. ومع ذلك، من هذا البيت الزجاجي من الصمت، بيتنا، كان من الصعب على أي كان أن يرمي بحجر البنية الكاذبة لإسرائيل.

وكانت ردة فعل العالم عنيفة: الإسرائيليون، بعد أن فعلوا ما أرادوا فعله في بيروت ـ أخذوا السلاح والأفراد والكتب (استولوا على عدة مكتبات وملفّات) ثم انسحبوا بالخزي والعار. اختبروا بيروت وذاقوا مرّها. كنت أنا وزوجي ذات يوم نتمشى في شارع الحمراء أثناء الاحتلال الإسرائيلي، بعد أن قضينا حاجة ضرورية ما، إذ كنا مثل كل الناس في تلك الفترة نمضي معظم أوقاتنا داخل منازلنا. هناك، في أحد المقاهي، كان يجلس ضابطان إسرائيليان. الخادم الذي كان يجلب لهما القهوة كانت ترتسم على وجهه أبلغ صور التعاسة والتجهّم والنفور العابس. وفي اليوم التالي بالذات، اغتيل ضابط إسرائيلي في مقهى آخر. بعد ذاك، لم يعد الجنود الإسرائيليون يظهرون إلا بشكلهم العسكري المحض، البنادق جاهزة، ولا يتجوّلون أو يتنقّلون بالسيارات إلا جماعات، بحذر وتباعد.

وبدأت الروايات تُسمع عن جواسيس بين ظهرانينا. اكتشفنا أن

بيروت كانت ملأى بهم. كانوا قد تغلغلوا في كل شارع وحي وتنظيم وميليشيا وحزب. كان هناك رجل يسكن في الشارع غير بعيد عن منزلنا. كنا مصدّقين جميعنا أنه مخبول، وذلك بحسب ما كان يظهر. فقد كان يبدو وكأنّه مهووس بالريش، ولذلك أُطلق عليه لقب «أبو الريش.» كان قد أقام كوخاً غريباً متنقّلاً من الخِرَق والريش، وكان يضع على رأسه قبّعة غريبة مستدقة في أعلاها فوق وجهه الطويل الملتحي. كان يقفز إلى وسط الشارع ويدقّ جرساً نحاسياً لكل سيارة مارة. كثيرون من الذين كان يهزّهم خبله وفقره الظاهر كانوا يتصدّقون عليه بالمال، والذين راحوا يلطمون وجوههم غضباً عندما اكتشفوا لاحقاً أنه كان في الواقع نقيباً في الجيش الإسرائيلي.

بعد رحيل الإسرائيليين بدأنا نسمع عن أعجب الأوجه في احتلالهم. الاعتقالات، الاضطهاد، إطلاق النار وحتى النهب الإكراهي، كل هذا كان ما يتوقّعه الناس، وهو قد حصل بالفعل. ولكن ما كان ليس متظراً، كان أمراً أضحكنا عندما سمعنا به للمرّة الأولى. ولكن تدريجاً، اكتشفنا أن ما ظنناه حدثاً منفرداً أصبح في الواقع سمة وعلامة للجيش الإسرائيلي واتخذ أبعاداً واسعة خطيرة.

كان الجنود الإسرائيليون، حيثما وُجدوا، يتغوّطون في أماكن مختارة بعناية على الكتب. والأثاث والملابس والسجّاد؛ على أرض غرف النوم؛ قرب كراسي بيوت الخلاء أو في المغاطس في الحمامات؛ على مناضد التلامذة في المدارس، في واجهات المخازن، في كل هذه الأماكن وجد الناس الغائط. أقسمت صديقة لنا عن أناس تعرفهم يقع بيتهم قرب المطار، رجعوا ليجدوا برازاً

في آلتي الغسيل وغسل الصحون. سمعنا عن رجل عاد إلى مكتبه ووجد أن الإسرائيليين قد تركوا برازهم على كل مكتب من مكاتب موظّفيه باستثناء مكتبه هو. وجلس مرتاحاً إلى مكتبه شامتاً بزملائه. ولكن عندما فتح درج مكتبه وجد بين ملفّاته «الهدية» التي تركها له جيش إسرائيل.

وهكذا، بعد كل الدمار والمأساة، بعد الخراب والألم، والقتل والاحتضار والأجساد الممزقة والأعين المسمولة والوجوه المشوهة والمحروقة، والأرامل والأيتام - بعد كل ذلك لم يبقَ إلا كومة ضخمة من البراز. النيران خمدت مطفأة في ركام من الروث. مزحة مروّعة، رمز لازدراء طاغٍ، رائحة كريهة كونية أضحت تذكاراً لأشهرٍ وأيام من الألم المبرّح.

الفصل الخامس

أشباح: تأملات في المجاز

واجهة المحل مغطّاة الآن بلوحات خشبية، ولكن من خلال الشقوق بين اللوحات يمكن لمح الداخل المعتم الذي لا يمكن أن تتجاوز مساحته أربعة أو خمسة أمتار طولاً وعرضاً. وعلى أرضه العارية، بين كتل من الغبار، ترى قصاصات ورق جرائد قديمة، خرقة من قماش منقّط ربما كان جزءاً من فستان، قطعة تنك قديمة ملتوية وكرسي بلا ظهر مكسور مقلوب على الأرض وقنينة بلاستيك لإرضاع الطفل وحلمتها المطاطية نصف ممزّقة مدلاة إلى جانب منها. لم يبق شيء هنا إلا بقايا لوحة خارج المحلّ، مدلاة من طرف واحد غير ثابتة.

كانت اللوحة قبل الحرب تشير إلى وجود محل معجّنات وحلوى. لم تكن جيدة الصنع قط، وقطع الحلوى الصغيرة على رفوف الواجهة كانت تبدو دائماً كأنها جافة قديمة، والغطاء على سطحها المصنوع من القشدة والسكر كان ذا لون مريب. في العام ١٩٧٥، في بداية الحرب، لم نعد نرى الحلوى، وبدون أن يتأسف أحد، أغلق المحل أبوابه. من خلال الحديد المشبك والزجاج

المكسور كان يظهر أن البرّادات وخزائن عرض البضائع قد نُقلت. كان المحل خالياً تماماً باستثناء البقايا المنتشرة حول عشرات علب الكرتون الفارغة وصحون الكرتون المتّسخة وفوط الورق وملاعق البلاستيك للبوظة وما تبقّى من كرسيّ قديم.

ظل المحل هكذا عدة سنوات. وفي يوم كنت مارة بقربه شاهدت جُرذاً في إحدى الزوايا، ومرة أخرى شاهدت قطة صغيرة لا أدري كيف دخلت ولم تعد تستطيع الخروج، ومواؤها المثير للشفقة يمزق أوتار القلب. ولم يكن باستطاعة أحد إخراجها لأن خوفها كان يمنعها من الاقتراب من الحديد المشبك حيث يمكنها أن تخرج. ورأيتها فيما بعد ملقاة ميتة وجثتها الصغيرة تهترئ وتغطيها الديدان.

في صيف ١٩٨٢ استيقظ المحل فجأة واستعاد حياته. تراكمت على الرصيف قربه قطع الحرير المشبك الملتوية مع ما تبقى من زجاج النوافذ والإطارات الخشبية. في الداخل انهمكت عدة نساء في التكنيس وشطف الأرض. بعضهنّ، من اللواتي كان حملهنّ ظاهراً، ربما كنّ أصغر عمراً مما يظهرن. وكان هناك ضجيج وصخب يثيره عدد كبير من الأولاد الصغار الحفاة. بعضهم كان يحبو متمسّكاً بأذيال أمّه، وآخرون، أكبر عمراً، كانوا يساعدون في العمل، وغالباً يعرقلونه وتكافأ جهودهم بلطمات دعابية أو تقريع بصوت عالٍ.

وسرعان ما استقروا في هذا الملجأ الجديد. واكتشفت لاحقاً أنهم زوجات وأولاد مقاتلين من حركة فتح، أكبر مجموعة

للمقاومين الفلسطينيين، غادروا منازلهم في مخيّمات اللاجئين وجيء بهم إلى هنا حيث أن رأس بيروت أكثر أمناً نسبياً. في كل صباح كان الرجال يأتون بسيارات الجيب إلى أمام المحل، ويقفزون من السيارات، حاملين الخبز والماء والمؤن. كان الأولاد يتهافتون حول آبائهم ويتعلّقون بأذرعهم أو أعناقهم بينما كان الزوج وزوجته يتبادلان الحديث بصوت مرتفع في خضم الثرثرة المشتركة. كان الرجال يمكثون بعض الوقت أحياناً، جاثين على الأرض، يزدردون بعض الطعام أو يستندون إلى جدار، ذقونهم نابتة، ورؤوسهم تنحني من وقت لآخر من فرط الإجهاد، بينما تنهال النساء عليهم بالأسئلة. ولكن في أغلب الأحيان ما يكاد الرجال يتوقفون حتى يعودوا إلى امتطاء سيارات الجيب مجدّداً وينطلقون تاركين النساء والأولاد يراقبون رحيلهم من الرصيف، مودّعينهم بكلمة أخيرة.

وكنت كلما مررت بالمحل في جولاتي اليومية بحثاً عن الطعام والأخبار خلال الأسابيع الطويلة المريرة للحصار، كنت أتساءل كيف تستطيع هؤلاء النسوة تدبير أمورهنّ. فالمحل كان بدون مرحاض، أو حمام أو ماء من أي نوع، ولكنّهن بطريقة ما حَوَّلْنَهُ إلى مطبخ، وسكن للنوم وغرفة ولادة ـ لأن طفلين على الأقل ولدا هنا ـ وأُعِدّ «بابور كاز» على الرصيف في الخارج، واستُخدم وعاء كبير من التنك بمثابة قِدر وطبق طعام كما كان يحل أحياناً محل طبق الغسيل أو حتى مغطس لحمام طفل. كانت هناك حُصُر مفروشة في الداخل، وكانت تُرى دائماً امرأة أو طفل نائم عليها. أمهات الأطفال الرُضّع كنّ يجثمنَ في الداخل ليرضعنَ أطفالهنَّ،

والأطفال الذين يحبون كانوا يتجوّلون نصف عراة بينما تتولّى إحدى النساء نشر الغسيل على حبل مشدود بين أحد أعمدة نور الشارع وعمود للتلفون.

شعرت مرة أو مرتين برغبة التوقّف عند النسوة والتحدّث إليهنَّ، وعرض المساعدة التي يفرضها حسن الجوار، ولكنني، لسبب أو لآخر، لم أفعل، مع أننا كنا دوماً نتبادل التحيات. فالمدهش أنه، بالرغم من وضعهنَّ المروّع كنَّ يظهرنَ مكتفيات تماماً. شعرت بأن أي عرض للمساعدة قد أتقدم به سيُرفَض بإباء وحتى بنوع من الهزء، وأنهنَّ اللواتي يقدّمنَ لي شيئاً، هو حقيقة، كما هو نوع من الجوهر الذي كان ينقصني ـ لأنهنَّ كنَّ كل ما تعنيه الحرب. كان يسودهنَّ نوع من المرح العادي اليومي الذي كنت أدهش له. فبدلاً من الكآبة والمرارة كنَّ يتبادلنَ الثرثرة والمزاح بينما كنَّ يؤنِّبنَ ولداً مُشاكساً أو يفصلن بين ولدين يتصارعان أو يهرعنَ داخلات أو خارجات من تلك الغرفة التعيسة أو يتمشّينَ في الحي عندما كان آمناً؛ موشّحات بوشاح حول الرأس معقود تحت الذقن، وأذرعهنَّ تتأرجح بقوة كأنهنَّ في نزهة.

عندما غادرت بيروت في أواسط شهر آب كنَّ ما زلنَ هناك. ولكن عندما عدت في منتصف أيلول كان المحل خالياً وأبوابه مغلقة بألواح خشبية كما هو الآن. فمقاتلو منظمة التحرير قد غادروا بيروت، والجيش الإسرائيلي كان يسيِّر دورياته في الشوارع الخالية.

أين ذهب جيراني السابقون؟ إلى صبرا؟ إلى شاتيلا؟

❖ ❖ ❖

في غرفة الجلوس في منزلنا بالقرب من البيانو تماماً توجد «لاعبة الأسطوانات» المكسورة. إنها ليست مكسورة تماماً. غطاؤها ينفصل عنها باستمرار، والإبرة خشن رأسها، إلا أنها ما زالت تعمل. أعرف بأنه يجب أن أشتري لاعبة أسطوانات جديدة، ولكن قلبي لا يطاوعني على التخلص من الآلة القديمة لأنني كلما رأيتها تذكّرته هو.

كنا قد اشتريناها في العام ١٩٦٢، وظلّت تعمل على أحسن ما يرام إلى حين حطّمتها المدفعية. كنا على وشك إلقائها في القمامة عندما خطر لي أنه ربما كان بإمكانه هو أن ينقذ بعض القطع منها ويستخدمها. جاء وأخذها معه، ضاحكاً من أفكاري، ولكنه قبل أن يحاول ترميمها. وبعد بضعة أسابيع عاد إلينا وعلى وجهه ابتسامة الظفر، وتحت إبطه جهاز الستيريو مرمّماً.

كثيرة هي المناسبات التي كنا نلتجئ فيها إلى دكّانه الصغير في أحد الشوارع المتفرّعة من الحمراء. وكنا نراه قابعاً على كرسيّه العالي الذي لا ظهر له، منشغلاً بتصليح راديو أو تلفون أو قنديل كهربائي. كنا نستدعيه إلى المنزل على عجل لضبط جهاز تلفزيون حرون أو مكنسة كهربائية. نادراً ما كان يقطع الأمل من إصلاح أي شيء آلي، ولم نكن نرمي أي شيء في المهملات إلا إذا قطع هو الأمل منه. كان يؤدي لنا خدمات أخرى أيضاً، فينصحنا بمشترياتنا في عيد الميلاد، مثلاً، ويشير علينا لدى شراء راديو أو مسجّل أشرطة للأولاد، ومرافقتنا للتأكد من حصولنا على حسم خاص.

كان رجلاً عادي المظهر، قصير القامة، سميناً، ذا صوت

ناعم ودّي وبشرة بيضاء. نظاراته ذات الإطار السلكي تتصاعد وتهبط على أنفه عندما كان ينكّت فيتغضّن أنفه. نكاته لم تكن مضحكة كثيراً، ولكننا كنا نضحك لها لئلا نجرح شعوره وكذلك تعاطفاً مع بساطته التي تجعله يتعثر في رواية نكتة ناجحة. كان مثال العازب الذي ولد ليظل عازباً، وكثيراً ما كنا نمازحه بشأن وحدانيته ونهدّده بانتقاء عروس له. وكان ينسجم معنا بكل طيبة خاطر، مشيراً إلى صلعته كبرهان على عدم أهليته كعريس عتيد. وكان يمضي عطلته كل سنة في رومانيا، التي كانت أرخص من سائر الأمكنة التي يقصدها السياح، ويعود إلينا بقصص صغيرة مملّة عن مغامراته المعتدلة، وصوته زاخر بتعجّبه لحياة تختلف كل الاختلاف عن نمط حياته. وأظن أنه لم يكن قد زار أي مكان آخر خارج لبنان.

وبلغنا ذات يوم الخبر المدهش أنه تزوّج أخيراً، وأنه وزوجته رُزقا طفلاً. ولم نعد نراه إلا فيما ندر. كان يفضل أن يبقى في قريته، متحاشياً ضجيج بيروت وعدم استقرارها وخطرها وظلمها. كانت قريته بحمدون. سنة ١٩٨٣، كانت جثّته ملقاة على الأرض، متعفنة ومهترئة بين ركام بيوت المدينة: جثته وجثة زوجته وطفلهما، بين حوالى ثلاثمائة آخرين.

❖ ❖ ❖

لم تعد الدامور موجودة الآن. الحشائش والأعشاب تنمو حيث كانت المدينة مزدهرة في الماضي.

كنا في تلك الأيام قبل الحرب نتنزّه بالسيارة ونجتاز الدامور

كل نهار أحد تقريباً. كنا في بعض الأحيان في طريقنا إلى صيدا أو صور، مصطحبين زوّاراً إلى تلك المدن، أو ذاهبين فقط لرؤية ما كشفت عنه آخر الحفريات من آثار، متوقفين على الطريق لنأكل سمكاً طازجاً. وكنا أحياناً نتوجّه إلى الدامور على الطريق الساحلي، وبعد ذلك، من قلب المدينة، نحرف صعوداً إلى جبال الشوف الخضراء، إلى مدينة دير القمر الرائعة ثم إلى بيت الدين، حيث زار لامارتين الشاعر الكبير الأمير الشهابي في قصره الرائع الخشن، بخشبه الجميل المحفور وحجارته المنحوتة وسقوفه الرائعة ونوافذه وحمّاماته وينابيعه الباردة بين أشجار السرو الباسقة الدكناء. وكنا نتوجّه أحياناً إلى الدامور بعد أن نتغدّى في شملان، رأسنا مثقل من تأثير العرق مع المازة ولحم الغنم المشوي والحمص والمتبل والتبّولة، ونطرد النحل عنا بينما نحن نتلمّظ بالمآكل والشرب في ضجيج مقهى الصخرة متوقّفين بين الفينة والفينة لإمتاع النظر بالمنظر الخلاب المبسوط تحت أعيننا.

كنا أحياناً نتوجّه إلى الدامور فقط للذّة التفرّج عليها. فعلى جهة من الطريق، كانت المنازل تمتد إلى سفح التلال وتضفي شعوراً من الاتّساع والرشاقة. كانت بيوتها مبنية من الحجارة المنحوتة باليد تبعاً للهندسة القديمة الجميلة، بقناطر عالية رشيقة ومسقوفة بالقرميد الأحمر. مصاريع النوافذ ذات القدد والتي كانت تشكل إطاراً للنوافذ المستدقة الرؤوس وغالباً مطلية بالأخضر، وبعضها بالأبيض أو بالأزرق. على الجهة الثانية من الطريق امتداداً حتى البحر كانت الحقول الغنية، موضع اعتزاز الدامور وأهلها.

كانت بساتين الليمون الحامض تلتمع كالجواهر في الشمس، والبرتقال والليمون الشهي المظهر تمتد إليه أيدي الفلاحين في قبعاتهم القش يقطفونه. حقول الخسّ مثل سجّادات مخملية فخمة من الأخضر الغامق، بينما أشجار الموز كانت بلون أخضر لمّاع أكثر، وثمارها الصفراء تطعن أوراقها العريضة. أبعد من الحقول، وحتى الأفق، كانت تتلألأ أمواه المتوسط، متحوّلة إلى لون رماديّ زبدي خلال عواصف الشتاء. على طول الطريق، على الجانبين، هناك أكشاك خشبية تغطّيها الحصر، أو أكياس القنّب أحياناً أو الإسمنت أو سقوف التنك، تقف تحتها نساء الفلاحين يبعن الفاكهة والخضار. كنا نشتري البرتقال و«الغريب فروت» والليمون الحلو والمرّ والموز والخسّ من هذه الأكشاك، كما كان هناك صناديق ملأى بالطاطا والكرنب والملفوف والكوسى والباذنجان واللوبياء والبندورة. وفي طريق العودة إلى بيروت كنا نتوقف في الناعمة، أمام الكنيسة المبنية بالحجر الرملي. كنا نشتري الفجل والبقدونس والنعناع والبصل الأخضر للتبولة من أولاد كانوا يقفون إلى جانب الطريق يلوّحون للسيارات المارة، اليد الواحدة تحمل ضمّة حمراء والأخرى خضراء، بينما هم يعلنون السعر.

إلا أن تحت جمال الدامور الرائع كانت تختبئ حقيقة عنيفة. فالبنادق كان يتزايد عددها، ويتزايد كذلك مدى الكراهية والعداء.

في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦ دُمّرت الدامور. العديد من سكانها قتلوا، وجثثهم ظلت ملقاة على الأرض، أذرعهم وسيقانهم مبسوطة وأعينهم مفتوحة. أما الذين لم يُقتلوا فنجوا عن طريق

البحر ولجأوا في أول الأمر إلى الأديرة في الجبال. نُهبت بيوت المدينة، لا الأثاث فحسب، بل من كل القطع الممكن رفعها: والمصاريع، الأبواب، البلاط، الحنفيات، ثم أُحرقت، وعندما انتهى كل شيء بدت وكأنها جماجم بشرية. في المعركة أُحرقت معظم الحقول أيضاً. بريقها زال ولم يبق سوى الخراب الأسود.

حدّقت بتمعّن بالصور المربعة في الصحف، محاولة أن أتعرّف إلى بعض وجوه الموتى، آملة ألا أستطيع. كشك المبيع المفضل لدينا كان في عهدة امرأة خجلى نوعاً ما، حمراء الخدّين ذات غمازات تظهر عندما تبتسم. عندما تعرّفنا إليها لأول مرّة كانت محاطة بأولاد صغار، وعندما أخذ توقفنا لديها يتكرر لم يعد بإمكاننا التعرف إلى الوجوه المتغيّرة. إلى أن سألناها أخيراً ذات يوم كم ولد عندها. أحد عشر ولداً، أجابت باعتزاز. وصدرت منّا الكلمة العفوية «اسم الله،» فابتسمت وظهرت غمازاتها، بينما كان أصغر مواليدها في حضنها وهي تضيف آخر برتقالة إلى كيس البرتقال في الميزان.

وإذا لم أتعرّف إلى صورتها بين تلك المجموعة المربعة من الصور، فلا يعني ذلك بالضرورة أنها لم تكن في عدادهم؛ بل لأن صور الموتى لا تشبه صور الأحياء.

❖ ❖ ❖

عندما يقطع الإنسان الجسر الجديد اللمّاع فوق نهر بيروت تلفت نظره صندوقة صغيرة زجاجية على الرصيف في الجهة المطلّة على المدينة. في الصندوقة تمثال من الجبس للعذراء مريم وطفلها.

على قدميهما وضعت زهور بلاستيكية، وردية وزرقاء وبيضاء تنسجم مع الملابس التي ترتديها الأم المقدّسة. الخمار الذي يغطي رأسها وجسمها من اللون الأزرق الغامق، مزدانة حاشيته بخيوط ذهبية. وجهها خالٍ من التعابير، وأية قداسة في المذبح المقام على جانب الطريق بشموعه البيضاء فيأتي من إيمان المؤمنين فحسب، وليس من التأثير الفنّي. وهناك تقليد قديم من هذه الصناديق. كل من تجوّل في لبنان يعرفها جيّداً. فهي تظهر فجأة على طرقات الجبل، قبل منحنى أو كوع خطر، والألوان الباهتة التي يرتديها القدّيسون تظهر بوضوح بالمقارنة مع ألوان التربة البنّية المحمرة أو لون الصنوبر الأخضر أو الصخور الرمادية.

الصندوقة هذه وفيها العذراء وطفلها تشرف على البقعة المعروفة بالكرنتينا، التي كانت في الماضي محطة الحجر الصحّي الملحق بمرفأ بيروت القريب. كانت الكرنتينا في الماضي تضجّ بألوف السكان العائشين في بيروت متداعية خلف حائط عالٍ من الحجارة. أما اليوم، إذا أراد شخص أن ينظر بالاتجاه الذي تصوّب إليه نظرة العذراء الجامدة، فسوف يقع نظره على الجهة الأخرى من الجسر، ووراءها إلى بعض الأجمات العشبية، والصخور: منظر خالٍ كئيب ينسجم مع الفراغ من نظرة العذراء.

هنا في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦ جرت أوّل مجزرة، تبعها فرار من تبقى من السكان المذعورين، وهُدمت بيوتهم بالجرّافات. كانت ليلة باردة. وقتل مئات الناس بالرصاص. ومُثّل بالجثث. وعلت ولولة النساء. الرجال والنساء العجائز توسّلوا، دون جدوى،

إلى أولاد قد يكونون بأعمار أحفادهم، ولكن هؤلاء الأولاد كانوا شرسين ظالمين قتلوا ودمّروا وحرقوا وطاردوا العُجَّز.

هناك صورة فوتوغرافية مشهورة لتلك الليلة. في خلفية الصورة تبدو النار وهي تلتهم المنازل المتواضعة الحقيرة، وأعمدة هوائيات التلفزيونات بالكاد تظهر عبر الدخان. ورجل يرتدي كوفية بيضاء يبدو راكضاً، ممسكاً بأيدي ولدين صغيرين. ووراءه ولد صغير يعدو رافعاً يديه استسلاماً، وفتاتان صغيرتان تهربان أمامهما حافيتين وتنظران إلى جهة النار.

أما التركيز في الصورة فعلى امرأة في متوسط العمر، وشاحها الأبيض ملتف على رأسها ووجهها ممتلئ ألماً، إذ إن هذه اللحظة هي الأشد تعاسة في حياتها دون ريب. يداها ممدودتان وراحتاها مفتوحتان نحو السماء في إيماءة التوسّل المعهودة. وحيث أن رأسها منحنٍ بيأس إلى الجانب، فإنها تذكّر الناظر، على شكل صدى بعيد، بصورة العذراء المنتحبة فوق جثة المسيح، والممسوحة من جمالها وصفائها. الشاب الذي تتوسّل إليه واقف وبندقيته الرشاشة مصوّبة نحو السماء ذاتها العديمة الرحمة. إنه مثال القوة الذكورية. يبدو طويل القامة، كتفاه القويّتان مَحْنيتان كأنه يستعد لِلَطْمها. ساقاه الطويلتان منثنيتان كأنه يتحرك، وإحدى قدميه مرفوعة قليلاً عن الأرض والأخرى مزروعة بثبات. الناظر إلى الصورة يشعر كأن جزمته تستعد لتسحق كل الإنسانية حوله، بما في ذلك إنسانيته ذاتها.

رأسه مغطى بما يبدو أنه كيس صوفي خشن، ووجهه مخبّأ

بهذا القناع الوحشي. ليس بالإمكان حتى تخّيل تعابير وجهه. هل يتعذّب ويؤلمه الأذى الذي يسببه؟ أم هو غاضب، وما زال يتميّز حنقاً وحداداً على رفاق له سقطوا قبل هذا النصر الأخير؟ هل توجد سمة تلذّذ شاذ على ذلك الوجه المغطى؟ أم تكشيرة كره لما يقوم به؟

ولماذا يضع قناعاً إذاً؟ مِمَّن يختبئ؟ أي تعرّف يحاول أن يتحاشى؟

❖ ❖ ❖

عندما حدثت مجزرة الكرنتينا، سرت إشاعات بأن الشباب الذين ارتكبوها كانوا تحت تأثير المخدرات. ربما كانوا كذلك. القضية هي أنه لم يكن بإمكاننا التصديق أن وحشية كهذه يمكن أن تظهر بشكل طبيعي. والتصديق بأنهم كانوا تحت تأثير الكوكايين ترك لنا إنسانيتنا سليمة: أبتاه اغفر لهم، إنهم لا يدرون ما يفعلون.

ولكن هذا التفسير هو اليوم أكثر صعوبة في التصديق. فالكثيرون من الناس ارتكبوا أعمالاً لا توصف لبشاعتها، وفي مناسبات كثيرة جداً. وهؤلاء ليسوا من منطقة واحدة ولا من مجتمع ولا طبقة ولا مذهب واحد. إنهم بيننا جميعاً، ومنّا جميعاً على ما يبدو. والظاهر أنهم لم يكونوا مدفوعين من الكوكايين، على الأقل ليس من الكوكايين وحده، بل من ذلك المخدّر الأكثر قوة بعشرات المرّات، مخدّر الكراهية الصرف، الكراهية والانتقام.

ماذا يعني ذلك إذن؟ ماذا تعني كل هذه الأعمال الوحشية غير القابلة للتصور؟

أنا لا أثير هذه القضية لأية غاية فلسفية، لأن هذه ليست مسألة فلسفة بالنسبة إليّ. لقد عشت هذه الأشياء، وأريد أن أعرف ماذا تعني. أريد أن أعرف إذا كان بإمكاني أن أتحاشى الاستنتاج البديهي أنه في طبيعة الإنسان، وأن بإمكان أي شخص أن يفعل ذلك، وأن بإمكاني أنا أن أرتكب ذلك. هل باستطاعتي ذلك، إذا دفعت إلى ارتكابه بما فيه الكفاية؟

أنا لم أرَ جثة طفلي مشوّهة في التراب أو جسد خطيبتي المغتصب ملقى في الشارع ملطخاً بالدم، وساقاها مفتوحتان وعيناها فارغتان. لم أنظر إلى والدي مهاناً في مماته أو عري والدتي مكشوفاً أمام العالم. لم أرَ زوجي الوسيم القوي الفتي مهشّماً ومقطّعاً إرباً إرباً. لم أشهد جنى عمري يفجّره ولد غبيّ يحمل رزمة ديناميت؛ كما أنني لم أقف أمام ركام بيتي، عارفة أنه أصبح غير قابل للترميم. لم أعش أياً من الاختبارات التي أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية في هذه الأرض المعذّبة. وبما أنني لم أختبر ذلك، فليس باستطاعتي القول بأنني لن أفعل الأمور الوحشية التي حدثت.

والسؤال، هل هناك فارق بين تقتيل الناس بكبسة زر وأنت محلّق في السماء وقتلهم بينما كنت تشاهد الهلع على وجوههم؟ هل هناك فرق بين الرجل الذي يقف على تلة بعيدة ويصوب المدفع بواسطة منظار ويطلق قذيفته على المدينة - بينما يصمّ أذنيه عن سماع الدويّ - ويتأكد من سقوط الصاروخ حيث صوّب على الهدف، ويظل نظيفاً؟ وإذا لم يكن لديه المخيلة ولا يرى الأجساد المحروقة الممزقة ولا الدم النافر ولا الأشلاء المتناثرة، ولا سامعاً

صوت تكسّر الزجاج ودوي تهدّم الإسمنت وصيحات الهلع وولولة الأسى ـ هل هناك فارق بين هذا الرجل والآخر الذي يقتل بيديه، يرى ويشمّ ويسمع نتيجة عمله وهو يرتكبه؟ ما هو الفرق؟ لماذا يجد الناس أن عملاً معيّناً في الحرب مقبول أكثر من عمل آخر؟ هل هناك فرق بالنسبة للضحية أم أن الفرق هو فقط في ردة فعل المتفرّج؟ هل لأننا نقول لأنفسنا، بتأكيد المعتد بذاته: «أنا لن أرتكب ذلك قط،» وبذلك نفصل أنفسنا تماماً عن الفعل، شاعرين بالارتياح بسبب إنسانيتنا التي لم تقفر؟

من السهل هنا في بيروت أن ننظر إلى كل غريب مارّ والتخيّل أنه من المحتمل أن يكون مجرماً. هؤلاء الذبّاحون، هؤلاء الذين قاموا في الظلام الدامس وبأيديهم العديمة الشفقة أطبقوا على نحور النساء والأطفال وذبحوهم من الوريد إلى الوريد ـ من هم؟ ومن أين أتوا؟

إلا أنني أكثر ما أخاف هو عندما أنظر إلى صورة وجهي أنا في المرآة. هل وجهي بين الوجوه وجه إنسانة ملعونة؟

الفصل السادس

بقايا

ربيع ١٩٨٩ : أكتب جالسة إلى الطاولة ذاتها، أُطِلُّ من النافذة على المياه الزرقاء ذاتها الممتزجة عند الأفق بالسماء الزرقاء ذاتها، ومع ذلك، كل شيء حولي تغيّر. من البدء كان لدي شعور بأن التاريخ هو قيد الصنع وأنني شاهدة عليه. كان هناك نوع من الإثارة في تلك الوضعية، نوع من الامتلاء بالحماسة للعيش في حقبة هامة ومحاولة إلقاء ضوء جانبي عليها عن طريق تسجيل كيف يعيش الناس ـ العاديون، ناس كل يوم ـ وما هي ردة فعلهم خلال أحداث خطيرة كهذه.

هناك هدير في الجو. طائرة عسكرية أخرى تزعق مارّة، لا أرفع نظري إليها، بمثابة صدّ لها وتوبيخ. أُفضّل بكثير أن أنظر إلى سرب الحمامات يحوّم فوق البناية أمامي، مثل ومضات بيضاء وسوداء تخطر في السماء بغباء، مثلنا تقريباً، نكرر كل يوم ما فعلناه بالأمس، بدورات تتقارب وتضيق أكثر وأكثر. التاريخ يبدو وكأنه توقف هنا مثل توقّف النغم في خط من خطوط أسطوانة قديمة. فبعد الخضة الكبيرة للغزو الإسرائيلي اعتقدنا أنه، على الأقل،

وصلنا إلى نهاية الحرب. إلى الخلاص ولو ملتبساً. ولكن كنا على خطأ: فالحرب عادت إلى الاشتعال، بشعة دموية وقتالة كالسابق. ومرة بعد الأخرى كانت تبتدئ وتنتهي، وفي كل مرة كان يموت ناس أكثر، ويهاجر آخرون.

خلال هذه السنوات، ما بدا بمثابة مسألة مقلقة أصبح هاجساً رئيسياً إذ ننظر حوالينا إلى عددنا المتناقص باطراد. هل نغادر أم نبقى؟ من من معارفنا سوف يكون التالي في اليأس من الصمود؟ فيوضّب أمتعته ويهاجر «هل تفكر في المغادرة؟» السؤال يطاردنا جميعاً، ونحن نطرحه على الدوام على أصدقائنا، ويدنا دوماً على قلوبنا من سماع الجواب بالإيجاب، وشاعرين بالارتياح عندما يكون سلباً. كما أن هناك سؤالاً آخر مرتبطاً به ليس بعيداً عن وعينا: في بقائنا، هل تُرانا نعمل ضد التاريخ، مناضلين دون جدوى ضد المحتوم، أم هل سيتبيّن أن عملنا مفيد في آخر المطاف، مثل سمك السلمون الذي يبيض ويفرّخ حياة جديدة بعد كفاحه المُنهك ـ الذي لا ندرك كنهه ـ ضد تيّار النّهر؟

رحيل الذين هاجروا كان منطقياً: «هذا المكان لا رجاء فيه» قالوا: «الحرب ستستمر إلى ما لا نهاية له. ليس هناك من حلّ ممكن. هل سمعتم بحرب المائة سنة؟» أم بتواضع أكثر، حرب الثلاثين سنة؟ هكذا كانوا يرحلون، وبعد كل وداع كان قلبنا يهبط أكثر وكآبتنا تزداد عمقاً، ولكننا صمدنا. في البدء، كان الناس يرحلون بضعة أسابيع أو أشهراً معدودة. كانوا يحملون حقائبهم وبعض أمتعتهم الثمينة. أما اليوم، فالهجرات أكثر ديمومة، إلا أن

القليلين جدّاً هم الذين لم يتركوا وراءهم شقة أو منزلاً يرجعون إليه إذا ما حلّ السلام أخيراً. بالنسبة إلى بعض الناس، طبعاً، لم يكن هناك خيار: إما بسبب ظروفهم الاقتصادية أو عدم توافر وثائق سفر فرض عليهم البقاء. ولكن هؤلاء بيننا الذين اختاروا البقاء لا يمكنهم إلا الإدراك بأنه مع كل هجرة جديدة تصبح المهمة أصعب والمجازفة أكثر خطراً. والرهان هو حياتنا.

منذ البدء كان مَسْكُ حساب غريب في نوعه: من بقي هنا، ولماذا، ومن رحل ولماذا وكم من الوقت سيطول غيابه. مسك الحساب هذا يصبح حامياً بشكل خاص ـ مرّاً، أو ربما يجب أن أقول بنبرة الانتصار ـ بعد جولات القتال الأكثر عنفاً. في تلك الأوقات المرعبة يكون البقاء وحيداً هو الأصعب احتمالاً. فالفرد يشعر فيه أنه راهن على الرقم الخاسر، وبعد ذلك، عندما تمرّ البرهة العصبية، يغمره إحساس بالنصر بأنه صمد.

ماذا يعني البقاء إذن؟ ما الذي كنا نأمل تحقيقه؟ قبل كل شيء، أظن، لقد استعدنا إنسانيتنا وجدّدنا تحديدها. لم نفعل ما أمرنا أن نفعله؛ لم نُطع الأمر البديهي بأن نغادر، أو أن ننقسم. كنا أكثر عناداً من الذين ضربونا بالقذائف وقتلوا وحرقوا. بالنهاية برهنّا أننا أقوى وأصلب منهم. حيث حاولوا تشتيتنا، أصررنا على البقاء مجتمعين. حيث أرادوا وجوداً أحادي اللون حملنا لوحة ألوان وبكل تحدٍّ فرشنا الألوان حيثما توجّهنا. حيث زرعوا الموت حصدنا الحياة. لقد رفضنا حججهم، وبرهنّا أن الحياة يمكن أن تبصق على الموت.

حاولنا أن نكنّس شوارعنا إلى حين طغت علينا القمامة. حاولنا تنظيم مسيرات للسلام، ونجحنا في الأيام الأولى للحرب للتعبير عن ذاتنا بها، ولكننا فشلنا فيما بعد لأن القوى المسيطرة التي كنا نريد المسيرة ضدها برهنت عن ضخامة ووحشية جعلت من احتجاجاتنا غير ذات جدوى. طلبنا إطلاق سراح المخطوفين، فرفضونا وتجاهلونا. انتصارنا الوحيد هو استمرارنا العنيد ورفضنا الفعّال للسقوط في معسكرات التقسيم والانعزالية، ومداومتنا على الحياة اليومية للمجتمع، والمحافظة عليه واستعدادنا لتسلّم زمام الأمور عندما تنتهي الحرب.

ما زال أولادنا يذهبون إلى المدارس: ما زالت هناك مدارس يمكن الذهاب إليها. إذا كان مستواها قد تدهور ـ ومن يستطيع أن يقول إنها لم تتدهور؟ ـ فإن التلامذة الأكثر ذكاءً ما زالوا يقبلون في أفضل الجامعات في الخارج ويُتابعون دراستهم. عندما نمرض ـ ما زال هناك أطباء يعالجوننا. هناك تجّار ما زالوا يوفّرون لنا كل ما نحتاج إليه، وممثّلون هزليون يضحكوننا وفنّانون يعبّرون عن آلامنا. حياتنا استمرت وما تزال.

الذين في الخارج وأنظارهم إلينا لا يرون إلا الحرب. بالنسبة إلينا نحن، فهناك الناس الأصدقاء، الحياة، النشاطات والحركة، الإنتاج، الالتزامات، والمعنى العميق. هذه الأشياء هي التي منحتنا القوة لكي نستمر، حتى عندما كانت الشكوك تغمرنا، إذ إنها تؤكّد ذاتها خلال كل معركة وبعدها.

أهم من كل شيء، كان هناك شعور بتضامن الجماعة من القوة

بحيث أنه عوّض عن صعوبات الحياة. لقد شعرت بمرور السنين، بالرغم من الانقباض والخوف والشكوك، بإحساس بالامتياز بأنني ساهمت بهذا الجزء المنكسر والمستحيل من التاريخ برفقة هؤلاء الناس الطيبين. جابهنا الشرّ وجهاً لوجه؛ وتحاربنا مع أفراد شريرين، وسألنا أنفسنا الأسئلة التي يتجنّبها معظم الناس؛ وفهمنا بأن الخطوط بين الخير والشرّ تكون أحياناً جليّة عريضة، وأحياناً أخرى دقيقة غير منظورة. لقد قمنا بكل ذلك معاً.

لقد فهم أحدنا محدودية الآخر بطريقة جعلتنا كلنا أكثر تسامحاً مع البشرية. إجمالاً لم يبق عند أي منا أية أوهام عن البطولة والتجلّد، عن مقدار احتمال الإنسان ولأية مدّة. شاهد أحدنا الآخر يتداعى تحت ضغط الأحداث، كل واحد على طريقته، وكل واحد بوقته ولأسبابه الخاصة به؛ رأى واحدنا الآخر يفقد كرامته، وشاهد واحدنا الآخر يرتجف خوفاً بشكل مذلّ. كنا نضحك من هذا الضعف ولكننا لم نعد نضحك منه الآن. لقد نظر واحدنا إلى الآخر عبر المجهر على مدى سنوات. لقد كنا كلاً عارية من البشرية على شرائح زجاجية تحت الفحص من عدسة التاريخ التي لا ترحم، ولا شيء يفعله أحدنا يدهش أو يفاجئ الآخرين. إننا نفهم ونقبل بمحدودياتنا ومحدوديات أصدقائنا.

دفعنا ثمناً غالياً لأجل هذا المجتمع الذي ننتمي إليه. على الذين يعلّقون بخفّة علينا أن يحذروا. إننا قضاة لا نرحم الذين لم يشاركوا في اختباراتنا. إننا مثل جمعية سرّية؛ لنا لغتنا الخاصة؛ نتعرف إلى إشارات لا أحد غيرنا يعرفها؛ إننا ننكّت على ألمنا

الأكثر عمقاً، فتعجب أنفسنا منّا؛ إننا نمشي على حبل مشدود فوق هوّة من الهلع لا يمكن للمبتدئ أن يراها أو يفهمها. أصغر تفصيل يثير فينا السخط والجزع بينما نتحمل الكارثة بسكون. كل منا رزمة من الأعصاب ملفوفة بقوة في كرات صغيرة من الوعي الزائد بحيث أننا نرتد عن جدران مصائبنا وكوارثنا الشخصية والجماعية بسهولة ظاهرة. كل معركة جديدة، كل وفاة جديدة، كل انفجار سيارة جديدة ومذبحة، خبر سيّئ يشعر به كل واحد منا كأنه أذى شخصيّ يتوجّب احتماله بصمت. المريض في المستشفى الذي يخضع إلى سلسلة لا نهاية لها من الحقَن والوخز وغير ذلك من الأشياء المذلّة ينتهي في آخر المطاف إلى التحمل بصمت، ولو يشعر كل عصب في جسمه بالوخز.

وهكذا، ومهما كلّفنا الأمر، فإننا نستمر في سيرنا، بعناد وإصرار، ولكن بعين هاجسة على العالم الخارجي الذي نقارن حقيقتنا بحقيقته الثابتة، لأن حقيقتنا مفعمة بالشك.

واليوم، كيفما التفت البيروتي وقعت عينه على أبنية في حالات مختلفة من التداعي؛ الزجاج المكسور وستائر الشرفات الممزّقة واللافتات الكهربائية المحطمة المدلاة التي كانت تلتمع في الماضي في إعلاناتها المزوّقة؛ والشوارع القذرة المزدحمة؛ والأبنية المليئة بالمهجرين واللاجئين، أولادهم يلهون بين أكوام النفايات المتناثرة هنا وهناك، مثل أنصاب للحرب؛ خطوط الكهرباء والهاتف مدلاة من أعمدة ملتوية؛ قطط وكلاب شاردة، مريضة بطيئة الحركة، تشمّ النفايات في زوايا الشوارع. الأطلال القديمة جميلة نوعاً ما ومحفزة

للذوق، ويلعب الخيال دوره فيها ويعيدها إلى حالتها الأصلية ووظيفتها ويعيد الحياة إلى الذين بنوها، إلا أن الأطلال العصرية بشعة كئيبة، لا تلعب فيها المخيلة بل الذكرى وليس هناك ما يُفرح في ذكرى الحرب.

والأذن أيضاً تُجابه باستمرار ليس بدوي الانفجارات وأزيز الرصاص وزعيق الطائرات فحسب، بل بصوت الزجاج المحطم (أو الصوت الذي أصبح مألوفاً فيما بعد ـ صوت كنس الزجاج المحطم)، وفوضى السير المتحكمة في الشوارع التي أصبحت أضيق والأحياء التي تقلّصت. أما الآن، فالصوت الأكثر حداثة والأكثر إزعاجاً هو صوت المولدات الكهربائية التي يتزايد عددها، المصفوفة في الشوارع أو المعلقة على الشرفات والتي تصدر هديراً يصم الآذان. وعندما يحلّ السلام، إذا حلّ، فلسوف يعني ذلك الهدوء بالنسبة إلينا بقدر ما يعني أموراً أخرى.

ضاقت آفاقنا بسبب الحرب بحيث أصبحنا نشكو نوعاً مخيفاً من رُهاب الاحتجاز، وصرنا في بعض الأحيان نذكر أنفسنا بالأيام الماضية حينما كنا نسوق السيارة ساعات لنصل إلى مكان بعيد. كنا نتوجّه جنوباً إلى صور لقضاء النهار، أو شمالاً إلى طرابلس، أو شرقاً إلى بعلبك، أو حتى إلى دمشق؛ صعوداً إلى الجبال، ونزولاً في الوديان وعبر السهول. كنا نصعد إلى الأرز ونتمشى في ظل أشجاره العريقة، أو إلى بيت الدين للتمتع بالقصر؛ كنا نتنزّه ونتناول الطعام في الأحراج وقرب الشلالات، ونتبع السواقي على الأقدام ونأخذ الصور قرب قناة جر المياه الرومانية. كنا نتجول في المرفأ

القديم في جبيل ثم نتغدى سمكاً طازجاً صيد من البحر، إذا طاب لنا ذلك. أيام الآحاد كثيراً ما كنا نزور أصدقاء في بيتهم في الجبل ونتناول الشاي قرب الورود بينما يلعب الأولاد تحت الشجر.

أما الآن فإننا حبساء ليس مدينتنا فحسب بل حتى حيّنا في المدينة. وهذا الحبس ليس بالمعنى المحسوس فحسب بل اجتماعياً أيضاً. أطالع دليل التلفون أحياناً لأذكّر نفسي بوجود أناس نسيتهم، ولأرى ما إذا كان هناك أحد باستطاعتي أن أزوره كنوع من التغيير من الأصدقاء القليلين الباقين. كلمات أصدقائي وإيماءاتهم وحركاتهم أصبحت مألوفة لدرجة أستطيع بها أن أستبقها، وأشعر أحياناً كأنني أكلم ذاتي (وهذا في الواقع ما وجدتني أفعله أحياناً). ولكن دليل التلفون لا يترك لي إلا كآبة عميقة. أقرأ أسماء الذين انتقلوا إلى الخارج، إلى أميركا أو إنكلترا أو عمّان أو أثينا؛ والذين ماتوا بسبب العنف أو ميتة طبيعية وهؤلاء الذين لم يعد يهمّني أن أراهم. لقد نزعت الناس عني مثلما نزعت وتخلّيت عن أثوابي القديمة التي لم تعد تلائمني، أو التي لم يعد شكلها يُعجبني، ونسيتهم. ولكن الغريب أنه كلما بلي دفتر التلفونات من كثرة الاستعمال وتمزّقت صفحاته وباشرت بإعداد دفتر جديد، أجدني أنقل إليه بطريقة آلية الأسماء والأرقام، بما في ذلك أسماء البعيدين والموتى، كأنني بهذا السحر المريب يمكنني أن أبعث فيهم الحياة وكذلك الأيام القديمة، كأنني أمحو السنين الفظيعة الأخيرة.

من فرط ما سحقونا وتجاذبونا ودفعونا من كل الجهات أصبحنا اليوم نميل إلى الانزواء في منازلنا. إذا كان لا بد من رمز

للحرب، فهو حتماً اللاجئ، ونحن الذين لم نفقد بيوتنا ـ بعد ـ نتمسك بها، متشبّثين بخجل بما نعرف أنه الأكثر بدائية بين المطالب البشرية. وبطريقة هاجسية، ننظف بيوتنا ونزيّنها. جعلنا من داخليتنا عوالم صغيرة اكتفائية الذات، معزولة قدر الإمكان عن التخريب في الخارج. ولكن مهما حاولنا فليس بإمكاننا أن نوصد الباب على الحرب، حتى في أوقات الهدوء النسبي. إننا محشورون في هذا الوضع وهو متغلغل فينا. إننا نحمله في ذاتنا وحولنا. طوّرنا عادات غريبة وحركات عصبية؛ إننا جدول حيّ للعوارض السيكوسوماتيكية.

ربما كان الشعور الأوحد الأكثر طغياناً الآن ـ أكبر بكثير من الشعور الكامن بالنصر لكوننا بقينا أحياء، أكبر من الكآبة والخوف، وأكبر حتى من أكبر منافس للكآبة والخوف، ألا وهو التعب العميق الطاغي ـ هو الشعور بالهدر الهائل والغضب الذي يواكبه. إحدى أعزّ صديقاتي قُتلت بالرصاص على أحد الحواجز منذ ثلاث سنوات ١٩٨٦. تراني أشعر بموتها الذي لا معنى له كل يوم، مثل جرح جديد ينفتح، والألم من العمق مثلما كان في اليوم الأول، عندما اعتقدت بأنني سأنفجر، وعندما عرفت في النهاية ماذا يعنون عندما يتكلّمون عن قلب مكسور.

ما يُؤسف له ليس فقط فقدان حياة الإنسان، مع أن هذا أكثر من كل شيء. منزل جميل عتيق ـ أو حتى منزل غير جميل ـ يهدّم وتتقلص المدينة بكاملها. محلّ يُفَجّر، حتى ولو كان محلاً رثّاً يملكه تاجر جشع قليل الذمة ـ ألا يمثّل أعواماً من الجهد؟ أشجار

تُقطع أو تُحرق؛ أحراج تُتلف، قرى بكاملها ومدن وأجزاء من الحواضر أصبحت ركاماً؛ كنائس ومساجد دُمّرت، ومدارس ومستشفيات ومصانع حولت إلى أطلال. الوقت أهدر، وسنون انقضت، واجتاحتنا الوحدة والفراغ. الحرب قادت شبابي إلى الكهولة، وطفولة أولادي ـ وجميع الأولاد ـ مضت في ظلال الحرب. ابني الأصغر كان في الرابعة من عمره عندما بدأت الحرب وهو الآن في الجامعة.

جيل كامل ترعرع في هذه الحرب، وإذ أنظر حولي، أشعر بثقة بأننا كافحنا لكي يظل المشعل الذي نسلّمهم إياه مضاءً. ثمة من يخالفني رأيي هذا، الذين يرون الطائفية والتعصب تتغلغل في الشباب هنا. أكيد أن هذا صحيح، ولكن كأقلية. الغالبية العظمى ما زالت منفتحة كما كانت على الدوام للمثل العالية القديمة، ومتبرّمة من التفكير الضيق الذي يلوّحون به بمثابة إرثٍ خلّفته الحرب. العديد منهم كبروا منعزلين الواحد عن المناطق الأخرى وثقافتها، ولكن معظمهم بواسل، خيّرون وصادقون بما فيه الكفاية للمجازفة بتجديد العهد. وقد حاولنا ـ نحن الأهل والمعلمين، على مر السنين، أن نغرس فيهم ذلك الجانب الذي لم تتح لهم الفرصة لدرسه أثناء نموّهم؛ وأن نطبع في نفوسهم وجود أشياء كالخير والجمال والدعة والعدالة، وهم كانوا تلامذة نُجَبَاء في هذا الدرس.

الوحدة والفراغ أخذت تطغى علينا. عندما بدأت الحرب كانت والدتي واثنتان من أخواتي تعيشان هنا، وكانت أخت لي أخرى وأخي يزورانا بانتظام، وكان عندي أولاد عمومة وأعمام وعمات.

أما اليوم فأنا وحيدة، آخر من تبقّى من عائلتي في بيروت، ومن عائلة زوجي الكبيرة فقط أخته وقليلون من أبناء عمه ظلوا هنا. الباقون سافروا إلى الخارج. نادراً ما يراسلوننا أو يتصلون بنا بالتلفون. طبعاً البريد لا يُعتمد عليه، وكذلك التلفون، ولكن ربما كان السبب الحقيقي أنهم يريدون أن ينسوا، وأن يمحوا بيروت من ذاكرتهم.

ولكن في أوقات الهدوء ما زالت الحياة مستمرة. في الصباح الباكر من كل يوم هناك سيدة تقطن في البناية المقابلة لبيتنا وتدلّي من شقّتها في الطبقة الرابعة كيساً من البلاستيك مربوطاً بحبل تنزله ببطء لتحافظ على توازنه. وناطور البناية، الذي يراقب نزول الكيس، يحل رباطه ويأخذ منه رزماً صغيرة ملفوفة بورق معدني، يفرشها بعد ذلك على الرصيف. جميع قطط الحي الشاردة، التي تكون قد تجمّعت هناك، تروح وتجيء وتملأ الدنيا مواءً، تقترب من الطعام، مكشّرة الواحدة ضد الأخرى أحياناً، مع أن لا حاجة لذلك، فالطعام يكفي للجميع، وتأكل القطط حتى الشبع. وبعدها تستلقي في الشمس، أو تتوارى. راقبت هذا الطقس الصباحي الصامت منذ سنوات، خلال الحرب. وراقبته هذا الصباح، إذ تحوّلت غيوم الشروق من الأحمر الناري إلى الوردي ثم تلاشت نهائياً. ووجدت عزاء في ذلك العطف المجاني والكرم الصامت والإصرار على القيام به بانتظام ومثابرة. حتى في فترات القتال، عندما تتوقف القذائف ويصمت أزيز الرصاص، يتدلّى كيس

البلاستيك من الشقة إلى تحت، وتأكل القطط.

عندما يكون ذلك ممكناً، يخرج الشباب إلى العشاء أو إلى النوادي أو الشواطئ، مثلما يفعلون في سائر البلدان. يضحكون ويرقصون ويتزلجون ويسبحون. هناك مسرحيات تقام وحفلات تنظم ودعوات إلى العشاء تلبّى. أحدث الأزياء ما زالت تُرى في المخازن الأنيقة، وأحدث التقنيات تباع في المحلات.

لم أعد أفكر كثيراً في حصيلة الأحداث، مفضّلة أن أعيش في الحاضر وأستمتع بقدر الإمكان مع من أستطيع. تغدّينا اليوم مع أصدقاء جدد. أعدّ الغداء في حديقتهم. إنه الربيع والطقس كان رائعاً، الشمس مشرقة دافئة، والسماء زرقاء صافية وأزهار الربيع في نورها. والليلة سوف نزور أصدقاء قدامى عادوا حديثاً من الخارج، ولوقت محدود. ما زلنا نتذوق سعادتنا بجرعات صغيرة، متمهّلين بتذوقها والاستمتاع بلذّتها.

١٣ نيسان/أبريل ١٩٨٩: نحتفل اليوم، كما يعلم الجميع، بالذكرى الرابعة عشرة لبدء الحرب. أقول كما يعلم الجميع لأن الكل يتكلمون عن ذلك. كثير من الأعياد السابقة مرت دون أن يلاحظ أحد. السبب في تذكرنا اليوم كون الحرب عادت مجدّداً، بكل قوّتها. وأنا أكتب أستطيع سماع صوت صواريخ «غراد» تُطلق على بعد بضع مئات من الأمتار، وأستطيع أن أرى الدخان والغبار الذي يسبّبه إطلاقها. أي صوت يصدر عنها: جلبة صاخبة في البدء، بعد ذلك صوت احتكاك خشن عميق ولعلعة، ثم زعيق حاد. نوافذ

بيتي تهتز. بعد ذلك بثوانٍ قليلة، أسمع صوت انفجارها البعيد، أظن أنني سأسمع صفير القذائف التي ستسقط هنا وانفجارها. السيارات القليلة في الشارع تمرّ مسرعة مطلقة أبواقها دون توقف هلعاً. هذه الجولة من الاقتتال تسبّبت في مقتل العديد من الناس الذين فاجأتهم في سياراتهم. في اليوم الأول، عندما فاجأ القصف الجميع بعد ستين من الهدوء النسبي، بدأ القصف في السابعة والنصف صباحاً، أثناء فترة الزحام في المرور. كان الناس في طريقهم إلى أعمالهم أو مصطحبين أولادهم إلى المدارس. كانت حصيلة ذلك اليوم ثلاثة وخمسين قتيلاً. وعندما بدأ القصف أمس فجأة، غادر بعض الناس سياراتهم في وسط الشارع طلباً للاحتماء.

قضينا ليلة أمس في أسرّتنا، بكل ملابسنا، مستعدّين للنزول إلى الملجأ إذا دعت الحاجة. ولكن القصف لم يبدأ إلا في الخامسة والنصف صباحاً، على ما أعتقد. ربما كنا نائمين أثناء القصف، مثلما حدث لنا ذات ليلة في الأسبوع الماضي، مخدّرين من العرق الذي كنا شربناه ذلك المساء، ومنهكين تعباً بعد عدة ليالٍ من الأرق.

أحاول الآن جاهدة ألا أفكر في سمير زوجي الذي توجّه إلى بئر حسن قرب المطار. كان عنده أشغال هناك ولم أحاول أن أمنعه. الحكمة الجارية اليوم هي أنك لا تشير على أحد، حتى ولا زوجك، عما يجب فعله. إياك أن تؤثّر على قرار أحد، أو تحمل مسؤولية قدر شخص آخر. من المستحيل توقّع أية طريق أو غرفة أو حتى كرسي هو المقدر له أن يُصاب.

هذا الصباح، بعد الهلع الأوّلي، ساد الهدوء فترةً وخرجت من المنزل لقضاء بعض الحاجات. كان الشارع مقفراً تماماً، ولاحظت أن الحلاق جارنا قد كوّم أكياساً من الرمل أمام بابه الزجاجي. كنا قد طلبنا منه أن يرتّب لنا وضع أكياس من رمل للكاراج عندنا لفصل ملجئنا التعيس في الممشى عن السيارات والمراجل فخدمنا بذلك، وفي هذا الوقت بالذات يوجد حمل شاحنة من الرمل في الكاراج ورجلان يملآن الأكياس.

عاد سمير من بئر حسن: «ما في شيء،» قال لي، «كل شيء يبدو طبيعياً.» ولكنه وصل في الوقت المناسب، لأننا سرعان ما اضطررنا إلى النزول إلى الملجأ عندما بدأ صفير القذائف القادمة يُسمع. ولكن خلافاً للسنوات الماضية، لم يكن هناك كثيرون في الملجأ. معظم جيراننا رحلوا. في كانون الثاني/ يناير رجع البعض منهم، آملين البقاء، ولكن تجدد الحرب جعلهم يغادرون مرة أخرى.

كيف بدأت جولة الحرب هذه؟ كيف بدأت جميع الجولات؟ حادث يولّد شرارة، بضعة أيام من «الهدوء الحذر،» تصريحات نارية من كل الأفرقاء، وبعد ذلك الانفجار، المدارس تُغلق، والمحلات تُقفل. تدخّل أجنبي من جهة أو أخرى، أو الجهتين؛ واتهامات من الفريقين. انفجار أكبر، أكثر هولاً، وقصف أكبر كثافة. تصريحات نارية أقوى، تبادل القصف أشد عنفاً. المدارس تستمر مغلقة، والمحلات الوحيدة التي تظل مفتوحة هي محلات البقالة. البلدية تتوقف عن جمع النفايات. أكوام القمامة تكبر على

زوايا الشوارع وتصبح تلالاً، تتداعى في النهاية وتتحول إلى مجار من أكياس البلاستيك الممزقة والخضار المهترئة. في وقت لاحق يبدأ الناس بإشعال النار بهذه الأكوام الكريهة الرائحة ويعبق الدخان في الجوّ وتنتشر الروائح النتنة.

وقف لإطلاق النار بعد آخر يُعلن ويسقط. رجال الدين من كل الجهات يتوجّهون إلى المتقاتلين طالبين الرحمة والشفقة من قِبل السكان المدنيين؛ نداءاتُهم تُهمل. الهيئات الصحيّة تنادي كل الفئات ليتحاشوا ضرب المستشفيات والمستوصفات بالقنابل؛ نداءاتهم تظل غير مسموعة. سفراء الدول الكبرى والصغرى يقومون كل بدوره بزيارة الرؤساء والقيادات من كل الفئات؛ وعند خروجهم من المقابلات يتحلّق حولهم الصحفيون والمراسلون على أمل انتزاع بارقة أمل، وتصريحاتهم جميعاً متشابهة. بلدانهم تدعم لبنان وتؤيد مساعي السلام بقوة. وهم يشعرون بالتعاطف العميق مع السكان؛ كلهم يبدون الأسف العميق للقتلى والجرحى وللخسارة في الممتلكات. في روما البابا يصلّي لأجل السلام. المهاجرون في العواصم الغربية يتظاهرون لأجل إنهاء الحرب، حاملين أعلاماً لبنانية صغيرة. التراشق بالقذائف يستمر. عدد المهاجرين يزداد. خطوط الكهرباء وقساطل المياه تُصاب وتقنن الكهرباء والماء أكثر، والحرب تستمر.

بقينا على مدى سنوات نسمع أن في لبنان «خطوطاً حمراء» رسمتها الهيئات الدولية. أحد هذه الخطوط يتناسق مع «الخط الأخضر» الذي يفصل المدينة: ليس من المسموح، بهذه الظروف،

لأي من الفريقين أن يعبر هذا الخط. وهكذا ظلت خطوط التماس ثابتة منذ البدء تقريباً.

إلا أنه ليس هناك خطوط حمراء تحمي الناس. من المسموح، على ما يبدو، ضرب السكان بالقنابل، على الجهتين؛ بينما ليس هناك من تقدم استراتيجي قط. وهذه الاتفاقية تشرف عليها القوى العالمية والإقليمية، وكل الذين يظهرون الاهتمام بحقوق الإنسان والذين لا يكلّفون أنفسهم عناء تمويه وحشيّتهم بقناع من الإنسانية الكاذبة.

١٤ نيسان ١٩٨٩: يقال إن الليلة الفائتة كانت إحدى الأسوأ في الحرب بطولها: احتفالاً لائقاً بمناسبة هذه الذكرى. غضبي لا حدود له.

منذ بضع ليالٍ كنا في الملجأ نستمع إلى موسيقى موزار على الراديو بين ملاحق الأخبار. لدى رجوعنا إلى المنزل ـ كان التيار الكهربائي موجوداً عندها ـ تابعنا مباراة لكرة القدم على التلفزيون: البرازيل ضد سائر العالم. في الليلة الفائتة لم يكن هناك موزار ولا كهرباء. أشعلنا بعض الشموع، أوقفناها ببعض الصعوبة على إسمنت أرض الملجأ غير المستوية، وعلّق أحدهم، مثل صوت بلا جسم، بالقول كم هو جميل نور الشموع. وكان البعوض يهاجمنا ويمتص دمنا بينما نحاول طرده وحك مكان قرصاته. وقال أحدهم: «إننا مثل الجراذين. والله نحن مثل الجراذين هنا.»

حوالى الساعة الواحدة صباحاً، بعد نصف ساعة من الهدوء

صعدنا إلى شقّتنا، المصابيح الكهربائية بيد، جارّين وراءنا وسائدنا وأغطيتنا التي لم تساعد كثيراً على تخفيف تعاستنا. لم نكد نصل إلى البيت حتى سمعنا صفيراً آخر تلاه انفجار. عند ذاك كنت عنيدة: «لن أنزل إلى الملجأ،» قلت لسمير: «أنا باقية هنا.» لم يكن ذلك جنوناً انتحارياً من جهتي ولا حتى إيماناً فلسفياً بالقضاء والقدر. كان تعباً ونوعاً من التحدي الساخط. «كفى، كفى» قلت. واندسست في فراشي ولكنني كنت أقفز مع كل قنبلة تنفجر. أخيراً، لا أدري في أي وقت، غفوت.

أفقت في السابعة والنصف. كان الهدوء يخيم في الخارج. استحممت ولبست ثيابي، بعد أن انتقيتها بعناية. اخترت تنّورة وكنزة كحلية وقميصاً أبيض، ولمّعت حذائي الأسود ومشّطت شعري. في عنايتي بمظهري، وخصوصاً في اختياري ملابس أنيقة مرتّبة، شعرت بأنني أبطل مفعول ذل حالتي الشبيهة بحالة الجرذان في الليلة السابقة.

زرت كل من أستطيع زيارته وأنا أردد لهم «الحمد لله على السلامة» للجميع.

١٧ نيسان ١٩٨٩: يوم أمس كان جهنّمياً خالصاً. لأول مرة في كل هذه السنين شعرت بأنه لم يعد بإمكاني الاحتمال. تقديرنا فاشل وأعصابنا فارطة تماماً.

بدا كل شيء هادئاً بعد الظهر. وإذ كان يستحوذ عليّ شعور بالقلق، صممت على الخروج لزيارة كمال وناديا، على بعد حوالى

ثلاثمائة متر منا. وأثناء اجتيازي الطريق دوّى صوت المدفع الضخم في آخر الشارع، فقفز قلبي وهرعت. بعد ذلك، وأنا أشرب القهوة في منزلهما، استعدت هدوئي. واتصل بنا سمير بالهاتف وقال إنه آتٍ. ولم تمضِ دقائق حتى سمعنا صفيراً وانفجاراً، تبعه صوت زجاج يتكسّر، وهو علامة أكيدة بأن القذيفة سقطت في مكان قريب. تسمّرنا في مكاننا ونحن نفكر بسمير على الطريق. جلسنا بلا حركة بضع دقائق، ونحن بالانتظار. تطلّعت من النافذة ورأيت سلوى مع أولادها تعدو باتجاه منزل ابنة أختها، حيث كانوا ينامون. ناديتها، فنظرت إليّ ولوّحت لي وهي تعدو، دون أن تبتسم. «قريبة منا،» سمعتها تقول وهي تهرول. لا إشارة بعد من سمير. أخيراً رن التلفون. «أكلمكم من بيت الأخ الذي كان لطيفاً وسمح لي بأن ألجأ عندهم. سوف أبقى برهة.» «أسأله: هل أنت بخير؟» «نعم نعم،» ولكن صوته لم يكن مطمئناً. بعد ذلك وصل، شاحباً، وشرب القهوة التي أعدّتها له ناديا بسرعة ثم قال: «لنعد إلى البيت.»

رجوعنا إلى البيت، عدواً، كان مريعاً. كان الشارع مقفراً وكل أبواب البنايات فيه كانت موصدة والمصاريع مغلقة. ليس هناك مكان يمكن اللجوء إليه.

كانت لي فيما بعد لحظة لقاء وجهاً لوجه خاصة مع الموت. خرجت إلى الشرفة للتأكد من أن قوارير الغاز الموجودة هناك مقفلة بإحكام. ولما انحنيت لأحكم إغلاق الصمام سمعت أزيز قذيفة مارّة بقربي. جمدت في مكاني وقلت بنفسي: «ها هي!» الانفجار

الذي تلا وصوت الشظايا المتساقطة جعلني أتسمّر في مكاني منحنية. عندما تركت الشرفة ونزلت أحسست أنني ضعيفة، مرتعشة، وراحت الدموع تنهمر من عيني، دموع الغضب والذل مجبولة بالخوف.

في الملجأ صُعقنا لخبر الكارثة التي أودت بحياة خمسة وتسعين شخصاً في ملعب كرة القدم في إنكلترا. وإذ كانت القذائف تنهال حولنا قال أحدهم ساخراً: «اشكروا ربكم أنكم لستم تتفرجون على مباراة كرة قدم في إنكلترا.»

٢٠ نيسان ١٩٨٩: يوم كامل من الهدوء أمس. هذا الصباح فتحت كل النوافذ ليدخل نور شمس الربيع إلى المنزل. ظلت المصاريع مغلقة على مدى أسابيع، مع أن الثقوب فيها تذكّرني بأن اختباري الماضي برهن على عدم قدرة المصاريع على حمايتنا من الشظايا والرصاص.

كلّمتني والدتي بالتلفون بعد ظهر أمس من واشنطن العاصمة. كان الهلع في صوتها وهي تقول لي بتشنّج: «يجب أن تغادري! قد لا أسمع صوتك مرّة أخرى.» حاولت تهدئتها، ضاحكة من هلعها: «لا تقلقي،» قلت لها «لقد مررنا بهذا مئات المرّات من قبل، وأنتِ كذلك.» طبعاً لم يكن ذلك صحيحاً. باستثناء صيف ١٩٨٢، كانت هذه أسوأ مواجهات شاهدناها. كما أننا أكبر الآن بسبع سنوات من عام ١٩٨٢ ومنهكين بكل ما مرّ علينا منذ ذاك الوقت. وأضفت قائلة: «وها أنا عدت تواً بعد أن ابتعت كعكة فراولة.» «لا تكلّميني

عن كعك الفراولة،» صاحت بي، وقد أغضبتها محاولتي أن أُلطّف رؤيتها ليوم الدينونة بعبارات تافهة: «عِديني بأن تغادري فوراً.» «حسناً، حسناً،» أجبتُها، وأنا أرتعد، في محاولة لتخفيف ارتياعها بموعد لا نية لي في تنفيذه، لكي أقوم بترتيبات السفر. شعورها القوي بالخطر الداهم انتقل إليّ بالعدوى، وعندما أقفلتُ الخط كنت في انقباض شديد.

٢٣ نيسان، ١٩٨٩: كان هناك هدوء نسبي في الأيام القليلة الماضية ـ «هدنة» يسمّيها البعض بحذر، وليس «وقفاً لإطلاق النار.» ولكن المدفع الضخم في آخر الشارع كان يدوّي بانتظام، مصوّباً، على ما يبدو، إلى البحر، كجزء من الحصار البحري. وقد أُعطي هذا المدفع كنيةً في الحي، وأصبح الكل يسمّونه «أبو عبده،» وأضفَتْ عليه هذه التسمية لمسة من التناقض العجيب. ولست أدري ما أصل هذه الكنية التي تمثل نموذجاً لروح الدعابة في أهالي بيروت.

ذهبت اليوم لأودّع سلوى، التي قررت أن تصطحب أولادها وتلتحق بزوجها الذي يعمل في الخارج. التقينا في بيت ابنة أختها. وكانت أخواتها هناك لوداعها. الجميع كانوا منقبضين، متوتري الأعصاب. ولما تعانقنا بصمت، شعرت أن دموعي تنهمر، ودموعها أيضاً، فغادرت المكان مسرعة قبل وصول سيارة الأجرة التي ستقلّهم إلى دمشق. ودّعت العديد من الناس خلال تلك السنوات.

إنهم يحرقون النفايات في الزوايا في كل أنحاء المدينة. الزقاق قربنا مسدود بالنفايات المتراكمة ويعج بالجرذان والذباب. منذ بضعة أيام شاهدت جرذاً مدهوساً قرب المكان، ومصارينه على الإسفلت بين قشور البرتقال المهترئة. هناك طبقة من السخام على كل شيء في البيت، مهما نظفته، وعلى الأفق غمامة دكناء بشعة مثل ضربة فرشاة رسّام من الشرق إلى الغرب، على امتداد بصري. وفي اليوم الذي انفجرت فيه خزانات الغاز في الدورة بفعل القذائف منذ حوالى ثلاثة أسابيع، حطّم الانفجار زجاج نوافذ على بعد أميال عديدة ودمّر المنطقة المحيطة بالخزانات تدميراً كاملاً. وخيّم على المدينة عمود من الدخان الأسود طوال ذلك اليوم واليوم التالي وحجب الشمس كليّاً. وبقينا على مدى أيام نعطس ونسعل وعيوننا تحرقنا.

انقطعت المياه منذ أسابيع، ولم يبق لدينا الآن إلا الماء المعبأ بالزجاجات للشرب والماء الذي نضخّه من بئرنا الإرتوازية، والذي تغلب عليه الملوحة إذا لم نمزجه بماء الدولة. هناك من ليس لديهم ماء على الإطلاق، وكما حدث في السنين الماضية، يأتي الناس إلى بنايتنا حاملين أوعية بلاستيكية يملؤونها من بئرنا. يوم أمس وصلنا خرطوم مياه بدار أبرشية الكنيسة الألمانية خلف بيتنا. إنها مليئة بالناس الذين لجأوا إليها بعد أن قُصفت منازلهم. وتنعم دار الأبرشية بملجأ لائق مُجهّز بكامله.

أمس جاء توفيق ليستحم. ليس في شقته نقطة ماء. ما إن بدأ بالاستحمام حتى باشر «أبو عبده» بالدوي. فخرج مسرعاً من الحمام وهرول عائداً. حاولت أن أطمئنه: «هذه القذائف منطلقة من

هنا،» أنا التي تعوّدت هذه الأصوات. «صحيح» أجابني، «ولكنهم قد يبدأون بالردّ في أية لحظة. شكراً،» وخرج تواً.

إذا استمر الهدوء غداً، أعتقد أنني سوف أدعى إلى اجتماع في الجامعة. لم نجتمع منذ أسبوعين، وآخر مرة اجتمعنا فيها اضطررت إلى الركض إلى المنزل بينما كانت القنابل تتساقط. لا شيء لدينا لنقرر فيه. كان فصل الربيع قد بدأ. ولكن المدارس والجامعات مغلقة منذ منتصف آذار. ليس بالوارد معاودة الصفوف قبل أن تستقر الأمور تماماً، ومن يدري متى؟

ذهبت إلى الجامعة أمس لمشاهدة الضرر الذي أحدثته القذائف الأربع التي وقعت في حرمها. رجا، رئيس الجهاز الأمني، رافقني في جولة. وقد قام بهذه الجولة مرات عديدة حتى صار يبدو كأن له مسلكاً معيّناً، وأنا أمازحه عن كونه أصبح دليلاً لهذه الآثار الحديثة، مما ذكّرني بالرجال الذين كانوا يرافقوننا في زيارة الأهرامات أو آثار بعلبك. بدأت الجولة بالتفرج على بقايا القذائف ذاتها، والمخزونة بعناية في غرفة المولدات قرب مبنى «أروين.» أتساءل لماذا نحتفظ بها وأظن أنه ربما تمكّن تلامذة فنّ النحت من تحويلها إلى أعمال فنّية. كان من الممكن للأضرار في حرم الجامعة أن تكون أسوأ، على ما أعتقد، ولم يُصبْ أحد، شكراً لله. معظم ألواح الزجاج في المباني تكسر ودُمرت زاوية من مبنى الفنون الجميلة حيث يقع مكتبي، وحُطّم مكتب سكرتيرة الدائرة. الآلة الكاتبة مخلّعة ـ وجدوها في ملعب كرة المضرب ـ وتُعرض الآن بمثابة جائزة، مع جهاز الاستلام في الكومبيوتر الذي يبدو أنه سلم. أنابيب الماء

والتبريد تحطمت، والأسلاك الكهربائية تقطّعت، وخزانات وقود الديزل سُحقت. «مستودع المشاهد» ـ وهو عبارة عن سقيفة في الهواء الطلق أقيمت لتخزين أعتدة المسرح ـ تهدّم جزئياً. الحصول على الأموال اللازمة لإقامة هذه السقيفة استغرق سنوات في بادئ الأمر، وعلينا الآن أن نبدأ مجدّداً. كل جهودنا على مر السنين تركتنا في مكاننا أو هكذا يبدو.

لديّ صداع باستمرار ولحظت مؤخّراً أن عيني اليمنى، التي اتخذت لذاتها إرادة مستقلة، تطرف تكراراً حتى عندما أحاول بحنق أن أوقف ذلك بالضغط عليها بقوة. تدخيني يرهق أعصاب زوجي بالقدر الذي يرهق أعصابي تذمّره منها. لقد وعدت بأن أوقف التدخين عندما تنتهي الحرب. «هذا ما تردّدينه دائماً» يرد بحدّة. نحن الاثنين نشبه سلحفاتين نهّاشتين في هذه الأيام، كل واحد منّا متفِّش للآخر «ليفشّ خُلقَه.»

٢٤ نيسان، ١٩٨٩ : ذهبنا لزيارة ندى، أخت سمير البارحة. لم تخرج من منزلها منذ سبعة أسابيع. مازحناها بموضوع حذرها الزائد، ولكن الهلع الذي كان يسيطر عليها كان زاخراً بالعدوى، ورجعنا إلى منزلنا أسرع مما كنا ننوي. بعد الظهر اغتنمنا فرصة استمرار الهدوء وطقس الربيع الجميل وذهبنا لزيارة خالد وحنيفة. جلسنا في حديقتهم التي كانت في عزّ ريعانها، ولم يكن شحّ المياه قد أيبسها. كانت نوافذ دارتهم قد تحطمت في الأسبوع الفائت، وأرونا حيث سقطت القذائف. وعندما وقفنا لوداعهم، قطفت بعض

الأزهار لي: وروداً بيضاء وأزهارَ بازية قرمزية ومرغريتا صفراء، وفي طريق عودتنا إلى المنزل التقى زوجي رجلاً تبادل وإياه تحيات ودّية ولم أعرفه، وكان هو الشخص الذي لجأ زوجي إلى منزله عندما فاجأه القصف.

هذا الصباح، أثناء رجوعي من حجّتي اليومية إلى «سوبر ماركت سميث» التقيت صديقاً لنا صحفياً، وعزّز أسوأ توقّعاتي. بعد أن أجرى مقابلات مع الجميع، فهو يشعر بأن الهدوء لن يدوم. إننا مقدمون على قصف أكثر. مجرد الفكرة تهدّنا. لم تحدث أضرار كافية، برأيه، ولا وقعت ضحايا بالأعداد التي تحرّك المجتمع الدولي إلى فعل شيء. وضحك عندما سألته إذا كان بالإمكان توقع رحمة وشفقة علينا، من أي من القادة، المحليين أو الدوليين، ولم يكلّف نفسه عناء الإجابة عن السؤال، الذي بدا غبياً، حتى بالنسبة إليّ.

لقد أعلنوا تواً في الأخبار أنه سُمح لباخرة فرنسية محمّلة بالمحروقات أن ترسو وتفرغ حمولتها، وعليه سوف نحصل على ساعتين من التيار الكهربائي في اليوم اعتباراً من الغد.

٢٥ نيسان، ١٩٨٩: ليلة أمس، بعد أمسية هادئة، أطفأنا الشموع استعداداً للنوم حوالى الحادية عشرة والنصف. فجأة، عند منتصف الليل، فُتحت أبواب الجحيم وانهالت القذائف. لا أدري كيف وصلنا إلى الملجأ. تركنا الملجأ في الخامسة صباحاً، متشنّجين، منهكين.

٢٧ نيسان ١٩٨٩: هناك اجتماع طارئ في تونس لوزراء الخارجية العرب لبحث الأزمة هنا. هل يحدونا الأمل بأنهم سيساعدون على إيجاد حل يُنهي الحرب؟ سمعنا أنهم يفكّرون في إرسال قوة عربية لمراقبة وقف إطلاق النار. هذه أخبار جيدة، ولكن ردّة فعلنا لا تبلغ حد الابتهاج لأننا نتذكر كم من القوى جاءت وعادت دون جدوى. في العام ١٩٧٦ جاءت قوة ردع مكوّنة من جيوش من سوريا والسعودية والسودان واليمن، وبقيت حوالى سنة إلى حين انهار السلام. لم يبقَ هنا سوى الجيش السوري، وهذا بدوره غادر جزئياً خلال الاحتلال الإسرائيلي العام ١٩٨٢. بعد الاجتياح الإسرائيلي، جاءت قوة متعددة الجنسيات مكونة من جيوش أميركية وفرنسية وبريطانية وإيطالية للإشراف على إجلاء القوات الفلسطينية. ورحلوا ثم عادوا بعد بضعة أسابيع على أثر مذابح صبرا وشاتيلا. بعد ذلك، على أثر تفجير مقرّي قيادة القوات الأميركية والفرنسية، رحلوا مرة أخرى، نهائياً. سنة ١٩٨٧، بعد أشهر من قتال الشوارع بين الميليشيات المتنافسة في بيروت الغربية، وصلت القوات السورية مجدداً لحفظ السلام. بعد ذلك عانينا الحصار والمعارك في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، والحرب بين الميليشيات الشيعية، والآن تبادل القذائف بين الجيشين اللبناني والسوري. في هذه الأثناء، وبعد غزوة شرسة إسرائيلية سنة ١٩٧٨ جاءت قوة من الأمم المتحدة إلى الجنوب، مؤلفة من جيوش من هولندا والسويد والنروج وإرلندا وفيجي ونيبال ونيجيريا والسنغال وربما من غيرها التي نسيتها. ولكنها لم تَحُلْ دون استمرار الغزوات

والغارات الإسرائيلية، ولا الاجتياح الإسرائيلي الكبير العام ١٩٨٢، ولا الاحتلال لجنوب لبنان. التفاؤل بقدوم قوة أخرى ليس سهلاً، فالعالم كله جاء ورحل، على ما يبدو، والحرب لم تتوقف.

في الليلة الفائتة رجع التيار الكهربائي فجأة فهلّلنا. مع أنه كان من المفروض أن نُعطى ساعتين فقط من التيار الكهربائي فإن أحد المسؤولين نسي أن يطفئ التيار المخصص لمنطقتنا على ما يبدو. إننا مغتبطون، ولكن أصدقاءنا الذين أخبرناهم بخبرنا السارّ هذا استاؤوا وأبدوا غيرتهم منّا. ما زال التيار مستمراً منذ ثلاث عشرة ساعة.

٢٨ نيسان، ١٩٨٩: رجعت المياه هذا الصباح! سقيت النباتات: أية لذّة هي لذّة ملء المرشّة مرة بعد المرّة وتبليل الأوراق والتربة؛ ورؤية نبات الخبيزة ترفع رؤوسها المحنية أخيراً. سقيتها أكثر من مرة وسكرت بشعور قدمي المبلّلتين من فائض الماء على الأرض. سمير تولّى مهمة بائسة وهي ملء الزجاجات وأباريق الشاي والماء.

أعلن وزراء خارجية جامعة الدول العربية يوم أمس أنهم توصّلوا إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في لبنان. بعد ساعات قليلة هرولنا إلى الملجأ عندما راحت القذائف تتساقط وأثقلت رائحة البارود هواء الليل.

٢٩ نيسان، ١٩٨٩: اتفاق وقف إطلاق النار هشّ. «أبو

عبدو» يدوي بانتظام، ولكن حتى الآن لم يردّوا علينا من الجهة المقابلة. ومع ذلك، وبمزاجٍ هش مثل هشاشة وقف إطلاق النار، جلبت الشراشف والوسائد والشموع من الملجأ.

الحرّ اليوم خانق، وريح الخماسين الجنوبية الغربية الهابّة من الصحراء تجلب الرمل الناعم الخانق والمغمّم. خرجت لأجسّ النبض في الأسواق ووجدت لخيبتي أن المحلات ما زالت مقفلة، وأن أكياساً إضافية من الرمال تُكوَّم أمامها. باتريك سميث كان يراقب عملية التبييض بالكلس لمكعّبات الإسمنت التي كوّمها حول محلّه لحمايته. فقد عانى مرّات عديدة إصابات دمّرت أجزاء من مخزنه. «هل تحاول تجميله؟» سألته. «بالحقيقة لا فائدة من المحاولة: لا شيء يمكن أن يجعل هذه المكعّبات جميلة.» واكتفى صاحبنا بالابتسام.

٢ أيار، ١٩٨٩: لم يأتِ المراقبون. ليس بنيّة أحد من البلدان العربية على ما يبدو أن يتورّط في مستنقع بيروت. «أبو عبدو» كان يقصف طوال الوقت وعلى فترات منتظمة، نهاراً وليلاً. نجفل عند كل طلقة بسبب هول دويّه. في الليل تُشاهد شهب من النار تسبق كل دوي. ولكن باستثناء فترة وجيزة منذ يومين، لم تكن الجهة المقابلة تردّ.

زرنا ناديا وكمال، كما نفعل مراراً بعد الظهر وفجأة، عندما كنا نحتسي القهوة، سمعنا جلبة وصخباً في الخارج وعندما خرجنا إلى الشرفة رأينا شاحنة محملة بالطحين وصلت لتفرغ محمولها في

الفرن الذي كان مغلقاً منذ أسابيع بسبب عدم توافر الطحين. أفواج من الفتيان الصغار كانوا يتسلّقون الشاحنة وحملها ويهيصون إذ كانوا يساعدون عمّال الفرن الذين كانوا يغطّون رؤوسهم بأكياس الحنطة الفارغة لحمايتها من غبار الطحين أثناء نقلهم للأكياس الثقيلة. فرح الأولاد أدخل البهجة إلى قلوبنا، وضحكنا لرؤيتهم يقفزون هنا وهناك ويُعيقون العمّال في الواقع أكثر ممّا يساعدونهم. والظاهر أن العمال لم يكونوا منزعجين بل على عكس ذلك بدوا مرتاحين للاهتمام الذي يلاقونه من أهل الحي. كثيرون غيرنا كانوا يتفرجون على العملية من شرفاتهم والكل كانوا يتلهّون.

في الصباح ذهبت إلى الجامعة للقاء ليلى سكرتيرة الدائرة. كان من المفروض أن أساعدها على ترتيب الفوضى الناتجة عن القصف الأخير في مكتبها، ولكن عندما وصلت وجدت أنها أنجزت الجزء الأكبر من العمل. وكان أحد عمال الجامعة يكنس الزجاج المكسور، ويزيل شظايا الزجاج المثلّم عن إطارات النوافذ الملتوية. صفحات ورق خضراء للكمبيوتر تحتوي على لوائح الصفوف، وكتيّبات امتحانات ممزّقة ورسائل تلفونية قديمة وبرامج مواد ودفاتر تمارين صَف اللغة الإنكليزية - عرّبناها كلها لنختار ما يمكن استخدامه والباقي رميناه في برميل النفايات، بين قطع الزجاج المكسور والحطام. وعندما انتهينا كانت أيدينا سوداء من السخام، دبقة. وعندما التفت قبل خروجي وجدت السكرتيرة تُعدّ لنفسها مكاناً موقّتاً في مكتب آخر، وترتّب العلب المحتوية على أوراق المكتب والقرطاسية والأقلام في أدراج مكتبها الجديد، وعلّقت

صورة للقط غارفيلد (وهو يتذمّر من ضرورة اتباع نظام أكل لإنقاص وزنه) كانت قد وجدتها بين حطام مكتبها القديم، وعلّقت أيضاً رزنامة الجامعة التي صمّمها وأنجزها تلامذة صف الفنون الجميلة. سوف تجعل زاويتها الجديدة مبهجة فعّالة كما كان مكتبها القديم وتصبح جاهزة للعمل فوراً.

بعد أن تركتها، تمشّيت إلى الممر قرب مكتب العميد حيث التقيت بعض الزملاء الذين لم أرهم منذ بدء الحرب. فتبادلنا التحيات والقبل وهنأنا بعضنا بعضاً بالسلامة ثم جلسنا لتبادل القصص المختلفة. أخبرنا الياس بأسلوب مضحك كيف ابتكر نظاماً بدائياً من البكرات في شقته في الطبقة السابعة لكي يتمكن من رفع الأوعية المملوءة ماءً التي يجمعها من آبار الجيران.

الجميع يتذمرون باستمرار من انقطاع الماء والكهرباء والكثيرون من أصدقائي يلحّون عليّ: «اذكري كل هذا في كتابك،» ويسألون أنفسهم إذا كان العالم يدري كم هي صعبة هذه المعضلة. ثم يتنهّدون ويقولون: «العالم لا يهتم إذا متنا، فكم بالحري إذا كنا مقطوعين من الماء.»

٣ أيار، ١٩٨٩: استُدعيت إلى اجتماع في الجامعة لبحث إمكانية استئناف الصفوف في الأسبوع القادم وعيّنّا موعداً مبدئياً، عالمين بأننا ربما لن نستطيع حفظه. كان الاجتماع باهتاً. ليس لدينا فكرة عما إذا كان وقف إطلاق النار سيصمد، وعن عدد المعلّمين الذين غادروا البلاد، أو حتى التلامذة والموظفين. ستكون هذه

المرة الأولى التي لا ننهي فيها السنة الدراسية؛ مع أن كل سنة شهدت تعطيلاً للدراسة، إلا أننا كنا دائماً نتمكّن من إنهاء السنة.

٤ أيار، ١٩٨٩: هل ذلك ممكن؟ سمعنا الساعة الثانية والربع أن ممثّل الجامعة العربية قد تحادث مع كل الجهات، وأنه لم يبق هناك عراقيل في سبيل وقف ثابت ودائم لإطلاق النار.

خرجنا لزيارة ابنة حمىي ندى التي لم تكن قد خرجت من منزلها. الازدحام في السير عبّر بوضوح عن الآمال التي شعر بها الناس. عندما وصلنا إلى هناك، علمنا أنها وزوجها لم يسمعا الأخبار. لم تكن مستعدة للتصديق تماماً ولا لإزالة المتراس الذي كوّمته من الفُرش على مدخل شقتها، والذي كانت تنام وراءه طوال هذه الأسابيع.

٥ أيار، ١٩٨٩: ربما كانت على حق. لقد دوّى المدفع صباحاً وظهراً ومساءً. كان فرحنا قصير العمر فِعلاً.

٧ أيار، ١٩٨٩: أمس كان عيد الفطر. اتصلنا بجميع أصدقائنا من المسلمين لنهنئهم بالعيد، واعدين بأن نزورهم في اليومين القادمين، تاركين لهم اليوم الأول للتمتع بالعيد مع عائلاتهم.

خرج سمير ليتمشّى بعد الظهر وعاد إلى المنزل حوالى السادسة مساءً. كنا نستعد للتفرّج على تسجيل فيديو عندما دوّت فجأة سلسلة من الانفجارات. قفزنا على عجل وغادرنا الشقة ركضاً

إلى الملجأ إذ بدأت القذائف تنهال بالعشرات. حاولت أن أختلس دقيقة، لكي أقفل المصاريع على الأقل، ولكن سمير كان يصيح بي فوق الضوضاء لكي أترك كل شيء. ولمحت غمامة من الدخان آتية من جهة مباني نوم الطلبة الداخليين في الجامعة الأميركية عبر الشارع.

في الملجأ التقينا آل جابر. مع أن زوجته عادة امرأة رابطة الجأش تماماً، فقد كانت قابعة متكوّمة على ذاتها، ترتجف وتجهش في البكاء وهي في ثياب العيد. فقد كانوا يقومون بزياراتهم للعائلة لمناسبة العيد عندما فاجأهم القصف وهم في الشارع. وعندما تمالكت نفسها أخيراً واستطاعت أن تتكلم، أخذت تردّد: «لا أدري كيف نجونا، وكيف وصلنا سالمين.»

بقينا في الملجأ ست ساعات. لم يتح لأحد منا حتى بأن يفكر في جلب مصباح كهربائي أو وسائد. جلسنا على الأرض العارية في الظلام بعض الوقت، ولكن في النهاية تمكن حسن، ناطور البناية، من جلب بعض الكراسي والشموع.

٩ أيار، ١٩٨٩: ليومين لم أعرف النوم فالقصف كان تقريباً متواصلاً. ويفترض أن أشعر بأنني غير متماسكة ولا أستوعب الأشياء بسرعة، ولكن على العكس أشعر بأنني أقدر أن أرى بوضوح اليوم.

هذا هو المستقبل. حروب صغيرة، يشتبك فيها القادة المحلّيون بمعارك محلّية، تدعمهم قوى أكبر وهؤلاء بدورهم

مدعومون من الدول العظمى. الأفراد لا يعودون موجودين ـ نحن لا شيء: حياتنا، بيوتنا، مشاكلنا الخاصة مطامحنا، كلها لا شيء. هناك مخطط كبير، ربما هناك عدد ضئيل من الناس في العالم يفهمونه، ويديرونه. ثم هناك أيضاً الأسلحة.

منذ بضعة أيام ظهرت في صحيفة «الديار» صفحة كاملة من الصور ـ والأسعار ـ للأسلحة المستخدمة في هذه الجولة. خلال الحرب، أدخلت علينا كل جولة جديدة أسلحة جديدة وأشكالاً جديدة من أدوات القتل. أمثولتنا تطوّرت من الكلاشنكوف في أوائل السبعينات إلى البندقية الأتوماتيكية ومدافع الهاون الأكبر حجماً والمدفعية، بالأخص مدفع ١٥٥ملم العام ١٩٧٦. تعرّفنا كذلك إلى «الفراد.» وفي العام ١٩٧٨ سمعنا بأُرغن ستالين، راجمة الصواريخ التي تستطيع أن تطلق حتى أربعين قذيفة دفعة واحدة. (نعم نحن أيضاً ضحكنا من هذه التسمية ومن إيحاءاتها). بعد ذلك اكتشفنا قذائف (الأر. بي. جي.). في العام ١٩٨٢، أثناء الغزو الإسرائيلي، عرّفونا بالقنابل الفوسفورية، والقنابل العنقودية، بالإضافة إلى الألغام المموّهة وألعاب تنفجر فتقطع الأولاد إِرْباً إِرْباً إذا التقطوها. وفي العام ١٩٨٤ تعرّفنا إلى مدافع ١٦ إنشاً للبارجة نيو جرسي.

نجم هذه السنة كان مدفع الهاون ٢٤٠ملم الذي تستطيع القذيفة منه اختراق طبقتين من الإسمنت المسلح. هذا المدفع، كما أخبرونا، من إنتاج الحرب العالمية الثانية، ولكن السنين التي مرت عليه لم تُنقص من فعاليته على ما يبدو. كما أننا عرفنا كم هي

خطرة قذائف المدافع المضادة للطائرات على الأخص عندما تُطلق أفقياً وتنفجر وتتناثر شظاياها وتقتل كل من يكون ماراً تحتها. نحن جرذان المختبرات الذين تجرب بهم الأسلحة الجديدة وكذلك الأسلحة القديمة التي تُستهلك على حسابنا لئلا يضيع ثمنها على صانعيها.

تكاليف هذه الأسلحة مذهلة بحسب ما قالته صحيفة «الديار»: ثمن كل قذيفة ٢٤٠ملم يبلغ ٩٥٠٠ دولار، قذيفة ١٦٠ملم ١٥٠٠ دولار، وقنبلة مدفع ١٥٥ملم ١٣٠٠ دولار، الـ١٣٩ملم ٧٠٠ دولار والـ١٢٢ملم ٣٠٠ دولار. وهكذا إلى رصاصة الكلاشينكوف التي تكلّف ٣٠ سنتاً، وقدّر عدد القذائف التي تساقطت على المدينة منذ بضعة أيام بأكثر من ١٠ آلاف قذيفة. فإذا حسبنا معدّل القذيفة الواحدة ١٥٠٠ دولار فذلك يعني ١٥ مليون دولار في ليلة واحدة. ويستمر هذا منذ أربعة عشر عاماً: ربما ليس بهذه الكثافة، ولكن على مدى أربع عشرة سنة. وحربنا هي واحدة من عشرات الحروب تسمى «صغيرة» تحتدم في هذا العالم. وفي الواقع ليس في هذه الحروب أي شيء صغيراً ما عدا الضحايا.

في مقابل هذه الحقيقة البسيطة، ماذا تعني الكلمات والتعابير القديمة: حرّية، إنسانية، اللياقة، التحرير، الديموقراطية، الحقيقة، المدنية، الثقافة: لا شيء. مثلنا تماماً. لا شيء. طبعاً، يجب أن تظل المصانع شغّالة.

الساعة الآن ٧,٤٥ صباحاً. صعدت من الملجأ في الخامسة، وشربت قهوتي واستحممت. بما أن الهدوء ما زال مخيّماً، سأخرج

لأتمشّى قليلاً. لا يدري الإنسان متى يعاود القصف، ولكن عليّ أن أحاول - كنت سأقول «أن أستعيد كرامتي وإنسانيتي وإرادتي الحرة» - ولكن هذه الكلمات ترنّ فارغةً بلهاء. مرة أخرى أتقنتُ هندامي: اخترت ملابس ممتازة النوعية وحذاءً جلدياً أسود بدلاً من حذاء الركض أو الرياضة الذي أستعمله في الملجأ. هذه الملابس هي شارة خجلي وعاري. أنا أكرهها وسوف أرميها في سلة المهملات يوماً ما أو ربما أحرقها. غسلت شعري كما أنني استعملت قليلاً من مساحيق التجميل على وجهي. أبدو أمام ذاتي مثل فنانة مسرح عتيقة لكوني فقدت العادة بأن أرى لوناً على شفتيّ. وأنا أعرف بأن منظري شنيع مثل شعوري، ولكن عليّ أن أحاول.

سوف أبتاع بعض السكاير في طريقي، على الرغم من زوجي وأقوال الأطباء وجمعية مكافحة السرطان. كذلك بطاريات للقناديل الكهربائية وشموعاً. أجدني دائماً محتاجة إلى هذه الأشياء. كذلك أسبرين، الكثير من الأسبرين.

١١ أيار، ١٩٨٩: ذات ليلة في الأسبوع الماضي شاهدت صرصوراً في الملجأ كان ضخماً، من النوع الذي يطير، والذي يتكاثر على الأخص في أشهر الصيف الحارّة. كثيراً ما يحدث في الصيف أن يدخل أحد هذه المخلوقات طائراً من النافذة وتدب الفوضى والهلع في المنزل من الاشمئزاز. وكل ما تقع عليه اليد من وسائد أو مكانس أو أحذية تستعمل ضد الدخيل الكريه. والكل

مشمئزّون عندما نلحق به ونسحقه أخيراً وترفع بقاياه ويرمى. في تلك الليلة في الملجأ لم أشعر بذلك الاشمئزاز. راقبت الصرصور يدبّ في الزاوية بالقرب من مكان جلوسي ولم أشأ أن أؤذيه، شاعرة أنه مخلوق يسعى إلى طلب الأمان مثلنا، يختبئ في الأمكنة المظلمة ويقضي حياته في الذلّ. ويبدو أن الجميع هنا شعروا ما أشعر به، لأنه لم يكن هناك أي تهافت على قتله مثلما كان يحدث عادة عند رؤية أي من هذه المخلوقات. وعندما سحقه أحدهم أخيراً بحذائه لم يُحدث صوت سحقه أية ردة فعل ودُفعت بقاياه جانباً إلى الجزء الخارجي من الكاراج ليصار إلى كنسه لاحقاً مع أعقاب السكاير وغير ذلك من النفايات.

مضى الآن أسبوعان على النداء الذي وجّهه وزراء الخارجية العرب في تونس لأجل وقف إطلاق النار وأعلنوا أنهم سيرسلون قوة عربية من مراقبي الهدنة. تبادل القذائف صار أسوأ من أي وقت مضى، واضطررنا إلى البقاء في الملجأ أياماً بطولها. وارتفع عدد الضحايا وأخذت أسماء القتلى والجرحى تُذاع في الراديو.

في هذه الأثناء تعبر الدول الكبرى عن اهتمامها، وقدّم لنا البابا صلواته.

١٥ أيار، ١٩٨٩: كان الهدوء مخيماً، وتوجّهت إلى الجامعة هذا الصباح حيث التقيت العديد من الناس، بمن فيهم بعض ممن جاؤوا من المنطقة الشرقية. كل واحد عنده قصص صغيرة غريبة يرويها، معظمها تتعلّق بنجاتهم بمشقّة. دعد أخبرتنا قصة أثّرت فيها

إلى درجة جعلت عينيها تترقرقان بالدموع وهي ترويها لنا. جار شاب يقطن في الشقة مقابلهم وله عدة بنات كان ينام وبناته على منبسط الدرج قرب شقّتها أثناء القصف. وبعد أن يرتّب كل واحدة من بناته على فرشة ووسائد يجلس طوال الليل يدخّن ويشرب القهوة ليظلّ صاحياً، لئلا تستيقظ واحدة من الفتيات وهي مرتعبة من انفجار القنابل بالقرب منهم. فقط عند الفجر عندما تستيقظ زوجته وتتسلّم الحراسة يسمح لنفسه بالنوم.

أخبرنا شخص آخر عن عمّين له، أخوين لوالده، يعيش معهما هذه الأيام، وكيف يتخاصمان طوال الوقت بسبب أية محطة أخبار يريد كل منهما سماعها. كل منهما لا يطيق آراء الآخر السياسية، وكل منهما يصر وقت الأخبار على الاستماع إلى محطة إذاعة الجهة التي يؤازرها. ضحكنا كثيراً لهذا المشهد.

الجميع يتوقعون مزيداً من القصف، وهكذا، بعد أن انتقلت عدوى هذا الخوف إلى الجميع تفرّقنا كل إلى منزله.

في طريق عودتي سمعت أصوات شجار بين شاب وزوجته تقول له هي: «ولكن كيف تعرف ما الذي سيحدث لنا؟» ويجيبها هو بجفاف: «هل تعرفين أنت ماذا سيحدث لنا؟ هذا بيتنا، وسنبقى فيه مهما حدث.» «ولكن الأولاد» ـ «الأولاد مثلهم مثل غيرهم... سوف لن نتحرك من هنا.» ـ «بإمكاننا الذهاب والسكن مع أهلي في الضيعة،» قالت له بتوسّل. أجابها: «لن نذهب من هنا، وهذا قرار نهائي.» إنها تبكي بدموع الآن، ولكنه متشبث بقراره.

أمس اتصلت بنا أختي تلفونياً من لندن. عند سماع صوتها

وتذكّري هدوء هناك وصفاء حياتها غمر قلبي شعور مريع بالوحشة والوحدة وأكاد أقول الهلع.

١٦ أيار، ١٩٨٩: عندما سمعنا الانفجار ظنّنا في البدء أنهم قد عاودوا القصف. ولكن سمعنا سيارات الإسعاف بعد ذلك وإطلاق النار وعرفنا أنها قنبلة: كنت مدعوّة إلى الغداء عند دعد وكانت تُعدّ الوجبة ساعة الانفجار. فتحنا الراديو حالاً وسرعان ما سمعنا ملحقاً للأخبار: الانفجار حدث في منطقة عائشة بكار، هذا كل ما كان معروفاً في تلك الفترة. بعد دقائق قليلة أذاعوا أن مفتي الجمهورية كان ماراً في ذلك الوقت. الملحق الثالث أعلمنا أن المفتي قد نقل إلى المستشفى، وأن الانفجار كان هائلاً سبّبه سيارة مفخّخة، وأنها كانت مركونة قرب بناية يقطن فيها أصدقاء لنا، آل كنيعو، وأن البناء قد تهدّم، فصُعقنا خوفاً على أصدقائنا. وبعد دقائق أذيع أن المفتي توفّي وأن هناك العديد من القتلى والجرحى.

جلسنا جامدتَين، وعواطفنا مسعورة: الأسى لوفاة المفتي، والرعب من انعكاس ذلك على الأوضاع، وقلق عميق حيال أصدقائنا، وعلى كل الذين شاءت الظروف أن يكونوا هناك، وبالطبع سخطنا الدائم على هذا الخط الكريه من التقتيل الجماعي. تأخّر زوج دعد في الوصول إلى الغداء، وبدأت تشعر بأنه لا بدّ كان في المنطقة التي حدث فيها الانفجار. لم يكن هناك تلفون ولا إمكانية لمعرفة ما إذا كان سالماً. حاولت أن أخفف من قلقها، مع أنني كنت أشاطرها شعورها. وتتالت الملاحق في الراديو، ولم

يُعرف عدد الضحايا النهائي إلا في المساء. اثنان وعشرون قُتلوا، وأكثر من مئة وخمسين جُرحوا ولا خبر عن آل كنيعو.

أخيراً وصل زوج دعد، مرتعداً مثلما كنا مرتعدتين، ولكنه حاول إخفاء ذلك لتهدئة روعنا. لم يكن بعيداً عن منطقة الانفجار ساعة حدوثه واضطر إلى اتباع دورة بعيدة ليصل إلى المنزل - لأن المنطقة بكاملها كانت مطوّقة ومعزولة من قبل الشرطة والدفاع المدني.

عدت إلى المنزل وجلست قرب الهاتف. الجميع كانوا حزانى بسبب الاغتيال والكل كانوا قلقين بشأن آل كنيعو وما حدث لهم ولكن ما من طريقة لمعرفة ذلك. بعض الأصدقاء حاولوا التوجّه إلى منزلهم لمعرفة مصيرهم ولكنهم مُنعوا من الوصول. لا جدوى من الاتصال بالمستشفى، لأن الفوضى لا شك طغت على كل شيء. لم يبقَ أمامنا سوى الانتظار.

١٩ أيار، ١٩٨٩: الصلاة على الموتى في الطقوس الإسلامية مؤثرة بعمق في وقارها وبساطتها. جلسنا كلنا بصمت، النساء كلهنَّ معاً، والرجال في قاعة أخرى في بناء المسجد، منتظرين وصول الجثّة للصلاة والدفن. قُتلت عندما انهارت البناية، ولكن سائر أفراد العائلة نجوا بأعجوبة، بالرغم من كونهم أصيبوا كلهم بجروح. توجّهنا لزيارة ليلى في المستشفى. من جملة ما أصابها، صمم في أذنيها نأمل أن يكون عابراً. كانت تلك القنبلة تزن ١٥٠ كيلوغراماً من المتفجرات.

كل ربع ساعة تقريباً كان صوت الشيخ يرتفع بتلاوة آيات من القرآن الكريم لهذه المناسبة. وبعد كل تلاوة كان يدعو المؤمنين إلى تلاوة الفاتحة وبعد ذلك، كان المسلمون يصلّون برؤوس منحنية وراحات مرفوعة نحو السماء. الجميع كانوا يبكون، وألم الخسارة يثقل علينا، بعد أشهر من المعاناة. هذا الظلم، هذا القدر الجائر! كنت أفكر باستمرار بصديقتي سهى التي قُتلت منذ ثلاث سنوات، وأستعيد ذكرى وفاتها. وفكّرت في نفسي وأنا أستمع إلى تلاوة القرآن الكريم أنه ليس من المستغرب أن يؤمن الإنسان بجنة ونار، وبالثواب والعقاب الصارم الذي يستطيع احتواء مشاعر كالتي تجيش فينا الآن، كذلك الأمل بأنّ الكائن الأعظم عزّ جلاله يعرف من هم المسؤولون عن هذه الجريمة وكل الجرائم الأخرى.

يقع المسجد في إحدى المناطق الأكثر خراباً في بيروت، محلة عائشة بكّار، التي تهدّمت أكثر بفعل السيارة المفخّخة. شاهدنا البناء الذي تهدم بفعل الانفجار، كذلك علامات القصف الذي جرى في الأسابيع القليلة الماضية. وعندما غادرنا دلّنا أحدهم على أطلال المنزل الذي تهدّم خلال القصف وقُتل أفراد عائلة بكاملها ودُفنوا تحت أنقاضه.

أُعلن حداد رسمي مدة سبعة أيام تكريماً للمفتي وثلاثة أيام من الإضراب العام. وساعة الصلاة على المفتي قرعت أجراس كنائس المدينة مشاركة في الحزن عليه، وكانت لفتة عميقة المغزى أثّرت فيّ إلى درجة كبيرة. كذلك، وبالروحية ذاتها، فتح بطريرك الموارنة أبواب الصرح البطريركي في بكركي لتقبّل التعازي بوفاة المفتي

للذين لم يكونوا قادرين على القدوم إلى دار الفتوى في بيروت الغربية، مثله هو. وعندما شاهدنا على التلفزيون صور البطريرك وهو يتقبّل التعازي وسمات الحزن الحقيقي على وجهه بكيت تأثراً، لأن هذه هي الروح الحقيقية للمكان، وليس العنف المشوّه بين المذاهب الذي ما زال يحصل منذ سنوات.

صباح اليوم وقعت عيناي على مشهد رفع معنوياتي: إذ كنت مارة أمام الكنيسة الألمانية المجاورة رأيت أزهار شجرة الجاكراندا الزرقاء تتمازج مع زهور شجرة الدفلى الوردية القريبة منها، وبجانبها أزهار الخيزة الحمراء القانية وأزهار البوغنفيليا الأرجوانية ـ كل هذه الأزهار مطوّقة بألوان متنوعة من الأوراق الخضراء. وقفت لحظة أتأمل هذه الروائع مأخوذة، ونسيت الشارع الممتلئ بالنفايات البشعة. ثم تطلّعت إلى أبعد ورأيت الهندسة الجميلة لبعض الأبنية القديمة هنا. كنت منشغلة بالنظر إلى الأقذار على الطرقات المخرّبة ولذلك لم أفِ الجمال المتبقّي حقّه من التقدير.

٢٠ أيار، ١٩٨٩: نحن على أحرّ من الجمر بانتظار ما سيسفر عن اجتماع القمة الذي سيُعقد في الدار البيضاء بعد ثلاثة أيام.

منذ بضعة أيام كان الأخضر الإبراهيمي، ممثل جامعة الدول العربية يتنقّل مكوكياً بين الجهات في العاصمة للمفاوضة على وقف نهائي لإطلاق النار. صديقتي ليلى سمعت المحادثة التالية بين أم وولدها الصغير، الذي كان يرفض الخروج من المنزل: «سوف يبدأون بالقصف،» قال لها وهو يبكي: «لا تقلق، عمّو الإبراهيمي

هو الآن في بيروت، ولن يكون هناك قصف طالما هو موجود.»

٢٧ أيار ١٩٨٩: انتهى مؤتمر القمة العربية أمس. ندى وكمال كانا عندنا أثناء استماعنا للبلاغ الأخير الذي أُذيع. فوقفنا لوداعهم قائلين: «لقد خذلونا. لا فائدة لنا من كل هذه الاجتماعات. كلمات، مجرد كلمات.» علينا أن ننتظر لنرى ما يحدث.

ودوّى «أبو عبدو» تلك الليلة.

٣٠ أيار، ١٩٨٩: نحن بانتظار المؤتمر الصحفي الذي سيعقده بعد ظهر اليوم الملك الحسن، ملك المغرب، رئيس مؤتمر القمة ورئيس اللجنة المكلفة مسألة إنهاء الحرب. وعلّق أحد معارفنا بالقول إننا نبدو على الدوام وكأننا في انتظار أمر ما.

في الجامعة هذا الصباح عقدنا اجتماعاً آخر بشأن استئناف الدراسة. بالطبع كان الاجتماع بدون قرار. كل يوم يصل ناس جدد لم نرهم منذ أسابيع. بين من رأيتهم زياد الذي كان يزرع البندورة في حديقة منزله الخلفية في الجنوب، وضحكنا كثيراً وهو يسلّينا بروايات عن عمله الجديد الذي لم يمارسه من قبل: كان يحرث ويزرع حديقته، وهذا انشغال ممتاز في هذه الأيام.

في طريق عودتي إلى المنزل صادفت عدة مجموعات مختلفة من التلامذة، وكلهم متلهّفون إلى معرفة متى ـ وإذا كان من الممكن ـ ستُستأنف الدروس. إنهم يعرفون الجواب كما أعرفه أنا. «علينا أن ننتظر لنرى ما يحدث،» أقول لهم، «ولكن عن قريب

إنشاء الله.» يسرّني كثيراً أن أرى هؤلاء الشباب الذين ترعرعوا في الحرب، لديهم هذا التوق إلى متابعة مسيرة الحياة.

أثناء مروري أمام أحد المخازن لفتني لأول نظرة ما بدا كأنه مجموعة من المجواهرات الغريبة في الواجهة. وعندما توقفت لكي أدقّق النظر رأيت أنها مجموعة من الشظايا. وبدا صاحب المخزن مسروراً بالدهشة البادية على وجهي وبنجاح النكتة التي ابتكرها، وراح يضحك مقهقهاً. وتبادلنا التحيات الودية كأننا أصدقاء قدامى، مع أنني لا أذكر أنني شاهدته من قبل.

٣١ أيار، ١٩٨٩: ما زلنا في الانتظار. المؤتمر الصحفي للملك الحسن خيب آمال الكثيرين هنا لأنه لم يقدّم شيئاً محدّداً بخصوص التعبير الجديد في قاموسنا، وهو «آلية التنفيذ» بالرغم من كونه ذكر أنهم ما زالوا يسعون إلى إيجاد الحلّ في لبنان. وقد تبرع لنا بتحذير قال فيه إنه إذا فشلت محاولة القمة فإن الطريق إلى المستقبل ستكون مظلمة تؤدي إلى ما لا يعلمه أحد. بعد هذا التحذير المرعب بدأ يتبخّر التفاؤل والارتياح الذي لاحت تباشيره في الأيام القليلة الماضية.

عليّ أن أفكر بترتيبات سفري ولكنني أعاف ذلك. جميع أصدقائي يعرفون أن عليّ أن أغادر قريباً لأدبّر أمر نشر هذا الكتاب، ولكنني أشعر بسعادة عندما أحس أنهم يُسرّون من إجابتي عندما يسألونني مباشرة وأردّ بغموض قائلة: «حوالى آخر الشهر.» أشعر أنني أخذلهم وأتركهم وحدهم ولذلك أؤجل قراري بقدر ما

أستطيع. وآمل على الأقل أن أرى الدروس استؤنفت قبل سفري وأن أساعد على التقليل من الفوضى المحتومة عندما يحين بدء الصفوف.

٥ حزيران، ١٩٨٩: استفقنا أمس على خبر وفاة الإمام آية الله الخميني. عند زوايا الشوارع في رأس بيروت كان شبان ملتحون يقومون بتعليق الأعلام الإيرانية مع أعلام سوداء تحتها، ويلصقون صوره المكبّرة على كل الجدران. وكان الناس يراقبون ويتمتمون باستياء. كذلك رُفعت شعارات ويافطات عليها صور الخميني وآيات قرآنية فوق الشوارع الخالية، من بناية إلى أخرى، وراحت أصوات مكبرات الصوت تذيع آيات قرآنية بينما كانت كل المحال مقفلة.

١٢ حزيران، ١٩٨٩: اجتماع آخر في الجامعة. كان من المفروض أن تبدأ الدروس اليوم، ولكن هذا الأمر غير وارد.

١٨ حزيران، ١٩٨٩: نحن في فترة ركود. لا شيء يحدث، ونحن غارقون في خضم من المفاوضات التي تجري بسرية في معظمها والكل يحاولون فك رموزها. سمير يطالع سبع صحف كل يوم، وأنا لا أقرأ أية صحيفة، بل أكتفي بالنظر إلى العناوين وأقول له إنه لا يعرف أكثر مما أعرف.

لقد أخذوا بجمع النفايات، والشوارع أكثر نظافة نوعاً ما،

كذلك الإمدادات بالتيار الكهربائي والماء تحسنت قليلاً. لم نذهب إلى الملجأ إلا نادراً مع أنه جرى بعض التبادل للقذائف منذ بضع ليالٍ وأصيبت كومة من المتفجرات إصابة مباشرة في مكان قريب منّا. بقيت الانفجارات تتوالى على مدى ساعات واحمرت السماء من وهج النار.

نقوم هذه الأيام بزيارات لأصدقاء لنا لم نرهم منذ فترة، بالأخص هؤلاء الذين تعرضوا لخسائر إمّا مادية أو لأفراد من عائلاتهم، وأعتقد أن شجاعتهم ورباطة جأشهم إذ يحاولون الاستمرار في حياتهم أمر مثير للإعجاب، كذلك جهدهم الملحوظ على إخفاء ألمهم. ربما يعرفون أننا جميعاً نشاركهم في الأسى، وأن الألم الجماعي يشمل أيضاً المآسي الفردية.

١٩ حزيران، ١٩٨٩: اجتماع متقطع آخر بشأن الصفوف. ويبدو من الواضح أكثر وأكثر أن إمكانية إعطاء دروس هذا الصيف غير ممكنة، وعندما أثرت موضوع ما سوف نفعله إذا لم يكن بإمكاننا معاودة الدروس في أيلول/ سبتمبر لم يشأ أحد أن يفكر بهذا الأمر. السنة الدراسية المقبلة ستكون كابوساً. ليس هناك من حديث بعد عن مسألة قبول الطلاب وتسجيلهم، وقضايا التعويضات والمرتبات وغيرها تخيّم بثقلها فوق كل شيء.

شعرت بحالة أفضل بعد ذلك عندما التقيت بعض تلامذة فرع المسرح. علينا أن نفكّر في مواضيع المسرحيات التي سوف تشغلهم في السنة القادمة. وسوف نجتمع في الغد لبحث الإمكانيات.

الكل يعرفون الآن أنني سأسافر في الأسبوع القادم. وبإمكاني أن أستشفّ القلق عندما يسألونني عن سبب ذهابي وعن موعد عودتي. هناك الخوف الدائم من أن يهاجر الشخص الآخر. ومع أنني أتطلّع بشوق إلى التغير وأحلم بالشوارع النظيفة والكهرباء التي لا تنقطع، وفوق كل شيء برؤية أولادي، أشعر أيضاً بأنني أتمنّى أن أظلّ هنا، لكي أشهد نهاية كل هذه الأمور مع الباقين.

٢٣ حزيران، ١٩٨٩: باستثناء «أبو عبده،» كانت الأوضاع هادئة، بالإضافة طبعاً جرت عدة غارات إسرائيلية وصوت الانفجارات جراء اختراق جدار الصوت. ومع ذلك تمكّنت من إتمام بعض المشتريات والزيارات استعداداً لسفري القادم.

زارني بعض الطلاب منذ بضعة أيام. وكانت الشمس قد لوّحتهم لأنهم كانوا يذهبون إلى الشواطئ للاستحمام بالبحر منذ بدأ وقف إطلاق النار النصفي. وبكثير من المزاح والمرح رَوَوا لي كيف أنهم، منذ بضعة أيام، كانت جموع كثيرة من الناس على الشاطئ تستمتع بالسباحة عندما دوّى «أبو عبده.» في هذا الوقت كان الجميع قد اعتادوا دويّه باستثناء صبيّة قفزت ولملمت أغراضها وهربت إلى الملجأ تحت نظر هؤلاء الشبان الساخرين. ثم التفتت إلى الوراء ورأت بدهشة ظاهرة أن الجميع ظلوا في أماكنهم، إما متمدّدين على الكراسي في الشمس أو لاهين في الماء. ووقفت تنظر إليهم كأنها مسمّرة في مكانها بضع دقائق، وكأن هذه اللامبالاة الجماعية أثرت فيها فعادت ببطء إلى مكانها ووضعت زيت الحماية

من وهج الشمس على جسدها واستلقت في الشمس. وأبدى الطلاب هذه الملاحظة: «لن يتمكّنوا من إيقافنا هنا. حالما تتحسّن الأوضاع ولو قليلاً نستمر نحن في حياتنا كالسابق.»

هؤلاء الشبان ينجحون دائماً في إنعاش معنوياتي فبالرغم من كونهم ترعرعوا في الحرب، فإنهم مجموعة خليط، والمسلمون والمسيحيون من كل المذاهب يستمتعون برفقة واحدهم للآخر دون أي وخز ضمير أو تفكير في المواضيع الطائفية. إنهم في الواقع، عندما يذكرون هذه الأمور، يفعلون ذلك مع التنكيت. وأنا أشعر، عندما أكتب هذا عنهم، بأنني أخونهم في رفضهم الدائم أن ينجرّوا إلى أية من هذه الانقسامات.

٢٥ حزيران، ١٩٨٩: منذ ليلتين كانت هناك عودة مخيفة إلى كابوس القصف الشرس. عشرات القذائف أزّت من فوقنا لتنفجر على بعد بضع مئات من الأمتار عنا. لم ننزل إلى الملجأ.

لدينا مشكلة كبيرة جديدة؛ الملجأ يعجّ بالبراغيث. إننا نفتش عن شركة أو شخص يتولّى رش المكان، ولكننا لم نوفّق بأحد حتى الآن لأن جميع الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد أغلقوا محلاتهم. أعطانا أحد الأصدقاء رقماً جديداً اليوم، وسوف نجرّبه لاحقاً.

عاد القصف مرة أخرى في الليلة الفائتة، ولكننا صمدنا في البيت ولم ننزل إلى الملجأ. سمير رجع تواً من مقابلة سائق سيارة التاكسي التي ستقلّنا إلى دمشق يوم الثلاثاء القادم. قال إنه يجب أن نغادر بيروت في الثانية صباحاً.

٢٨ حزيران، ١٩٨٩ : سوف أغادر الليلة. وكما كنت أفعل كل مرة قبل السفر، تجوّلت في البيت، مسجّلة كل شيء في ذاكرتي، أنا أعرف أنني حالما أغادر سوف أشعر بالتعب المضني للأشهر الأخيرة الماضية يطغى عليّ ولسوف أنام وأنام. ولكنني أعرف أيضاً أن صور الحرب والناس الذين تركتهم سوف تسيطر على أحلامي خلال الأسابيع إلى حين رجوعي.

شباط ١٩٩٠ : بعد المقطع الأخير الذي دونته في مفكرتي أعلاه ببضعة أسابيع، أصيب منزلنا إصابة مباشرة أخرى. سمعنا بالخبر عندما كنا في الخارج ولكننا لم نكن متأكدين من مدى الأضرار لأن الخبر وصلنا مداورة من مصدر ثانٍ وثالث. ولدى رجوعنا كان قد أُعلن وقف لإطلاق النار وباشرنا فوراً بترميم الأضرار. المطبخ دُمّر كليّاً، وبعض الجدران داخل الشقة كانت منقّرة من فعل الشظايا، واستغرق الترميم عدة أشهر كان العمال في أثنائها داخلين خارجين باستمرار.

في البدء، ظننّا مرة أخرى أن الحرب قد انتهت. في أكتوبر عادت المدارس والجامعات إلى فتح أبوابها، واعدة بأن نعوّض الوقت الذي ضاع في الربيع الفائت والصيف. أعضاء مجلس النواب اجتمعوا وبحثوا في القضايا واتفقوا في نهاية الأمر على الإصلاحات الضرورية وطريقة انسحاب القوات السورية من لبنان. انتخب رئيس جديد للجمهورية وأعدت خطط جديدة لإصلاح مصادر الطاقة الكهربائية والمائية. ولكن لا. آمالنا، التي كانت

اختباراتنا علّمتنا ألا نتركها تتحول إلى شعور بالغبطة والانشراح، تقوّضت مرة أخرى. الرئيس الجديد للجمهورية اغتيل هو أيضاً بواسطة تفجير سيارة مفخخة، ومع أنه جرى انتخاب رئيس جديد فوراً، إلا أن الوضع ظل على حاله، لا حرب ولا سلام. كنا ممتنين لأننا كنا نحصل على كهرباء بضع ساعات كل يوم ونتموّن قدر حاجتنا من الماء عندما يتوافر. كثيرون قرروا المهاجرة والذين كانوا ينوون العودة ألغوا حجوزاتهم. ثم بدأت الحرب مجدداً، في الجنوب أوّلاً، ثم في القطاع الشرقي. الآن وأنا أدوّن هذا فإن بيروت الشرقية تحترق، في هذه الأثناء، ويستمر الاحتلال الإسرائيلي للجنوب، وتستمر كذلك الغارات الإسرائيلية التي لا تنتهي.

السؤال هو، من المسؤول في النهاية عن هذه السنوات الخمس عشرة من الحرب والتعاسة؟ هل ستجري محاكمات يوماً ما ويُستدعى أشخاص إلى الحساب؟ إلى أي درجة يقع اللوم على الناس، علينا جميعاً؟ قادة الأحزاب، الواحد بعد الآخر، مدعومين من القوى العُظمى ذات المصالح هنا، اتُّهموا بأنهم كانوا الأداة الطيّعة التي ألحقت بمؤيديهم وبخصومهم أبشع أنواع العذاب لتحقيق مطامحهم السياسية والشخصية. ولكن ألم يكن لكل من هؤلاء القادة أتباعه ومريدوه الذين كانوا ينفّذون أوامره، أو يرضون بوجودهم على الأقل، وينساقون بسهولة تحت تأثير الشعارات السهلة والدوافع العسكرية؟ ثم ألم يكن الكثيرون من هؤلاء التابعين قد أحسّوا بخطأهم ـ ولو متأخرين ـ وأنكروا حماستهم؟ كذلك ألم

يكن هناك بعض الحقائق وبعض المثاليات والقضايا المحقّة التي يجدر النضال لأجلها ولكنها خونت بفعل وحشية الحرب ولا إنسانيتها؟

لا ريب أن كل هذا صحيح، إلا أن الأكثرية الساحقة مهما كانت ميولها، لم يكن لها أي تورط مباشرة في القتال؛ وتنظر إلى نفسها وإلى البلاد كضحايا قوى محلية إقليمية ودولية لا سلطة لها عليها. إنها تحمل العالم مسؤولية ما حدث، على الأخص القوى العظمى، الإقليمية والعالمية، ليس فقط في فترات الحرب، بل أيضاً لسماحها وتشجيعها على تدفق السيل الذي لا حد له من الأسلحة والمواد التي جعلت الاستمرار بالحرب ممكناً.

حتى الآن كان القصاص جزافاً ومسبقاً، والذي دفع الثمن هو الشعب من كل الفئات. لم يكن هناك أية عدالة من هذا حتى ولو تبيّن أن المسؤولية جماعية.

منذ عدة سنوات، في إحدى المحاولات لإعادة فرض النظام والقانون، كانت هناك حاجة لإعطاء مثل يجعل الخوف يدب في قلوب المجرمين العاديين الذين تزايدت نشاطاتهم نظراً للظروف الفوضوية التي خلقتها الحرب. فأخذوا رجلاً وحاكموه وحكموا عليه بالإعدام بسبب ارتكابه جريمة قتل. فحملوه وهو يصرخ ويبكي ويرفس برجليه إلى حيث نصبت المشنقة في حديقة الصنائع العامة. فالظاهر أن القانون يقضي بأن تتم عملية الاقتصاص علناً لكي يراها الجميع ويعتبروا. ولم يكن هناك شك في أنه مذنب. فقد اعترف بقتل صاحبة البيت الذي يسكنه وقتل ابنها أيضاً. ولم

يكتف بقتلهما، بل مثّل بجثتيهما، وقطعهما إرباً إرباً ليسهل عليه التخلّص منهما. كان مُختلّ العقل، بحسب ما قالت الشرطة، وارتكب جريمته ليصفّي، على طريقته، ديون المقامرة التي كان مديناً بها لضحيّته.

وولول وصرخ طول الطريق من السجن إلى المشنقة، وقاوم ورفس برجليه المقيّدتين اللتين كان يجرهما جرّاً أحياناً لعدم تمكّنه من المشي من فرط الهلع. فحُمل مقيّداً، مربّطاً، ووُضع الغطاء الأسود فوق رأسه بالقوّة. واحتاج الأمر إلى خمسة أو ستة رجال ليمسكوا به وإدخال عنقه في أنشوطة حبل المشنقة. وصرخ ولبط وكافح وظلوا ممسكين به حتى آخر خلجة حياة من جسده المحطم المسكين، إلى أن فارقته الروح عندما بدأت خيوط الفجر تلمس أوراق شجر النخيل في الحديقة.

ظهرت الصور على صفحات كل الجرائد، ومنها ما أفردت لها الجرائد صفحة كاملة، هذا المنظر للعدالة تأخذ مجراها. لم يكن هناك أية همسة احتجاج، فهو في الواقع لم يكن يستحق الاحتجاج، فقد كان من حثالة الإنسانية، مشوّهاً بالقدر الذي شوّه فيه ضحّيتيه. ففي وسط حرب شرسة مات فيها قرابة المائة ألف شخص، اختير شخص مختلّ العقل، جدير بالشفقة، للتكفير عن كل الجرائم، وجرّوه جرّاً إلى ميتة مذلّة في حديقة عامة عند الفجر، وعُدَّ ذلك عدالة.

وكانت نوعاً من العدالة في عالم خالٍ من العدالة بأن تُمثَّل العدالة على هذا الشكل.

واليوم ما زلنا نتساءل عن المستقبل، ناظرين إلى عدة بدائل أمامنا. إحداها، والتي كنا نخشاها دائماً، التقسيم، والذي لم نعتقد قط أنه سيتحقّق، إلا أنه يبرز أمامنا الآن على شكل إمكانية، وهو تجزئة البلاد إلى «كانتونات» تنفصل فيها المجتمعات تبعاً للمذاهب الدينية. الإمكانية الثانية هي استمرار الوضع الحالي سنوات قادمة، بفترات من الهدوء تدوم شهوراً تتخلّلها جولات من القتال، إلى حين إيجاد حلّ للمسألة الفلسطينية، التي تشكل الحرب في لبنان جزءاً منها. الحرب سوف تستمر، وسينتج منها خراب أكثر.

إلا أن النتيجة التي يستمر الناس في التطلع إليها وتمنّيها فهي أن يعود السلام الشامل، وتنفتح المناطق كلها في البلاد والسكان الواحدة على الأخريات، وتزول الحواجز والمتاريس إلى الأبد، وتسيطر العدالة والكرامة ونتخلص من ظلم الماضي وفساده وانحطاطه. وتُحلّ الميليشيات، ولكن الأحزاب السياسية التي تنتمي إليها هذه الميليشيات، والتي تمثل وجهات النظر المختلفة، تستمر وتزدهر في جوّ المحاورة الذي يدلّ على العافية. وسوف تُعطى حرية الفكر زخماً جديداً. وبيروت التي هذبتها تجربتها - وقد أصبحت نظيفة وأُعيد بناؤها بجمال جديد - ستغدو مرة أخرى مركزاً إقليمياً هاماً، وسوف تُعطى حيويتها لمشاريع منتجة، مما سيسهم في نمو المنطقة وتطورها وتحقيق العدل فيها.

وعلى هذا الأمل نستمر في بناء حياتنا رغم المشاكل والصعوبات والعوائق.

المحتويات

مقدّمة الطبعة العربية ٧

تمهيد ١٧

الفصل الأول: الأزمة ومعجم الألفاظ التي شاعت خلالها ٣٥

الفصل الثاني: بيروت: مسح جديد لسماتها ٧٩

الفصل الثالث: المرايا أو المتناقضات: صورة ذاتية ١٠٩

الفصل الرابع: صيف ١٩٨٢: الاجتياح الإسرائيلي ١٨٧

الفصل الخامس: أشباح: تأملات في المجازر ٢٤١

الفصل السادس: بقايا ٢٥٧

«ذكريات محبوكة ببراعة وجمال... ترويها في أول سرد مفصّل، كاتبة معاصرة عن الحياة اليومية...»

(بابلشرز ويكلي)

«تقبض جين سعيد المقدسي في «شتات بيروت» على أخاديد الكابوس وحيويّته.»

(مجلة النيويوركر)

«نظرة وجدانية نادرة وعميقة للصراع المأساوي الطويل.»

(كيركوس ريفيوز)

«صرخة وجدانية ضدّ اللامبالاة والنكران. سكّان بيروت الذين عانوا طويلاً كانوا محظوظين بأن تتقدّم جين المقدسي بشغفها وإدراكها لتروي قصّتهم.»

(نيويورك تايمز بوك ريفيو)

«تخرج جين المقدسي ببراعة واقتدار التاريخ مع التجربة الشخصية في نسيج واحد لتنجز عملاً يضجّ بالحقيقة والرؤية والحدس.»

(آراب بوك وارلد)

جين سعيد المقدسي كاتبة مقيمة في بيروت. ولدت في مدينة القدس. درّست في كلّية بيروت الجامعية (الجامعة اللبنانية الأميركية لاحقاً) لسنين عدّة. نشرت العديد من الدراسات والمقالات، وشاركت في مؤتمرات إقليمية ودولية، في مجالات النسوية والنقد الأدبي. صدر لها بالإنكليزية Beirut Fragments: A War Memoir الذي اختاره الملحق الأدبي في جريدة النيويورك تايمز كأحد أفضل الكتب الصادرة في العام ١٩٩٠، والذي تصدر دار الساقي ترجمته العربية، و Teta, Mother and Me: Three Generations of Arab Women الصادر عن دار الساقي – لندن ودار نورتن – نيويورك.

ISBN 978-1-85516-324-9

9 781855 163249 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

بيروت

تاريخها وآثارها

بقلم

الاب لويس شيخو اليسوعي

ظهر تباعاً في مجلة المشرق

وأضيفت اليهِ عدَّة إفادات وفهارس

طبع

في مطبعة الآباء اليسوعيين

بيروت

سنة ١٩٢٥

بيروت

تاريخها وآثارها

بقلم

الاب لويس شيخو اليسوعي

ظهر تباعًا في مجلة المشرق

وأُضيفت اليهِ عدَّة افادات وفهارس

طبع

في مطبعة الآباء اليسوعيّين

بيروت

سنة ١٩٢٥

بيروت

تاريخها وآثارها

توطئة

لما كانت الحرب الكونيَّة منتشبة وبيروت تحت رحمة الدولة التركية تعيَّن على كلّ ولايتها رجل ذو حزم وإقدام كخلَف لسامي بكر بك نعني بهِ عزمي بك . فضبط زمام الامر وجرى في حكمهِ بعدل وانصاف . ولولا تحكُّم جمال باشا عليهِ لعلَّهُ كان خفَّف من وطأتهِ ولطَّف نوعاً بعض الفظاظة في طباعهِ (١

وممَّا يذكر لهُ فيشكر انَّهُ قصد ان يرفع منار الولاية الموكولة الى همتهِ ولاسيا مركزها بيروت ، ليزيل عنها ما يشينها ، ويُجلي محاسنها بما يزينها ، فلا تلبث ان تباهي حواضر المدن الراقية بابنيتها الفخمة وشوارعها الفسيحة وحدائقها الغنَّاء فتُصبح كتاج على مفرق البلاد الشاميَّة وكغرَّةٍ على جبهتها . على انَّهُ لم يحقِّق من تلك الاماني الَّا القسم السَّلبيّ بما اخربهُ من الاحياء القذرة وبذلك مهَّد سبيلًا للدولة الفرنسويَّة لتقيم مكانها المباني الجليلة وتشيّد المعاهد الجميلة على طراز الهندسة العصريَّة

وقد سبق لنا في مجلة المشرق (١٩ [١٩٢١] : ٣٢٩) ذكر امرهِ بتقويض ابنية الاسواق العتيقة التي كانت تعشّش فيها الجراثيم الوبيئة ووقوف العملة على آثار بناء قديم عهدَ الينا والى الاجزائي المرحوم مراد بك البارودي ان نقدّم لهُ فيها تقريرًا رسميًّا مع وصف ما وُجد من الكتابات والخزفيَّات والنقوش فلبَّينا طلبهُ . ثمّ عرض على كاتب هذه الاسطر ان يصنّف تاريخًا مختصرًا لبيروت وآثارها القديمة وسمح لنا وقتئذٍ بمراجعة مكتبتنا الشرقيَّة التي كانت أُقفلت منذ اوَّل الحرب

فباشرنا بهذا العمل بطيب خاطر وان لم يكن بيننا وقتئذٍ احد من الاختصاصيين من اخوتنا الرهبان لنقتبس من معارفهم ونسترشدهم فنستند الى آرائهم . ثمَّ انجزنا

---

١) اشاعت بعض الجرائد خبر وفاة عزمي بك ولم يتأكد الخبر حتى اوائل السنة الحاليَّة ١٩٢٥

العمل بعد أشهر وانتظرنا ريثما يطلبهُ الوالي منّا وكانهُ نسي امرهُ لوفرة اشغالهِ ولاسيما بعد ان دعانا متصرّف جبل لبنـان اسماعيل حقّي بك بإغراء رجل شريف من اعزّ اصدقائنا سعـادة حسين كاظم بك الى تأليف دليل للبنان وضعنـاهُ مع لجنةٍ من الادباء ونُشر في المطبعة الادبيَّة فجاء اكبر وأوفى كتاب عن لبنان وسائر احوالهِ

امّا صحائفنا في تاريخ بيروت فبقيت منزويةً بين اوراقنا حتى ذكَّرنا بهـا احد الادباء وحثَّ رجلًا اثريًّا من اهل الانتداب على ان يطالبنا بها ويدعونا الى نشرها في مجلّتنا لعلّها تأتي بفائدةٍ لدارسي تاريخ الوطن . فها نحن مجيبون لطلبتهِ مستميحين عذرًا من قرّائنا الادباء لما يعثرون عليهِ في هذا العمل من النقص والخلل

مقدمة

نظر عامّ في تواريخ بيروت

من العجب العجاب انَّ حاضرة بيروت مع ما طرأ عليها على توالي الـدهور من الطوارئ الهامّة وحدث فيها من الوقائع الخطيرة لم يُكتب حتى اليوم تاريخها البهيج . وغاية ما ورد عنها بعض اسطر قليلة لا تتجاوز اذا جُمعت الثلث او الاربع الصحائف تجدها متفرّقةً في بطون تواريخ قدماء الكتبة من يونان ورومان وسريان

ومثلهم العرب فانَّ تآليفهم لا تحتوي عن بيروت الّا الفوائد النزرة التي لا تفي برغبة الباحثين . وقد سعى بينهم سدًّا لهذه الثلمة وتلافياً لهذا الخلل احد ادباء القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميـلاد وهو من سُلالة امراء بني الغرب المشهورين بالبُحتُريين يُدعى صالح بن يحيي صنَّف كتاباً وسمَـهُ بتاريخ بيروت وقـد وجدنا نسخةً فريدةً من تأليفهِ في مكتبـة باريس العموميَّة فاستحضرنا رسمهـا بالتصوير الشمسيّ ثمَّ زيَّنَّا بها جيد مجلّتنا المشرق لمّا ظهرت لاوَّل مرَّة سنـة ١٨٩٨ وتابعنـا نشرها مدَّة سنتين ثم طبعناها على حدة واضفنا اليها فهارس واسعة وعدَّة معلومـات وملحوظات (١

١) وقد اخذ الدكتور لويس ابي نادر ومخائيل مراد صاحبا مجلّة العاصمة المطبوعة في ريوجانيرو في البرازيل بطبع هذا الكتاب في اعداد مجلّتهما نقلًا عن المشرق وكان اولى بهما ان نشره في نسخة منفردة

لكنَّ هذا التاريخ في حقيقة الحال مع فوائده لم يذكر عن بيروت الَّا ما لا يشفي العليل ويروي الغليل . فانَّ صاحبهُ بعد كلام اجمالي عن بيروت وقِدَمها وآثارها يتخطَّى الى ذكر بعض التقاليد التي كان يتناقلها اهل زمانهِ ثمَّ ينقل عن مؤرخي العرب ما كتبوهُ عن فتوحات بيروت المتوالية بعد الاسلام وخصوصاً في عهد الفرنج الصليبيين الى ان ينتهي الى تاريخ اجدادهِ من بني الغرب فيفيض في مآثرهم في بيروت وانحاء لبنان

وقد اجتهدنا وقتئذٍ في ان نثبت في ذيل الكتاب ما امكنَّا جمعهُ عن بيروت من كتب التاريخ على قدر ما كانت تسنح لنا الفرصة ويسمح قصر الوقت وتراكم الاشغال

وما خلا هذا التاريخ توجد فصول مختلفة في دائرة المعارف البستانيَّة وفي كتب الفرنج من مرسلين او اثريين او سيَّاح وفي برنامجات سوريَّة وبيروت يُستفاد منها بعض المعلومات للازمنة الاخيرة

فكل هذه الشذرات والفوائد المتشتّتة لو جُمعت ورُويت منظَّمةً في ابواب مختلفة تأتي بلا شك بالضالَّة المنشودة وتعريف اخصّ ما جرى في بيروت من الاخبار وما اكتُشف فيها من الآثار . فبكل سرور وارتياح نعود اليوم الى هذا البحث اللذيذ ليتألف منهُ خلاصة تاريخ تلك المدينة التي اصبحت اليوم عاصمة لدولة لبنان الكبير فيزيد اعتبار اهلها لها اذا وقفوا على نسبها الاصيل وذكروا ماضيها الجليل

ونقسم هذه الابحاث الى قسمين نخصّ القسم الاوَّل منها باخبار بيروت ومآثرها من قدم الزمان الى ظهور الاسلام . والقسم الثاني بتاريخها منذ الفتح الاسلامي الى ايَّامنا مع ذكر ما عثروا عليهِ من الآثار في هذين الطورَين

القسم الاول

اخبار بيروت ومآثرها في القدم الى ظهور الاسلام

البحث الاول

في موقع بيروت

انَّ الموقع الذي اختارهُ الاقدمون لبناء مدينة بيروت لَمن انسب المواقع لحاضرةٍ كان من شأنها ان تجمع خواصّ حواضر البلاد فانَّها برّيَّة بحريَّة سهليَّة جبليَّة في وسط سواحل فينيقية تتوارد اليها خيرات الاقطار المجاورة على سواء من جهة الاناضول وبلاد حمص وحماة وحلب. ومن الجنوب من نواحي مصر وفلسطين. ومن الشرق من دمشق واحياء العرب. ومن الغرب من قبرس وجزائر البحر

وقد أنعم الله على بيروت باعتدال الهواء فلا يلحق بأهلها أذى البرد القارس شتاء ولا لظى الحرّ اللافح صيفاً فيحميها لبنان عن السَّموم وتلطِّف الريح البحريّة شدَّة حرارتها في الصيف هذا فضلاً عن قربها من الجبل اذ يستطيع اهلها في أيسر الزمان ان يتمتَّعوا بنسيمهِ العليل ويتهنأوا بهوائهِ النقيّ البليل

ويستدلّ على حسنات هذا الموقع من درجات طول بيروت وعرضها فانَّ طولها بالنسبة الى سَمْت باريس شرقياً ثلاث وثلثون درجة وسبع دقائق وبعض الثواني. وعرضها اي بُعدها عن خطّ الاستواء نحو الشمال ثلاث وثلثون درجة واربع وخمسون دقيقة فناهيك بذلك دليلاً محسوساً على مميّزات وضعها. ثمَّ بقربها نهرُها المسمَّى ماغوراس (Magoras) الذي يخصب ريفها. وكانت مياهُهُ قديماً تجري الى انحائها بقني وقناطر ترى حتى اليوم آثارها فتزيد اهاليها طيبَ السُّكنى ورغد العيش

ولبيروت راسٌ يدخل في البحر الى نحو تسعة كيلومترات فيجعلها كما قال بعض القدماء. كلمكةٍ ترتقي الى الجبال وتغسل قدميها في غمر البحر او بالحري كسلطانة تبسط على مملكة البحار سيطرتها المظفَّرة. ومنذ عهدٍ لا يعلم قدرَهُ الّا

الله تمدُّهــا خوافق الرياح التي تهبُّ من جانب مصر بـكميَّات من الرمل الذي يسهل تحويلهُ الى تربةٍ مخصبة توليهــا مرافق وخيرات لا تُحصى

البحث الثاني

في جيولوجية بيروت

يرجح علماء الجيولوجية انَّ رأس بيروت كان قبل التاريخ منقطعاً عن البرّ تحيط به مياه البحر على مداره · فلم تزل الرياح الجنوبية تدفع اليهِ كثباناً من الرمل حتى ألصقتها بالجبل واغنتها بتلك السهول التي تزهو فيها غابات الصنوبر وهي تُعدُّ من اوفر موارد غناها

ويؤيد هذا الرأي ما تحقَّقهُ علماء طبقــات الارض وبيَّنهُ في مجلَّــة المشرق (١ [١٩١٨] : ٣٩٦) احد اساتذة كليَّة القديس يوسف الاب زُموفن حيث قال : « ان الوادي الذي يجري فيهِ نهر بيروت مع ما يجاورهُ من السهل كان مغموراً بمياه البحر قبل حلول الانسان فيهِ وكان هناك خورٌ كبير يجمع بين خليج مــار جرجس جنوبيَّ البلدة ومياه البحر التي يصبُّ عندها وادي شحرور »

واتى بالبرهان على ذلك مستدلًا بالرواسب البحرية التي تُرى في تلك الجهات في عدة مواضع من سفح لبنان وبقرب سكة الشام الجديدة عند المحل المعروف بلوكندة المطران حيث توجد قطعة كبيرة من تلك الرواسب تعلو عشرة امتار فوق سطح البحر

ومثلها قُلَّة مار دمتري والربوة التي عليها بُنيت ثكنة البلدة المحوَّلة الى السراية الكبرى فان كلتيها تتركَّب من الرواسب عينهــا وتربتُها كتلةٌ من الرمــل ودقيق الحصى والاصداف البحريَّة والحجارة المصقولة باحتكاك مياه البحر كمــا هو معهود في السواحل

وليس هذا الارتفاع عمل الرياح البحرية فقط بل هو احــدى الطوارئ الطبيعيَّة بفعل العوامل الباطنة التي ترفع ببطء القشرة الارضيَّة وأديمها في السواحل كما اثبتهُ الجيولوجيُّون عن عموم شواطئ البحار وتبيَّنوهُ ايضاً في شواطئ سوريَّة وفلسطين

البحث الثالث

في اسم بيروت

اسم بيروت اسمٌ ساميٌّ فينيقيّ كبقيَّة اسماء المدن الواقعة في سواحل الشام بين اللاذقيَّة وصور . إلَّا انَّ العلماء لم يتَّفقوا على معنى الكلمة . فـذهبوا الى آراء شتى . فنهم من فسَّرهـا بمعنى بَرِيتْ العبرانيَّة (ברית) اي الاتّفاق والعهد وزعموا انَّهـا «بَعل بَرِيت» المذكورة في سفر القضاة (٩ : ٤) والكلام هناك على مدينة في السامرة وقال غيرهم انَّها «بَرُوت» (ברות) في العبرانيَّة ايضاً بمعنى القُوت والطعام . وظنَّ قومٌ انها المدينة بَرُوتا (ברותה) المذكورة في نبوَّة حزقيال (٤٧ : ١٦) والصواب انَّ موقع هذه كان في شمالي فلسطين .

واصحُّ من هذين الرأيين قول من اشتقَّ اسم بيروت من الارامية بَروتا (ܒܪܘܬܐ) ومعناها السرو او الصنوبر لوجود اشجارهما منذ القدم في جوار بيروت . ويوافق هذا الاسم في الاشوريَّة «بُراشو» وفي العبرانيَّة (ברוש) قيل انَّ بيروت سُمّيت بهذا الاسم تذكاراً للإلهة الفينيقيَّة عشترت معبودة بيروت التي كان السرو رمزاً عنها . وهـذا الرأي قديم اورده فيلون الجُبَيلي عن اوَّل مؤرخ لفينيقية سنكُنْ يَتُن البيروتي السابق لعهد المسيح (Historicorum Græc. Fragmenta, II, ed. Didot, p. 136) . وهو يدعوها (βηρούθ) . وتبعها في هذا الرأي بعض المحدَثين من جملتهم الاب بطرس مرتين اليسوعي في تاريخهِ اللبناني الذي طُبع منهُ بعض الفصول (اطلب تاريخ لبنان ص ٣٨٣) . وعشترت هذه هي إلهة العشق والجمال التي عرفهـا العرب باسم الزُّهَرة او اللات والرومان باسم ڤينوس (Vénus) وسيأتي عنها الكلام في فصل آخر . ولعلَّهم اشاروا بهذا الاسم الى حسن موقع بيروت وجمالها

وقد صدَّق الكاتب اليوناني القديم هستيـون الميلطي على انَّ بيروت دُعيت بهذا الاسم اشارةً الى عشترت لكنَّهُ يشتقّ اسمها من اصل آخر من «بِيروت» او «ابيروت» (אבירות) بمعنى القوَّة و«أبير» بالعبرانية القوي الشجاع والحريز المنيـع . وربَّما اطلقوا

هذا الاسم على الثَّوْر (الزمور ٢١ : ١٣) الذي كان ايضاً من صفات عشترت يصوّرونها وعلى رأسها شبه الثور

وليس بين آراء القدماء رأي أرْجح في تفسير اسم بيروت من اشتقاقهِ من البئر وهو يُجمع في العبرانيَّة على «بئروت» (בארות) اي الآبار وذلك لكثرة الآبار التي حفرها الاقدمون في احيائها وضواحيها تُرى الى يومنا آثارها الحسنة تحت المدينة . ويؤيد هذا الرأي ان اسم بيروت ورد في اللغة الاشوريَّة بالحروف الرمزيَّة الدالَّة على البئر . وكانت مياهها عذبةً يشرب منها حاضرًا اهل بيروت قريباً من دير راهبات المحبَّة . ولذلك ارتأى اسطفان البوزنطيّ من كتبة القرن الخامس للمسيح انها دُعيت بيروت لعذوبة مائها

وقد ثبت لبيروت اسمُها هذا مع تقلُّب الدول فرواهُ القدماء على صوَر مختلفة في اليونانيَّة واللاتينيَّة هكذا Berito, Beritho, Biritos, Birthon, Piriton Berythus (Βηρυτός) وكثيرًا ما يختزل اسمها بعضُ اليونان كنونس وتاوفان وبروكوبيوس فيدعونها بِرُويا (Βερόη) كما يدعون بهِ مدينة حلب . بل زعم المؤرخ نونس (Dionysiaques, XLI) ان هذا الاسم سبق بقيَّة اسمائها

وشاع لبيروت بين السريان خصوصاً اسم دِرْبي (ܕܪܒܐ او ܕܪܒܝ) كما يرويهِ بَرْبهلول وبَرعلي في معجمها . ودِربي احدى مدن اليونان . وقد دعاها اوغسطوس قيصر باسم ابنته يوليا لمَّا خوَّلها امتيازات المستعمرات Colonia Julia Augusta Felix) Berytus)

وفي عهد الصليبيّين جاء في تاريخ غليلموس الصوريّ (ك ١١ ف ١٣ ص ٤٧١) انَّ بيروت دُعيت قديماً جِرسة (Gerse) او جريس نسبةً الى بانيها من اولاد كنعان بن حام ولا نعلم من اين اخذ هذه الرواية التي نقلها ايضاً ادريخوميوس (Adrichomius, *Miscellanea*)

البحث الرابع

قِدَم بيروت

لو أَعَرْنا سمعاً الى ما جاء في خرافات الاقدمين من الفينيقيّين لَقُلنا انَّ اصل

بيروت يتّصل بعهد الآلهة ويرتقي الى اوائل الخليقة فانّ سَنكُن يَتُن اقدم مؤرّخي فينيقية قد روى عنها ما شاع في زمانهِ اي القرن الرابع قبل المسيح فقال (في الفقرة الثانية من تاريخهِ العدد ٨) : انّ الاله إيل او عِليون وهو اوّل ملوك جُبَيل اتّخذ لهُ زوجةً الإلهةَ المدعوة بيروت ثمّ بنى جنوبيَّ جبيل مدينةً دَعتها زوجتُهُ باسمها بيروت. وقيل بل بيروت اسم ابنتها فدعَوا المدينة بها

وقال نونُس الشاعر اليونانيّ في كتابهِ عن الإله ديونيسيوس او بخُوس (١ الذي صنّفهُ في القرن الرابع للمسيح : « انّ بيروت اوّل مدينةٍ بناها الاله إيل بنفسهِ وهي وحدها أُنشئت قبل مدن الارض وسبقت الاله فـاِتون (اي الشمس) الذي يستعير القمر من ضوئه »

ثمّ اردف سَنكن يَتن قائلًا : « انّ ايل وهب بيروت لالـه البحر پوصَيدون (Ποσειδῶν) الذي يدعوهُ الرومـان نبتون (Neptune) وللجبـابرة المعروفين بالكبيري (Cabires) الذين اخترعوا فنَّ الملاحة »

فبهذه المبالغات يُستدَلّ على امرٍ واحد لا مراء فيه وهو انّ بيروت من اقـدم مدن العالم وان لم يمكنّـا ان نعرف بالتدقيق زمن بنـائها . ولو صحّ قول غليلموس الصوري بأنّ بانيها جريس او جرجيس او جرجاش الخامس من بني كنعان المنتسب اليهِ الجرجاشيون في سفر التكوين (١٠ : ١٦) لَثَبت انّها بُنيت بعد الطوفان بزمن قليل اعني في الالف الرابع قبل المسيح

ومهما كان من مزاعم القدماء وآرائهم المتناقضـة نستطيع القول بـلا شكّ انّ اصول بيروت عريقة في القدم كاد نَشْؤها يخفى عن ابصار اقدم الكتبة وأدقهم بحثًا . ولا بأس من القول بانّ البشر الاوّلين سكنوهـا قبل تمصيرهم الامصار وإنشائهم المدن في عهد العمران البشري اي في الطور المعروف بالظرّان السابق لطور المعادن . والدليل عليهِ مقرّر راهن يستند الى الآثار التي وقف عليها ارباب العاديّات ومن جملتهم حضرة الاب زُموفن وبعض اساتذة كليّتنا والمكتب الطبي الفرنساوي . وقد جمعوا قسمًا كبيرًا منها في متحفيها ومثلهما في متحف الجامعة الاميركانيّة ومتحف بيروت

(١ Nonnus: *Dionysiaques* XLI, 67 et 91

العمومي الحديث . وهذه الآثار عبارة عن قِطَع من الصوّان وُجدت في طرَفي بيروت قريباً من نهرها ماغوراس (Magoras) وعند رأسها الرملي الممتدّ جنوب المدينة بميلةٍ الى غربها . وهذه الحجارة الصوّانيَّة مختلفة الهيأة منها ما هو اقدم عهداً وهو الصوّان المنحوت (silex taillés) وغيرها احدث زمناً وهو الظرّان المصقول (silex polis) . وبعض هذه المصنوعات هي من عظام الحيوان . وقد اتّخذ القدماء من كليها ادواتٍ عديدة على اشكال متباينة كالسهام والسُّنن والفؤوس والمناشير والمُدَى يتوسّلون بها للدفاع عن نفوسهم ولصيد الحيوان ومقاتلة الاعداء ولكافّة امور معاشهم وبَيْتهم (١

وكانت عيشة اولئك القوم في همجيّتهم الاولى فطريَّةً ساذجة فكانوا يأوون الى الكهوف والمغاور في ايّام الشتاء وقد وُجدت بقايا من آثار طعامهم في مغارة انطلياس بينها عظام حيوانات مفقودة في عهدنا كانوا يصطادونها . ويعيشون في بقيّة فصول السنة تحت القبّة الزرقاء او ينصبون لهم خياماً من اغصان الشجر او يتّقون حرارة الشمس بجلود الحيوان . فداموا على ذلك زمناً مديداً حتى عنَّ لهم ان يبتنوا عوضاً عنها المساكن البسيطة من الحجار او اللبن

ويؤخذ من اخبار ملوك الكلدان الاوّلين المنقوشة في بلاد بابل بالخطّ المساري ان ملوك تلك الانحاء غزوا غير مرَّة القبائل الساكنة في سواحل الشام في الالف الرابع قبل المسيح فبسط ملكهم نِيْرام سِين عليها سيطرتهم ردحاً من الزمان . ولما ضعف سلطان الاشوريّين وانتقض حبلهم انتهز الاموريّون المالكون في ما وراء بحيرة لوط فتقرّبوا الى جهات بحر الشام وتملّكوا على سواحلهِ . والرأي الشائع اليوم انَّ منهم كان الملك حَمُورَبي وسلالتُهُ فسار من بلاد الشام الى بلاد بابل وغلب عليها ملوكها وقهر ما كان في تلك الجهات من القبائل الآراميَّة والكنعانيَّة التي كانت تسكن السهول المجاورة لخليج العجم فهاجرت هذه العشائر الى جهات الغرب وسكنت مدَّةً في براري الجزيرة يزاحم بعضها بعضاً . ولما أنِست من احوال الزمان ما يساعدها لاضطراب امر ملوك بابل تقرّبت الى سوريَّة الشماليَّة وسكنت فيها اعواماً حتى أدّى بها المسير الى سواحل البحر المتوسّط فامتزجت باهلها الاموريين ثمَّ غلبت عليهم

(١) اطلب في المشرق ١ [١٨٩٨] : ٩٧ و٢٦٢) مقالتين للاب زمُوفن في وصف طورَي الظرّان ومحطّاتهما في بيروت وسواحل الشام

وكان ذلك في اواخر الالف الثالث قبل المسيح

واستوطنت هذه القبائل خصوصاً القسم المعروف بفينيقية وهو الساحل البحريّ الممتدّ بين اللاذقيّة وصور وعُرفوا بالفونيّين (Pouaniti, Pœni, Pæni) وهو الاسم الذي كان يطلقهُ المصريّون على سكان تلك الانحاء. ثمَّ تصرَّف اليونان بالاسم فدعوا البلاد فينيقية واهلها فينيقيّين مشتقّين الاسم من لفظة يونانيَّة معناها النخل (Φοῖνιξ) لانهم وجدوا تلك الجهات كثيرة النخل زاهية باشجارها

ثمَّ نمت تلك القبائل وتفرَّقت واتخذت كلٌّ منها مستعمرةً فقويت شوكتها واصبحت على شبه مملكةٍ صغيرة مستقلَّة بالحكم والتدبير عن سواها

واشتهر من هذه الممالك مملكة أرواد ومملكة جبيل ومملكة بيروت ومملكة صيدون ومملكة صور . والرَّجح انَّ مملكة جبيل تقدَّمت عليها وتفرَّعت منها . وكانت بيروت اوَّل مستعمرات الجبيليّين جعلوها مملكةً مستقلَّة متاخمة لملكتهم فتكون سبقت مملكة صيدون . وكان طول مملكة بيروت نحو ٣٦ كيلومترًا تمتدُّ بين نهرَي الكلب والدامور . كأنَّهم جعلوا الكلب حارساً لتخمهم الشمالي فدعوا بهِ النهر . امَّا عرضها فكان لا يتجاوز عشرة كيلومترات من البحر الى سفح لبنـان

ومع صغر هذه الممالك وضيق ساحتها قد نالت شأناً عظيماً لشهرة اهلها بالتجارة فكانوا يستجلبون برًّا مرافق البلاد الداخليَّة الى البحر بواسطة قوافلهم العديدة فينقلونها على سفنهم الى مصر وجهات اليونان وبلاد الغرب وسواحل اوربَّة كما تدلّ عليهِ آثارهم هناك ثمَّ يأتون بمحصولات تلك البلاد الى فينيقية فينقلونها الى اقاصي العراق والعجم والهند . وقد وجدوا في حفريَّات جُبيل وسواحل فينيقية كثيرًا من مصنوعات المصريين وقبائل اليونان القديمة ومن الآثار الاشوريَّة ما يُثبت كون فينيقية كانت بلادًا وسَطاً بين اقاصي الشرق والغرب

على انَّ تعدُّد هذه الممالك الساحليَّة مع صغرها كثيرًا ما سبب المنازعات والحروب بين اهلها . فانَّ التاريخ القديم يذكر ان مملكة صيداء حاولت مرارًا قهر سلطة اهل بيروت واستعبادهم فردَّهم البيروتيّون خاسرين

وكان صغر تلك الممالك يعرِّضها لخطر اعظم من جانب الدول الكبرى . فان

ملوك اشور وبابل طمحوا اليها واغاروا عليها مرارًا وربّما ضربوا على اهلها الجزية يؤدونها لهم بما يطلبونهُ من الأرز وغيرهِ من الاخشاب اللبنانيَّة. وقد ورد اسم لبنان لاوَّل مرَّة في كتاباتهم المسمارَّية على صورة لبنانو اي الجبل الابيض اذ رأوه معمَّماً بالثلوج الغرَّاء التي تكسوهُ حليةً من البياض اليقق ✗

وكذلك فراعنة مصر منذ سلالاتهم الاولى في اواسط الالف الثالث عرفوا كنوز لبنان المعدنيَّة والنباتيَّة واكرموا آلهة الفينيقيّين كالبعل وعشترت واقاموا في جبيل هيكلًا لمعبوداتهم الوطنيَّة وجد الاثريون وخصوصاً المسيو بيار مونته بقاياهُ الفخيمة. وكانوا يرسلون لهُ كل سنة التقادم والنذور والآنية الثمينة والألطاف المختلفة التي اكتشفوا منها كثيرًا بل ادخلوا في جملة معبودات المصريّين عبادة آلهة فينيقية. فكانوا بهذه المعاملات السياسيَّة والاقتصاديَّة يُعِدُّون دولتهم لفتح تلك البلاد كما حدث بعد ذلك في عهد السلالة الثامنة عشرة

وقد ورد اسم بيروت لاوَّل مرَّةٍ في اثر هيروغليفيّ مصون في المتحف البريطانيّ في لندن يرقى عهدهُ الى السلالة الثانية عشرة وهو عبارة عن كتابة حرَّرها احد وجوه المصريّين يصف فيها رحلتهُ الى سوريَّة ويذكر جملة ما زار من المدن مبتدئاً بالمدن الداخليَّة الى حلبون يريد بها حلب الشهباء. ثمَّ يذكر اخصَّ المدن الساحليَّة: جُبيل ثمَّ بيروت ويدعوها بيروتا ثم صيدون ثم صَرفت

وقد تكرَّر بعد ذلك اسم بيروت في جملة المدن التي فتحها الفراعنة في القرن السادس عشر قبل المسيح لا بل كان المصريون يطلقون على معدن الحديد اسم بضاعة بيروت «با ان برت» كما اثبت ذلك حضرة الاب لامنس في كتابهِ عن آثار لبنان (٢٢٢:٢)

فيلوح من كلّ ما سبق انَّ بيروت قد حلَّت منذ قديم الزمن محلًّا ممتازًا وان اصولها راقية الى الازمنة المظلمة حيث التاريخ كان مختلطاً بخرافات البشر

وان اعتبرتَ ضواحيها الداخلة في مملكتها وجدت ما يؤيد امر قِدَمها. ولاسيا ذلك النَّصب الذي حفرهُ رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيسوستريس دلالةً على حلولهِ في سواحل فينيقية وهو اثر جليل في الصخور المشرفة على نهر الكلب حيث تُرى صورتهُ قائمًا بإزاء إلههِ «راع» ساجدًا لهُ وتاريخ الاثر في السنة الرابعة لملكهِ

البحث الخامس

مبادئ تاريخ بيروت

ثبت لنا من آثار بيروت انها عريقة في القدم حتى انها تضاهي اقدم مدن العالم لكنَّ تاريخها لا يُعرف منهُ شيء راهن يسبق القرن الخامس عشر قبل المسيح وهذا لعمري امرٌ يكفيها فخرًا وفضلًا على كثير من عواصم البلدان في البسيطة جمعاء

ولا مراء في ان بيروت قبل ذلك العهد شاركت فينيقية في سرَّائها وضرَّائها في حُلوها ومُرّها لاسيما في ما نالها من غزوات ملوك الكلدان الاوَّلين الذين احتلُّوا سواحل الشام وغارات القبائل الاموريَّة التي ضربت فيها اطنابها

امَّا تاريخها في عهد المصريين فكشفتهُ لنا دفائن ارض مصر منذ ٣٧ سنة فقط حيث وقف الاثريون على سجلَّات الملكين امينوفيس الثالث وابنهِ امينوفيس الرابع من سلالة الفراعنة الثامنة عشرة في القرن الخامس عشر قبل المسيح . وقد اكتُشفت تلك الآثار سنة ١٨٨٨ في تلِّ العمارنة في جوار مدينة اسيوط في الفيُّوم حيث يوجد اخربةمدينة قديمة كان الفراعنة اتخذوها في ذلك الزمان كرسيًا لملكتهم ثمَّ استولى عليها الخراب ففُقدت آثارها ومن جملتها سجلَّات دواوينهم التي اكتشفها صدفةً احد الفلَّاحين وهي منقوشة بالحرف المسماريّ على قطَع من الآجر . امَّا لغتها فهي اللغة الفينيقيَّة . وكان للفراعنة في دواوينهم نَقَلةٌ ينقلون لهم الى اللغة المصريَّة مضامين تلك الكتابات

وقد ورد في تلك الآثار اسماء بعض مدن فينيقية ومن جملتها اسم بيروت على صورة «بيروتا» وقد مرَّ في المشرق (٣ [١٩٠٠] : ٧٨٥-٧٩٤) لحضرة الاب لامنس فصل مستجاد في ما ورد عن لبنان في الآثار المذكورة . وهي عبارة عن مراسلات لأمراء وطنيين كانوا عُمَّالًا للفراعنة كالولاة يُعرَفون باسم «خزَّانو» ويكاتبون مواليَهم الملوك ويفيدونهم عما يجري في بلاد فينيقية الموكولة الى تدبيرهم ليكونوا على بصيرة من امرها

وكان اسم احد هؤلاء الولاة «ريب ادّي» أُقيم اميرًا على جُبيل . وقد ورد في مكاتباتهِ الى الفرعون اسم مدينة بيروت فيصفها كمدينة حريزة وكفُرضةٍ بحريَّة مهمَّة

ويذكر سفنها التجاريَّة وبوارجها الحربيَّة

ومما جاء هناك ايضاً رسالتان لاحد امراء بيروت اسمهُ «أمونيرا» يخبر فيها ملكهُ الفرعون عن خروجهِ لمحاربة اعداء الدولة بخيلهِ ورَجلهِ وعربَاتهِ ويبشرهُ بفوزه بهم . ويذكر انَّ سفنهُ خرجت لمحاربة بلاد أموري مساعدةً لأمير جبيل ريب اذي فغلبتها . وفي كلامهِ اشارة واضحة الى مناعة بيروت في ذلك الزمان وعلوّ مقامها ورقيّ تجارتها وسعة ثروتها . على انَّ كلامهُ يُشعر بسيادة امير جبيل على بيروت

— بقيت بيروت تحت حكم فراعنة مصر يحيا أهلها بحياة فينيقية ويرتعون مثلها في ظلّ الدولة المصريَّة وهي مصونة شمالًا بجبلها في مضيق نهر الكلب حيث رَسَمَ رعمسيس الثاني سنة ١٣٨٨ ق م صورتهُ مع كتابة هيروغليفيَّة تتضمَّن ذكر تقدمتهِ لإلههِ «فتاح» . وهناك صورة اخرى تمثل ايضاً احد فراعنة مصر بازاء الاله عمُّون . ثمَّ صورة ثالثة يُرى فيها فرعون آخر منتصباً يقرِّب قربانهُ لاله الشمس «راع» . وكان يصونها جنوباً وجود مدينتين عامرتين واسعتي الثروة والجاه اعني صيداء وصور كانتا تثيران اكثر منها مطامع الدول الكبرى . فكان خمولها نجاةً لها . ولعلَّها اصابت نوعاً من الاستقلال في اواخر الالف الاوَّل قبل المسيح في ايَّام حيرام الاوَّل وحيرام الثاني ملكي صور وفي عهد داود وسليمان ملكي اسرائيل

البحث السادس

بيروت في عهد الاشوريين واليونان

جيَّش الاشوريُّون جيوشهم في القرن التاسع قبل المسيح وزحفوا الى بلاد الحثيين في جهات الفرات وشمالي سوريَّة ثمَّ اندفعوا كالسَّيل الجارف الى بلاد الشام وفينيقية ففتحها ملكهم سلمناصر الثاني (٨٦٠—٨٢٥ ق‌م) ثمَّ غزاها بعدهُ سلمناصر الثالث (٧٨١—٧٧٢) ثمَّ اشوردان الثاني (٧٧١—٧٥٤) وتغلات فلاسر الثالث (٧٤٥—٧٢٧) ثم سلمناصر الرابع سنة ٧٢٥ ثم سنحاريب سنة ٧٠١ ثمَّ ملك بابل نبوكدنصَّر الثاني (٦٠٦—٥٦٢) . ولم تسلم بيروت من غاراتهم كما تدلُّ عليهِ الصور الخمس والكتابات المطموسة التي نقشها اولئك الغزاة على الصخور المشرفة على نهر الكلب .

ومن المرجَّح انَّ بيروت عند مرورهم في أرباعها فتحت لهم ابوابها سِلماً مفضّلةً اداء الجزية مع الامـان على فتحها عنوةً

وقامت بعد دولتي اشور وبابل دولة ماداي والفرس في اواسط القرن السادس قبل المسيح فبقيت فينيقية خاضعةً لحكمهم وكان الفرس يحسنون الى اهلها العاملة ويسعون الى تحسين تجارتها وملاحتها فـاستعانوا بسفنها لفتح سواحل الشام وآسيـة الصغرى. وكانت بيروت راقيةً في صناعة السفن وتجهيزها لقرب الغابات والاخشاب الجبليَّة من مرفإها فكانت سفنها مع سفن جبيل وصيـداء وصور تؤلف اساطيل عظيمة نالت في خدمة ملوك فارس وماداي شهرةً كبيرة

وفي نقود بيروت ما يثبت قوَّتها البحريَّة فانَّها تمثّل إله البحر پوسيدون (Posei-don) وهو بعل بَريت واقفاً عند رأس السفينة في احدى يديهِ صورة الدلفين او احدى بنات البحر بَرُوَه (Beroë) وفي الاخرى الشوكة المثلثة. ومنها ما تمثّلهُ جالساً على مركبةٍ تجرُّها اربعة رؤوس من الخيل. فكل ذلك اشارة واضحة لقدرة بيروت في النقابة البحريَّة سواء كانت مجهَّزةً للحرب او مستحضرةً للتجارة البحريَّة

ولمَّا انتقض حبل الدولة الماديَّة اخذت المـدن الساحليَّة تسعى كلٌّ منهـا الى الاستقلال وتوسيع مملكتها بقهر جاراتها فكانت تتنـازع الحكم على بيروت تارة جبيل وتارةً صيدون. فكان البيروتيُّون يجتهدون في استبقاء حرّيتهم او يجـارون احوال الزمان الموافقة لصوالحهم. وانَّما دين الجبيليين كان مؤثّرا فيهم فشاعت بينهم عبادة البعل وخصوصاً عبادة الإلهة عشترت التي تُرى صورتها على بعض نقودهم القديمة

ولعلَّ ما اصابتهُ صور وصيداء من العمران والرقيّ في القرنين السادس والخامس قبل المسيح كسَفَ نوعاً رونق مدينة بيروت فقلَّما تجد لها ذكرًا في آثار ذلك العهد. على انَّ احد سيَّاح اليونان المسمَّى سيلاكس (Sylax) اتى الى فينيقية في القرن الرابع قبل المسيح وتجوَّل في مدنها الساحليَّة واجتاز بيروت فوصفها بهاتين الكلمتين قائلًا: «ان بيروت مدينة ومرفـأ» ولم يزد على ذلـك شيئاً وبها نستدلّ على أنَّ الخراب لم يستولِ على بيروت كما ظنّ بعضهم

هيكل عشترت في بيروت

مكبرة عن صورة قديمة من نقودها

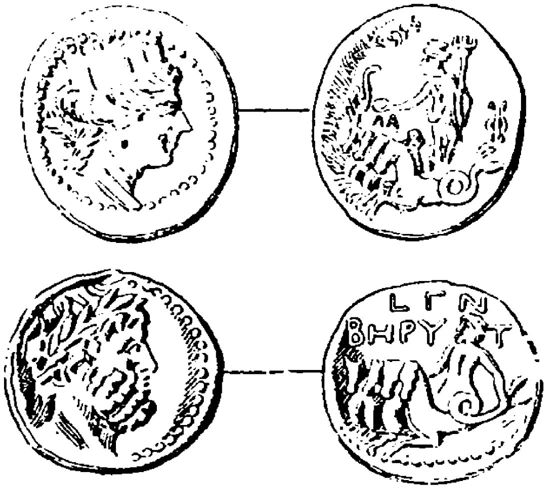

بعض نقود بيروت في عهد استقلالها قبل المسيح

البحث السابع

بيروت في عهد السلوقيين

سار اسكندر الكبير المقدوني المعروف بذي القرنين الى فتح سوريّة بعد انتصاره على الفرس في معركتي ايسُوس في حدود سوريّة وقيليقية (سنة ٣٣٣ ق‌م) وإربل في العراق (سنة ٣٣١) فاخضع سوريّة وعاصمتها دمشق وفينيقية ولم يَقُم في وجهه غير صور الحصينة فملكها عنوة بعد ان حاصرها اربعة اشهر

ولا ريب في خضوع بيروت اسلطة الاسكندر كما يثبت ذلك ما ضُرب فيها من النقود باسم ذلك الفاتح الشهير(١). ثمّ صارت بعد موته لخلفائه فملكها اوّلًا قائده بطليوس صاحب مصر وانتزعها من يده سلوقوس فدخلت في مملكة السلوقيين ملوك الشام وعاد البطالسة فملكوها ولبعضهم نقود مضروبة فيها كبطلميوس الثالث أورغاتيس الاوّل (٢٤٧–٢٢٢ ق‌م) وكبطلميوس الخامس ابيفانيوس اي الشهير (٢٠٤–١٨١) الى ان صارت نهائيًا في حوزة السلالة السلوقيّة لمّا بسط انطيوخوس الثالث الكبير سلطانهُ على كلّ تخوم فينيقية بعد انتصاره على بطلميوس اوپاتور سنة ١٩٨ ق‌م الى سنة ١٧٥

وفي زمن هؤلاء الملوك السلوقيين خاصّة انتشر في بيروت وفي سائر فينيقية التمدُّن اليوناني وشاعت بين الخاصّة اللغة اليونانيّة وتوفّرت في لبنان وسواحله الآثار الفنيّة المستعارة من اليونان كالكتابات والهياكل والابنية الفخمة والتماثيل والحلي والادوات الصناعيّة والنقود والمسكوكات التي نشر كثيرًا منها احد اساتذة مكتبنا الطبي سابقًا الدكتور جول روڤيه (Dr J. Rouvier) خصّ الكل مدينة جدولًا منفردًا بينها نبذة حسنة عن مسكوكات بيروت مع صورها وتاريخها اليوناني ٣١٢ ق م

وكذلك شاعت في بيروت وسواها حتى في ايّام حكم الرومان الازياء اليونانيّة والديانة اليونانيّة والنقوش والكتابات اليونانيّة على النواويس حتى اسم بيروت ظهر بزيّه اليونانيّ (BHPYTOC او BHPYTIΩN). ومن كلّ ذلك عدّة آثار وُجدت

(١) اطلب كتاب نقود الاسكندر لمولّر MULLER: Numismatique d'Alexandre p. 310

في بيروت وجوارها كما في غيرها من المدن الساحليّة . وقد اخذ المتولّون نظارة الآثار يجمعون في متحف المدينة قسماً صالحاً منها . على انّ نقود بيروت الاولى التي ضُربت من السنة ١٩٨ الى ١١١ ق م قد كُتب عليها اسم بيروت باليونانيّة والفينيقيّة ثمّ اكتفوا بعد ذلك بالاسم اليونانيّ

ويستفاد من ضرب بيروت لنقودها كونها نالت في زمن السلوقيين نوعاً من الاستقلال منحهُ ملوك سوريّة لبعض مدن فينيقية وهو الاستقلال الاداريّ تحت حمايتهم . وقد عرفت بيروت لملوكها الشرعيين هذه المنّة كما يُروى ذلك في تاريخها ويحقّ لها ان تفتخر بهِ وقد اثبتنا الخبر في كتاب لبنان (ص ٢٣٥) بما معناهُ :

قام سنة ١٤٦ ق م رجلٌ اسمهُ اسكندر بالا (Alex. Bala) يدّعي الملك لنفسهِ فنشبت بينهُ وبين الملك الشرعيّ ديمتريوس الثاني نيقاتور حرب عوان دافعت فيها بيروت عن حقوق ملكها بشهامة ومروءة فكان الانتصار حليفاً لديمتريوس . ألّا انّ تريفون (Tryphon) وزير اسكندر بالا تحزّب بعد موت مولاه لابنهِ انطيوخوس السادس المسمّى ديونيسيوس ليجلسهُ على كرسيّ المملكة ويملك باسمهِ . ولعلمهِ بامانة بيروت واهلها لملكهم اغار على مدينتهم ليثأر منهم واخرب ابنيتها وحرقها بالنار سنة ١٤٠ ق م فذهبت ضحيّة وفائها . على انّ تريفون نال جزاءهُ بعد قليل فغلبهُ انطيوخوس سيداتس اخو ديمتريوس ومات طريداً خاملاً

وقد ذهب بعض المحدّثين الى انّ بيروت بقيت على خرابها نحو مئة سنة واستندوا لاثبات رأيهم الى عبارةٍ وردت في كتاب الجغرافي اليوناني اسطرابون حملوها على غير معناها الصحيح وزعموا لتأييد رأيهم انّ الاثريين لم يكتشفوا اثراً لبيروت في تلك الحقبة . لكنّ الدكتور جول روفيه قد اماط القناع عن صحّة الامر وبيّن ان بيروت لم تبقَ على خرابها زمناً طويلاً ولعلّ تريفون لم يخربها تاماً . فعاد اليها اهلها ورمّموها او جدّدوا بناءها واطلقوا عليها اسم لاوذيقية فينيقية او لاوذيقية التي لكنعان (١ . ويثبت الامر عدّة نقود تمثّل رمز بيروت اي عشترت على رأس سفينة مكتوب عليها

---

١) راجع مقالة الدكتور روفيه التي عنوانها Une Métropole phénicienne oubliée وبمقالة المسيو روسّل (P. Roussel) Laodicée, Métropole de Canaan في نشرة المراسلة اليونانيّة (Bulletin de Crrespondance hellénique, 1911, p. 535-446)

هذه الحروف اليونانيَّة (ΛΑΦ) مختصر «لاذيقية فينيقية» (Λαοδικεία ἡ ἐν Φοινίκῃ) كما رواها المؤرّخ ابيـان (Appien) وفي بعضها باللغة الفينيقيَّة (לאדך אש בכנען) وقد راجت هـذه النقود بين السنتين ١٧٦ الى ١٢٣ ق م اعني مدَّة ٥٣ سنةً

ووقف الدكتور روڤيه على اثر آخر يثبت رأيهُ في انَّ بيروت لم تبقَ خراباً بل كانت عامرة. وذلـك وزنٌ قديم لبيروت تاريخهُ سنة ١٢٨ ق م عليـهِ شعار المدينة واسم محتسبها المدعوّ نيقون ٌ وكفى بذلك دليلًا على انَّها كانت في ذلك العهد مدينة تجاريَّة. وقد اثبت الدكتور صورة الوزن المذكور مع شرح كتابتهِ في اوَّل عدد للمشرق في السنة الاولى ١٨٩٨ (ص ١٧—٢٠)

لكنَّ ما قالهُ جناب الدكتور روڤيه في ثبات مدينة بيروت لا يصدق لـهُ عن رأيٍ آخر حيث يقول انَّ الذين عادوا فجدَّدوا ابنية بيروت بعد خرابها عدلوا عن موقعها السابق القريب من نهرها الى الجنوب على بُعد نحو ١٠ كيلومترات فبنوها عند الخان الجديد بين وادي الشويفات ونهر الغدير. وقد وجد هو في ذلك المكان آثارًا قديمة من مصكوكات يونانيَّة ورومانيَّة وخزفيَّات ونقوش مختلفـة وهو يزعم ان بيروت المستحدثة كانت هناك وعليها يُطلق اسم لاوذيقية كنعان. وهذا الرأي على ما نرجح ليس بصحيح فانَّ بيروت بقيت في مكانها. امَّا الآثار المذكورة فتدلّ فقط على وجود بلدةٍ هناك وهي احدى المدن الصغيرة التي كانت تتوسَّط بين بيروت وصيداء. وقد جاء في كتب جغرافيّي اليونان انَّ عددهـا كان بالغًا نحو العشر بقي منهـا خَلْدة والدامور

وفي زمن السلوقيين اشتهر في جبيل اوَّل مؤرّخ لبلاد فينيقية العلّامة سَنكُنْيَتُن البيروتيّ الذي بقي من تاريخهِ الضائع عدَّة فقرات ذكرها لهُ فيلون المؤرّخ مولود جُبَيل ونقلها اوسابيوس القيصري وكفى بيروت بذلك فخرًا

ومع تغلُّب اللغة اليونانيّة بين الطبقة الراقية من الشعب لم تزل الفينيقيَّـة دارجةً بين العامَّة في بيروت ولبنان ولاسيما في داخليَّة البلاد

وفي اوائل القرن الاوَّل قبل المسيح ضعفت شوكة السلوقيين باستسلام ملوكهـا الى اللذّات ورفاهيـة العيش بعد الحروب الاهليَّة المنتشبة في ظهرانيهـا فاضطربت الامور ووقع الخلاف بين مدن السواحل فخاف الاهلون من الفوضى ودعوا ملـك

ارمينية دغران لتدبير الامور بينهم فقلَّدوهُ الحكم عليهم ورتعوا مدَّة في ظلّ السلام. لولا ان بيروت وجاراتها الشماليَّة الى الرأس المعروف برأس الشقعة كانت معرَّضة لغارات قبيلة الايطوريين الـذين استولوا على ذلك الرأس وتحصَّنوا فيـهِ و كانوا يتجسَّسون السواحل المجاورة من طرابلس الى بيروت فينقضُّون منهُ كالسباع الضواري فينهبون ويسلبون ويعودون بالغنـائم الى مركزهم آمنين الى أن حاربهم القائد الرومـاني بومبيُّوس سنة ٦٣ وشتَّت شملهم في البلاد (١)

البحث الثامن

رقيُّ بيروت في عهد الرومان

دخل الرومان بلاد الشام سنـة ٦٤ ق م واستولى قائدهم بمبيُّوس على اقطارها ثمَّ ضبط ايضاً سواحلها وجعل فينيقية احـد اعمالها مبيداً لسلطة السلوقيين فيهـا . وكان ملكهم آنئذٍ انطيوخس الثالث عشر الملقَّب بالآسيوي وكان ضعيف الهمَّة خائر القوى فلم يجسر ان يقوم في وجهِ الرومان

وكأنَّ الرومان عرفوا ما تستحقُّهُ بيروت من الرعاية وانها قابلةٌ للرقي فوجَّهوا اليها بنظرهم واخذوا يزينونها بالبنايات الفخمة المتنوعـة. وممَّا حدا بهم الى ذلـك ان الفينيقيّين كانوا يعتبرونهـا مدينةً مقدَّسة خصُّوهـا لاكرام البعل المسمَّى على اسمها بعل بيروت او بعل بريت . وقد اقاموا لهُ هيـكلاً كبيراً على الجبـل المشرف على مدينتهم في بيت مري وهو هيـكل دير القلعة المكرَّس لبعل مَرقد الذي كان الفينيقيُّون يحجُّون اليهِ ثم حسَّنـهُ الرومان وزادوا في ابنيتهِ واعتبروهُ هيـكلاً لجوبتر البعلبكي

ولما صار الامر لاوغسطوس قيصر خصَّ بيروت بألطاف وهبات لم ينعم بها على غيرها . فولَّى عليهـا القائد مرقس وِسبسيانوس اغريبا بعد ان أزوجـه بابنتـهِ جوليا. وكان صهره مولعاً بالابنية الفخمة . فلمَّا تقلَّد ولاية بيروت شملها بسوابغ النعم وجعلها من المدن الاوَّلية الراقية واستدعى اليها فرقتين من الجيوش الرومانية احتلَّتا

---

(١) اطلب تسريح الابصار في ما يحتويهِ لبنان من الاثار للاب لامنس (٢ : ٢٩)

فيها وهما الفرقة الخامسة المعروفة بالمقدونيَّة (Legio Macedonica) والفرقة الثامنة المنسوبة الى اوغسطوس قيصر (Legio Augusta) فأَضحى لها ذلك ميزةً على بقيَّة المدن الساحليَّة. ثم منحها اوغسطوس امتيازات المستعمرات الرومانيَّة وخوَّل اهلها حقوق الوطنيَّة وكان ذلك السنة ١٥ ق. م. وسمَّاها باسم ابنتهِ جوليا (Colonia Julia Augusta Felix Berytus) اي مستعمرة جوليا اوغسطا السعيدة بيروت وضرب باسمها نقوداً بيروتية على هذه الصورة(١. وقد وُجدت كتابات حجريَّة على الصورة عينها وكذلك ورد في تاريخ بلينيوس الطبيعي (٢ ما يؤيد الامر فانهُ قال عن بيروت: « انها مجاورة نهر ماغوراس الجاري اليها من لبنان وهي مستعمرة تُدعى باسم جوليا السعيدة »

H ولمَّا رأى هيرودس الكبير ملك اليهود محبَّةَ اوغسطوس لبيروت سعى هو ايضاً الى تحسينها. وقد اخبر يوسيفوس في تاريخ الحرب اليهوديَّة(٣ انَّهُ شيَّد في بيروت النوادي الواسعة والأَروقة الرحبة والهياكل والاسواق الفاخرة والحمَّامات والمخازن التجاريَّة. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين والاجانب فاستوطنوها وزادت بهم حسناً وعمراناً. وفي مجلس بيروت جمع هيرودس محفلاً من الفقهاء والاعيان لمحاكمة ولدَيه اسكندر وارسطابولس ابنَي زوجتهِ مريَمنة المكابيَّة فحكم عليهما بالموت وقتلهما ظلماً (٤

Hérode وورث هيرودس اغريبا الاول وهو حفيد هيرودس الكبير حبَّ جدّهِ لبيروت فزانها بمبانٍ جديدة وصفها يوسيفوس المذكور في تواريخهِ (٥ فقال انَّ هذا الملك بالغ في اكرام اهل بيروت فشيَّد لهم مسرحاً كان يفوق على مسارح مدن كثيرة بجمالهِ وفخامتهِ وكذلك بنى لهم ميداناً فخماً وملعباً للحيوانات ومعاهد اخرى لم يدَّخر في بهائها شيئاً من مالهِ ليبلغها من المحاسن اجلّها. وبعد إنجازها دعا الاهلين الى تدشينها فاقام لذلك مواسم واعياداً بهجة انفق في ترويجها المبالغ الوافرة فمثَّلوا في

١) اطلب مجموعة الكتابات اللاتينية CIL, n^os 161 etc
٢) اطلب كتابهُ Plinius : Hist. Nat. V, 17
٣) راجع كتابهُ Fl. Josephus. B.Jud., XXI, 11
٤) اطلب كتاب يوسيفوس العاديَّات اليهوديَّة Idem : Ant. Jud., XV et XVI
٥) في تاريخهِ الحرب اليهوديَّة B. J. VII, 5

المسرح المشاهد المختلفة وتعدَّدت فيهِ الملاهي وعزفت اصناف الآلات المطربة وتفكيهاً للحضور حكم على ١٤٠٠ من اصحاب الجنايات بان ينقسموا قسمين يقاتل بعضهم بعضاً ففعلوا حتى قُتلوا عن بكرة ابيهم · وتمَّ ذلك في الميدان الذي اعدَّه لتلك المبارزات القبيحة والمظنون انَّ موضع هذا المشهد كان على شاطئ البحر بقرب ميناء الحصن المعروف بخان الصاغة حيث يُرى شيء من آثارهِ باقياً الى اليوم

وفي هذا الميدان نفسهِ نادى الجنود الرومانيُّون بقائدهم ڤسپسيانوس امبراطورًا بعد وفاة نيرون فبايعهُ امراء الجيش والولاة وسار من هناك الى رومية ليتولى فيها زمام الملك · وفي الميدان عينهِ احتفل ابنهُ طيطوس بعيد مولد ابيهِ بعد فتحهِ لاورشليم بما لا مزيد عليهِ من الأُبهة والمجد وامر بقتل جمّ غفير من اسرى اليهود ارضاء وتفكيهاً للشعب

ثم خلف هيرودس اغريبّا الاوَّل ابنهُ هيرودس اغريبا الثاني فولَّاه الرومان قسماً من سوريَّة المجوَّفة اي بلاد البقاع التي كانت حاضرتها عَنجر المعروفة سابقاً باسم كَلسيس (Chalcis) مع بلاد البثنيَّة شرقي دمشق · فجرى على مثال والده في تزيين مدينة بيروت بالآثار الجميلة مع انها لم تكن داخلةً في تخوم مملكتهِ فنصب فيها التماثيل ونقل اليها صور مشاهير القدماء من انحاء المملكة وشيَّد فيها ٦٤ نادياً جديدًا منها بناية المجلس البلدي التي يُستدَلّ على شيءٍ من آثارها عند باب الدركة بقرب رجال الاربعين واقام في مسرحها المشاهد السنويَّة فصارت الملاعب والاعياد تحاكي في بيروت مراسم رومية ذاتها · وكان يوزّع على البيروتيين بسخاء القمح والزيت حتى اسرف في ذلك ولامهُ اهل دولتهِ لبذله خزائن المملكة في سبيل مدينة خارجة عن حكمهِ (١

وقد بقي من تلك المباني العجيبة الى يومنا آثار تنبئ بعظم شأنها أخصُّها اعمدة وسوارٍ ضخمة ورؤوس أكلَّة منبثَّة في انحاء المدينة او غائصة في بعض سواحل البحر وكثيرًا يستخرجونها بالحفر عند فتح السكك · وكان عددها يبلغ الالوف في القرون السابقة كما يشهد على ذلك السيَّاح في رِحلهم

وما لا شكَّ فيهِ انَّ بيروت كانت مزدانة في عهد الرومان بأروقة مشيَّدة على

١) تاريخ الحرب اليهوديَّة B. J., XX, ix, 4

سوارٍ ضخمة كانت تمتدُّ على طول المدينة وتبلغ الى نهرها فيتجوَّل الناس في ظلها صيفاً وشتاء. ومنها الآثار السابق ذكرها

وقد بقي من عهد الرومان في بيروت كتابات مختلفة منها مدفنيَّة يرقى بعضها الى القرون الاولى للنصرانية باليونانيَّة واللاتينيَّة على بعضها رموز نصرانيَّة كالصليب وسَعَف النخل ومنها مدنيَّة وادارَيَّة كالانصاب الدالَّة على مسافات الطريق الرومانيَّة (milliaires) وكالآثار لشكر الآلهة لنعمةٍ نالها عبَدَتُهم او لمديح بعض الرؤساء(١).
ومعظم تلك الآثار لاسيما الأعمدة التي كانوا يزينون بها الهياكل والنوادي العموميَّة كانت من الحجر المحبَّب المعروف بالغرانيت كانوا يجلبونهُ من مصر بعناء كبير.
وبعضها من الرخام الوطنيّ الذي تُرى الى يومنا مقالعه في الجبل

البحث التاسع

ديانة اهل بيروت القديمة

سبق انَّ للفينيقيين مزاعم خرافيَّة تجعل بيروت كاحدى مدنهم المقدَّسة وكان إلههم الكبير البعل خصُّوا عبادتهُ بمسحة وطنيَّة تفرزه عن عبادة المدن الساحليَّة الاخرى فكانوا يعبدونه تحت اسم بعل بريت مرجعهُ الى البعل الاعظم كبير آلهة الفينيقيين وانَّما خصُّوه في كل مدينة بصفات لم يُعرف بها في سواها. وان استقصينا البحث عن ذاك المعبود الاصلي ظهر لنا جليًّا انَّا المَعنيّ بهِ الطبيعة الهَيولية بكل قواها فتُبدع وتُفني وتنشئ وتلاشي وتُحيي وتُميت. وكثيرًا ما تخيَّلوا انه الشمس الفلكيَّة فاقاموا لها مواسم الافراح في الربيع عندما تعود الطبيعة الى حياتها فتحييها بواسطة حرارتها.
ولذلك اتَّخذوا ايضاً النار رمزًا عن الاله الشمس فعظَّموها كاحد اركان الطبيعة وقدَّموا لها الذبائح والقرابين المختلفة بل لم يأنفوا ان يضحّوا اطفالهم الصغار لاكرامها وارضائها

واذ كان الفينيقيون يعتبرون البعل ذا مبدأين ممتازين احدُهما فاعلٌ والآخر مفعولٌ جعلوا الفاعل ذكرًا والمفعول انثى. وكما ان البعل كان لديهم كالاله العظيم

(١) اطلب مجموعة المكتب الشرقي MFO II³, 535-540

كذلك اعتبروا عشتاروت كالإلهة الكبرى وربما أضافوا اليهما إلهاً ثالثاً يدعونهُ طوراً مَلكرت وتارة اشمون واحياناً تموزاو أدونيس

ولمَّا رسخ قدم الرومان في سواحل فينيقية ورأوا فيها معبودات الفينيقيين لم يشاؤوا ان يعترضوهم في عبادتهم وانَّما ذهبوا الى أنَّها هي هي معبودات الرومان. ولنا على ذلك دليل محسوس في هيكل دير القلعة الذي كان مزاراً لاهل بيروت ومحجّهم الرسمي ففيهِ كان للفينيقيين معبدٌ كبير تُرى اثارهُ باقية حتى اليوم وهناك عبدوا البعل المسمى بعل مَرقُد اشتقاقاً من لفظة فينيقية معناها الرقص واللهو كأنهم كانوا هناك يجتمعون ليستسلموا الى الملاهي والقصف

فلما استولى الرومان على برّ الشام اعتبروا هذا المعبود كالههم الاكبر وهو جوبتر اي المشتري. والدليل عليهِ كتابات شتى ذُكر فيها المشتري بعل مرقد كأنَّ الاسمين لمسمّى واحد

Maximo. Optimo. Jovi. Balmarcodi.

وكذلك اعتبر الرومان الإلهة الفينيقية عشتروت كالهتهم المسمّاة جونون المدعوّة عندهم إلهة السماء. وكان الفينيقيّون ايضاً يسمّون عشتروت ملكة السماء نصٌّ على ذلك سفرُ ارميا النبي (ف ٧ ع ١٨) ومن الادلّة على الامر كتابات عديدة لاتينيّة وُجدت في دير القلعة ورد فيها مصرَّحاً اسم «جونون» وقد اعتبروا في كتابات غيرها عشتروت كالزُهرة المسمّاة عندهم ڤانوس (Vénus) يؤيد ذلك كتابتان وُجدت الواحدة قرب الشويفات والاخرى في بعلبك ورد فيهما مع جوبيتر اسم ڤانوس بدلاً من جونون. وفضلاً عن ذلك جاء في هاتين الكتابتين اسم الهٍ ثالث بهِ يتمُّ عدد الثالوث البعلبكي الذي كان يُعبد ايضاً في دير القلعة وهو الاله مركور اي عُطارد. وقد اثبت ذلك حضرة الاب لويس جلابرت في مجموعة المكتب الشرقي(١) والاديب الفاضل ميخائيل افندي موسى الوف في دليل بعلبك. امَّا اسم هذا الالهُ الثالث عند الفينيقيين فلم يُعرف صريحاً حتى الآن (راجع مجلّة المشرق لسنتها العاشرة (١٩٠٧ص١٥٨—١٦١)

وكان لكل هذه المعبودات اعياد مختلفة في فصول السنة يحتفل بها الفينيقيّون عموماً والجُبَيْليّون والبيروتيّون خصوصاً. وقد وصفها الاب هنري لامنس في كتابهِ

(١) اطلب Mélanges de la Fac. Orientale I, 175

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

﴿ النصرانية في بيروت ﴾ على ان هذه الاديان الكاذبة اخذت مع ظهور المسيح في الخمول والتقهقر ولدينا عدة شواهد تثبت كون بيروت نالها عاجلاً شيء من انوار الدين المسيحي منذ اول ظهور النصرانية . ففي تقليد قديم اثبتهُ الراهب الدومنيكاني بُرخارد في القرن الخامس عشر وقبلهُ كاتب الماني يدعى بريتنباخ (المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٨١—٩٨) يلوح منهُ بان السيد المسيح بلغ حتى ثغر بيروت لما بشَّر بالانجيل في تخوم صور وصيداء . كما روى الانجيليَّان متى (١٥ : ٢١) ومرقس (٧ : ٢٤)

وقد بحث في هذه المسألة الاب ألفرد دوران اليسوعيّ في غضون وصفهِ لرحلة السيد المسيح الى فينيقية والمدن العشر (المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٣١) فادَّعى ان السيد المسيح دخل ثغر بيروت واثبت ذلك استناداً الى آية القديس مرقس حيث يقول في انجيلهِ (٧ : ٣١) انَّ يسوع بعد خروجهِ من صور «مرَّ في صيداء . وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل» فبيّن انَّهُ لم يرجع القهقرى ليذهب الى المدن العشر لكنهُ ذهب توًّا اليها على طريق مستقيم فقطع لبنان على السكَّة الرومانيَّة التي كانت تؤدي من بيروت الى دمشق . وبهِ يزيد رجوح التقليد الراوي لدخول السيد المسيح في بيروت . فتكون عاصمة لبنان نالها شرف خاصّ ينظمها في جملة الاراضي المقدَّسة

وما لا شبهة فيهِ انَّ الرسل الحواريين في اسفارهم الى انطاكية وعودتهم منها لاسيما بطرس الصفا وبولس الرسول اجتازوا في بيروت غير مرة ولا يقبل العقل انهم اهملوا دعوة اهلها الى النصرانيَّة . وفي المنقولات عن قدماء المؤرّخين انَّ بطرس الهامة عند مرورهِ ببيروت جعل عليها اسقفاً يدعى كوارتوس (Quartus) وهو المذكور في رسالة بولس الى اهل رومية (١٦ : ٢٣) . وكانت اسقفية بيروت خاضعة في اوَّل امرها لكرسي صور لكنَّ رقيَّها في الحضارة وشهرتها في العلوم دعت ملوك بزنطية الى الانعام عليها فجعلوها كرسيًّا مطروفوليطيًّا وذلك في اواسط القرن الخامس بفضل الملكين ثاودوسيوس الثاني المعروف بالصغير وفالنتنيان وألحقا بها اساقفة جُبيل والبترون وطرابلس وعَرقة وطرسوس . وممَّا يشهد لرقي النصرانيَّة في بيروت ما ورد في تاريخ ساويرس الانطاكي لزخريا المعروف بالخطيب حيث يروي انَّ في تلك المدينة كانت ستُ كنائس مسيحيَّة الواحدة منها باسم الرسول يهوذا او تدَّاوس احد تلاميذ

المسيح وزعموا انه استشهد في بيروت. وقيل بل هو يهوذا احد السبعين تلميذًا وتشيَّدت احدى تلك الكنائس تذكارًا لحادثٍ ذكره صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ثم صارت بعدئذٍ في ايدي رهبان الفرنج. قال صالح (ص ١٧): «ويزعمون ايضاً انهُ كان بكنيسة الفرنج ببيروت قونة خشب فيها صورة مصوَّرة ضربها بعض اليهود بسكّين فصارت تنزف دماً ثم نقلت هذه الصورة الى القسطنطينيَّة فعمَّروا عليها كنيسة يعظمها الفرنج». يشير صالح الى معجزة جرت على ما زعموا في القرن الخامس وخبرُها مدوَّن في جملة اعمال القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندريَّة. والصواب انَّ كاتبهُ راوٍ اخر سميُّهُ عاش بعده. وفي اعمال المجمع النيقاوي الثاني ورد ذكر هذه الايقونة التي كانت اولًا ببيروت ولها عيد يُحتفل بهِ في كنائس الشرق والغرب ويذكرهُ السنكسار الروماني ويعيّنهُ في ٩ من تشرين الثاني. والمرجح انها لم تكن ايقونة بل صليباً وقد يدَّعي اهل بَلنسية في اسبانية انَّ ذلك الصليب لا يزال عندهم يكرمونهُ الى ايامنا هذه وقد اثبتنا في مجلَّة المشرق(١١ : ٢٥٤)تفاصيل خبرهِ

ومع هذه الادلَّة على انتشار الدين المسيحي في بيروت نجد للوثنيَّة آثارًا باقية الى القرن السادس للمسيح. وقد سبق لحضرة الاب رينه موتِرد في المشرق(٢٢[١٩٢٤]: ١٩٥—٢٠٠) وصف هيكل وثني كان مقاماً جنوبيَّ السراية الجديدة على منعطف التلّ الراقي من باب يعقوب الى كنيسة الارمن الغريغوريين. وكان الهيكل المذكور على اسم «الزُهَرة السيّدة» اي معبودة الفينيقيين عشترت. وبقربهِ وُجدت كتابات راقية الى اواخر القرن الثاني او اوائل الثالث. وقد نُشرت صورة ذلك الهيكل مكبَّرةً عن بعض نقود بيروت (ص ١٩٥)

وفي ترجمة ساويرس الانطاكيّ لزخريّا الخطيب افادات عن بقايا بيروت الوثنيَّة في عهدهِ اي في اواسط القرن الخامس وذكر هناك شيئاً من عاداتهم ومآتمهم واشتغالهم بالسحر ونفور الناس عن السَّحَرة لخبثهم وسوء تصرُّفهم (١

وكذلك الكتابات المدفنيَّة والتذكاريَّة والآثار الفنيَّة المكتشفة في بيروت وفي جوارها ولاسيا في جهات بيت مري وعند دير القلعة معظمُها لعبَدَة اوثان تتراوح بين القرن الثاني الى السادس للميلاد. ولعلَّ المدينة لم تنبذ تماماً العبادة الوثنيَّة قبل الزلازل

١) اطلب هذا الكتاب وترجمتهُ بالافرنسيَّة F. Nau : Vie de Sévère, pp. 49-68

التي كادت تطمس آثارها الى آخر الدهر

على انَّ الوثنيَّة مع ثبات آثارها في بيروت لم تأت فيها على ما يظهر بمعاملات سيئة من مصادرة النصارى واضطهادهم مما نجدهُ في غيرها من المدن الساحليَّة التي كثُر فيها الشهداء وجاءَت اخبارهم في صفحات التاريخ لاوسابيوس القيصري وغيره كجبيل وصور وقيسريَّة

امَّا ما يُخبر عن استشهاد القديس جرجس فيها وانقاذ ابنة ملكها من التنين فهي رواية لا يمكن القطع بها ويدَّعي الكتبة وقوعها في عدَّة اماكن كنيقوميدية ولُد (قرب يافا) وغيرهما. فضلًا عمَّا في قصَّة التنين من الغرابة

البحث العاشر

مدرسة الفقه الروماني في بيروت

وممَّا ألفتَ الى بيروت أنظار العالم الروماني مدرستُها الفقهيَّة التي احرزت لها مجدًا اثيلًا يفوق على مجد رومية والقسطنطينيَّة عينها. قيل ان اغسطوس قيصر بعد انتصاره من مرقس انطوان خصمهِ في اكسيوم اجتاز في بلاد الشام واعجبهُ موقع بيروت فأنعم عليها بفتح هذه المدرسة الفقهيَّة. وليس لنا على ذلك برهان قاطع. والمرجَّح ان هذه المدرسة أُنشئت في اواخر القرن الثاني للمسيح لمَّا صارت الدولة الرومانية في عُهدة سلالةٍ تُعرف بالسوريَّة وكان اول ملوكها سپتيموس ساويرس (١٩٣—٢١١م)

وما لا شبهة فيهِ انَّ مدرسة بيروت الفقهيَّة كانت عامرةً في اوائل القرن الثالث كما روى الامرَ احد مشاهير المتخرّجين فيها القديس غريغوريوس العجائبي في اواسط القرن الثالث. وكذلك شهد على وجودها احد الجغرافيين اليونان في تاريخ سنة ٢٣٩ للمسيح فقال: «ان بيروت جامعة لتعاليم كل الشرائع الرومانية (١)»

وقد انشأ الرومان مدارس غيرها في رومية والاسكندريَّة وفي قيصرية فلسطين وفي اثينة ثم (في القرن الرابع) في حاضرة القسطنطينيَّة وانما بيروت امتازت بعدة

(١) اطلب Geogr. Minores. II, 517, : « Berytus... auditoria legum habens, per quam omnia Romanorum judicia stare videntur.»

قصيرة بل برزت وفاقت على تلك المدارس حتى مدرستَي رومية والقسطنطينيَّة

ولعلَّ بعض فقهاء السوريين الذين امتازوا في المئة الثانية والمئة الثالثة للمسيح هم الذين استوقفوا انظارَ معاصريهم على بيروت وما ازدانت بهِ من المفاخر. منهم پاپنيان (Papinien) الفقيه الشهير الفينيقي الاصل وأولپيان (Ulpien) الصوري ويوليوس پولس (J. Paulus) الحمصيّ . فهؤلاء قد بلغوا ذروة المجد بعظم فضلهم وسعة مداركهم تشهد لهم بقايا عديدة من مآثرهم صبرت على آفات الدهر . وكان ديوقلسيانوس الملك اعفى دارسي الفقه في بيروت من الضرائب العموميَّة تنشيطاً لهم فراجت فيها سوق الآداب ايَّ رواج

وممَّن اطنبوا في وصف مدرسة بيروت الفقهية وأثنوا عليها جميلاً كاتبٌ لاتيني وضع في اواسط القرن الرابع تأليفاً وصف فيهِ خواصَّ البلدان عنوانهُ معرض العالم كلّهِ (Expositio totius mundi) فلما اراد تعريف بيروت قال: «انها المدينة الوافية الكمال مَوقعاً وحضارةً» ومن جهة الاداب العلميَّة ذكر «انَّ فيها مدارس لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني واليها يتوارد الطلبة افواجاً من كل صقع ومنها يخرج المحامون القانونيُّون لمحاكم العالم كلهِ» . وقد دعاها الملك يوستنيان في دستورهِ القانوني: «امَّ العلوم وظلَّ الشرائع». وقال يوحنا اناطوليوس : «انها كرسي الآداب والنعم». ولقَّبها القديس غريغوريوس العجائبي «بالمدرسة الرومانية المحضة ومركز شرائع رومية الثابت». وقال الشاعر نونُّس : «انها موطن الحقوق ومدينة الفقهاء ومُرضعة الحياة باللّين والتؤدة»

وقد ابقى لنا التاريخ اسماء بعض معلّميها وهم كيرلُّس ودِيوستان ودُمنينوس واودكسيوس ولاونطيوس . ثم اشتهر منهم اناطوليوس ودوروتاوس . وألَّف كيرلُّس كتاباً مدرسيًّا يُعرف بالتحديدات الفقهية وهو من التآليف المُمتعة

ولما جلس الملك يوستنيان على منصَّة الملك في القسطنطينيَّة اراد تهذيب الشرائع الرومانيَّة وتنظيمها وحَصْر ابوابها فانتدب نخبة فقهاء ذلك العصر ليقوموا بهذا العمل الجليل واستدعى من جملتهم ثلثة اساتذة من مدرسة بيروت فساعدوهُ في عملهِ مساعدةً هامَّة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس فأنجزوا في سنين قليلة تلك المهمَّة المعتبرة كطُرفة ذلك العهد وأبرزوا الدستور اليوستنياني في كل اقسامهِ

وفروعهِ فأخرجوهُ في كتب معلومة عوَّلوا عليها في درس الفقه مذ ذاك الحين . واحد اقسام ذالك الدستور المعروف بالمنظَّم (Digesta) قام بهِ اودكسيوس البيروتي وحدهُ . فعُدَّ عمل يوستنيان من اخصّ نِعَم دولتهِ واضحى كاساس الدروس الفقهية في كل الدول التي جاءَت بعدهُ وكركن الشرائع المستحدَثة . وفضلُ بيروت ظاهر في هذا المشروع العظيم

ثم رأى يوستنيان ان يصلح المكاتب الفقهية فألغى منها مدارس قيصريَّة واثينة والاسكندرية ولم يُبقِ منها الَّا ثلثاً وهي رومية والقسطنطينيَّة وبيروت . وكان الملك يختار لها معلّميها ويُجري عليهم الجرايات . وكان لبيروت خمسة اساتذة على عدد السنين الخمس اللازمة لإحراز الدروس الفقهيَّة . لكلّ سنةٍ استاذ . فيخرج التلامذة بعد ان ينالوا الشهادة من اساتذتهم مستعدّين لكلّ الامور الشرعيَّة متقنين لحقائقها ودقائقها اتمّ الاتقان

وان سأل السائل كيف كانت معيشة الطلبة المتقاطرين الى بيروت من انحاء الدولة أجبنا انَّهم كانوا أحرارًا يتَّفقون في الغالب مع الاهلين فيسكنون في بيوتهم ويبيتون عندهم ليلًا ثم يتردَّدون الى المدارس في ساعات التعليم . ولا يخفى ان تراحم الشبان المطلَقي الحريَّة في حركاتهم وسكناتهم كثيرًا ما يقودهم الى ردغات المآثم حتى ولو كانوا من اهل الصلاح فما ظنُّك بهم ان كانوا مائلين الى الاهواء الباطلة يسعون الى إغواء رفقتهم في حمأة الفساد ولاسيما في عهد الوثنيَّة ? فانَّ الكتبة المعاصرين كاوسابيوس القيصري وغريغوريوس العجائبي يدعون بيروت « مصيدة النفوس البارَّة » لكثرة ما فيها من دواعي الفجور فان هواءها الطيّب وحدائقها وحمَّاماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مَدعاةً الى اللهو وارتكاب المحرَّمات . وقد شبَّهها غريغوريوس العجائبي بساحرةٍ تفتن عقول الاحداث وتهوي بهم الى قعر الفساد

ومما كان يزيد مدينة بيروت عثرةً لذوي الصلاح ما أُقيم فيها من هياكل الاصنام التي تعظِّم الشهوات البشرية وتؤَلِّه المنكرات . فكان الوثنيون يجاهرون بعبادة عشتروت إلهة الزنى وباخوس إله الخمر والقصف وكان يخدمُ هياكلهما سَدَنةٌ يتاجرون بالعهارة حتى ان الشاعر اليوناني نوّنس نعَتَ بيروت في اواخر القرن الرابع ببلاط عشتروت ومقام اللذَّات البهيميَّة وهيكل المرَح والبطَر

ثم افاض في وصف حدائق بيروت وغاباتها الصنوبريَّة وما يُشرف عليها من الرُّبى الزاهية والمشارف المزدانة بالنوادي والابنية الفخيمة منها هيكل جوبيتر البعلبكي في بيت مري الذي كان يتوارد اليهِ الزوَّار من انحاء فينيقية . وكانت كل هذه الاماكن مجلبةً للتنعُّم ورفاهية العيش والخلاعة تجذب اليها قلوب الشبيبة جذب المغناطيس للحديد

ولما تغلّبت النصرانيَّة على المدينة بعد قسطنطين الكبير وثاودوسيوس لم تزل العثرات العديدة في سبيل الشبَّان ولم ينجُ منها الَّا القليلون كأمفيان الشهيد الذي كان قدوة أترابهِ ومثالهم الحيّ . ولنا على معيشة الدارسين في بيروت شاهدٌ عياني كان في القرن الخامس وهو زكريَّا الاستاذ الذي كتب بالسريانيَّة سيرة ساويرس الانطاكي ووصف سلوكهُ في بيروت اذ كان يدرس فيها الحقوق (سنة ٤٨٧–٤٨٨) وقابل بين رزانتهِ ونزَق رفقتهِ الشبان كما روى ذلك المرحوم بولس هوفلين (Mr Paul. Huvelin) كبير اساتذة مكتب ليون في مجلة المشرق في سنتها السادسة عشرة (ص ٩٣٠–٩٣١) . وهناك لمحة عن تنظيم المدارس ودرجاتها وترتيب صفوفها ومعلّميها وخُصَّ منهم بالذكر لاونطيوس بن افدوكسيوس وغير ذلك من التفاصيل التي تمثل لنا بكل دقة حياة المستفقهين في اواخر القرن الخامس للمسيح

ومما افادنا كتبة ذلك العهد ان مدارس بيروت ما كانت مقتصرة على علم الفقه بل كان الاحداث يعكفون ايضاً فيها على العلوم الادبية بفروعها كاللغة والادب والفلسفة . الَّا انَّ شهرتها في الفقه كان يُضرَب بها المثل في العالم الروماني باجمعهِ . وبقيت مدارس بيروت زاهيةً عامرةً الى اواسط القرن السادس حيث نُكبت بالزلازل وكوارث الدهر كما سترى

البحث الحادي عشر

تجارة بيروت وصناعتها في ايام الرومان

غنيٌّ عن البيان ان بيروت من اصلح مدن فينيقية للمعاملات التجاريَّة لحسن موقعها على شاطئ البحر متوسّطةً بين فلسطين وفيليقية مجاورة لسوريَّة المجوَّفة اي البقاع وللاقطار الحلبيَّة وهي فُرضة دمشق وبازاء قبرس ليست بعيدة عن وادي النيل . فقد ادرك القدماء ما لهذهِ الخواصّ من المنافع الاقتصاديَّة الجمَّة . على انَّها لم

تبلغ قطّ من رواج تجارتها ما افادتهُ في عهد الرومان

فلمّا بسطت رومية ظلّ رعايتهــا على بيروت جعل عمّالها ينشّطون اهلهـا في تعزيز متاجراتهم . وقرّبوا لهم الامر بجلب المياه الحلية وفتح الطرق بينها وبين البلاد المحيطة بها . وبقايا تلك المشروعات لا تزال ظاهرةً حتى يومنا على ساحل البحر وفي جهات لبنان والبقاع . فذلك ما جعل بيروت في مقدّمة مدن فينيقية كما صرّح بالامر في القرن الرابع أميان مرشلّان في تاريخهِ (١ حيث يقول : « انّ اجلّ مدن فينيقيــة بيروت وصور وصيدا » وبعـد اطرائهِ لمدارس بيروت وسبَقها في تعليم الفقه يردف قائلًا : « انّ الترفُّه ورغد العيش ومجالي الأُبهة كل ذلك غالبٌ على بيروت »

واخبر صاحب وصف البلدان المُغفَل (Anonymi Orbis descriptio, 25) انّ « منسوجات بيروت من الصوف والكتّان كانت مشهورة في كلّ الاصقاع . وفي ايّام ملوك الروم وخصوصاً في عهـد يوستنيان » صارت بيروت مركزاً لتجـارة الحرير والاشغال الحريريّة (٢ » ولم يعارض بيروت في ذلك سوى مدينة صور

وقد ذُكر في الكتابات اليونانيّة (Waddington, n° 1854) احدُ البيروتيين المدعو صموئيل كبائع الحرير (sericarius) . ووُصف غيرهم بالصبّاغين ما يدلّ على وجود الصباغات في بيروت لصبغ الارجوان والاقمشة

وكانت المعاملات التجاريّة في عهد الرومان متواصلةً بين سواحل الشام وبلاد ايطالية وغاليــة فكانت محصولات سوريّة تُعرض في اسواق تلك البــلاد وكان للسوريين شركاء يسكنون هناك لترويج بضائعهم وعملاء ينقلون محصولات الغرب الى انحاء الشام . وقد وقف الاثريون على عدّة كتابات جاء فيها اسماء تجّار من فينيقية وسوريّة كانوا يقطنون بلاد الغرب . فمن ذلك كتابة لاتينيّة وجدت في مدينة بوزولة (CIL, X, 1634 Puteoli, Pouzzoles) ورد فيها ذكر تجّــار بيروت السـاكنين هناك Berytenses qui Puteolis consistunt وذلك في عهد القيصر ترايانوس في اوائل القرن الثاني للمسيح

١) اطلب Amm. Marcellin., *Hist.*, *XIV*, *n°* 8

٢) اخبر بذلك المؤرخ بروكوبيوس في كتابهِ المعروف بالتاريخ السرّي (Historia Arcana, 25)

ومما يشهد على اتساع المتجر في بيروت العدد الوافر من اليهود الذين كانوا يتعاطون فيها التجارة في عهد الرومان تدلّ على ذلك كتابات مدفنيّة وجدت في المدينة لاهل مذهبهم

وكذلك اشتهرت بيروت بخصبها ووفرة غلّات أرباضها وقد اتّسع في ذلك الشاعر نونُس في كتاب الديونيسيّات (١ فوصفها باوصاف قلّ ما وُصفت بها مدينة غيرها وهو يدعوها « بِرُوِيَه » وينعتها « بملكة الحياة وظئر المدن وفخر الملوك ومَعهد إلهة العدل وسُور الفقهاء ومركز السرور ونجم لبنان» ويطرئ كرومها التي تكسو رُباها بثوبٍ سندسيّ يروق للعين وتُعصر من ثمارها «خمرة الإله بخوس» . وقد امتدح ايضاً بلينيوس الطبيعيّ (٢ عنبها اللذيذ وخمرتها الطيّبة (Berytia vina) . وكذلك وصف الشاعر العربيّ خمر بيروت وقراها فقال :

وسَبيئةٍ من قِرَى بيروتَ صافيةٍ عَذراءَ قد سُبيت من ارض بَيْسانِ

ولا رَيب في اعتناء بيروت بزيتها مع ما يُرى من كثرة اشجار زيتونها وآثار معاصرها القديمة

وقد ساعد على زهرها ونموّ غلّاتها ووفرة بقولها وبسوق نخلها واشجارها ابتناء الرومان لتلك القنيّ المحكمة التي كانت تأتي بالمياه اللبنانيّة الصافية الى بيروت بعضها من نهرها ماغوراس والبعض الآخر من نبع العرعار فوق قرية بعبدات من مقاطعة المتن الشمالي . ولم تزل آثار تلك القنيّ باقية الى عهدنا . فعند نبع العرعار قبو وبقايا حوض وقنيّ تشهد على ذلك . ثمّ يمكن الاستدلال على القني المذكورة في انحاء ممرّها في الرُوَيسة قريباً من بعبدات . وفي القشي شرقيّها قريباً من طريق العجلات ثم في الرصيف شرقيّ قرية برمّانا ثمّ بينها وبين بيت مري في المكان المعروف بمعصرة الحريق حتى تبلغ دير القلعة . وفي تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ١١—١٢) ما يؤيد ذلك فانه يقول عن تلك القناة انها «من العمائر العجيبة وكانت تجري من مكان يسمّى العَرْعار من ارض كسروان قيد اثني عشر ميلاً» . فبتلك المياه خصبت تربة بيروت حتى توفرت محصولاتها ونُقلت الى البلاد الاجنبيّة

(١ اطلب Nonnus : *Dionys.*, XLI, éd. Didot, p. 343-344

(٢ في تاريخه الطبيعي Pline, HN, V, c. 17

ومما خُصَّت بهِ بيروت منذ الزمن القديم غاباتها . فمنها ما كان يزين جبالها المشرفة عليها كالارز والشربين . ومنها ما كان يظلّل حدائقها المحيطة بها كالنَّخل وكان يكثر فيها وكذلك السّرو الذي زعموا انَّ من اسمهِ بالعبرانيَّة اشتقَّت بيروت اسمَها كما سبق . ومثلهُ الصنوبر الـذي اتَّسعت غاباتهُ حول بيروت وورد ذكرهُ في قدماء الكتبة . فانَّ الشاعر نونُس مثلًا قد أطنب في القرن الرابع المسيح في مدح غابات صنوبر بيروت في قصيدتهِ الثانية والاربعين من ديوانهِ المعروف بالديونيسي (Dio-nysiaca, XLII) . وبقيت تلك الغابات الى ايام العرب فذكرها الشريف الادريسي في جغرافيَّتهِ المعنونة بنزهة المشتاق في اخبار الآفاق وذلك في القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح حيث قال : « لبيروت غيضةٌ من اشجار الصنوبر سَعَتُها اثنا عشر ميلًا في التكسير تتَّصل الى نحو لبنان»

ومما رُوي في تاريخ غليلموس الصوري انَّ الصليبيّين لمَّا حاولوا محاصرة بيروت عمدوا الى اخشاب غاباتها فجهَّزوا منها المجانيق والادوات الحربية . وقد ورد ايضاً في تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (ص ٥١–٥٢) ما صنع الامير الكبير يَلبُغا العُمَري في محرَّم من السنة ٧٦٧ (١٣٦٥م) اذ «أمرَ سيف الدين بيدَمُر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت ليعمّر من غاباتها مراكب كثيرة حمَّالاتٍ وشوانيَ لفتح قبرس» قال : «فحضر الى بيروت وأحضر صنَّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمّاً غفيراً وقيل انهُ لم يُعهَد قطُّ عمارةٌ مثلها عظماً وسرعةً وكثرةَ صنَّاع وقوَّةَ عزمٍ . وعمَّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت بهِ الى الآن وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعدٍ من البحر» ثمَّ ذكر ما صُرِفَ عليها من المال الكثير الذي ذهب سدًى لوفاة الامير يَلبغا

ولعلَّ كثرة ما قُطِع من تلك الاشجار لابتناء السفن كاد يُتلفها . فانَّ احد السيَّاح الالمانيين ذكر سنة ١٤١١ انَّ سعة غابات بيروت ميلانِ فقط . ومن المعلوم انَّ هذه الغابات تُنسب حتى يومنا الى الامير فخر الدين وانَّما هو اهتمَّ فقط بتجديدها وتوسيعها . وما يُرى منها الى اليوم بقايا تلك الغابات الشهيرة وهي كافيةٌ لتبيّن لنا إعجاب القدماء بمحاسنها ومنافعها حتى انَّ الشاعر لامرتين الفرنسوي في اواسط القرن الماضي اشاد في ذكرها بل بالغ في وصفها حتى نُسب الى الغلوّ والتطرُّف

وكذلك كان البيروتيُّون يتاجرون بالمعادن التي كانوا يستخرجونها من لبنان

اخصُّها النحاس والحديد . امّا النحاس الذي تكرَّر ذكرهُ كاحد معادن لبنان في الكتابات المصريَّة والاشوريَّة فانَّهُ قد أَصبح اليوم اثرًا بعد عين إمَّا لنفوده من لبنان وامَّا لمتاجرة الفينيقيين بهِ قديمًا ثم عُدولهم عن جلبهِ . امّا الحديد فشاع مدَّة اجيالٍ طويلة استخراجهُ من مناجم بيروت حتى انَّ قدماء المصريّين دعوا الحديد باسم «با ان بَرْت» اي «معدن بيروت»

ولدينا في كتب جغرافيّي العرب وسيَّاحهم عدَّة شواهد تثبت استخراج الحديد من مناجم بيروت . فمن ذلك ما جاء في كتاب المقدسي احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ١٨٤) انَّ «معادن الحديد في جبال بيروت» . وقد ذكرهُ من بعدهِ الشريف الادريسي فقال : «وبقربة من بيروت جبل فيهِ معدن حديد طيّب جيّد القطع يُستخرج منهُ الكثير ويُحمل الى بلاد الشام» ومثلها ما قالهُ ابن بطوطة في رحلتهِ (١ : ١٣٣ من الطبعة الباريسيّة) : «وسرنا الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن . وتُجلَب منها الى الديار المصريّة الفواكه والحديد» فجمع ابن بطوطة بين مواليد بيروت النباتيّة ومرافقها المدنيّة . ذلك فضلًا عمّا كانت ترتزق بهِ بصيد الاسماك وتستخرجهُ من الاصداف البحريّة لصبغ الأُرجوان كصور وصيداء .

فبكل هذه المحصولات مع حسن موقع المدينة وصفاء جوّها وكثرة خيراتها اوقفت بيروت انظار اوغسطوس قيصر فخوّلها امتياز المستعمرات ونعتها بالسعيدة ودعاها باسم ابنتهِ جوليا مشعرًا باسم عمّهِ يوليوس قيصر ومضيفًا اليها اسمهُ الشخصي اوغسطوس كما سبق . وعلى هذه الصورة ضُربت النقود البيروتيّة الى اواخر القرن الثالث . وكثيرًا ما كانوا يصوّرون على تلك النقود جنديًا يفلح الارض لانَّ اوغسطوس قيصر كان اقطع كثيرًا من املاكها جنودهُ الذين نصروهُ في واقعة اكسيوم

وقد بيَّن حضرة الاب لامنس في كتابهِ تسريح الابصار (١ : ٢٧) ما نالتهُ بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانيّة من الامتيازات الخاصّة : منها معافاة اهلها عن دفع الجزية . ومنها استقلالها النوعي اذ لم يعُد يحكم عليها ولاة رومانيّون بل اضحت كدولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانيّة في الشرق تتصرّف باحكامها

كالعاصمة نفسها . وانَّما كان يُعنى بسياستها حاكمان (duumvrs) اليهما يفوَّض تدبير الامور لهما الحلّ والعقد والامر والنهي كقناصل رومية المختارين لسنةٍ . وكان للمدينة دار ندوةٍ يجلس فيها للبحث عن صوالح العموم مئة من رؤساء الاعشار (décurions) . وكان لبيروت كما لرومية ساحة كبيرة (Forum) يجتمع فيها جمهور الاهلين فيسمعون خطب الرؤساء ويقفون على تقارير المندوبين وكانوا يختارون وحدهم ولاتهم وحكَّامهم دون ان يتداخل عمَّال رومية في شؤونهم إلَّا اذا ثارت بينهم الفتن وافترقت كلمة السكان بالشغب

فكل هذه الامتيازات الفريدة زادت في سمعة بيروت ووسَّعت نطاق معاملاتها ولعلَّ معظم الآثار التي تُرى الى اليوم في جهاتها او تُستخرج بالحفريَّات متَّصلة بالعهد الروماني والبوزنطي لاسيما النواويس الحجريَّة او الرصاصيَّة التي وُجدت في شرقيّ المدينة وغربيّها على بعضها كتابات يونانيَّة ولاتينيَّة

وبعض هذه الآثار من بقايا قصور او عمائر لذوي الثروة واليها اشار صالح في تاريخهِ حيث يقول (ص ١٣—١٦) :

« وممَّا يُستدلّ على كبر بيروت وسعتها ما يجد الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العمائر القديمة ما طولهُ قريب من ميلَين اوَّلهُ مكان يسمَّى بُلَيْدة وذو قسية غربي البلد الى مكان حقل القشا مقارب النهر شرقيّ البلد . فلمَّا عمَّروا السور اختصروهُ على القدر الذي هو عليهِ اليوم »

ومن المقرَّر انَّ كثبان الرمل التي تمتدُّ اليوم غربيّ بيروت وجنوبها لم تكن في عهد الرومان قد سجَّت بكفنها تلك الجهات لِما اعتادهُ الرومان من تشجير البلاد ونَصب الغابات التي هي اصلحُ السدود في وجه الرمال البحريَّة فضلًا عن منافعها الصحيَّة والاقتصاديَّة . وكانت بيروت تزدهي ببعض الجُزُر الصغيرة المجاورة لها والتي يشير اليها في القرن الرابع نونُس الشاعر (Dionys., XLI. fi5) حتى وصف بيروت بالمدينة المزدانة بالجزر (εὔνησος) وقد ثبتت بعض هذه الجزائر الى القرون الوسطى اذ نسفتْها الزلازل(١)

(١) اطلب تسريح الابصار (٢ : ١٨)

فهذا بعض ما اوقفتنا عليهِ الآثار عن احوال بيروت وتجارتها وصناعتها في عهد الرومان وملوك بوزنطية الروم قبل حدوث تلك الزلازل التي كادت تقضي على بيروت في القرن السادس

البحث الثاني عشر

مشاهير بيروت قبل العرب

لم تخلُ بيروت من مشاهير عظام شرَّفوها بآثرهم في الزمن الذي سبق عهد الاسلام منهم وثنيون ومنهم مسيحيون .

فالوثنيون منهم اشتهروا في ايام الدولة الرومانيَّة الَّا ﴿ سَنكُن يَتُن ﴾ المؤرخ الفينيقي الذي عاش قبل المسيح بزمن طويل حتى زعم البعض انهُ عاصر موسى النبيّ. قالوا ذلك حدساً وان هو الَّا وهمٌ لا سند لهُ والعلماء يرجحون اليوم انهُ عاش في القرن الرابع قبل المسيح. ولد في بيروت وصار كاهناً للاوثان وانَّما كان عارفاً بامور بلادهِ فدوَّن تقاليد قومهِ واخبار وطنهِ فاخذَتها يدُ الضياع إلَّا ما نجا منها منقولًا في كتب الفيلسوف الجبيليّ فيلون وفي تاريخ اوسابيوس القيصري لاسيما مما رواهُ من اساطير القدماء وخرافاتهم

ولعلَّ فينيقيًّا آخر من بيروت اسمهُ ﴿ مناسياس ﴾ او منسَّى (Mnaseas) تقدَّم عهد السيد المسيح روى لهُ القدماء كتاباً في الخطابة وفي المفردات اليونانيَّة .

وامَّا بعد المسيح فان بيروت قد تشرَّفت بعددٍ من العلماء منهم فلاسفة ومنهم لغويُّون وبعضهم فقهاء واطباء

فمن الفلاسفة اشتهر في القرن الاوَّل للميلاد ﴿ اغناطيوس تشالر ﴾ (Egnatius Celer) من الفلاسفة الرواقيين كان مولدهُ في بيروت ثمَّ رحل الى رومية في عهد نيرون واصاب فيها بعض السمعة بخطبهِ في دواوين المحاماة

وفي اواخر ذلك القرن واوائل القرن الثاني للمسيح في عهد القيصرين ترايانوس وادريان عُرف الفيلسوف البيروتي ﴿ هرميبوس ﴾ (Hermippus). كان هذا تلميذًا

للفيلسوف فيلون الجبيلي وانحاز مثلهُ الى مذهب افلاطون. أَلَّف باليونانيَّة كتباً في التنجيم وتفسير الاحلام

وكان قريباً من زمانهِ احد مواطنيهِ الفيلسوف «ثاودورس» المولود في بيروت في اواسط القرن الثاني. تشيَّع مثلهُ لمذهب افلاطون في الفلسفة

وفضَلَهُ في الشهرة معاصرهُ «كلڤيسيوس تورس» (Calvisius Taurus) ولد ونشأ في بيروت ثم تخرَّج في رومية واعتنق مذهب افلاطون ومن تآليفهِ كتاب الفرق بين تعاليم ارسطو وافلاطون. وشرح بعض مصنَّفات افلاطون وكتب في الاجساد الهيوليَّة والارواح المجرَّدة

ومن مشاهير الكتبة في القرن السادس احد علماء الطبيعة المسمَّى «اناطوليوس بندانوس» (Anatolius Bindanus) كان بيروتيًّا والَّف كتاباً في تاريخ الطبيعة في عدَّة مجلَّدات

امَّا اللغويون فاصاب بين الرومان سمعةً واسعة الاستاذ البيروتي «مرقس ڤاليريوس پروبوس» (M. Val. Probus) من اهل القرن الاوَّل الميلاد فبرَّز في المعارف اللغويَّة والفنون الادبيَّة وقد اطراهُ المؤرخ اللاتيني سويتونيوس في كتابهِ عن اللغويين الرومانيين. وقد تفرَّغ پروبوس لتنقيح كتب اللغة وشرح قصائد الشعراء اللاتينيّين كڤرجيليوس وهوراسيوس وصنَّف التآليف المتمِة في الفصاحة والبيان والخطابة واصول اللغة اللاتينيَّة وخاض في ابحاثٍ اخرى ادبيَّة شاع بها فضلهُ واحرز لوطنهِ بيروت ذكرًا طيّباً

وفي زمنهِ كان اللغوي «لوپركوس» (Lupercus) البيروتي المولد اخذ عنهُ الرومانيُّون في عهد كلوديوس قيصر في اواسط القرن الاوَّل فألَّف كتباً عديدة في اللغة اليونانيَّة وكتب ايضاً عن مصر ووصف بعض مدنها

امَّا الاطبَّاء فلم يُعرف منهم سوى اسطراطون (Strato) البيروتيّ أَلَّف كتباً في معالجة الادواء امتدحها جالينوس في كتبهِ

وقد مرَّ ذكر الفقهاء الذين اشتهروا في بيروت بين اساتذة مدرستها الفقهيَّة الشهيرة اذ كانت في عهدة الرومان الوثنيّين وكان هؤلاء يعلّمون فيها ولم يكن اصلهم منها. وسنذكر قريباً الذين اشتهروا منهم في العهد المسيحي

امّا مشاهير بيروت المسيحيُّون فمعظمهم ممّن تخرّجوا في مدارسها وان لم يُعَدُّوا من مواليدها . فمنهم احد كبار اساقفة الكنيسة الشهير بمعجزاته القديس غريغوريوس العجائبي درس في بيروت الفقه الروماني مع اخيه ثاودورس في اواسط القرن الثالث ثم سُقف على مدينة قيصرية فردّ اهلها الى النصرانيّة

وفي مدرسة بيروت تخرّج احد شهداء الكنيسة في اواخر القرن المذكور أمفيان او افيان مع اخيه اداسيوس . وُلدا في برغا من اعمال بفيلية في آسية الصغرى ثمّ قدما بيروت طلباً للعلوم فانصبّ اداسيوس على علم الفلسفة والآداب وتخصّص امفيان بدرس الحقوق ومنحهُ الله في تلك المدينة نعمة الاهلين واضحى فيها قدوة الدارسين لا يأخذهُ في دينهِ لومة لائم الى ان ختم حياتهُ بالاستشهاد في مدينة قيصريّة فلسطين . وكان ذهب اليها ليواصل دروسهُ على احد اساطين العلم الاسقف بمفيل فابرز ديوكلسيانوس ومكسيميانوس حكمهما في مناهضة النصرانيّة فأوقفهُ حاكم المدينة اوربانوس وعرض عليهِ جحود ايمانهِ فأبى كل الاباء فقُتل شهيداً(١

وفي بيروت ايضاً درس في القرن الخامس اخوان آخران اسمها يوحنا واركاديوس نشر الخوري الالماني جورج غراف (G. Graff) قصّتهما العجيبة (في المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٦٩٥–٧٠٦) عن احد مخطوطات المكتبة الفاتيكانيّة القديمة المكتوب سنة ٨٨٥ م

وقد افادنا المؤرخ زكريا الخطيب في ترجمة ساويروس الانطاكي انهُ درس معهُ الحقوق الرومانيّة في بيروت في اواخر القرن الخامس للمسيح واتانا في تاريخهِ بعدّة معلومات عن مدرسة بيروت الفقهيّة واساتذتها وسيرة طلبتها وعن طريقة التعليم في معاهدها ونظامه

امّا اساتذة بيروت النصارى الذين اشتهروا بالتعليم في مدرستها الحقوقيّة فكثيرون منهم في اواسط القرن الخامس «اودكسيوس» لهُ شروح على متن بعض الكتب الفقهية . خلفهُ في التعليم ابنهُ «لاونتيوس» الذي ورد ذكرهُ في تاريخ زكريا

(١) اطلب تفاصيل اخبار حياتهِ وموتهِ في المشرق (٩ [١٩٠٦] : ٩٨٤ و ١٠٧٩) بقلم الطيب الذكر الاب فردريك بوفيه احد اخوتنا المرسلين والمتوفّى شهيد محبّتهِ في خدمة الجيوش في الحرب الكونيّة سنة ١٩١٦

الخطيب السرياني بين اخبار ساويروس الانطاكي سنة ٤٨٧ فعلّم نحو خمس عشرة سنة ثمّ رُقّي الى مناصب دولية شريفة كحاكم ديوان الشرق (præfectus prætorii) ورئيس العسكر (magister militum) وخوّلهُ الامبراطور انستاس رتبة البطارقة (١

واشتهر في القرن السادس بين اولئك الاساتذة الفقهاء «دعوستيانس ودُمنينوس وكيرلّس» وقد ألّف هذا الاخير دليلًا لتعليم الحقوق كان الطلبة يتهافتون عليهِ لحسن نظامهِ ووضوحهِ

واشهر منهم «اناطوليوس ودوروثاوس» اللذان استدعاهما الامبراطور يوستنيان لاعادة النظر في الشرائع الرومانيَة وتنقيحها وتنظيمها وتبويبها كما مرَّ فاستحقّا شكر الملك وكلّ الاساتذة والمتعاطين فنّ المحاماة

ولم يُذكر في بيروت الى ايّام العرب سوى عشرة اساقفة (راجع مقالتنا في اسقفيَة بيروت (في المشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٣–١٩٦) اوّلهم كوَرتوس تلميذ الرسل وعاشرهم ثلاسيوس في القرن السادس واكثرهم شايعوا لاحدى بدعتي اريوس او اوطيخا اللهمّ الّا تيموثاوس احد آباء المجمع القسطنطيني الاوَّل (سنة ٣٨١) ويوحنّا في اواخر القرن الخامس الذي ناصَبَ بعض الاشرار الذين كانوا يتعاطون اعمال السحر في بيروت وهو الذي ساعد الناسك رَبولا السميساطي في بناء دير في الجبل قريباً من بيروت. كما ذُكر في الميناون اليوناني في اليوم ١٩ من شباط (٢

وفي الميناون المذكور في اليوم التاسع من تشرين الثاني ذكر القديسة «مطرونا» التي شيَّدت مع ابنتها تاودوطا في حمص اوّلًا ثم في بيروت ديرًا للراهبات تقدّست فيها عدّة عذارى

فهؤلاء بعض الذين وجدنا لهم آثارًا في بيروت ولا جرم انّ كثيرين غيرهم شرّفوها باعمالهم ففُقدت اخبارهم مع ما اخنى عليهِ الدهر واضاعهُ

---

١) اطلب ترجمة ساويروس في مجلة الشرق المسيحي ; (ROG, IV, 343; 543 et V, 71 293) ثمّ مقالة المسيو كولينه (M. P. Collinet) عن لاونتيوس المذكور C

٢) اطلب اعمال القديسين للبولنديين (Acta Sanctorum, 19 Février, p. 136-137)

البحث الثالث عشر

خمول بيروت بنكبات الزلازل

انَّ المقام الرفيع الذي بلغتهُ بيروت في عهد الرومان بترقّيها المدنيّ والادبيّ جعلها في مقدمة مدن الشرق تمشي الثنيان مع انطاكية والاسكندريّة. وكان بصرُها يطمح الى ما فوق ذلك لولا ما دهمها من النكبات في اواسط القرن السادس للميلاد نعني بذلك الزلازل الهائلة التي حلّت بها في تلك المدّة ولاسيما زلزال سنة ٥٥١ م الذي أهبطها الى الدقعاء وشوّه كل محاسنها فأضحت اشبه بتلال من الردم والخراب (١

على انّ ذلك الزلزال لم يَخلُ من سوابق انذرت غير مرّة البيروتيين بالخطر الذي يتهدّدهم ليكونوا منهُ على حذر

واوّل زلزال ورد فيهِ ذكر بيروت رواهُ المؤرخ اليوناني تاوفان في السنة ٥٨٣٤ العالم وقال هناك انّها توافق السنة ٣٣٤ للميلاد (٢ ثمّ وصف الزلزال بما تعريبهُ:

«وفي اثناء ذلك حدث في بيروت من مدن فينيقية زلزلة هائلة خرب بها قسمٌ كبير من المدينة فذُعر بسببها كثيرون من المشركين الذين هناك وطلبوا الدخول في الكنيسة واعدين بحفظ رسوم الدين النصراني. لكنهم بعد فروغ الخطر عدلوا الى مذاهب دينية مختلطة تقلّدوا فيها رتب الكنيسة»

وما لبثت بيروت فاصلحت شؤونها ورمّمت ابنيتها وعادت الى ما كانت عليهِ من العزّ والبهاء

وذكر مؤرّخو اليونان زلزالين آخرين في سنتي ٤٩٤و٥٠٢ دمّرا سواحل الشام وقوّضا مدينتي صور وصيداء. إلّا ان بيروت لم ينلها من تلك الآفة الّا ضررٌ قليل اخصّهُ سقوط كنيس اليهود فيها في ٢٢ آب من السنة ٥٠٢ على ما رواهُ المؤرّخان زوناراس ومالالا

وكأنّ تلك الكوارث كانت كمقدّمات لشرور اعظم توالت في فينيقية عموماً

---

١) اطلب في المشرق ٢ [١٨٩٩]: ٩٧١) مقالة حضرة الاب لامنس «الزلازل في بيروت»

٢) هذا الحساب على بناء انّ وقوع سنة الميلاد في ٥٨٠٠ العالم والتاريخ القسطنطيني يجعلهُ عادةً في السنة ٥٨٠٨

وبيروت خصوصاً في اواسط القرن السادس . وكان اوفرها تأثيراً واوسعها خراباً الزلزال الذي حدث سنة ٥٥١ للمسيح وقد فصَّل المؤرّخون خبر تلك الجائحة الهائلة التي عمّت مدن ساحل الشام ودمّرت كلّ انحاء بيروت وابنيتها . قيل انَّ البحر جزر الى مسافة ميل من الشاطئ ثمَّ ارتدَّت امواجهُ كطود شاهق واغرقت كل السفن ثمّ انقضَّت على البلد فلم يسلم منها بناء . قال ميخائيل الكبير في تاريخهِ (٢ : ٣١١) :

« لمَّا حدث ذلك الزلزال في بيروت ومدن فينيقية اندحرت المياه بإذن الله الى مسافة ميلين فانكشفت اعماق البحر وظهرت فيهِ سُفن مشحونة بالبضائع ومال كثير. فحمل الطمع الاهلين ولم يردّهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها راجعين بسرعة الى دورهم واذا بالمياه عادت بغتة فاغرقتهم جميعاً . امَّا الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق إلّا ان جدران الابنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم وانتشر الحريق في المدينة بعد خرابها مدَّة شهرين فحوَّل مبانيَها الى رماد وحجارتها الى كلس »

دُكَّت ابنية بيروت الشامخة واصبحت قاعاً صفصفاً وهلك تحت انقاضها جمٌّ غفير من الاهلين والاجانب الساكنين فيها . وقد اذاقت المنيَّة كأسها المرّ نخبة الشبَّان المتقاطرين اليها لدرس الحقوق في مدرستها الرومانيَّة التي كانت تاجاً بهيّاً على مفرقها تُباهي بهِ اعظم المدن اخواتها

ولم يرضَ ارباب الامر ان تبقى في قبرها فاسرعوا الى اصلاح ابنيتها وترميم معاهدها وكانوا في اثناء ذلك نقلوا مدرستها الفقهيَّة الى صيداء ثم اعادوها الى بيروت بعد سنين قليلة على الرغم من زلزال آخر حدث سنة ٥٥٤ . ثم عادت الامور الى مجاريها واخذت الدروس تسير سيرها القانونيّ بحيث استبشر الناس ببلوغها عظمتها السابقة واذا بحريق هائل نشب في احيائها سنة ٥٦٠ فكان لها كثالثة الاثافي وختام هلاك المدينة في ذلك القرن . فصرخ احد المعاصرين يرثيها وجعل الكلام عن لسان بيروت فقالت :

« ويلاه انا اشأم المدن حظّاً واسوأها حالاً رأت عيني جثث ابنائي متراكمةً في ساحاتي دفعتين في ظرف تسع سنين رماني فولكان (اله النار) بسهامهِ المتَّقدة بعد ان صدمني نپتون (اله البحر) بتيَّارهِ الهائل . وأسفي على جماني السابق طمسهُ الدهر فأحالني الى رماد . فيا عابري الطريق ابكوا لسوء طالعي واندبوا بيروت المضمحلَّة »

وبقيت بيروت مسجاةً بكفنها مطمورة تحت رمادها ردحاً من الدهر كما اشار

الى ذلك السائح انطونين المعروف بالشهيد لمّا اجتاز بجوارها في اواخر ذلك القرن السادس قال :

« وصلنا الى المدينة الفائقة الجمال بيروت التي فيها كانت قبل هذه السنين تلك المدرسة الحقوقيّة الذائعة الصيت . وهي الآن قد استولى عليها الخراب». والحقّ يقال انّ بيروت بعد تلك النكبة لم تَعُد الى رونقها السابق مع نهضتها في القرون الوسطى في عهد الصليبيين وفي زمن مماليك مصر . فبقيت كمدينة صغيرة حتى اشرق عليها نور القرن التاسع عشر فنفضت عنها ثوب خمولها وجلست ثانية على منصّة المجد . والامل معقود على رقيّها الثابت بفضل فرنسة وليّة امرها وصديقتها وحاميتها ؟

خاتمة القسم الاوّل

وبذكر هذه النكبات التي حلّت ببيروت نختم هذا القسم الاوّل من تاريخها وآثارها . وممّا سبق يتّضح للقرّاء انّ هذه المدينة احرزت لها في توالي الاعصار منذ الازمنة السابقة التاريخ البشري مفاخر جمّة فاصبحت من حواضر البلاد التي تتزاحم الدول على امتلاكها . ولعلّها فاقت على غيرها من مدن فينيقية بحيث جمعت في ربوعها ضروب الرقي والحضارة التي خُصّت بصنف واحد منها شقيقاتها الساحليّة . وقد تبيّن من ابحاث هذا القسم الاوّل ان بيروت تجاري رصيفاتها بقدَمها وتجارتها وصناعتها لا بل غلبتها بآدابها وفنونها . فكأنّ الدهر حسدها على رقيها فضربها بتلك الزلازل ليعرف اهلُها ان لا شيء يبقى على الارض الذي تفنى العوالم وهو وحدهُ ثابت الى ~~آخر الدهر~~

القسم الثاني

اخبار بيروت منذ ظهور الاسلام الى القرن التاسع عشر

البحث الاول

بيروت في عهد العرب

كان تأثير الزلازل في بيروت مؤلماً فبقيت عدَّة سنين طامسة المحاسن كاسدة الاسواق تُرى في انحائها آثار الخراب والحريق. على انَّ ملوك الروم والباقين من اهلها لم يشاؤوا ان يهملوها ولبيروت ما لها من حُسن الموقع برّاً وبحرًا ومن الخواصّ الممتازة ادباً واقتصاداً. فاخذوا في اواخر القرن السادس يهتمُّون لإصلاح مبانيها وتجديد ما دثر من ابنيتها. فما لاح نور القرن السابع حتى عادت لها مسحةٌ من بهائها السابق واستؤنفت فيها المعاملات التجاريَّة

فكان البيروتيُّون يعقدون الامل على رجوع وطنهم الى الرقيّ التام لولا ما حصل وقتئذٍ في دولة الروم من الاضطرابات في عهد ملوكهم موريقيوس (٥٨٢—٦٠٢) وفوقاس (٦٠٠—٦٠٢) وهرقل (٦١٠—٦٤١) فانتهز ملكا الفرس كسرى انوشروان سنة (٥٧٨) ثم كسرى أَبَرْويز (٦٠٦—٦٠٧) فغزَوَا بلاد الشام وفلسطين ونهبًا وحرقا وسبيا ولم تهدأ الامور الى ان ظفر بهم هرقل الملك بعد حرب عوان (٦٢٢—٦٢٨) وعاد السلام للبلاد. وكانت فينيقية في تلك السنين اسعد حظّاً من سواها لعدول الفرس الى حواضر المدن في الداخلية كحلب وانطاكية ودمشق والقدس. وكان يتولى على فينيقية من قبل ملك الروم البطريق نيقيطاس فتصرَّف بالفطنة والحزم فنجت بهمَّته سواحل الشام ومن جملتها بيروت من تلك النكبات الهائلة.

على انَّ هذا السلام لم تَطُل مدَّتهُ . وما لبث العرب في عهد عمر بن الخطَّاب ان

انبثوا في ارض حوران ثم في فلسطين ثم في الشام تحت قيادة خالد بن الوليد وابي عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن ابي سفيان ففتحوا تلك البلاد وتقدّموا الى دمشق فاستولوا عليها في ايلول سنة ٦٣٥ وبعد واقعة اليرموك دخلوا الى نواحي سوريّة الشمالية وتملّكوا على اورشليم (٦٣٧)

امّا بيروت وسواحل الشام فقال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٢٦) : « ان يزيد (بن ابي سفيان) اتى بعد فتح مدينة دمشق صيداء وعَرْقَة وجُبَيل وبيروت وهي سواحل وعلى مقدّمته اخوهُ معاوية ففتحها فتحاً يسيرًا وجلا كثيرًا من اهلها . ثمّ انّ الروم عادوا فغلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عُمر بن الخطّاب واوّل خلافة عثمان بن عفّان فقصدهم معاوية ففتحها ثمّ رمّها وشحَنها بالمقاتلة واعطاهم القطائع» . امّا الواقدي فروى في كتابهِ فتوح الشام (طبعة مصر ٢ : ٥٢) عند ذكره فتح مصر على يد عمرو بن العاص انّ عمرًا دخل القيسريّة يوم الاربعاء في العشر الاوّل من رجب سنة ١٩ للهجرة (٦٤٠م) ووصل الخبر الى الرملة وعكّة وعسقلان ونابلس وطبريّة فعقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين وكذلك اهل بيروت وجبلة واللاذقيّة وملّكَ الله الشام للمسلمين »

وقسّم العرب بلاد الشام الى خمسة أجناد جعلوها كالعاملات والسناجق وهي دمشق وحمص وقنّسرين والاردن وفلسطين وقسموا كل جند الى كُوَر . وكانت بيروت كورةً منوطة بجُند دمشق

وبقي معظم اهل بيروت مدّةً طويلةً كاهل المدن الساحليَّة من النصارى الوطنيين بينهم بقايا من الروم . فاراد معاوية ان يحصّن المدينة في وجه الاعداء فاستدعى قوماً من الفرس ليستوطنوا تلك المدن . ولنا شاهد على الامر في ما كتبهُ الجغرافي العربي اليعقوبي في كتاب البلدان قال (ص ٣٢٠ من طبعة ليدن) يذكر جُند دمشق : « ولجند دمشق من الكوَر على الساحل كورة عَرْقة . . . فيها قوم من الفُرس . . . ومدينة أطرابُلُس واهلها قوم من الفرس . . وجُبيل وبيروت وصيداء واهل هذه الكُوَر كلّها قومٌ من الفرس نَقَلَهم اليها معاوية بن ابي سفيان » . ولا شكّ ان المتاولة الشيعيّين والنصيريين الذين في سواحل الشام حتى يومنا من ذرّيّة هؤلاء الفرس

وقال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص٢٣) : « ثمّ صار المسلمون يتكاثرون

فيها (اي في بيروت) والروم يقلّون منهــا وقتاً بعد وقت حتى صار اكثر اهلهــا مسلمين »

وليس لنا من اخبار بيروت في ايّام الدولة العباسيّة الّا النزر القليل نرويه هنا كما وجدناهُ في تواريخ العرب وفي اسفار رِحاهم واوصافهم للبلدان . فمن ذلك ما رواهُ ابو جعفر الطبري في ذيل المذيَّل في تاريخ الصحابة والتابعين (الجزء الثالث ص ٢٥١٤) عن الاوزاعي قال : «هو عبد الرحمٰن بن عمرو ويكنّى ابا عمرو قيل له الاوزاعي لانتسابه الى الأوزاع وهو بطن من هَمْدان وكان يسكن بيروت ساحل من سواحل الشام وكان في زمانه احد مفتي تلك الناحية ومحدّثيهم وذوي الفضل منهم وتوفي في بيروت سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) في آخر خلافة ابي جعفر المنصور وهو ابن سبعين سنة» . وزاد صالح ابن يحيي افادةً في تاريخ بيروت فقال عنه (ص ٢٣—٢٤) : «الاوزاعي هو امام اهل الشام وعالمهم قيل انه اجاب في سبعين الف مسألة وصار يُعمل بمذهبهِ في الشام نحو مــائتي سنــة . . . وكان عظيم الشأن بالشام وكان امرهُ فيهم اعزّ من امر السلطان . . . وكان مولدهُ ببعلبك سنة ٨٨ هجرية ٧٠٧ مسيحية) وقيل ٩٣ هجرية (٧١٢م) . ومنشأه بالبقاع ونقلَتْهُ أمّهُ الى بيروت فرابط بها الى ان مات»

وقبره على ما افاد ابو الفداء في تاريخ سنة وفاته (ج٢ص٧) في قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس (ويروى حنتوش) وهو في عهدنا مزار بخارج المدينة جنوبيّها الغربي . ويقول علماء المسلمين انه كان يدرّس في الزاوية المعروفة باسمه حتى الآن جنوبي السوق الطويلة وهناك سبيل أُنشئ سنة ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) تذكارًا لهُ

ثم ذكر صالح بن يحيي ابنه محمدًا ولد الاوزاعي قال: «انهُ كان عابدًا قــانتاً وكان يُظَنّ فيهِ انهُ من الأبدال(١ عاش بعد ابيهِ عشرين سنة » . وألحق بالاوزاعي وبابنهِ بعضَ الزهاد الذين عبدوا الله في بيروت او امتازوا بعلومهم الدينيَّة . كالوليد بن مَزْيَد العُذْري المولود سنة ١٢٦هـ (٧٤٤م) المتوفى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) وكابي الفضل العباس ابن الوليد البيروتي المولود سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) والمتوفى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣ م) وكابي مُسْهِر البيروتي وعبد الله بن اسماعيل البيروتي ومحمَّد بن عبــد الله البيروتي المعروف بمكحول الحافظ المشهور المتوفى سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م)

١) اطلب مقالة واسعة في الأبدال في المشرق (١٢ [١٩٠٩] : ١٩٦-٢٠٤)

وفي اواسط القرن الرابع للهجرة ذكر الاصطخري بيروت في كتابهِ مسالك الممالك (ص٦٥ من طبعة ليدن) بقولهِ : «بيروت مدينة على شطّ بحر الروم خصبــة (ويروى حصينة) من عمل دمشق بها كان مقام الاوزاعي»

واتّسع معــاصرهُ ابن حوقل في وصف بيروت في كتابهِ المسالــك والممالك . واحسن في تعريف بعض خواصها وطباع اهلها قال (ص١١٦) : « بيروت على ساحل بحر الروم . . . وبها يُرابط اهل دمشق وسائر جندها واليها ينفرون عند استنفــارهم وليسوا كاهل دمشق في جفاء الاخلاق وغِلَظة الطباع وفيهم من اذا دُعي الى الخير اجاب واذا ايقظهُ الداعي اناب . وببيروت هذه كان مقام الاوزاعي وهي ذات نخيل وقصب ســكر وغلّات متوفرة . وتجارات البحر عليهــا دائرة وسابلتها غير منقطعة . حصينة خصيبة متينة السور رخيصة الاسعار جيّدة الاهل مع منعة فيهم من عدوّهم وصلاح في عامّة امورهم» . فنِعم الوصف ويحقّ للموصوفين الافتخار بهِ ومنهُ يلوح انّ بيروت اصبحت في القرن العاشر للمسيح من امّهات المدن .

واجتاز في بيروت رحّالةٌ عجميّ اسمهُ ناصر خسرو العلويّ سنة١٠٤٧ للمسيح فقال عنها في كتاب رحلتهِ سفرنامه (ص١٣) ما تعريبهُ : « وسرنا من جُبيل الى بيروت حيث رأيت قنطرة من حجر تمدّ الطريق فوقها فقدّرتُ انّ علوّهــا خمسون كزًّا(١ وجانبا القنطرة مبنيّان بحجارة بيضاء ضخمة ثقل الحجر نحو الف منّ(٢ وعن يمين القنطرة وشمالها اسطوانتان من الآجرّ علوّهما عشرون كزًّا . وفوق الاسطوانتين عمودان من الرخام علوّ العامود ثمانية اكزاز لا يكاد رجلان ان يُلفّا على العامود ذراعيهما الضخمة . وكانوا بنَوا على هذين العامودين قناطر من الحجارة الكبيرة دون ملاط ولا كلس . والقنطرة الكبيرة هي في وسط هذه القناطر وهي تعلو فوقها نحو خمسين آرشاً (٣ وعلى ما اظنّ يبلغ علو كل حجر من تلك القنطرة سبعة آرش في عرض اربعة منــهُ وثقلهُ نحو سبعة آلاف منّ . وكل هذه الحجارة منقوشة بنقوش غاية في الدقّة واللطف قلّما يُرى مثلها في مصنوعات خشبية . وما رأيت في جميع هذه الناحية بناء آخر غيرها .

---

١) كز بالفارسي [illegible] نحو ٧٥ سنتمتراً

٢) كان وزن المنّ كرطلنا السوري تقريباً

٣) الآرش كالذراع

وكان جواب الذين سألتهم عن خبر هذه القناطر انها عريقة في القدم وتُدعى باب بستان فرعون. والسهل الذي يحيط بهذا الاثر فيهِ عدد لا يُحصى من الاعمدة ورؤوس الاكلّة من الرخام المنقوش بعضها مربعة وغيرها مسدَّسة او مثمنة الزوايا. والحجر غاية في الصلابة لا يعمل فيهِ الحديد. وليس في جوار المكان مقلع يُستدَل منه على انهم استخرجوهُ منهُ.

«وهناك حجر آخر مانع كان مركَّباً تركيباً صناعيًا لا يؤثر فيه ايضاً الحديد. وفي بلاد الشام ترى السواري والاعمدة ورؤوس الاكلّة ملقاةً في كل مكان وعددها ينيف على ٥٠٠،٠٠٠ قطعة لا يعلم احدٌ ماذا ارادوا من جمعها ولا من اين اتوا بها»

فمن وصف ناصر خسروا السابق ترى انَّ الابنية العديدة التي كان الرومان والهيرودسون الثاثة بنوها في بيروت وجيرتها لم تُطمس آثارها بعدُ وإن خفي عنهم الغرض من وضعها. امَّا القناطر التي ذكرها فلم نتحقق اين كان موقعها افوق نهر ابرهيم ام نهر الكلب ام نهر بيروت

هذا مُجمَل ما ورد عن وصف بيروت في عهد الخلافتين الامويَّة والعباسيَّة. اما اخبارها السياسيَّة فهي دون ذلك. وانما زعم البعض انَّهم وجدوا عند الامراء الارسلانيين كتاباتٍ تُروى فيها مآثر لاجدادهم منها انَّ جدَّهم الاعلى الذي ينتمون اليهِ الامير ارسلان بن مالك اللخمي جرت لهُ مواقع عديدة مع المرَدة الذين وَكَل اليهم ملوك الروم حراسة لبنان وانهُ توفي في سنّ الفيل سنة ١٧١هـ (٧٨٧م)

وكذلك رووا عنهم قدوم مراكب الروم الى بيروت سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) فغزوا ساحلها واستأسروا عند مقام الاوزاعي اميرًا من الارسلانيين اسمهُ عُمر ابن الامير ارسلان. وبقي عندهم حتى فداهُ بعد ثلاث سنوات القاسم ابن هارون الرشيد

ورووا ايضاً ان الامير النعمان بن عامر الارسلاني تولى بيروت وصيدا وجبلها بامر ماجور التركي سنةَ ٢٥٧هـ(٨٧٢م) فبنى في بيروت دارًا عظيمة وحصَّن صور المدينة وقلعتها ثم حارب مَرَدة لبنان فجرى بينهُ وبينهم قتالٌ عظيم على نهر بيروت سنة ٨٧٥ في خلافة المتوكل العباسي. ويقال هناك انَّ هذا الامير ردَّ هجمة الفرنج سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م) وكانوا نزلوا من سفنهم في رأس بيروت فسار اليهم واسر منهم ثمانية رجال وقتل ستَّة ثم فاداهم على من اسروهُ من المسلمين. وفيها ايضاً ان احمد

ابن محمّد بن ابي يعقوب ابن هارون الرشيد مرَّ مع اسرته في بيروت فاستقبلهُ الامير نعمان المذكور وخطب ابنتهُ السيدة كلثوم لابنهِ الامير منذر فزفّها اليهِ. وكانت وفاة الامير نعمان سنة ٣٢٥ﻫ (٩٣٦ م) وعمره ٩٨ سنة توفي في بيروت وبها دُفن ثم خلفهُ في ولايتهِ ابنهُ المنذر ولُقّب سيف الدولة

هذه المنقولات وردت في اوراق مصونة كما يقال عند الامراء بني رسلان ولم يمكنّا ان نتثبّت صحّتها بعَرْضها على غيرها من التواريخ فرويناها على علّاتها. وما هو اثبت ركناً واقوى سنداً انَّ بيروت دخلت مع بقية بلاد الشام في حكم دولة بني طولون المصريّة سنة ٢٦٤ﻫ (٨٧٧م) ثم خلفت الطولونيين دولةُ الاخشيديين سنة ٣٢٣ ﻫ (٩٣٥م) فاستولت على دمشق وجندها مدة بضع سنوات

وفي عهد الدولة الاخشيدية غزا الروم بلاد الشام وكان ملكهم يوحنا زيمسكاس (Jean Zimiscès) الذي يدعوه العرب بالشَّمشقيق فاخذ دمشق بالامان وسار الى سواحل الشام فنزل على صيداء وانصرف عنها على سِلْم ومواد‌عة قال ابن القلانسي في تاريخهِ المعروف بذيل تاريخ دمشق (ص١٤): «ثم انتقل الى ثغر بيروت فامتنع اهلها عليه فقاتلهم وافتتح الثغر عنوةً ونهبهُ وسبي السبي الكثير منه». وكان ذلك سنة ٣٦٤ﻫ (٩٧٤م). وبعد سنتين استرجعها جوهر القائد وولى عليها هفتكينُ التركي صاحبُ دمشق الاميرَ درويش بن عمر الارسلانيّ ثم عزلهُ منجوتكين خلف هفتكين وولى مكانه الامير منصور

ثم انقلب الدهر على الدولة الاخشيديّة وصار الامر لدولة الفاطميين وبعد ان فتحوا مصر ارسلوا جيوشهم الى الشام فملكوها سنة ٣٨٤ﻫ (٩٩٤م) ولحقت بها سواحل الشام وفي جملتها بيروت. فصار الخلفاء الفاطميون يجعلون عليها عُمّالهم ففي السنة ٤٠٥ﻫ (١٠١٤م) تولى على بيروت فتح احد غلمان صاحب حلب ابي نصر لؤلؤ من قبل الحاكم بامر الله وتلقّب مبارك الدولة وسَعْدَها

واقطعهُ الحاكم بأمر الله مع بيروت صور وصيداء. قال صالح بن يحيى (ص ٢٦) «وكان ارتفاع الثلاثة اماكن المذكورة ثلثمائة الف دينار». وهذا دليل واضح على خصب بيروت وحسن تجارتها في ذلك الوقت

وفي السنة ٤٣٥ﻫ (١٠٤٣ م) ولي عليها ابو سعيد قابوس من قبل المستنصر بالله

الخليفة الفاطمي وفي السنة ٤٤٨ﻫ (١٠٥٦م) اقطع المستنصر بالله عكّة وبيروت وجبيل لمعزّ الدولة ابن مرداس صاحب حلب عوضاً عن حلب واخذ حلب منهُ · لكنَّ اقارب ابن مرداس استرجعوا بعد مدَّة حلب فاستعاد المستنصر المدنَ الثلاث · قال صالح ابن يحيى: « وكان الذي يقوى على دمشق يملك السواحل » ومن جملتها بيروت

امَّا احوال النصرانيّة في بيروت في ايام دولتي العرب الامويَّة والعبَّاسيّة فلا نكاد نعرف منها شيئاً · وانَّما يذكر التاريخ من اساقفتها في تلك الحقبة المسمَّى توما من اساقفة الروم المتحدين مع الكرسي الروماني كان في القرن التاسع للمسيح على عهد فوطيوس حضر المجمع الثامن المسكوني الذي اجتمع في القسطنطينيّة سنة ٨٦٩ وحكم على هذا البطريرك لجلوسهِ على الكرسي القسطنطيني بعد حكمهِ ظلماً على القديس اغناطيوس البطريرك الشرعي · وممَّن وقَّعوا على اعمال المجمع « توما اسقف بيروت » ثم نُقل توما المذكور الى رئاسة اساقفة صور وفي المجمع يقال انهُ كان نائباً عن رئيس اساقفة انطاكية لخلوّ هذا الكرسي وقتئذٍ من صاحبهِ

وقد اشتهر على عهد العرب في الكنيسة اليونانيّة احد ابناء بيروت وهو الشمَّاس القديس رومانوس المرتّل كان معاصراً للقديسين يوحنا الدمشقي واندراوس الكريطشي واشتهر مثلهما بتأليف التسابيح التقويّة بالشعر اليوناني كان مولدهُ في بيروت وخدم كنيستها برتبة شماس ثم انتقل الى القسطنطينية وفيها صنّف تراتيلهُ الكنسيّة الفصيحة البليغة الدالّة على جودة قريحتهِ وعظم تقاه

البحث الثاني

بيروت

في اول عهد الصليبيين

حصلت في اواسط القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للمسيح اضطرابات عديدة في الشام بين الدولتين الفاطميّة والسلجوقيّة التركيّة · وكان اوَّل ظهور السلجوقيين في العجم فاستولوا على العراق ثمَّ تفرَّعوا فروعاً مختلفة وبسطوا ظلّ سلطتهم على بلاد

ما وراء النهر والجزيرة وكرمان والاناضول وقونية

وكان اعظمهم شوكة معزّ الدين ملكشاه بن الب ارسلان فتملك على عدّة بلاد وزحفت جيوشه الى الشام ففتح قسماً كبيراً منها وولّى اخاه تُتُش على حلب ودمشق وصارت سواحل الشام ومن جملتها بيروت تحت سلطته. ولمّا توفي تُتش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) خلفهُ ولداهُ رضوان ودُقاق فامّا رضوان فلم يطل ملكهُ واما دقاق بن تُتش فتولّى على حلب وجعل على دمشق احد امرائه الاتابك ظهير الدين طغتكين فدبّر امورها وساس المدن اللاحقة بها ولما توفي دقاق استقلّ بالحكم الى سنة وفاته ٤٩٧هـ (١١٠٥—١١٠٦)

وكان الفرنج الصليبيّون في تلك الاثناء قدموا الى انحاء الشام لتحرير الاراضي المقدّسة. وقد استبشر الخليفة الفاطمي المستعلي بالله خيراً بقدومهم لكسر قوة السلجوقيين كما روى ابن الاثير في الكامل (١٠ : ١٠٤) : « قيل انّ اصحاب مصر من العلويين لمّا رأوا قوّة الدولة السلجوقيّة وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزّة ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم . . خافوا وارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوهُ ويكون بينهم وبين المسلمين»

ومن المعلوم انّ الفرنج فتحوا انطاكية سنة ٤٩١هـ(١٠٩٨م) ثم ساروا الى بيت المقدس مارّين بوادي العاصي ففتحوا معرّة النعمان وصالحوا اهل حمص ثمّ عدلوا الى سواحل الشام بعد ان قطعوا قسماً من البقاع فجروا على سِيف البحر فاستولوا على طرطوس واللاذقيّة وصالحهم ابن عمّار امير طرابلس فواصلوا السَّير حتى بلغوا بيروت في اواسط اَيَار. بعد ان قطعوا دربند نهر الكلب. وكانت بيروت لا تزال في حكم الدولة السلجوقية يأمر فيها احد الامراء التنوخيين باسم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق فطلب الى زعماء الفرنج ان يكفّوا عن أذى المدينة واهلها ولا يعبثوا بغلّاتها فرضوا بذلك على شرط أن يقدّم لجنودهم حاجتهم من الاقوات والذخائر بثمن معتدل

ثم سار الفرنج الى القدس الشريف ففتحوهُ وملّكوا على المدينة غودفريد وهو غودفروا دي بوليون فلم تطل مدّتهُ فمات في السنة التالية (١٨ حزيران ١١٠٠م) وانتدب زعماء الفرنج اخاه بودوين او بغدوين صاحب الرها ليخلفه في ملكهِ فقدم من

الرها ومرَّ بساحل بحر الشام فلما وصل الى دربند نهر الكلب اجتمع عليه امراء بيروت وصيدا وصور وعكاء ليصدُّوه عن قطع هذا المضيق فاستطرد لهم بغدوين وحمل الامراء على جيشه فكرَّ الافرنج راجعين وتعقبوا جنود الامراء وبدَّدوا شملهم واجتازوا الدربند

ولمَّا ثبت الامر لبغدوين في بيت المقدس فكَّر في فتح المدن الساحلية فزحف بجيشه الى بيروت مرة اولى وضايقها سنة ١١٠٢م (٤٧٥هـ) لكنه رحل عنها بعد ان اطال المقام عليها اذ لم يرَ فيها مطمعاً وكان اميرها عضد الدولة استلطف الفرنج بما قدَّم اليهم من الذخائر

١ فتح الفرنج لبيروت وملكهم عليها المرَّة الاولى(١١٠٩—١١٨٧)

ثمَّ عاد اليها بغدوين في السنة ١١٠٩(٥٠٣ هـ) مع الكونت برتران دي صنجيل ونزل على ثغرها برًّا وبحرًا وعاونها جوسلين صاحب تلّ باشر فعملوا اولاً برجاً من خشب صنوبر بيروت ونصبوه على سور المدينة فكسرهُ المسلمون بحجارة المناجيق. فجهَّزوا برجَين آخرين لمحاربتهم لولا ان الملك الافضل امير الجيوش ارسل في اثناء ذلك اسطولًا من مصر يتألَّف من تسع عشرة مركباً حربية فظهروا على مراكب الفرنج وملكوا بعضها وادخلوا الميرة الى بيروت فقويت بها نفوس اهلها

امَّا الملك بغدوين فانه ارسل الى السويديَّة يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها الى بيروت اربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحفوا الى بيروت باسرهم في نيسان من السنة ١١١٠ ونصبوا البرجين على اسوار المدينة واشتدُّوا في القتال فقُتل مقدَّم الاسطول المصري وخلقٌ كثير من المسلمين يوم الجمعة ٢٨ من شوال. ثم هجم الفرنج على البلد في آخر النهار فملكوهُ بالسيف قهراً وهرب اميره الذي كان فيه مع جماعة من اصحابه لكن الفرنج ادركوه وقتلوه ونهبوا البلد وسبوا من كان فيه واسروا كثيرين واستصفوا اموالهم وذخائرهم · هذه خلاصة ما رواه ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ١٣٨)

﴿ كنيسة مار يوحنا في بيروت ﴾ وفي تلك السنة امر الملك بغدوين ببناء كنيسة كبيرة في بيروت على طراز الكنائس اللاتينية فشيَّدها على اسم القديس يوحنا المعمدان

وهي على شكل مصلّب ذي ثلثة اسواق وتقدَّم بنقشها وتزيينها بالتصاوير البديعة. وكان النصارى يصلّون فيها مدة ولاية الصليبيين على بيروت . قال صالح بن يحيي في تاريخ بيروت(ص٥٨) : « ولما قدَّر الله بنزع بيروت من يد الفرنج استقرت كنيستهم جامعاً وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا وكان بها صور فطلاهـا المسلمون بالطين وبقي الطين الى ايام الجد (أي جدّ المؤلف في اواخر القرن الرابع عشر) فبيَّضه وازال آثار تلك الصور . وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة. فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً . ثم تكاثر المسلمون بها فجعلها الله دار سلام وايمان الى يوم الدين». والجامع المذكور هنا هو الجامع الكبير الذي فيه مقام النبي يحيي ولا يزال عامرًا وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل على شمال الداخل منه كوَّة مكتوبة فيها باليونانية آية الزبور (٢٨ : ٢) : انَّ صوت الربّ على المياه

ولعل كنيسة مار يوحنا بُنيت عوضاً عن كنيسة اخرى اقدم عهدًا تبعد عنها نحو مئة ذراع وهي التي وجدت اثارها في مدَّة الحرب الاخيرة عند سوق البازركان

﴿ تحصين الفرنج لبيروت ﴾ ولما تولى الفرنج على بيروت سعوا بتحصينها فبنوا على طرفيها برجين واصلحوا سورها وكان الملك بغدوين أقطعها لاحد اشراف دولته اسمه فُلك دي غين (Foulques de Guines)او دي غِشن (de Guisnes) وشرَّفه بلقب بارون . ولما مات المذكور خلفه على ولاية بيروت سادة من ذريته تتابعوا في ملكها الى السنة ١١٨٧

﴿التلاحقة في بيروت﴾ ومن جملة ما يُذكر من احوال بيروت مدة تملُّك الفرنج عليها حلول المشايخ التلاحقة في ربوعها سنة ١١٤٤م (٥٣٩هـ) فسكنوا راس بيروت حيناً وكان في المدينة قوم من امراء بني الحمراء فجرت بين الفريقين مشاجرة قُتل فيها احد بني الحمراء فخاف التلاحقة وهربوا الى مقاطعة الغرب . ثم حضر منهم الى بيروت الشيخ شاهين وكان لهُ فيها قيسارية باسمه فبلغ خبر قدوم اصحاب بني الحمراء فاغتالوه وقتلوه آخذين بثار اميرهم . لكن التلاحقة اجتمعوا تحت امرة ولدي الشيخ شاهين وانحدروا الى بيروت متسلّحين وكسروا ابوابها المغلقة وقتلوا كثيرين من اهلها . وممَّا اخبره ُ ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ٢٣٦) انَّ صاحب بيروت الفرنجي ضبط لاحد تجَّار دمشق احمالاً من الكتَّان سنة ٥٢٧هـ (١١٣٢م) واذ طالبهُ

بها التاجر لم يُجب الى شكواهُ فارسل التاجر الى بانياس قوماً دخلوها فجأة ونهبوها وكانت في ايدي الفرنج

وفي السنة ٥٤٦ هـ (١١٥١م) روى ابن القلانسي (ص ٣١٥) وشهاب الدين المقدسي في كتاب الروضتين (١ : ٨٠) ان اسطولا مصريًا كانت عدّتهُ مراكبه ٧٠ مركباً حربيّة مشحنة بالرجال قصدوا سواحل الشام فنزلوا الى بيروت وقتلوا ونهبوا واحرقوا كما فعلوا في بقيّة ثغور الشام

وفي السنة ١١٦٢م توفي في بيروت ملك القدس بغدوين الثالث وكان راجعاً من انطاكية الى حاضرة مملكته فمات على ما يقال مسموماً بدسيسة طبيب يهودي يُدعى براقاً .

٢ انتزاع السلطان صلاح الدين بيروت من الفرنج

وفي السنة ١١٨١ وفد السلطان صلاح الدين الايوبي بعساكره الى بيروت فغزا أرباضها وقطع كرمها لكنه لم يفتح المدينة. قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٧٨ هـ. «ثم سار صلاح الدين من دمشق الى بيروت فنهب بلدها . وكان قد امر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها. وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة ايام وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها انَّ البحر قد القى بطسةً للفرنج فيها جمعٌ عظيم منهم الى دمياط كانوا خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا مَنْ بها .. ورحل السلطان من بيروت». واما ابن شداد فقال في سيرة صلاح الدين «انه نزل بيروت ولم ينل منها غرضاً واجتمع الفرنج ورحّلوه عنها»

ثم عاد اليها السلطان بعد انتصاره العظيم على الصليبيين في واقعة حطّين قرب طبرية سنة ١١٨٧ وفتحه بيت المقدس وعدّة مدن اخرى فقدم الى بيروت وفتحها بعد ان حاصرها ثمانية ايام ونصب عليها المجانيق التي اتخذها من زيتونها . فسأله الفرنج الامان فأمّنهم فتوجهوا الى صور وتسلّم صلاح الدين المدينة ونصب على اسوارها السنجق السلطاني في ٢٩ جمادى الاولى وقيل في ٢٧ منه سنة ٥٨٣هـ (اوائل آب ١١٨٧م) ثم ولّى عليها اميرًا يُدعى سيف الدين عليّ الهكاري المعروف بابن المشطوب

ثم سار ابن المشطوب في صحبة صلاح الدين لمحاربة الفرنج في عكا فوُلّي عليها رجل واسع الشهرة وهو الامير عزّ الدين منقـذ احد اصحاب قلعة شيزر . قال فيه صالح بن يحيي في تاريخ بيروت (ص٣٥-٣٦) : «وكان من المعظّمين عند السلطان حتى لم يكن يقدّم عليه احداً في المشورة والرأي وهو الذي بنى قلعة عجلون» (١

ولما فتح الفرنج عكا تفقد صلاح الدين سواحل الشام واقام في بيروت اياماً . وفي اثناء وجوده حضر اليه بوهيمُنْد الثالث صاحب انطاكية . قال ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢ م) : « ولما وصل السلطان صلاح الدين الى بيروت اتاه بيمُنْـد صاحب انطاكية وطرابلس واعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده» . وقال ابن شدّاد في سيرة صلاح الدين التي عنوانُها : النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (Historiens des Croisades : *Historiens Orientaux* III. 346) ان السلطان «بالغ في احترامه واكرامه ومباسطته وانعم عليه بالعمق واغزران ومزارع تعمل خمسة عشر الف دينار» . وهي اقطاعات بقرب انطاكية

البحث الثالث

رجوع الصليبين الى ملك بيروت

ثمّ مات صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٩١ (٧ آذار ١١٩٤) وكان الصلح قد استقرّ بين المسلمين والفرنج في اواخر ايّامه . قال ابن الاثير في تاريخ السنة ٥٩٣هـ (١١٩٧ م) :

« فلمّا توفي (صلاح الدين) وملك اولادهُ بعدهُ جدّد الملكُ العزيز الهدنة مع الكُنْدهرّي (٢ وزاد في مدّة الهدنة وبقي ذلك الى الآن (اي السنة ٥٩٣) . وكان بمدينة بيروت امير يُعرَف بأسامة وهو مُقطَعُها فكان يرسل الشواني فتقطع الطريق على الفرنج ، فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرّة الى الملك العادل (اخي صلاح الدين) والى الملك العزيز (ابنهِ) بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك . فارسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون : ان لم تُنجدونا والّا اخذ المسلمون البلاد . فأمدّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة . . . ووصل الخبر

١) هو الامير اسامة منقذ كان كاتباً بليغاً ولهُ عدة تآليف نشر منها المستشرق ديرنبورغ (Derenbourg) قسماً صالحاً اخصّها مذكراته

٢) هو الكُنْت هنري دي شمبانية ابن اخي ملك الانكليز ريشَرْد قلب الاسد ونائبهُ بفلسطين

المسلمين بان الفرنج على عَزْم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة (ايلول ١١٩٧) الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت . فسار اليها جمعٌ من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجّة (٢١ ت ١) وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فنعهم اسامة من ذلك وتكفّل بحفظها . ورحل الفرنج من عكّا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيداء وجرى بينهم مناوشة فقُتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل . وسار الفرنج تاسع ذي الحجة (٢٣ ت ١) فوصلوا الى بيروت . فلمّا قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معهُ من المسلمين فلكوها صفوًا عفوًا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة»

وكان الذي استولى على بيروت الملك أموري بمساعدة الالمانيين . وفي تواريخ الفرنج ان الملك العادل سيف الدين جُرح في واقعة صيدا فقصد بيروت ليتحصّن فيها الّا ان بعض الاسرى الذين كانوا في قلعتها عاينوا اسطولًا للنصارى مجتازًا امام المدينة فاشاروا اليهم وتمكن الاسرى من قتل الحرس وفتحوا ابواب الحصن للفرنج فدخلوه . وفي اليوم التالي جاء عسكر البرّ من جهة صيدا فدخلوا المدينة في ٢٥ ت ١ سنة ١١٩٧ واطلقوا سبيل ١٤،٠٠٠ من الفرنج كانوا فيها

ثمّ توالت الحروب بين المسلمين والفرنج نحو سنةٍ كاملة فكان الملك العادل والملك العزيز دائبَيْن على محاربة الصليبيين الى ان اضطرّ الملك العزيز الى الذهاب الى مصر لتأييد سلطانهِ فيها . فتردّدت الرسل بينهُ وبين الفرنج حتى اصطلحوا على ان تبقى بيروت بيدهم . وكان الصلح في شعبان سنة ٥٩٤ (حزيران ١١٩٨) كما افاد ابن الاثير في تاريخهِ الكامل

الباب الرابع

بيروت وامراؤها الفرنج من أسرة ديبلين (١١٩٨—١٢٩١)

ثمّ اراد الملك اموري ان يتفرّغ لامور مملكتهِ فتنازل عن حكمها لاحد امراء دولتهِ المدعو كونراد دي مونفرًا (Conrad de Monferrat) وكان لامرأتهِ ايزابلّا ملكة اورشليم سابقًا شقيقٌ ذو خصالٍ فريدة في النجابة والشهامة وحسن السياسة يُدعى جان ديبلين (Jean d'Ibelin) . وكان من اسرةٍ شريفة عريقة في النسب تفوّقت على سواها في الحروب الصليبيّة فعُهد الى ذويها اجلّ المناصب وقلّدوا الامارة

على عدَّة مدن كيافا وارسوف ورملة ونابلس . وكان ابوهُ يدعى باليان (Balian) من فرسان الفرنج استولى على يُبْنَى وهي بلدة جنوبيّ يافا تبعد عنها مرحلةً في وسط الطريق بين لُدّ واشدود وهي اليوم خراب وكان الفرنج يدعونها إبلين او ابلين فاليها نُسب باليان دَبْلين (Balian d'Ibelin)

وكان ابنهُ جان من فرسان العصر الممتازين بفضلهم وجميل صفاتهم خلَف اباه في ارثهِ فعُرف باسم جان ديبلين وقلّدهُ الملك رتبة كندُسْطيل (Connétable) لمملكة اورشليم . فلمَّا انتدبهُ كونراد دي مونفرًا الى امرة بيروت تخلّى عن رتبتهِ ليتفرّغ لشؤون منصبهِ الجديد

وكان اوَّل ما فكَّر فيهِ عند توليتهِ على بيروت انهُ باشر في تحصينها فاقام اسوارها ودعَّمها بالابراج ورمَّم حصنها فصارت من احرز مدن سواحل الشام وأمنعها في وجه العدوّ . ولم يجتزئْ بذلك بل فتح لها المدارس فراجت فيها سوق الآداب وزيَّنها بالمعاهد الفخمة ونشَّط ارباب الحرف والصنائع ووسَّع نُطُق التجارة واستدعى الى ثغر بيروت اهل البندقيَّة والمتاجرين من الجنويّين والپيزان فكانت سفنهم تقدم الى بيروت ناقلةً اليها مرافق الفرنج وتنقل منها الى انحاء الغرب محصولات الشام

وبقي جان ديبلين في امرتهِ خمساً وثلثين سنةً ساس بيروت في مدَّتها بحكمة نادرة ودافع عنها دفاع الابطال . واشتهر ببلاغة لسانهِ كما نصَّ عليهِ صاحب كتاب الدستور الاورشليمي (Assises de Jérusalem) حتى ذاع صيتهُ في الشرق والغرب . وكان لا يقع امرٌ ولا يجري حادث في الشام وقبرس وفلسطين إلّا ولهُ فيهِ نصيبٌ كبير . وكان احد مستشاري دولة الفرنج في تدبير امور مملكتهم الشرقيَّة . وورث من اهلهِ مدينة يافا وكانت زوجتهُ ابنة صاحب أرسوف فلمَّا مات حَمُوه صار هذا الحصن في حوزتهِ . فطمع فيهِ ذوو المطامع وحاولوا غير مرَّة ان ينزعوهُ من يده وساروا الى محاربتهِ . فتصدَّى لهم جان ديبلين وردَّ غاراتهم حتى أَيسوا من فتح الحصن

وكان لجان ديبلين اخٌ يدعى فيلبّس تعيَّن وليًا للملك هنري دي لوزِنيان ملك قبرس قبل بلوغهِ فمات في تلك الاثناء فخلفهُ جان في نيابتهِ . ومن مآثرهِ في اثناء تدبيرهِ لتلك المملكة انهُ قام في وجه الملك فردريك الثاني عدوّ الكرسي الرسولي والمحروم من الحبر الاعظم غريغوريوس التاسع لمَّا قصد الاراضي المقدَّسة مع جيش

من اللُّنبرديّين فحالفَ الملكَ الكامل سلطان مصر ووعدهُ بمحاربة الملك المعظم صاحب دمشق فاعطاه الملكُ الكامل مدينةَ القدس وبيت لحم وفتح فردريك بعض المدن التي في ايدي الصليبيين واستولى على قبرس فحاربهُ الصليبيون. وكان جان ديبلين احد زعماء الفرنج الذين سعوا الى كبح جماحهِ وردّ غارات اللمبرديّين فنالهُ منهم اذًى وافر لكنهُ لم يزل يناوشهم القتال ويدافع عن الملك وعن مدينة بيروت الى ان فاز بالنصر في مدينتيْ اغريدي وسيرين من اعمال قبرس وكسر شوكتهم. سنة ١٢٣٣ فرجعوا الى ايطالية خاسرين. فخوّل هذا الانتصار مجدًا جديدًا جان ديبلين الذي بفضلهِ ثبت على عرش قبرس ملكُها الشرعي وتمنّعت بيروت بحصانتها من معرَّة اعدائهِ

كانت وفاة جان ديبلين سنة ١٢٣٦ في عكا قطرَهُ فرسهُ فمات بعد ان اوصى بالامرة لابنهِ البكر وهو باليان الثالث وولّى على ارسوف ابنهُ الاصغر جان سميَّهُ . وقد جرى باليان على آثار ابيه فاجتمع مع امراء الفرنج لمحاربة من بقي في صور من حزب الالمان في شهر تموز سنة ١٢٤٣ فاباد ذكرهم . وقد اختارهُ الامراء كُندُسطبلًا لمملكة قبرس. وكان باليان الثالث رجلًا عاقلًا واسع الادب دمث الاخلاق

وخلفه بكره جان الثاني المعروف بالصغير نحو سنة ١٢٥٣ فتوفي سنة ١٢٦١ فصارت إمرة بيروت الى ابنتهِ الكبرى المدعوَّة ايزابلّا (١٢٦٤—١٢٨٠) ثم خلفتها الصغرى المسماة اشيف (Eschive) فاقترنت بالزواج مع امير مدينة صور هُمفروا دي مونفور (Humfroi de Monfort) فاورثتهُ حقوقها على بيروت. ولمّا مات زوجها سنة ١٢٨٤ صار ابنها روپان (Rupin) سيدًا على صور وبيروت وهو آخر امراء بيروت من الفرنج(١) . فانَّ في ايامهِ كان فتح بيروت على عهد الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك منصور قلاوون الصالحي تولى الملك بعد ابيهِ ٦٨٩ه الى ٦٩٣ ه (١٢٩٠—١٢٩٤) ففتح اولًا عكا ثم المدن الساحلية . وكان صاحب بيروت ارسل الى الملك الاشرف في وقت حصاره لعكا يطلب منه الامان فاجابه الى طلبهِ. لكنه ارسل بعد ذلك احد كبار دولتهِ وهو علَم الدين سنجر الشجاعي ليضع يده عليها. قال صالح ابن يحيي (ص ٤٣—٤٤) :

١) اطلب كتاب شلومبرجر عن مسكوكات اللاتين في الشرق SCHLUMBERGER: Numismatique du royaume latin, (p. 116—118)

«فلما وصل سنجر الشجاعي الى بيروت تلقاه صاحبها وخيّأتهُ احسن ملتقى ونزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واشغالهم الى القلعة ففعلوا وظنّوا انه يفعل ذلك شفقةً عليهم. فلما صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد ٢٣ من رجب سنة ٦٩٠ (٢٣ تموز ١٢٩١م)... ثم شرع في هدم سور المدينة وقلعتها وكانت محكمة البنا، ثم جهّز اهلها الى دمشق وانقذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء. ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال: اماني باقٍ عليكم وخيّرهم بين العود الى بيروت او التوجه الى قبرس باجمعهم. وكانت مدة استلام الفرنج على بيروت في هذه النوبة خمساً وتسعين سنة وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوماً»

امّا علم الدين سنجر الشجاعي فلم يلبث ان قُتل وكانت الحرب قد انتشبت بينهُ وبين الامير كُتُبُغا بعد موت الملك الاشرف الخليل فظفر اصحاب كُتُبُغا بسنجر وقتلوه شرّ قِتلة. قال ابن اياس في تاريخ مصر المعنون ببدائع الزهور (ج١ص١٣٢):
«كان سنجر الشجاعي هذا رجلًا مهيب الشكل قاسي القلب مظلم الصورة عسوفاً كثير الاذى اذا ظفر باحد لا يرحمه ولا يراعي في الانام خليلًا فلما ان قتل لم يرثِ له احد من الناس»

البحث الخامس

آثار الفرنج الصليبيين في بيروت

رأيت ما كانت عليهِ بيروت من العمارة والحضارة في عهد الصليبيين. وقد تلف كثير من آثارهم وصبر بعضها على الزمان من بعدهم

﴿ استحكامات الصليبيين ﴾ قد سبق ان سنجر الشجاعي هدم حصنها المنيع واسوارها وكانت استحكاماتها استوجبت اشغالًا طويلة فكان يحرسها شمالًا من جهة البحر صخور عالية ومن الجانب الغربيّ كانت تحميها خنادق مبلّطة تحت حراسة سورَين حريزين تدعمهما عدَّة ابراج غاية في المتانة لا تقوى عليهما كلّ قوات العدوّ. وكان يزينها من الداخل ابنية حسنة الهندسة بديعة النقوش. وقد وصف السائح وِلبرند دي اولدنبرغ بعض قصورها فقال عن احدى غرفاته: «انّها كانت مرصوفة بالفسيفساء وهي تمثّل مياهاً جارية يمرُّ عليها النسيم فتتجعَّد بهبوبهِ. وفي اسفلها رمل ناعم فيتعجّب الماشي فوقها كيف لا تغوص رجلهُ في اعماقهِ. وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على صورة تأخذ بمجامع الابصار يظللها قبّة تمثل

بصبغها الازرق شكل السماء · وفي وسط الغرفة حوضٌ من الرخام الصقيل الملوَّن ينفذ اليها نسيم عليل من نوافذها فيرطّب حرارتها»

فكلّ هذه الاستحكامات والابنية الجميلة لم يبقَ لها اثر بدخول المصريين اليها ونهبهم لاموالها فبقيت بيروت خالية من التحصين الى ان عاد ملوك مصر وامروا بتحصينها ردًّا لغارات الغُزاة المسيحيّين من جنوبين وكتّلان واهل قبرس فحموها من جهة البحر ومن الغرب بسورٍ وقد استخدموا لحمايتها بقايا استحكامات الفرنج السابقة · وقد استدلّ جناب الكونت دومنيل دوبويسون (C^te du Mesnil du Buisson) على آثار من تحصينات الصليبيّين لبيروت (راجع مقالتهُ المتّعة في لستحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة في المشرق ٢٠ [١٩٢٢]: ٧٥١–٧٦٦ مع رسم بديع لبيروت القديمة)

❊نقود الصليبيين في بيروت❊ ضرب امراء الصليبيّين من سلالة إيبلين السابق ذكرهم نقودًا ذهبيّة وفضيّة ونحاسيّة وكلّها عزيزة جدًّا لم يبق منها سوى بعض افرادها في متاحف اوربّة الكبرى · وهذه المسكوكات التي رسمها العلّامة شلومبرجر (Schlumberger) في كتابهِ المعنون بنقود الشرق اللاتيني (Numismatique de l'Orient Latin, p. 118-119) تمثّل على احد وجهيها قلعة تعلوها الشُّرفات وفي مدارها اسم بيروت باللاتينيّة وعلى الآخر صليب مع اسم جان ديبلين صاحبها ·

❊الرهبان الفرنسيسيُّون في بيروت❊ كان دخول الرهبان الفرنسيسيين في بيروت في عهد الصليبيين وكان ديرهم على ما جاء في سجلّات رهبانيّتهم على اسم القديس يوسف (١ · وكانت كنيستهم هي كنيسة المخلّص التي سبق لنا ذكرها (اطلب القسم الاوّل البحث التاسع ص ١٧) حيث جرت فيها معجزة الصليب الذي نزف دماً بضرب احد اليهود · ولمّا دخل المسلمون مدينة بيروت وهرب اهلها النصارى اضطرَّ ايضاً الرهبان الى الخروج منها · لكنهم عادوا اليها بعد زمن كما سترى واليهم يشير صاحب تاريخ بيروت (ص ١٤٩) فدعا منزلهم كنيسة افرنسيسك

❊ جامع بيروت الكبير ❊ قد سبق لنا ذكر تشييد ملك القدس بودوان

(١) اطلب كتاب رؤساء الاراضي المقدّسة G. Golubovich: Superiori di Terra Santa, p. 216-7

الكنيسة على اسم القديس يوحنّا المعمدان في بيروت سنة ١١١٠م . وهي التي حوّلها المسلمون بعد ذلك الى جامعهم الكبير وقد حفظوا ذكر القديس يوحنّا بما يكرم هناك من مقام يحيي النبي والجامع لم يغيّر شيئاً في هندسة الكنيسة المبنيّة على طرز الكنائس اللاتينيّة على صورة صليبٍ لاتينيّ ووجهتها كوجهة الكنائس الشرقيّة من الغرب الى الشرق وانما أُزيل ما كان فيها من الآثار النصرانيّة كالمذبح والوفه . وكانت جدرانها مزدانةً بتصاوير جميلة طُليت بالملاط بعد خروج الفرنج كما افاد صالح بن يحيي في تاريخهِ (ص ٥٨) . وانّما بقي قريباً من باب الجامع الشرقيّ كما سبق (ص ٥٢) اثر من بنائهم يُشار به الى وضع جرن المعموديّة بقرب ذلك الباب تدلّ عليهِ آيةٌ من الزبور

﴿ مناشير للصليبيين ﴾ ومن آثار الصليبيين التي عرفناها بفضل صاحب تاريخ بيروت كتابٌ لصاحب بيروت الذي تولّاها مدّة قبل دخول المصريّين اليها وهو الامير همفري دي مونفور (Humfrey de Monfort) الـذي بتزوّجهِ ابنـة جان ابلين الثاني المعروفة بأشيڤ (Eschive) صارت لهُ امـارة بيروت . توفي سنة ١٢٨٤ في ١٢ شباط وهذا نصّ المنشور مع اغلاطهِ(١) :

ومن مضمون كتاب بوهبة شكارة المعروسيّة من هنفري دي دمونقرب (كذا) الفرنجي صاحب بيروت وهو انهُ قد وهب شكارة بدارها (بذارها) غرارة ينصبهـا كرم بشرط ان لا يبيعها ولا يوهبها ومتى فعل ذلك رجع في وهبتهِ . ومن شروطهِ مساعدة لصحوبيّتهِ وان لا يخلّي في بلادهِ هارب من بلد بيروت الّا وبردّه صاحاً او بغيرهِ وان لا يمكّنهُ من الاقامة ازيد في (من) ثمانية ايّام ولا يمكّن احد من بلاده يفسد في بلد بيروت (اعني الساحل لان بلد بيروت كانت جبالهُ في ذلك الوقت للمسلمين وكان الساحل للفرنج . تاريخ هـذا الكتاب سنة الف وخمسمائة واثني وتسعين للاسكندر والكاتب كتب اسمهُ جرج بن يعقوب كاتب القلمة والكتاب في رقّ وفي ادناه ختم في شمع احمر خيّال بفرسهِ ورمحهِ وترسهِ وهو رنك صاحب [بيروت] ودائر الختم كتابة بالفرنجية في اصل الختم)

يؤخذ من هذا المكتوب انهُ كُتب سنة ١٢٨٠ للمسيح وجّهـهُ مونفري دي مونفور صاحب بيروت الى احد امراء الغرب من بني بحتر وهو الامير جمال الـدين حجّي بن نجم الدين المتوفّى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م)

١) اطلب ما كتبهُ في هذه المناشير العلّامة كلرمون غانو CLERMONT-GANNEAU: Recueil d'Archéologie Orientale, VI, 1-30

وقد روى صالح في تاريخ بيروت مكتوباً آخر كتبهُ صاحب صيداء الفرنجي ارنلد (Arnaud de Sagette) سنة ١٢٥٥م لجدّه (لجدّي) المذكور نُحيل القراء الى مراجعته هناك (ص ٨٣—٨٤) .

ويستفاد من هذه المناشير حُسن العلاقات التي كانت بين الصليبيّين المتولّين على السواحل والامراء البحتريين المسلمين اصحاب جبل لبنان المشرفة عليها . حتى انَّ احد اعداء الامراء المسمَّى تقيّ الدين نجا بن ابي الجيش سعى بهم زوراً الى ملك مصر الظاهر بيبرس مدَّعياً بانهم حالفوا الفرنج وخانوا الدولة فألقى ثلثةً من امرائهم في الحبس (تاريخ صالح بن يحيي ص ١٠٢—١٠٣)

هذا جملة ما وجدنا من آثار الصليبيّين في زمن ولايتهم الاخيرة على بيروت ‌ه

البحث السادس

تاريخ بيروت في عهد مماليك مصر (١٢٩١—١٥١٥)

رأيت ما بلغتهُ بيروت من العمران في زمن تملُّك الصليبيّين عليها . وما دخلها المصريُّون حتى عادت الى خمولها لولا بعض ما نالتهُ من حسن مساعي امراء الغرب بما احدثوهُ فيها من الابنية لسكناهم ولتجارتهم . لكنَّ بيروت لم تفقد في اعين الفرنج شيئاً من عظم شأنها سواء كان من جهة حصانة مركزها ام من جهة التجارة والاقتصاد . ولذلك تكرَّرت عليها الغارات في عهد مماليك مصر المعروفين بالتركمان البحريين وها نحن نذكر اوَّلًا تلك الحوادث التاريخيَّة ثمَّ نعود الى ذكر احوال امراء بني الغرب ومبانيهم في بيروت

لم يمرّ على خروج الفرنج من بيروت سبع سنين حتى حاولوا فتحها . قال النويري في تاريخه (اطلب تاريخ بيروت ٤٧—٤٨) :

« في العشر الآخر من شعبان سنة ٦٩٨هـ (شهر آب ١٢٩٩) وصل الى بيروت مراكب كثيرة وبُطَس (١ للفرنج فيها جماعة كثير من المقاتلين يقال انَّ عددهم كان يبلغ ثمنين بطسة في كل بطسة منها نحو ٧٠٠ مقاتل وقصدوا ان يطلعوا من مراكبهم الى البرّ ويشنّوا الغارة على بلاد

١) البُطَس جمع بطسة لفظة اعجميَّة يراد بها سفينة الحرب

الساحل. فلمّا قربوا من البرّ ارسل الله عليهم ريحاً شديدة ففرقت بعض السفن وتكسّر بعضها ورجع من سَلِمَ منهم على اسوإ حال وكفى الله المسلمين شرَّهم . (قال) وحُكي عن رئيس بيروت انهُ قال : والله لي خمسون سنة ألازم هذا البحر فما رأيتُ مثل هذه الريح التي جرَتْ على هذه المراكب وليست هي من الرياح المعروفة عندنا »

— وذكر صالح في تاريخ ٢ من محرَّم سنة ٧٠٥هـ (٢٦ تموز ١٣٠٥) بعد ذكره حملة آقش نائب الشام على كسروان أنَّهم اقطعوا التركمان اراضي كسروان فأدركوا موانئ البحر ودروب البرّ من ظاهر بيروت الى عمل طرابلس واستمرُّوا الى زمن صالح اعني اواسط القرن الخامس عشر وشُهروا بتركمان كسروان وعُرفوا بهِ. (قال) : « وفي تلك السنة في العُشر الآخر من جمادي الاولى (لتشرين الثاني ١٣٠٥) جازت تعميرة (اي اسطول) للفرنج على بيروت ولم يتعرَّضوا لها وتوجَّهوا الى صيداء واخذوها وقتلوا واسروا جماعةً من اهلها (تاريخ صالح ص ٥٠ — ٥١)

وفي تاريخ بيروت ايضاً لصالح (ص ١٣٨) وكذلك في تاريخ ابن سباط (ص٢٢ من نسخة مكتبتنا الشرقيَّة) ذكر غزو الفرنج الجنويين لبيروت في عيد الاضحى سنة ٧٣٤هـ (آب ١٣٣٤) . وكانت غايتهم ان يأخذوا مركباً للكثلان من اهل اسبانية التاجرين في بيروت فدافع المسلمون عنهم . قال صالح :

« حضرت شواني الفرنج الجنويين الى بيروت قاصدين اخذ قَرْقُون (١) لطائفة الكثيلان في ايام ولاية عزّ الدين البيدري من قبَل تنكز نائب الشام . وقصد المسلمون مَنْع الجنوية من اخذ القرقون فقاتلوهم قتالاً شديداً لكنهم لم يقووا على منعهم وقُتل جماعة من الجند والرجال وجُرح بعض الامراء ودخلوا الجنوية المينا واخذوا الاعلام السلطانية من البرج وقتل جماعة في البرّ وانهزم المسلمون فقاتلهم الجنويّة في الازقّة . ويُذكر انَّ القتال استمرَّ بينهم يومين »

البحث السابع

وفي أيام الاشرف ناصر الدين شعبان سنة ٧٦٧ (ايلول ١٣٦٥) غزا ملك قبرس هوغو الرابع دي لوسنيان ثغر الاسكندريَّة في سبعين مركباً ودخلوا المدينة ونهبوا اسواقها وبيوتها وقتلوا جماعةمن اهلها وحرقوا باب رشيد ثمَّ اقلعوا الى جزيرتهم . فارسل

---

١) القرقون كالقرقور سفينة طويلة تجارية واصل الكلمة من اليونانية

الاتابكي يلبغا العُمَري الاوامر الى الامير بيدمر الخوارزمي بالتوجُّه الى بيروت وتجهيز اسطول كبير من غابتها لفتح قبرس قال صالح بن يحيي في تاريخه (ص٥٢-٥٣):

« فحضر (بيدمر) الى بيروت واحضر صنّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمّاً غفيراً وقيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنّاع وقوّة عزم . فعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت بهِ الى اليوم. وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعد من البحر. وحضر عسكر الشام متجرّداً فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس لئلّا يحضر العدوّ حين غفلة فيحرقوا ما يُعمَل من المراكب. وكان نائب الشام في ذلك الوقت أقتمر عبد الغنيّ . ولمّا توفي يَلبُغا العُمري في ليلة الاحد العاشر من ربيع الآخر ٧٥٨ (اواسط كانون الاوّل ١٣٦٦) أبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب الى البحر سوى حمّالتين كبيرتين الواحدة باسم سُنقر والثانية باسم قراجا وهما اميران من امراء ذلك الوقت. وكان الامير بيدمر قد استعجل القومَ على عمارتها ليجهّزها فيحضرا صواري وقرايا ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمّرونها. ثمّ بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا. وكذلك تلفت بقية الشواني التي لم تتنزّل الى البحر تحت المسطبة المذكورة. وكان قد صُرف عليها مال كثير فذهب سدًى لم يُستفَد منها سوى الحديد بعد ما أخذت الناس منهُ شيئاً كثيراً»

والحق يقال ان بيروت كانت في حاجة الى اسطول يردُّ عنها غارات القرصان من جنويّين وبنادقة وكتلان وبيزان الذين تهددوا المدينة غير مرّة وكادوا يستولون عليها . فممّا ذكرهُ المؤرخون نزول الجنويين الى بيروت في السنة ٧٨٤ هـ . وقد روى الخبر صالح بن يحيي بتفاصيلهِ فننقلهُ عنهُ بالحرف لما فيهِ من الفوائد التاريخيّة ومن اوصاف بيروت في عصر المماليك المصريين التركمان قال (ص٥٣-٥٥):

« في العشر الاوسط من جمادى الآخرة سنة اربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢م) حضرت تعميرة الجنويّة الى صيداء فاخذتها وجاءت الى بيروت وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها الى صيداء. فقال ملك الامراء بيدمر: صيداء ما بقينا نلحقها لكننا نروح لنلحق بيروت. فوافق حضورُ العساكر الشاميّة الى بيروت حضورَ التعميرة فلم يتعرّض اصحابها للنزول الى البرّ وتوجّهت التعميرة الى جهة قبرس والماغوصة

« ثمّ رجع العسكر الى دمشق وتأخر منهُ شرذمةٌ وجماعة من الامراء. . . ثم انّ التعميرة المذكورة آنفاً غابت اياماً قلائل وعاد الجنويّون الى بيروت بعد ان تركوا في الماغوصة بعض مراكب صغار ومراكب نوافذ كسبوها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموهُ من صيداء. فحضر الى بيروت اثنا عشر غراباً كبيراً ودخلوا الميناء وكان فيها قرقورتان للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدّموهما حتى تمكّن الرُّماة منهم بالجروخ والحجارة من صواريهما على برج بيروت الصغير البعلبكي. ولم يكن في ذلك الوقت بُني البرج الكبير وكان مكانهُ خرائب

قديمة. فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتنحّى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان فتقدّمت شواني العدوّ الى البرّ ما بين البرج الصغير والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير ونصبوا صقائلهم من الشواني الى البرّ . ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة الى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة اشارةً منهم انهم تملكوا البلد . وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمةً بعد أُخرى فهجمت فرقة من المسلمين مع الوالد (١ على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق . فلما نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصقائل فانقلب بهم بعضها ففرق منهم جماعة وقُتل جماعة وانكسروا شرّ كسرة . واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين نفرٌ وجُرح جماعة . وكانوا قد كشفوا التعميرة عشيَّة يوم وصولها فاشعلوا النار ليلًا اشارةً لوصول الفرنج الى بيروت فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة الى دمشق فحضر يَيدَمُر نائب الشام الى بيروت عشيَّة يوم الواقعة وتبعتهُ عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الامر ولم يلحقوا القتال ولم يروا غير الشواني في البحر على بُعدٍ وهي راجعة الى بلادهم

ثمّ خلف المماليكُ البرجيّون الجراكسةُ على مصر المماليكَ البحريين الاتراك سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٤م) فحصل اهل بيروت على الراحة مدّة حتى كانت السنة ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) . فانّ متملّك قبرس المدعوّ يانوس (Janus I) دي لوسينيان كان قصد ان يسترجع مدينة الماغوصة (Famagouste) من الجنويّة الذين كانوا افتتحوها سنة ١٣٧٢ في عهد بطرس الثاني . قال صالح بن يحيي يروي في تاريخه هذا الخبر بما حرفهُ (ص ٥٥—٥٨) :

« فبلغ الجنويّة ذلك فجهّزوا ليأخذوا منهُ قبرس فاصلح الرّوادسة (اي فرسان رودس) بينه وبينهم على حكم ان يقوم لهم بمائة وعشرين الف دينار في نظير كلفتهم على التعميرة . فتوجّهت التعميرة المذكورة الى العلايا (مدينة على ساحل بحر الروم) فلم يقدروا عليها فتوجّهت منها الى طرابلس وبها دَمرداش (المحمّدي) نائبًا . فنزل الفرنج الى البرّ لكنّ المسلمين تكاثروا عليهم ومنعوهم الوصول الى المدينة فرجعوا الى مراكبهم مخذولين بالخيبة . ثم حضروا الى بيروت في العشرين من محرّم سنة ٨٠٦ (١٤٠٣م) فلمّا رآهم اهل بيروت همّوا بترحيل حريمهم واولادهم وامتعتهم فأخليت بيروت من اهلها ولم يكن بها متولٍ ولا عسكر مجرّد للحرب سوى امراء الغرب ومعهم بعض جماعة . وكان قد توحّش خاطرهم لظنّهم انّ في التعميرة خيولًا فخافوا من ذلك . فنزل الفرنج من الشواني الى البرّ في مكان يسمى الصنبطيّة غربي البلد في الرابعة من النهار وتملكوا البلد ونهبوهُ واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريبة من الميناء . وصار المسلمون يتجمعون شيئًا فشيئًا وجعل اصحاب النخوات يهجمون على من تفرّد منهم في الازقة فقتلوا منهم جماعةً واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر . وحضر المتولي الامير يوسف التركماني

١) يريد المؤلف صالحُ بن يحيي والدَهُ يحيي

الكسرواني فاقام الفرنج في بيروت الى قرب العصر ثمّ رجعوا الى مراكبهم. وتتبّع المسلمون بقيّتهم

«وفي تلك الليلة توجّهوا الى صيداء وتوجّهنا قبالتهم في البرّ. فلمّا قربوا من صيداء على مسافة دون ميل من البلد نزلوا الى البرّ. وكان قد اجتمع على صيداء العُشران وغيرهم ولم تجسر الفرنج على الدخول الى البلد . . . ثم بعد ذلك اليوم توجّهوا راجعين الى جهة بيروت قاصدين نهر الكلب ليملأوا منهُ ماء. وعيّن ملكُ الامراء الاميرَ الكبيرَ سودونَ الظريف (نائب الكرك) ليتوجّه قبالة التعميرة ومعهُ امراء الغرب فوجدوا التعميرة متوجّهة الى جهة بلادهم. . . ومن جملة ما نهبهُ الجنويّة المذكورون من بيروت حواصل تجار لفرنج البنادقة بقيمة عشرة آلاف دينار. فبلغ البنادقة ذلك واقتضوا من الجنويّة نظيرها ولزيد. وكان ملك الامراء قد رسم لمتولي بيروت ان يقطع رؤوس قتلى الفرنج وان يعمّر على ابدانهم مسطبةً على باب بيروت ويكتب عليها اسم ملك الامراء. وجهّز الرؤوس الى دمشق ثمّ الى مصر فحصل في انفس الذين قتلوا الفرنج غيرةٌ لنسبة المسطبة الى غيرهم فهدموها ليلاً واحرقوا ما كان بها من رمم الفرنج»

فترى من هذه الروايات انّ بيروت كانت معرّضةً اكثر من سواها لغارات العدوّ فما كانت لتستغني عن مراكب حربيّة تصونها من جهة البحر لانها على الرغم من تلك الغزوات لم يزل موقعها مركزاً مهمّاً. وذلك ما حدا سابقاً بالامير سيف الدين تنكز نائب الشام الى ان يبني لها برجاً عُرف ببرج البعلبكيّة (يحيي بن صالح ص ٦١)

ولمّا تعيّن بيدمر الخوارزمي بعدهُ كنائب الشام جدّد سور بيروت على جانب البحر جعل اوّلهُ من عند حارة بني الغرب واوصلهُ الى تحت برج تنكز وجعل بين السور و البرج باباً وركّب عليهِ سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسُمّي باب السلسلة وعيّن لهُ قوماً يحرسونهُ

وكذلك كانوا اقاموا يَزَكاً اي طلائع في مقابلة العدو وذلك منذ اوائل القرن الثامن للهجرة والرابع عشر للميلاد. قال صالح بن يحيي (ص ٦٢):

«كانت جنود حلقة بعلبك تتجرّد الى بيروت أبدالاً يبقى كل بدلٍ شهراً. وفي السنة ٧٠٦ﻫ (١٣٠٦م) افرّوا التركمان بكسروان وتداركوهم بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونهُ ان يتعدّى دربند نهر الكلب الّا بورقة طريق اي وثيقة من المتولي او من امراء الغرب وجعلوا التركمان المذكورين ثلثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً

(قال) وكان الملك المظفر تقي الدين عُمر الايوبي صاحب حماة قد اوقف وقفاً على جماعة خيّالة ورجّالة برسم الجهاد وشرط عليهم بان يكونوا في اقرب المواني الى دمشق. فلما استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الاخير استقرّ إقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق .

وفي ايام السلطان الملك الظاهر برقوق عُمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من ابراج القلعة الخربة فقرَّروا بهِ المجاهدين المذكورين . ومما قرَّروهُ ايضاً لسرعة الدفاع عن بيروت أعلام نارية كانت تنبئ اهل دمشق باخبار بيروت في ليلة . كانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة ومنه الى جبل بوارش في لبنان ومنه الى جبل يبوس بوادي التيم ومنه الى جبل الصالحية فقلعة دمشق فكانت النار للحوادث بالليل وحمام البطاق وهو حمام الزجَل السيَّار للحوادث في النهار هذا فضلاً عن البريد لنقل الاخبار »

ومع تحصين بيروت اخذ المسلمون يهتمُّون بتزيينها بالابنية والدور الواسعة الفخيمة . لاسيما امراء الغرب الذين سيأتي ذكرهم . ومن البنايات التي كان انشأها الامير تنكز في بيروت خانٌ كبير وحمّام وصفهما ناصر الدين حسين بشعر رواهُ صالح ابن يحيي في تاريخ بيروت (ص١٥٤ – ١٥٥)

وبعد خمود التجارة مدَّةً في بيروت اخذت سوقها بالرواج . قال صالح (ص٥٩) :

«ثم صارت بعض مراكب الفرنج تتردَّد اليها قليلاً قليلاً . وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتَين كانتا لهُ الى بيروت نقلةً بعد اخرى . وكان للبنادقة كُنُس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمّامات»

وقد ذكر كتبة الفرنج انه كانت للبنادقة في بيروت كنيسة كبيرة على اسم القديس مرقس شفيع بلادهم . واردف صالح :

«ثم تكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج فجعل عمّالُ الدولة عليها ضرائب الواردات والصادرات وهي تبلغ جملةً كثيرة . وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشرف وشادّ (من مراتب ذلك الزمان) يوليهم نائب دمشق والمتوفر عن المرتَّبات يُحمل الى دمشق»

تلك كانت حالة بيروت في عهد الملوك المصريين المعروفين بالجراكسة . غير ان النكبات التي توالت على الشام في مطاوي القرن الخامس عشر من حروب ومجاعات واوبئة ادَّت بهم الى ضنك عظيم وخمول . ثم اخذت القرصان ترصد المراكب القادمة من بلاد الفرنج فتأسر ركّابها وتستصفي بضائعها فلم تعُدْ تقدم الى سواحل الشام الّا بكل تحرُّز واحتراس فزادت احوال بيروت بؤساً . ودامت الحال الى عهد السلطان سليم خان الاول الذي فتح مصر وابطل دولة الجراكسة ثم استولى على الديار الشامية سنة ١٥١٧ فدخلت بيروت كبقية المدن السورية في حوزة ملوك بني

عثمان

سنن ٧ البحث السابع

اسرة بني الغرب البحتريين في عهد الصليبيين

انَّ تاريخ بيروت في عهد مماليك مصر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأخبار أُسرة شريفة من الامراء الذين عُرفوا بأُمراء الغرب وبفضل واحد منهم حصلنا على تاريخ اسرتهم نريد بهِ صالح بن يحيى . وهو الذي نشرنا تأليفهُ تباعاً في السنتين الاولَيَين من مجلّة المشرق ثم طبعناهُ على حدة وهو منقول عن نسخة فريدة في خزانة المخطوطات العربيــة في باريس موسومة بالعدد ١٦٧٠ وعنوانهُ هناك «تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب»

فأحببنا ان نفرد هنا بحثاً لما رواهُ المؤلف عن اعمال بني الغرب الامراء في عهد الصليبيين اوَّلًا ثمَّ في زمن ولايتهم على بيروت . نجرّد ذلك عن كتابهِ حيث ورد مبثوثاً مشتَّتاً فجمعناهُ في هذا الفصل كتتمَّة لاحوال عاصمة لبنان في القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر في مدَّة حكم المماليك المصريين على سوريَّة

﴿ من هم الامراء بنو الغرب ﴾ رفع يحيى بن صالح نسبهم الى الامير ناهض الدولة ابي العشائر بُحتر الذي ينتهي نسبهُ الى تنوخ ومنهُ الى المناذرة ملوك الحيرة اللخميين اللاحق اصلهم بسلالة زيد بن كهلان ثم بقحطان جدّ العرب

كان التنوخيُّون اجداد البحتريين قبائلَ نصرانيَّة قبل الاسلام كما اثبتنا ذلك في عدَّة مواضع من كتابنا «النصرانيَّة وآدابها في عهد الجاهليَّة (راجع الصفحات ٣١، ٨٧، ١٢٧ الخ) وبقيت تنوخ على دينها زمناً بعد الهجرة الى ان غلب عليها الدين الاسلامي لامتزاجها بالمسلمين وللضغط عليها كما روى المؤرّخون ومنهم الطبريّ

واستوطنت تنوخ بعد الاسلام جهات الجزيرة والفرات والى عَرَبها ينتسب اجداد امراء الغرب . وقد روى صالح بن يحيى (ص ٦٩) انَّ احد اجدادهم ابا اسحق ابرهيم كان اميرًا بالبيرة (بيره جك) القريبة من الفرات سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) وذلك في عهد الملك الظاهر ابي الحسن عليّ احد الخلفاء الفاطميين

وقدم ابن الامير ابرهيم ويسمَّى مجد الدولــة عليًا الى لبنان فولّاهُ ملوك مصر

على معاملة الغرب في الجبل وعلى سواحل الشام . ولعلّهُ هو الذي كان متوليّاً على بيروت لمّا مرَّ بها الصليبيون اوَّل مرَّة سنة ١٠٩٩م قبل فتحهم للقدس الشريف فصالحوهُ ولم يفتحوا المدينة . وكان الحكم على الشام في تلك السنة السلجوقيين . ثم فتح الفرنج بعد عشر سنين مدينة بيروت وبقيت في يد التنوخيين امارة الغرب فتحصَّنوا فيها . وكانت معاملة الغرب وقتئذٍ تمتدُّ الى معظم بلاد الشوف الحالي ولاسيما ما يعرف اليوم بنواحي الغرب الاقصى والغرب الاعلى والغرب الشمالي وبعض جهات الشحّار والمناصف وذلك ما يُدعى في مناشير بني الغرب جبل بيروت

وقد اشتهر بعد الامير عليّ ابنهُ بُحتر . ذكر لهُ صالح بن يحيي (ص ٦٧) منشوراً نالهُ من الاتابك مجير الدين آبق بن طغتكين في محرَّم سنة ٥٤٢ (حزيران ١١٤٧) يقرّر فيهِ الامير بُحترًا على امارة الغرب من جبل بيروت بعد ابيهِ

وفي اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ٦٦٥ — ٦٦٦) انَّ بُحترًا المذكور نجا من القتل لمَّا استولى الصليبيُّون على بيروت وفتحوها بالسيف وقتلوا من كان فيها وفي جهات الغرب من الامراء . وكان بُحتر صغير السنّ فخفتهُ اُمُّهُ في عرامون . ثم ترعرع ونشَط حارب الفرنج ونال منهم في واقعة رأس التينة عند نهر الغدير . وكانت وفاتهُ سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) . هذا ما رواهُ الشيخ طنوس الشدياق ولم يذكر اسانيدهُ في روايتهِ

وخلف بحترًا ابنهُ زهر الدولة ابو العزّ كرامة بن بحتر التنوخي فجرى على مثال والدهِ في محاربة الفرنج فشكرهُ على فعلهِ الملك نور الدين محمود بن زنكي ومنحهُ منشورًا اثبت لهُ فيهِ اقطاعات والدهِ وزاد فيها كما روى صالح بن يحيي (تاريخهُ ص ٧١)

وكانت الدعوة الدرزيّة في تلك الاثناء انتشرت في لبنان لاسيما في وادي التيم وانحاء الشوف بدعوة بعض الباطنيّة اصحاب الحاكم بامر الله الذي ادَّعي بالربوبيَّة فتبعهُ كثير من البحتريين امراء الغرب وغيرهم فأُطلق على الاحياء الذين قبلوا دعوة الفاطميّ في وادي التيم اسمُ آل عبدالله وبهِ دعاهم صالح بن يحيي في تاريخ بيروت (ص ٧٠) امَّا دروز صفد فدُعوا آلَ تُراب (ص ٢٧٩ — ٢٨٠)

وممَّا رواهُ صالح في تاريخهِ (ص ٧٤ — ٧٥) وابن سباط من بعده ولم نجد لهُ ذكرًا في تواريخ الصليبيين انَّ صاحب بيروت الفرنجي ولم يصرّحا باسمهِ والمرجَّح انهُ

المسمى غوتيه سيّد بيروت (Gauthier, sire de Baruth) هـادَنَ اولاد الامير كرامة ولم يزل يجاملهم حتى غدر بهم وقتلهم غيلةً ونهب بلادهم . ودونك الخبر كما رواهُ صالح وابن سباط (ص١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) :

« بعد وفاة زهر الدولة كرامة اقام اولادهُ الثلثة الكبار مقامهُ فهادنهم القيّم مقام الافرنجي صاحب بيروت وآنسهم وتكرَّر اجتماعهم معهُ في الصيد وهو يعطيهم ويُحسن اليهم ثمَّ دعاهم الى عرس ابنه . فلمَّا كان وقت العرس قدم الثلثة الى بيروت فأنزلهم صاحبها في بستان ظاهر البلد واعتذر اليهم لايوائهم خارج البلد لكثرة ما اجتمع فيهِ من طوائف الفرنج لوليمة العرس وزاد في اكرامهم . ولمَّا دخل الليل سألهم الحضور الى مجلس خاصّ قد هُيِّئَ لهم وللملوك الفرنج فدخل الثلثة الى القلعة ومعهم نفر قليل فكان آخر العهد بهم . وركب صاحب بيروت بمن عندهُ من جموع الفرنج في صبيحة تلك الليلة وطلعوا الى حصن سرحمول الذي كانوا يقيمون فيهِ وكان خاليًا من الرجال فهرب من كان بهِ ومن جملتهم حجى(١ اخو الامراء الصغير وكان عمرهُ سبع سنين هربت بهِ امُّهُ الى الدوير . فنهبت الفرنج الحصن وهدموهُ والقوا حجارتهُ في الوادي ولم يبقوا لهُ اثرًا واحرقوا القرى واسروا من تخلّف عن الهرب»

هذا ما رواهُ الكاتبان ولم يتَّفقا في تعيين سنتهِ فانَّ ابن سباط يجعل وقوعهُ سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤ــ١١٧٥) امَّا صالح بن يحيى فيقول (ص ٧٥) : « انَّ هذه الكائنة وقعت في اواخر دولة الملك العادل نور الدين بن زنكي» والملك العادل توفي في شوَّال سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) فيكون الفرق بين الكاتبين نيّفًا وسنتين . وزاد الكاتبان انَّ الملك الناصر صلاح الدين لمَّا فتح بيروت بعد ذلك سنة ٥٨٣ امس رأس حِجى بن كرامة وقال لهُ : «ها قد اخذنا ثارك من الفرنج فطيّب قلبك وانت مستمرٌ مكان ابيك واخوتك» . وكتب لهُ منشورًا في ذلك تاريخهُ «بارض بيروت في العشر الآخر من جمادى الاولى سنة ٥٨٣ (١١٨٧ م)

ولم تبق بيروت زمنًا طويلًا في ايدي المسلمين كما سبق فرجع اليها الصليبيّون وثبّتوا فيها سلطتهم وتملّكوها من السنة ١١٩٧ الى ١٢٩١ في عهد الملوك الايوبيين ثمَّ المماليك الاتراك على مصر . ففي تلك المدَّة من السنين كان امراء الغرب يحصّنون قراهم في وجه الفرنج ويبنون فيها الابنية الفخمة ممَّا بقي بعض آثاره الى يومنا في

---

١) كُتب هذا الاسم في الاصل «حجي» وقد افادنا الامير شكيب ارسلان ان الصواب «حِجَى»

اعبيّة وعرامون وعيناب ونواحي الدامور

على انّ ملوك مصر ما كان ليهدأ لهم بال والفرنج بجوارهم في قلب البلاد او يتهدّدون باساطيلهم سواحل الشام فوكلوا الى امراء الغرب ان يقفوا لهم بالمرصاد ويتصدّوا لهم ويعرقلوا امورهم ويلازموا نظر سواحل بيروت . وفي كتابات امراء الغرب الى ملوك مصر والى الامراء عمالهم تطمينٌ لبالهم يؤكدون لهم صدق خدمتهم ومناهضتهم للفرنج وكانوا اذا حدث امر هامّ يعلمون به ملوك مصر . فانّ الملك الظاهر بيبرس يثني على اميري الغرب زين الدين علي وجمال الدين حجى لهمّتهما في مكاتبته عن احوال سواحل الشام ويشكرهما على ما اخبراه به من امر زواج ابنة صاحب بيروت من ابن ملك قبرس (ص ٨٣و٩٦)

على انّنا نرى مع ذلك في بعض الاحوال انّ المعاملات بين الفرنج وامراء الغرب كانت وديّة لنا على ذلك شاهدان في ما ذكره صالح بن يحيى . وهما المنشوران اللذان اشرنا اليهما ورواهما في تاريخه (ص ٨٣ــ٨٤ و ١١١ــ١١٢) الاوّل لصاحب صيداء رينو (Renaud de Sagette) كتبهُ سنة ١٥٦٧ للاسكندر (١٢٥٦ م) والثاني لهمفري دي مونفور (Humfroy de Monfort) في تاريخ سنة ١٥٩٢ يونانية (١٢٨١م)

واخبر في محلّ آخر من تاريخه (ص ٨٧) انّ الامير سعد الدين اخا الامير حجى المذكور كان مولعاً بصيد الطيور الجوارح وان صاحب قبرس الفرنجي (والاصح صاحب بيروت) كان يهديه طيوراً وذلك ما يثبت تلك العلاقات الوديّة بين الفرنج وامراء الغرب

ومما رواهُ ايضاً عدّة مناشير للملك الظاهر بيبرس (٩٥ــ٩٨) يوجهها الى اميري الغرب زين الدين علي وجمال الدين حجى الكبير يقرّر فيها اقطاعاتهم ويُحسن اليهم . ولعلّ ما نالاهُ من النعمة من قبل السلطان هو الذي حرّك الحسد والبغض في اعدائهم بني ابي الجيش فسعوا بهم ال الملك ظاهر بيبرس وزوّروا باسمهم كتابات الى الفرنج الى صاحب طرابلس فبلّغوها الى الملك بيبرس . فحنق عليهم وارسل فاوقف الاميرين المذكورين وسعد الدين خضر اخا جمال الدين حجى واعتقلهم فحبس الامير زين الدين علي في سجن مصر والامير جمال الدين في الكرك وسعد الدين خضر في قلعة عجلون ولم يقبل فيهم شفاعةً . وبقوا عدّة سنين في حبسهم الى سنة وفاة الملك الظاهر

وبيبرس سنة ٦٧٦ﻫ (١٢٧٧م) لم يخرجوا من السجن إلّا في عهد ابنهِ الملك السعيد ناصر الدين بركة (اطلب تاريخ صالح ٩٨ــ١٠١)·

وعاد الامراء الثلثة الى اوطانهم· وتكرّرت الشكوى عليهم الى الملك منصور قلاوون لميلهم الى الفرنج الصليبيين المتملكين على سواحل الشام لاسيما صيداء وبيروت··فكتب الاميران زين الدين علي وجمال الدين حجى واولادهما الى الملك يتنصّلون من تلك التهمة ويؤكدون خلوص خدمتهم للدولة المنصوريّة ويصرّحون «بانهُ ليس منهم احد يحبُّ الفرنج او يميل اليهم او يناصحهم وانَّ ما نُسب اليهم انما هو تشنيعٌ من اعدائهم ومبغضيهم» (تاريخ صالح ١٠٣ــ١٠٤)·

البحث الثامن

امراء الغرب في بيروت ١٢٩١—١٥١٥

بقي امراء الغرب في جبلهم الى ان فُتحت بيروت نهائيًّا سنة ٦٩٠ ﻫ(١٢٩١م) على عهد السلطان الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ملك مصر فكان امراء الغرب اوَّل من دخلها··واخصّهم الامراء زين الدين صالح بن علي وجمال الدين حجى وسعد الدين خضر الذين مرَّ ذكر اعتقالهم في عهد الملك الظاهر· وفي السنة الثالثة لفتح بيروت ١٢٩٤ استقرَّ دركهم على بيروت فاقاموا لحراستها تسعين فارساً قسموهم ثلثة اقسام جعلوهم ابداً لا يقيم ثلثون منهم شهراً ثم يعقبهم بدل آخر بالمناوبة تاريخ صالح ٦٣ــ٦٤)· وفي اثناء ذلك استرجعوا ما كان نُزع عنهم من الاقطاعات (واستبدلوا ما كان لهم منها في جهات طرابلس فجعلوها على درك بيروت (صالح١٠٩) في زمن سلطنة الملك الناصر محمَّد بن قلاوون (١٢٩٣م) ·وقد اشتهر اذ ذاك الامير ناصر الدين حسين ابن سعد الدين خضر وهو الذي افاض في وصفهِ صالح في تاريخهِ (ص ١٢٠ــ١٢٨) · وقد عُني بأحوال بيروت وحفظ ثغرهِ مع عدَّة رجال يساعدونهُ فمدحهُ في ذلك احد شعراء زمانهِ قائلًا :

أيا ابنَ امير الغرب شرقًا ومغربًا ومَن كلُّ عُرفٍ غير عُرفِهمُ نُكرا
بإحسانك المشهور بيروتُ بلدةٌ على الساحل المعمور صار لها ذِكرا
تبسَّمَ عُجبًا ثغرُها وترنَّحت معاطفُها تيهًا وجلَّلها البِشرُ

وكان عليها الكفرُ والشركُ دائمًا فمُذ حلّها مولايَ عاد لها الفخر
وعاوَدها أُنسٌ بقُربِ رِكابكم ولولاكمُ ما افترَّ يومًا لها ثَغر
بكم قرَّ عينًا للغريبِ وانَّما حصينُ بن خضر ظلّهُ فوقَهُ سِتر
هو الناصر المعروف بالجود والتُّقى لهُ الفضلُ والاحسان والعطفُ والبرُّ

وفي السنة ٧٤٣ (١٣٤٣ م) امر الملك اسمعيل ابن الملك الناصر بتجريد فرقة من بني الغرب ليحاربوا معهُ اخاهُ الناصر شهاب الدين احمد الذي خلعه اهل الدولة لسوء سيرتهِ بالرعية. فكان احتلَّ قلعة الكرك وتحصَّن فيها فسار ناصر الدين بمائتين وخمسين رجلًا من بيروت وحاربوا السلطان احمد الى أن نفد ما عندهُ من الطعام فطلب الامان ثمَّ قُتل بالسيف. فعاد ناصر الدين الى بيروت.

وقد اشتهر ناصر الدين خضر بما شيَّدهُ من المباني في اعبَيه وبيروت. وقد وصف صالح في تاريخهِ (ص ١٥٠—١٥٣) عمائرهُ في اعبيه. اما ابنيتهُ في بيروت فخصَّ بها فصلًا ننقلهُ هنا لافادته قال (ص ١٤٩—١٥٠):

«لمّا جُعل دَرَك امراء الغرب على بيروت كما ذكرنا واقتسموا ثلثة ابدال اتّخذوا الكنيسة التي شرقي البلد داخل السور (١ فكانت لهم منزلًا وكانت هذه الكنيسة تُعرَف بكنيسة افرنسيسك (٢. ويزعم الفرنج انَّ افرنسيسك هذا قدّيس ظهر متأخر من مدّة مائتي سنة مضت الى هذا التاريخ (٣. وكانت هذه الكنيسة كبيرة فجعلها السَّلَف اسطبلًا (كذا) وجعلوا في اعلاها اطباقًا وهي في وقتنا هذا (٤ بيعت لبني الحمراء (٥ فنقلوا حجارتها الى مدرستهم وذلك بعد العشرة والثمانمائة (١٤٠٧م) وكانت معروفة بالسلف (٦ وهم لم يبرحوا فيها بدلًا بعد بدل حتى

١) حيث اليوم الجامع المجاور للباب الشرقي القديم ليس بعيدًا عن السراية القديمة

٢) يريد القديس فرنسيس ... منشئ الرهبانية الفرنسيسية وكان للفرنسيسيين في بيروت دير على اسم القديس يوسف اما الكنيسة فكانت على اسم المخلص تذكارًا لاعجوبة الصليب الذي سال منهُ الدم بضربة بعض اليهود. وكان الرهبان يسكنون ذلك الدير ويخدمون كنيستهُ في عهد الامراء الصليبيين المالكين لبيروت فخرجوا منها بفتح الملك الاشرف للمدينة سنة ١٢٩١ ثمَّ عادوا الى بيروت بعد مدَّة وسكنوا في قسم صغير من ديرهم القديم او بجوارهِ. وقد ذكر السيَّاح في اواسط القرن الرابع عشر هذا الدير الصغير وبقيت كنيسة المخلص في حوزة المسلمين راجع GOLUBOVICH: Superiori di Terra Santa, p. 216

٣) توفي القديس فرنسيس سنة ١٢٢٦

٤) اي وقت كتابة تاريخ صالح في اواسط القرن الخامس عشر

٥) كانوا حيًا من عرب البقاع نزلوا عند رأس بيروت

٦) يريد بالسَّلَف امراء الغرب القدماء اي كانت تُنسب اليهم

جرى من الجنوية ما جرى واخذوا قرقور الكثيلان . فكره ناصر الدين الكنيسة لبعدها عن البحر واختار ان يكون مجاورًا للبحر فاتخذ الحارة التي على جانب البحر وعمّر اطباقًا على الاقبية ودارًا عليها سورٌ فجاءت احسن ما يكون وجعل الاطباق مسجدًا . ولمّا سكنها ناصر الدين بن يضاف اليهِ من بدلهِ استمرَّ بَدَلِ العَرامونيين (١ في الكنيسة المذكورة . وامّا بدل العَيانية(٢ ومن أضيفوا اليهم فاتخذوا لهم الدار المعروفة بدار صاحب بيروت المجاورة للحمّام العتيق . . . ثمَّ بعد استملاك ناصر الدين الحارة الجديدة المذكورة استملك الزقاق المعروف بزقاق الخيّالة وهو من باب الحارة بجهة القبلة الى قرب الحمام العتيق جانبَي الزقاق يمنةً ويسرة»

امّا حادث الفرنج الجنويين الذي اشار اليهِ صالح فقد جرى سنة ٧٣٤هـ١٣٣٤م) وقد مرَّ ذكرهُ (ص ٨٦٧) وزاد صالح في تاريخهِ : «انَّ امراء الغرب وتركمان كسروان طلبهم تنكز الى دمشق وحصلت لهم اهانة واذيّة» . قال الشيخ طنوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ٢٣٥) :

« وسجنَهم تنكز فالتمس الامير ساروجا الدمشقي منهُ اطلاق الامير ناصر الدين الحسين من القلعة فاطلقهُ . ثمَّ اطلق باقي الامراء لعدم ثبوت ذنبٍ عليهم وامرهم بالاقامة في بيروت فعمَّر الامير ناصر الدين الدار المتطرّفة على جانب البحر »

وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين سبب غارة الفرنج على بيروت في تلك السنة قالوا انَّ ابن صاحب البنادقة مرَّ ببيروت وتجوَّل في شوارعها فاستاءَ بعض اهلها من فعلهِ وكان بينهم اعمى ضرير فقال لهم : انا اقتل الغلام فتكفون شرَّهُ وانّما اطلب اليكم ان تردّوا عني اصحابهُ . فوعدوهُ ودعوا الغلام الى الجلوس في فسحة امام القيساريّة العتيقة . فلمّا جلس اتاهُ الاعمى ليستعطي وبينما هو يخرج من كيسهِ صدقةً وثب عليهِ فخنقهُ قبل ان يتمكّن اصحابهُ من خلاصهِ . ثم مال المسلمون على رفقتهِ فقتلوا البعض منهم وفرَّ الباقون الى مراكبهم وعادوا الى البندقيّة فاخبروا صاحبها بما فعل البيروتيّون فجهَّز المراكب وارسلها الى فتح المدينة فتمَّ الامر كما روى صالح ابن يحيي

وانّا نرى في هذا الخبر مشكلًا فانّ القتيل على ما يقال كان ابن صاحب البندقيّة . امّا المغيرون على بيروت فهم الجنويون وكان الجنويون معادين للبنادقة .

١) اي امراء الغرب اصحاب عرامون

٢) اي امراء الغرب اصحاب عيناب

ويا ليت اصحاب هذا الخبر افادونا بذكر السند الذي اعتمدوا عليه .

توفي ناصر الدين سنة ٧٥١ (١٣٥٠م) ثمّ حارب الجنويون ثغر بيروت سنة ٧٨٤ ه (١٣٨٢م) كما سبق شرحهُ وكان انتصار المسلمين عليهم بفضل امير الغرب سيف الدين يحيي فنجت بيروت من غيلتهم . وانما بيدمر نائب دمشق لم يعترف ليحيي بحسن صنعهِ بل اغاظ لهُ الكلام وادّعى انهُ ممالئٌ للفرنج واخرج عنهُ اقطاعهُ . وقد بيّن ابنهُ صالح في تاريخ بيروت (ص ٢٣٠ـــ٢٣١) سبب غضب بيدمر على ابيهِ وروى ايضاً ما ابداهُ الامراء بنو الغرب من النخوة والشهامة في مقاتلة الجنويين سنة ٨٠٦ (١٤٠٣م) لما نزلوا بيروت ونهبوها . (راجع الفصل السابق)

وكانت قبل ذلك سنة ٧٩١ (١٣٨٨ م) ظهرت امانة بني الغرب للسلطان الملك الظاهر برقوق لمّا حصلت بينهُ وبين السلطان حاجي منصور منازعات في الملك كان الانتصار فيها للملك الظاهر . ولمّا حاصر دمشق استدعى اليهِ امراء الغرب وامرهم ان يقبضوا على الامير باز (ويروى : بار) والي بيروت من قبل السلطان حاجي ويحضروهُ معهم . فاجابوا الى طلبهِ وقدّموا لهُ رصاص منجنيق اضرب دمشق كان طلبهُ منهم وبقوا في خدمتهِ الى ان سار لمحاربة منطاش والعساكر المصريّة في شقحب فزحفوا معهُ ثمّ انهزموا وهم يظنّون انّ الملك الظاهر برقوق مكسور فرجعوا الى الغرب ألا انّ الجنود المنطاشيّة حملت عليهم وقتلت كثيرين منهم ونهبوا ما وجدوا لهم في بيروت . ولم تزل امورهم في اضطراب الى ان قُتل منطاش وعادت الامور الى مجاريها وثبت الملك للسلطان الظاهر . وفي اخبار الامراء بني ارسلان (راجع اخبار الاعيان ص ٦٧٢) انّ احد الامراء اسلافهم سيف الدين ابن مفرج ابلى في محاربة منطاش وذويهِ بلاء حسناً وكسر جيشهُ فاقرّهُ السلطان الملك الظّاهر اميراً على بيروت والغرب

ثمّ بدى هذا الامير مثل تلك الشجاعة في محاربة الفرنج سنة ٨١٥ه (١٤١٣م) لمّا حضروا بسفنهم الى سواحل الشام وتهدّدوا بيروت فردّهم الامير وجماعتهُ خائبين (اخبار الاعيان (٦٧١ـــ٦٧٢)

ومما ذكرهُ صالح من الابنية لابيهِ سيف الدين يحيي في بيروت ايوانٌ بديع مات قبل نجاز رصفهِ بالرخام وزخرفتهِ سنة ٧٩٠ (١٣٨٨) . وروى انهُ اجرى الماء الى حارتهم المجاورة للبحر المعروفة بهِ . ووصف كرم ابيهِ يحيي وما تكلّفهُ على رفقتهِ لمّا حجّ معهم

الى مكة وما صرفهُ في الهدايا للملوك والامراء وفي ابنيتهِ في اعبيه حتى تخلّفت عليهِ الديون عندَ موتهِ فوفاها ابنهُ فخر الدين عثمان (صالح ٢٤٩) الذي توفي بعد ابيـهِ بزمن قليل سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)

ومن ابنية بني الغرب في بيروت قصرٌ ذكرهُ ابن سباط في تاريخـهِ (ص ٣٤ من نسخة مكتبتنا الشرقيَّة) قال انَّ بانيهُ هو الامير زين الدين عمر بن عيسى بن صالح التنوخي المتوفى سنة ٨٦٤ (١٤٥٩م) روى عنهُ انهُ «كان لهُ عناء في البنيان وهو الذي بنى القصر المشهور في مدينة بيروت وهو كائن الى الآن» اعني السنة ٩٢٦هـ(١٥٢٠م) وفيها كتب ابن سباط تاريخهُ في نسبة آل تنوخ

وممَّا ذكرهُ صالح عن جدّهِ زين الدين صالح ناصر الدين حسين انهُ لمَّا دخل بيروت بعد فتحها بيَّض جامعها الذي كان كنيسة للفرنج قال (ص ٥٨ــ٥٩):

«لمَّا كان الفرنج متولين على بيروت كانت جماعة المسلمين قليلة ولا جامع لهم. فلما قدّر الله بنزعها من يد الفرنج استقرَّت كنيستهم جامعاً وكانت تُعرف عندهم بكنيسة مار يحنا. كان بها صوَر طلاها المسلمون بالطين وبقي الطين الى ايام الجدّ (زين الدين صالح) فبيَّضه وازال عنهُ آثار تلك الصوَر»

وآخر ما رواهُ صالح حملة بني الغرب مع الجيوش المصريَّة على قبرس وكان صالح يأمر على غراب وتحت امرهِ نحو مئة رجل وقد فصَّل اخبار تلك الحملة في ملحق تاريخ بيروت فرويناها في مجموع مكتبنا الشرقيّ (Un dernier écho des Croisades, MFO, I. 307-327)

هذا غاية ما استفدنا من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى عن مآثر بني الغرب في عاصمة لبنان في عهد المماليك الاتراك والجراكسة المصريين الى سنة الفتح العثماني للشام سنة (١٥١٥م)

البحث التاسع

بيروت في عهد الدولة العثمانيَّة

الى واقعة عين داره (١٥١٧ــ١٧١١)

لمَّا كسر السلطان العثماني سليم الاوَّل شوكة الشراكسة بانتصاره على ملك مصر

قانصوه الغوري في مرج دابق في نواحي حلب سنة ١٥١٦ (٩٢٢ هـ) ثم على خلفه طومان باي ابن اخيه في القاهرة (١٥١٧) ضمّ الى دولة بني عثمان مصر والشام وجزيرة العرب وأسرع الى تنظيم ولاياتها . واذ نظر بلاد الشام في حالة من الفوضى كادت تحوّلها الى خراب يَباب أحبَّ ان ينهض بها من كبوتها ويعيد اليها شيئاً من رونقها السابق فولّى الامير فخر الدين ابن عثمان بن معن على الشوف والغرب وبعض مقاطعات لبنان لانهُ كان حارب المصريين مع جيوشهِ ونائبهِ جان بردي المعروف بالغزالي . وعلى خلاف ذلك اعتقل امراءَ الغرب لثباتهم على امانة مماليك مصر فبقوا معتقلين في قلعة دمشق ثم في حلب الى ان فدوا نفسهم بالهدايا وعادوا الى مواطنهم .

وكانت نيابة الشام من قِبَل السلطان سليم للغزّالي فاستفحلت سطوتهُ وامتدّ نطاق ولايتهِ على معظم مدن الشام وفلسطين والسواحل ومن جملتها بيروت فحدَّثتهُ نفسهُ بالاستبداد في الحكم . ولّما توفي السلطان سليم وخلفهُ ابنهُ السلطان سليمان القانونيّ (١٥٢٠) جاهر الغزالي بالعصيان وادَّعى لنفسهِ الملك وحشد الجند . فارسل سليمان عسكرًا لمحاربتهِ فقُتل في قابون قريباً من دمشق وتشتَّت اصحابهُ

ثمّ اخذت الدولة منذ ذاك الحين تعيّن نوّاباً على سوريَّة بصفة ولاة وقسمتها الى ثلث ولايات دمشق وطرابلس وحلب وضمَّت الى كل ولاية عدَّة الوية او سناجق . وكانت بيروت احدى سناجق دمشق العشرة . وكان ولاة دمشق يتناوبون واحدًا بعد آخر قلّما يزيد زمن ولاية احدهم على سنة او سنتين حتى بلغ عددهم ١٣٣ والياً في مدَّة ١٨٤ سنة . فجرى لسبب ذلك منازعات وتعدّيات ومظالم لا تُحصى ليسرع الولاة ويجمعوا ما يطمعون فيهِ من المال قبل استبدالهم فينالوا رضى الباب العالي بوضع الضرائب الباهظة على الاهلين ويحرزوا لانفسهم قسطاً واسعاً منها

وكانت ثلثة بيوت من الامراء تتقاسم الحكم في لبنان بنو معن وبنو عسَّاف وبنو سيفا . وكان بنو معن اوسعهم املاكاً واكبرهم سلطة حكموا على الشوف والغرب وساحل صيداء وبيروت . وحكم بنو عسَّاف التركمانيُّون على كسروان وامتدَّ حكمهم من نهر الكلب الى بلاد جبيل وجهات حماة . واما بنو سيفا فكانوا متولّين على عكَّار وحصن الاكراد . وكان اللبنانيُّون في شمالي لبنان يُعنَون بامورهم تحت نظارة مقدَّمين من مواطنيهم كانوا يدفعون للدولة ما يجمعونهُ من الضرائب .

وكثيرًا ما حدث بين هؤلاء الامراء مناوشات ووقائع لاسيما الحزبين الشهيرَين القيسيين واليمنيين وربَّما تداخلت عساكر الدولة في امورهم تارةً مع اولئك وحيناً مع هؤلاء على مقتضى سياستها . واوَّل من انقرض من الامراء بنو عسَّاف . فتكَ بآخر أمرائهم يوسف باشا سِيفا فاستولى على املاكهم هو وبنوه . ولم تَطُل مدَّة بني سيفا فوقع بينهم وبين بني معن وقائع عديدة كانت الدولة عليهم وتعقَّب بقاياهم شاهينُ باشا والي طرابلس فاباد ذكرهم وملك المعنيُّون على اقطاعاتهم سنة ١٦٣٧

وكذلك بنو تنوخ امراء الغرب سابقاً فانهم لم يصيبوا بعد الفتح العثماني حظوةً وبقوا في حصونهم خاملين ومنقسمين بين قيسيين ويمنيين حتى قام احد انسبائهم علَم الدين اليمني وكان تولّى الامر بغيبة الامير فخر الدين المعني الى الاستانة فسار الى مقرّ الامراء في اعبيه فباغتَهم بجُنوده واغتال بهم فقتلهم عن بكرة ابيهم ولم يفلت منهم احد وذلك سنة ١٦٢٣ (

☆

وكانت بيروت في تلك الاثناء لا تزال محصَّنةً بسورها وبرجَيها السابق ذكرهما مع السلسلة الممتدة بينها الى قلعتها تزينها الابنية التي شادها امراء بني الغرب وكان السيَّاح الفرنج القادمون الى زيارة الاراضي المقدسة يزورونها فيصفونها كمدينة غنيَّة ذات تجارة واسعة ويذكرون مرفأها انهُ عميق المياه امين للسفن

أمّا اهل بيروت فكان عددهم قد قلّ الى نحو العشرة الآلاف لِما أصابها من الاوبئة . ذكر منها جلال الدين السيوطي في مقامتهِ الطاعونيّة (ص ٦٩ — ٧٥) طاعون السنتين ٨٩٧ و٨٩٨ (١٤٩١ — ١٤٩٢) الذي عمّ القطرين الشامي والمصري وفتك باهل بيروت فذكّرهم بطاعون سابق وصفه ابنُ الورديّ في رسالتهِ « النبا عن الوبا »(نسخة برلين Ms de Berlin, 8550) روى فيها ما ألمَّ ببلاد الشام من نكباتهِ

وفي اوَّل العهد العثماني حصل في بيروت غلاء شديد ومجاعة بسبب الحروب واضطراب الاحوال وظهور الجراد حتى غلت اسعار كلّ المأكولات وكلّ الحاجيَّات كما اخبر حمزة بن سباط في ختام تاريخهِ سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩ م) قال «ان شُنبل القمح في بيروت بلغ ثمنهُ ١٥٠ دينارًا»

وكانت بيروت مع ذلك لا تزال تستوقف انظار الطامعين بملكها لوقوعها في

وسط البلاد على ساحل البحر بجوار لبنان وهي فُرضة دمشق. وبقي مينا بيروت على حالتهِ من الصلاح والامن حتى انهُ في ذلك العهد كان معدوداً من احسن مراسي السفن. فذلك ما أثار مطامع الامراء المعنيين والتنوخيين وبني عسَّاف ليبسطوا سيطرتهم على بيروت لاسيا اذ رأوا ولاة دمشق منهمكين في اشغالهم يحرصون على حفظ منصبهم مع قصر ولايتهم . وربَّما كانت تقع الحروب بين الولاة الثلثة الشام وحلب وطرابلس فيقطعون بيروت للامراء الموالين لهم وانصارهم في حروبهم وانما بقيت مدةً تحت حكم امراء الغرب

﴿امراء بني عسَّاف في بيروت﴾ ولما ضعفت اسرة التنوخيين بما دهمها من النكبات في القرن السادس عشر الى ان فتك بهم علَم الدين اليمني صار الامر على بيروت لبني عسَّاف. وكان هؤلاء الامراء التركمان منذ عهد مماليك مصر مستولين على كسروان وبعض سواحل الشام ثم ثبَّتهم السلطان سليم الأوَّل في املاكهم وحكَّمهم على كسروان وبلاد جبيل لمحاربتهم مع جنودهِ ضدَّ الدولة المصريَّة . وكانت وفاة الامير عسَّاف كبيرهم سنة ١٥٢٣ . فتولَّى من بعدهِ ابنهُ الامير حسن بامر والي دمشق لكنَّ اخاهُ قايتباي حسدَهُ على الولاية ولم يزل يترصَّدهُ حتى اوقع بهِ وباخيهِ حسين فغدر بهما اذ سارا يوماً الى بيروت. ومات قايتباي سنة ١٥٣٣ فخلفهُ المنصور ابن اخيهِ الحسن فعظم شأنهُ وسعى بتوسيع نطاق امرتهِ حتى امتدَّت ولايتهُ على كل الساحل من بيروت الى البترون ثم الى جهات لبنان الشماليَّة حتى حدود حماة قرَّرها لهُ السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٢ فصار لهُ عليها الحلّ والربط يولّي عليها من يشاء . وحارب الامراء بني سيفا فغلبهم وكان جعل مقرَّه في غزير وادخل في خدمتهِ المشائخ آل حبيش. وترك آثاراً مشكورة من ولايتهِ التي بلغت ٤٧ سنةً فتوفي سنة ١٥٨٢ . ولم تطل بعدهُ ولاية بني عسَّاف فان محمَّد ابن الامير منصور قُتل بعد عشر سنين (١٥٩١) كمَنَ لهُ عدوُّهُ يوسف باشا سيفا في مضيق المُسَيْلحة قريباً من بترون فاغتالهُ فمات ولم يعقب وبهِ انقرضت سلالة بني عسَّاف واستولى يوسف باشا سيفا على املاكهِ في جهات طرابلس ولم تطل مدَّة ولاية بني سيفا كما سبق

﴿بنو معن في بيروت﴾ وكان نجم بني معن يزداد سطوعاً فبعد وفاة الامير فخر الدين الاوَّل ابن عثمان الذي كان دعاهُ السلطان سليم الاوَّل بسلطان البرّ فأولى

١٥٧٢ - ١٦٣٥

فخر الدين الثاني الكبير (١٦٩٧ — ١٧٣٣)

(عن كتاب ترجمته بالطليانية سنة ١٧٨٧)

لبنانَ وسواحلهُ اماناً ورقياً سنة ٩٥١ هـ (١٥٤٤م). خلفهُ ابنهُ الامير قرقماز فلم يبلغ من الجاه والسلطة ما بلغهُ ابوهُ . وفي ايامهِ أقطعت الدولة بيروتَ الاميرَ منصور عسّاف فتولّاها مدّةً وبنى لهُ فيها قصراً جميلًا وبنى بقربه جامعاً نُسب اليهِ وشيّد دار ولايتها

وكانت وفاة الامير قرقماز سنة ٩٩٣هـ (١٥٨٥م) وهو مختبئ في مغارة جزّين من وجه الدولة فرارًا من ضرائبها الباهظة وخلّف ولدَين الاميرَين يونس وفخرالدين ضمّهما اليهِ خالهما الامير سيف الدين التنوخي وسلّمهما بعد حين ولايتهما في الشوف

ولكليهما اخبار واسعة ومآثر جليلة ووقائع عديدة مع ولاة الدولة والامراء المجاورين لهم . وقد اشتهر خصوصاً الامير فخر الدين الذي عُرف بالكبير . فهذا كان مولدهُ سنة ١٥٧٢ . تربّى بعد وفاة والدهِ في كسرون في ضمانة بيت الخازن ثمّ خلف اباهُ في ولاية الشوف . وهو الذي مدّة نحو اربعين سنة ألفتَ اليهِ انظار مواطنيهِ واستولى على قسم كبير من بلاد الشام وجنّد الجنود وتصدّى لولاة الدولة فغلبهم . فسارت بذكرهِ الركبان حتى عرفهُ القاصي والداني بل تجاوزت اخبارهُ البحار فاصبح اسمهُ في بلاد الفرنج مرادفاً لبطل الشرق وسلطان الشام ومحامي النصارى . وكان بين حاشيتهِ منهم رجال فضل وذكاء لاسيما من مشايخ آل الخازن وكان كاخيتُهُ ابا نوفل نادر الخازن

وكانت بيروت في جملة البلاد الواقعة تحت حكم الامير فخر الدين الكبير فخصّها بعنايته وأعارها نظرهُ لترقية امورها المادية والادبية فرمّم ما خرب من ابنيتها وعُني بتحصينها وتشجير غابة صنوبرها القديمة وابتنى لها جامعاً يعرف الى اليوم باسمهِ واتّخذها كدار سكناهُ ومقام عزّهِ ورونق دولتهِ فبنى فيها الدور الرحبة والمعاهد البهجة والجنائن الغنّاء . ومن مبانيهِ برجُ الكشّاف الذي بقي الى اواخر القرن الماضي فهُدم وأُقيمت في مكانهِ الحوانيت والمقاهي . وبنى الخان المعروف بخان الوحوش ثمّ الحمّامات والاسواق والفنادق

وكان تحت يدهِ مهندسان ايطاليّان اسمهما تشيولي (Cioli) وفاني (Fagni) كانا يتوليان هندسة تلك المباني على طراز بديع فاصبحت بيروت بها مزدانةً برونق جديد كان يستوقف انظار القادمين اليها من السيّاح . وكانت سوق التجارة في أيامهِ

رائجة اي رواج . وكانت السفن الاوربيّة الفرنسويّة والايطالية والهولنديّة تنقل الى بيروت محصولات البلاد الغربيّة وتستعيض عنها بخيرات البلاد الشرقيّة لاسيما الحرير والمنسوجات الوطنيّة والغلّات الوافرة . وانّما اساء اليها والى المدن الساحليّة اذ جنح الى رأي من اشار اليه بان يطمّ ميناءها ليمنع اعداءه عن دخولها ففعل ذلك في بيروت وصيداء وعكّا . فكان هذا من بعده احد اسباب انحطاط التجارة في سواحل الشام الى القرن التاسع عشر . وفي ايّامه بني الامير منذر التنوخي جامعاً يُعرف باسمه الى اليوم

وبنى الامير فخر الدين للفرنسويين خاناً في صيداء احتلّهُ قناصلهم وتجّارهم . وامضى معاهدةً مع تجّار فلورنسة فاتّخذوا لهم مخازن واسعة واقاموا لهم قناصل . فكانت هذه المعاملات الوديّة داعياً لهُ الى ان يلتجئ الى غراندوقة فلورنسة قزما الثاني من سلالة ماديشيس سنة ١٦١٣ لما ضايقهُ اعداؤهُ وجيوش الدولة المرسلة لمحاربتهِ . فابحر الى ايطالية وبقي في ضيافة امير فلورنسة مدّة خمس سنوات حتى تمكن من العود الى وطنهِ فاستأنف اعمالهُ في ترقية وطنهِ والدفاع عنهُ بالاستحكامات وتشييد القلاع . وكان في خدمتهِ جيش من السكمان وغيرهم المتجندين بالاجرة بلغ عددهم على ما قيل الى نحو ١٠٠،٠٠٠ لولا انّ الدولة لم تزل تترصّدهُ واسترابت بنيّتهِ في طلب السلطنة فلم تزل تمدّ ولاتها بالجيوش البريّة والبحريّة حتى قبض عليه احمد كجك سرعسكرها في قلعة جزّين فقُتل الامير يونس اخوهُ وأرسل هو مغلولاً مع اولاده الى الاستانة حيث قُتلوا بامر السلطان مراد الرابع ولم ينجُ من اولاده الاربعة الّا صغيرهم الامير حسين فعُفي عنه (٣ نيسان ١٦٣٥م)

وكان ابن اخي الامير فخرالدين ملحم بن يونس نجا من أسر أحمد كجك واختفى في جبل الشيخ حتى سنحت لهُ الفرصة فعاد الى ولاية عمّهِ فخر الدين بمناصرة محازبيهِ القيسيين سنة ١٦٣٦ وحكم على بيروت وسواحل الشام مدّة عشرين سنة وتوفي في صيداء سنة ١٦٥٨ اودت بحياتهِ حمّى خبيثة . وقام بالامر بعدهُ ولداهُ الاميران احمد وقرقماز الّا ان محمّد باشا الارناؤوطي تعقّبهما بامر الصدر الاعظم محمّد كوبرلي فقُتل قرقماز سنة ١٦٦٢ غدرَ به حاكم صيداء محمّد باشا . امّا احمد اخوهُ فاشتدّ ساعده وحارب اليمنيّة فانتصر عليهم في حي بيروت المعروف ببرج الغلغول سنة ١٦٦٤

واستمرّ في حكمهِ آمناً الى سنة وفاتهِ ١٦٩٧فمات دون عقب وانقرضت بموتهِ سلالة بني معن

وكانت الدولة اخذت منذ السنة ١٠٦٧هـ (١٦٥٦) تعيّن ولاةً لبيروت وصيداء معاً ليقهروا الامراء الوطنيين . كان اوّلهم محمّد باشا الارناؤوطي المذكور ثمّ قبلان باشا دفتر دار صيداء ثمّ محمّد باشا والي صيداء . ثمّ أفرزت بيروت عن صيداء فدبرها ولاة عثمانيّون الى سنة وفاة الامير احمد المعني فسمح الوالي لاهل لبنـان ان ينتخبوا بعض الشهابيين عوض المعنيين لقرابتهم من بني معن . فوقع الاختيار على الامير بشير الشهابي وهو المعروف بالامـير بشير الاول فاستولى على الولايات التي كانت تحت حكم المعنيين الممتدّة من جهات صفد الى نواحي الجبّة شمالي لبنان . ومما اشتهر به الامير بشير الاوّل انّهُ قاتـل في جانب الدولة الشيخَ شرفَ الدين المتوالي صاحب بلاد بشارة فكسرهُ وقـادهُ اسيرًا الى والي صيداء وضمّ بلادهُ الى ولايتهِ . توفي الامير بشير في صفد السنة التاسعة من ولايتهِ (١٧٠٧)

وخلفهُ الامير حيدر فحكم البلاد من السنة ١٧٠٧ الى ١٧٣٠ . وهو الـذي حارب اليمنيَّة وانتصر عليهم في واقعة عين داره الشهيرة فاستأصل شأفتهم في السنة ١٧١١ بعد ان كانت قويت شوكتهم لاسيما بيت علم الـدين فكان عليّ بن علم الدين ويوسف علم الدين وآلهما يسكنون بيروت ويتصرّفون بامورهـا بصفة كونهم خلفاء بني الغرب . فصار بعد كسرتهم الحكم للشهابيّين دون منازع

البحث العاشر

النصرانيّة في بيروت بعد الفتح العثماني (١٥١٦—١٧١١)

كانت النصرانيّة في بيروت عند فتح السلطان سليم الاوّل لبلاد الشام في اسوا حال . وانّما كان بقي فيهـا عيال يسيرة من الروم الملكيين ومن الموارنة . لكلتـا الطائفتين كنيستهما

هذا ما خلا كنيسة الرهبان الفرنسيسيين وهي كنيسة المخلص التي سبق صالح ابن يحيي فقال عنها انَّ الامراء بني الغرب احتلُّوها وحوَّلوها الى اسطبل وباعوها الى بني الاحمر ثمَّ سكنها امراء الغرب العرامونيون . والظاهر انَّ الرهبان الفرنسيسيين لمَّا عادوا الى بيروت في اوائل القرن الخامس عشر ابتاعوها وجدَّدوا عمارتها فكان يتردَّد اليها التجار الاوربيون لاسيما البنادقة والجنويون

وكان(للروم الملكيين)في هذه الحقبة اساقفة في بيروت يتولَّون شؤون أمَّتهم(١ وهذه اسماء الذين عُرفوا منهم : الاوَّل يواكيم بن جمعة البيروتي دبَّر كرسي بيروت احدى عشرة سنة (١٥٣٢ــ١٥٤٣) ثمَّ أُقيم بطريركاً انطاكيًّا وتوفي في دمشق سنة ١٥٧٦ كان مائلًا الى الاتّحاد هو وطائفتهُ مع رومية وكتب رسالةً الى اساقفتهِ ينهاهم عن ان يدعوا الافرنج هراطقةً وعن الافتراء على البابا

الثاني اثناسيوس رئيس دير مار سمعان العجائبي الواقع في شرقي قرية بسارين شرطنهُ سلفهُ البطريرك يواكيم على كرسي بيروت فاقام في بيروت عدَّة سنين ثم توفي

الثالث برثانيوس خوري قرية كسبا سقَّفهُ على بيروت البطريرك يواكيم بن زيادة المتوفَّى سنة ١٦٠٣ . اقام مدَّة طويلة وتوفي في دير كفتون

الرابع يواكيم رئيس دير البلمند من قرية قطيفة خلف برثانيوس متشرطناً من البطريرك افتيميوس كرمه . توفي في بيروت بعد ان اقام مدَّة في تدبير ابرشيَّتهِ

الخامس الخوري يواصف البيروتي شرطنهُ البطريرك افتيميوس الصاقزي المصوَّر اقام عدَّة سنين وتوفي في طرابلس

السادس الخوري فرح من قرية ايلات في بلاد عكَّار شرطنهُ البطريرك مكاريوس ابن زعيم الحلبي ودُعي فيلبوس سنة ١٦٥١ . ومن آثارهِ انَّهُ انشأ مكتبةً عربيَّة في قلَّاية مطرانيَّة بيروت واقام زمناً طويلًا وتوفي في بيروت . وقد وقَّع سنة ١٦٧٣ على قرارٍ حرَّرهُ البطريرك نافيطوس تفنيداً لأضاليل اشياع كلوينوس كما ورد في كتاب ثبات الايمان لأرنولد (Perpétuité de la Foi, *Migne II*, 1248-1257)

السابع مكاريوس شمعة من رهبان مار الياس المحيدثة واصلهُ من بكفيا في زمن

١) ذكرناهم في مقالة خاصَّة في المشرق (٨ [١٩٠٥] : ١٩٧-١٩٩) نقلًا عن احد مخطوطات مكتبتنا الشرقية لمقتدي عبدالله طراد البيروتي

قنصليَّة ابي نوفل الخازن على بيروت · شرطنَهُ البطريرك المستعفي ناوفيطوس في طرابلس وتوفي في بيروت

الثامن سلبستروس البيروتي من بيت الدهَّان كان رئيساً على دير مار الياس المحيدثة شرطنهُ البطريرك كيرلس الخامس سنة ١٦٨٠ كان احد منشئي الرهبانيَّة الحنَّاويَّة الشويريَّة وكان كاثوليكيًّا غيورًا توفي سنة ١٧١٣

هذا ما وقفنا عليهِ من اسماء اساقفة الروم الملكيّين في بيروت في القرنين السادس عشر والسابع عشر · امَّا اخبارهم واعمالهم فلا نعرف منها شيئاً الّا انَّهم كانوا مقيمين في بيروت

امَّا اساقفة بيروت (الموارنة) فلم يذكر منهم البطريرك الدويهي في تاريخه سوى ثلاثة اساقفة الاوَّل يوسف (ص ١٧٥) الذي سامهُ البطريرك ميخائيل الرزّي على بيروت سنة ١٥٧٧ . والثاني يوسف الشامي (ص ٢٥٢) سامهُ البطريرك الدويهي على بيروت في ٢٧ ك٢ سنة ١٦٩١ وتوفي سنة ١٧١٥ . وكأنَّ هذا الاسقف استعفى فاقام الدويهي اسقفاً على بيروت جرجسَ خيرالله اسطفان الغوسطاوي مؤسس دير عين ورقة سنة ١٦٩٨ قبل وفاة سلفهِ · توفي سنة ١٧٣٣

ولم يُقم هؤلاء الاساقفة في بيروت وكانوا كمعظم اساقفة الموارنة ما خلا قبرس وحلب يقيمون بجوار البطريرك في قنوبين ولعلهم كانوا يزورون رعاياهم من وقت الى آخر

امَّا (الرهبان الفرنسيسيّون) فكان ديرهم في بيروت عامرًا يُعنَون خصوصاً بخدمة الفرنج المستوطنين في المدينة للتجارة · وفي اخبار الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة انَّ عددهم بلغ الى ثمانية رهبان · وكان ديرهم منوطاً برؤساء الاراضي المقدَّسة في القدس الشريف · وقد ذكر الدويهي (ص ١٤٦) من رؤسائهم على دير بيروت الاب بطرس الفلورنسي الذي على يدهِ طلب البطريرك شمعون الحدثي التثبيت من البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣

واشهرُ منهُ الاب فرنسيس سوريانو الذي ترأس على جميع الاراضي المقدَّسة مرتين سنة ١٤٩٣ و ١٥١٢ . وصار رئيساً على دير بيروت دفعتين ايضاً سنة ١٤٨٠ و ١٥١٤ وقال الدويهي في تاريخه انهُ لمَّا انتهت ايَّام رئاسته على بيروت سنة ١٥١٥ رجع الى

بلادِهِ (ص ١٤٧). وكان هذا الاب قد تعيَّن من الحبر الاعظم كقاصد رسولي لـدى الموارنة فشهد للموارنة تمسُّكهم بالامانة المستقيمة

وقد وقفنا على كتابه الذي ألَّفهُ عن الاراضي المقدّسة وعن الشرق (Trattato di Terra Santa e dell'Oriente) نشرهُ حضرة الاب غولوبوڤتش سنة ١٩٠٠ في ميلانو وفيه كلام واسع عن بيروت ومرافقها . وذكر فيها ما عدا كنيسة المخلّص كنيستين أُخرَيين شرقي المدينة خارجاً عنها الواحدة على اسم الشهيدة القديسة بربارا وقد اطنب في اكرام اهل بيروت لقامها وذكر عجائبها مع المسلمين والنصارى (ص١٦٢) . وانَّما انتزع المسلمون هذه الكنيسة من النصارى واتَّخذوها جامعاً باد اثرهُ مع مدى الزمان. والاخرى كنيسة القديس جرجس المعروفة اليوم بجامع الخضر (ص١٦٢ــ١٦٣)

امَّا كنيسة المخلص فقد اتَّسع الاب سوريانو في وصفها (ص ١٥٦ــ١٦١) وعدَّد الآيات التي كانت تجري فيها . من جملتها اعجوبة سبَّبت ارتداد كثيرين من المسلمين الى النصرانيَّة اذ تفجَّرت نيران من اخدود بقرب تلك الكنيسة بفعل احد المغاربة الباحث عن الكنوز فالتهمت شخصين نزلا الاخدود طمعاً بالكنوز فبقي الشخصان ميتين في الاخدود ولم يستطع احد اطفاء النار واستخراج الجثتين الى ان دُعي رهبان الدير فرشَّا الماء المصلَّى واطفآها واستخرجا الجثتين فدُفنتا . هذا ما رواهُ الاب سوريانو ولم نجد لهُ ذكرًا في غير كتابهِ والله اعلم

ولمَّا كانت السنة ١٥٧١ حارب السلطان سليم الثاني البنادقة وانتزع من يدهم جزيرة قبرس فطُرد البنادقة من مدن تركيًا ونُفي الرهبان الفرنسيسيّون بسببهم من بيروت وحوَّل المسلمون كنيستهم الى جامع يُعرف اليوم بجامع السراية لقربهِ منها . ولمَّا رجع الرهبان الفرنسيسيّون الى المدينة بعد عدَّة سنين سكنوا في محلّ آخر قريباً من المينا عند سوق البياطرة ثبتوا فيهِ الى السنة ١٨٨٣ فانتقلوا الى ديرهم الجديد على طريق النهر في حيّ الجمَّيزة

وممن احتلّ بيروت من الرهبان في القرن السابع عشر الآباء المرسلون الكبوشيّين فتحَ ديرهم سنة ١٦٢٦ الاب ادريان دي لابروس (Adrien de la Brosse) . امّا اليسوعيّون فلم يكن لهم دير في بيروت وانَّما كانوا يسكنون دمشق وطرابلس وصيداء ويقصدون بيروت لإقامة بعض الاعمال التقويّة كالوعظ والارشاد . وكانوا

يحلّون ضيوفاً على الآباء الكبوشيين وفي ديرهم توفي احد روسائهم الاب جان اميو (J. Amieu) في ٦ ت ٢ سنة ١٦٥٣ فدُفن عند باب كنيسة مار جرجس الروم

وقد كان وجود هؤلاء الرهبان المرسلين في بيروت باعثاً لنموّ روح الدين بين الكاثوليك ولارتداد قسم من الروم الاورثدكس الى الكثلكة

ومما زاد في ازدهار النصرانيَّة في بيروت في القرنين السادس والسابع عشر تولّي فخر الدين المعني على سواحل الشام فان هذا الامير كما سبق القول كان محبًّا للنصارى وبين حاشيتهِ قومٌ منهم . واذ خصّ بيروت بعنايتهِ واهتمّ بتحسينها وترويج اعمالها رغّب المسيحيين في سكناها فكانوا يقصدونها من لبنان ومن داخليَّة البلاد فراجت بهم الصناعة والتجارة. قال الدويهي في تاريخهِ (٢٠٥) :

«وفي ايام فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى وعمَّروا الكنائس وركبوا الخيل ولفُّوا شاشات بيضاً وكروراً ولبسوا طوامين (١ وزنانير مسقطة وحملوا القسيّ والبنادق المجوهرة . وقدم المرسلون الفرنج وسكنوا الجبل وكان اكثر عسكرهِ من النصارى ومدبّروهُ وخدَمهُ موارنة »

بل ذهب البعض بانَّ الامير فخر الدين تديّن بالنصرانيَّة . روى ذلك الاب هيلار دي برانتون (٢ قال « انَّ الامير أُصيب بمرض عضال فعُني بامره الاب الكبوشي ادريان دي لابروس فشفاهُ فتنصَّر واعتمد سرًّا من يدهِ وذلك سنة ١٦٣٣». واخبر انهُ لمّا قبض عليه الاتراك واخذوه اسيرًا الى الاستانة وحُكم عليه بالموت تذرَّع باشارة الصليب فقُتل ككافر (١٦٣٥م). وقد نشر سابقا في المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٥٤٥—٥٤٦)جناب الكاتب المدقّق عيسى افندي اسكندر المعلوف كتاباً للمطران يوحنا الحصروني كتبهُ الى الامير يؤيد فيهِ رأي تنصُّرهِ نقلهُ حضرة الاب قسطنطين الباشا عن سجلّات مدينة فلورنسة (تحت رقم ٢٤٧٦)

وقد تعزَّزت النصرانيَّة في بيروت في القرن السابع عشر باقامة قناصل وطنيّين لفرنسة في ثَغرها . وكان اوَّل من نال هذا الامتياز الشيخ ابو نوفل نادر الخازن سنة ١٦٦٢ بواسطة المطران اسحق الشدراوي الذي رحل الى باريس (٣ ونال هذه الرتبة

١) الكرور مناديل شاش. الطوامين جمع طومان لفظة تركية معناها السراويل الواسعة

2) Hilaire de Baranton: La France Catholique en Orient, p.159-164

٣) اطلب تفاصيل رحلتهِ في المشرق (٢ [١٨٩٩]: ٩٢٩-٩٤٤)

من مكارم الملك لويس الرابع عشر وقد ساعدهُ المرسلون اليسوعيّون لنوال النعمة المطلوبة بثنائهم على ابي نوفل . فتولى هذا رتبتهُ السامية الى سنة وفاته ١٦٧٩ . ثم خلفهُ في منصبه ابنهُ الشيخ ابو قانصوه فيّاض بن نادر فتوفي سنة ١٦٩٦ . ثمَّ حفيدهُ الشيخ حصن بن فيّاض الخازن تولى تدبير قنصليَّة فرنسة من السنة ١٦٩٧ الى موته سنة ١٧٠٧ . فتبعهُ في منصبه ابنهُ الشيخ نوفل بن حصن سنة ١٧٠٨ فطالت مدّتهُ الى ١٧٥٣ وفيها كانت وفاتهُ

فكانت رتبة القنصليَّة الممنوحة لاحد اعيان النصارى الوطنيين مع امتيازاتها وحقوقها وتأييدها من الباب العالي من اعظم الاسباب لعلوّ شأن النصرانيَّة في بيروت . ويدلُّ على ذلك فرمان همايوني منحهُ السلطان سليم الثاني ابا نوفل يحيل الى عهدتهِ مقاطعات كسروان وبكفيا وغزير (الدويهي ٢٤٢–٢٤٣) وارسل اليه البابا اقليميس العاشر براءة يثني فيها على همّته وتقاه (الدويهي ٢٤٣) وكان البابا اسكندر السابع سبق واكرم عليه «بكافيلريَّة رومية وبأن يتقلّد طوقاً وسيفاً ويستعمل مهاميز من ذهب» (الدويهي ٢٤٧) . وقد ذكر الرحّالة الفرنساوي دي لاروك انَّ ابا نوفل كتب تاريخ الامير فخر الدين معن وما جرى في ايّامه من الحوادث . وهو اثر جليل طمسَهُ الدهر

وقد نشر المرحوم رشيد الشرتوني (ص ٢٤٦ من تاريخ الدويهي) رسالةً للسفير الفرنسوي لدى الباب العالي المركيز دي نوانتل وجّهها الى ابي نوفل والى امير درعون نسيبه يمدحهما فيها ويشكرهما على حُسن عنايتهما بالمرسلين اليسوعيين

وممّا وقع في بيروت مدّة الحقبة التي نحن في صددها من الاحداث المؤلمة استيلاء اهل المدينة المسلمين سنة ١٥٧٠ على كنيسة الموارنة التي في ضمن سورها اغتصبوها وجعلوها قيصريَّة . قال الدويهي (ص ١٧٣) :

«فلم يبق للطائفة الّا كنيسة مار جرجس خارج المدينة فاجتمع ابو منصور يوسف بن حبيش مع مشايخ بيت الدهان (الاورثذكس) واتفقوا على ان تشترك طائفة الروم وطائفة الموارنة في كنيسة مار جرجس التي للموارنة خارج بيروت . وفي كنيسة السيدة التي للملكيَّة داخل المدينة »

امّا كنيسة مار جرجس المذكورة هنا فكانت قريبة من نهر بيروت في المكان

الـذي يروي التقليد انَّ عنده قَتَلَ مار جرجس التنين. بقيت في ايدي الموارنة الى السنة ١٦٦١ وفيها تعدَّى علي باشا الدفتردار على هذه الكنيسة فاخذها وجعلها جامعاً (الدويهي ٢٣٦) يُعرف في يومنا بجامع الخضر

هذا غاية ما عرفنا من احوال النصرانيَّة في بيروت في هذه المدَّة

المبحث الحادي عشر

بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزَّار (١٧١١–١٨٠٦)

تتبَّعنا اخبار بيروت حتى اوائل عهد الشهابيّين الى موقعة عين دارة التي فيها تمَّ الفوز للامير حيدر الشهابي ودارت الـدورة على الحزب اليمني بتغلُّب الحزب القيسي وسقوط بيت علَم الدين الـذين قُتل منهم خمسة امراء في عين دارة كانوا كالعقَبة الكؤود في سبيل سلام لبنان وكشَجاً في حلقهِ لم يُنتزَع. وتوطيداً لهذا السلام اقتسم الامير حيدر مقاطعات لبنان بين منـاصريهِ القيسيّين فولّى الامراء اللمعيّين على المتن والتلحوقيين على الغرب الاعلى والنَّكَديين على الناعمة وآل القاضي على جزّين واطلق على كل هؤلاء اسم المشايخ. وخُذل بانتصار القيسيين ولاةُ الـدولة التركيَّة الذين كانوا في جانب اليَمنيّين وعادوا الى مراكز ولايتهم في دمشق وصيداء وطرابلس

حكم الامير حيـدر على الشوف وسواحل لبنان وابتنى لـهُ قصراً في بيروت. وقد شكر الناسُ عدلهُ وخافهُ اعداؤهُ لاسيما بعد انتصارهِ على مشايخ المتاولة سنة ١٧١٨. وفي السنة ١٧٢٩ اعتزل عن الحكم متنياً عنهُ ابنهُ الامير ملحم الذي خلفهُ بعد وفاتهِ سنة ١٧٣٠ وجرى على آثار ابيهِ بحسن تدبيرهِ وببـأسهِ وشدَّة بطشه بمن يخالفهُ فكان لا يعفو عن ذنب وهو الـذي غلب والي دمشق اسعد باشا العظم وضمَّ بعلبك الى ولايتهِ. ولمَّا رأى ما يثيرهُ اللبنانيُّون من الفتن عدل الى سياسة تقسيم كلمتهم. وظهر وقتئذٍ الحزبان الشهيران اليزبكي كان زعيمهُ عبد السلام العماد ابن يزبـك والجنبلاطيّ يرئسهُ الشيخ علي جنبلاط. وفي زمنهِ انقضَّت صاعقة على قلعة بيروت فخربت جانباً منها فاصلحهُ الامير

وفي السنة ١٧٥٤ تنزَّل الامير ملحم عن ولاية البلاد لاخوَيه الاميرين احمـد

ومنصور وسكن بيروت الى سنة وفاته ١٧٥٩ . فحكم الاخوان مشتركين الى السنة ١٧٦٢ ثمَّ وقع بينهما خلاف أدى الى حرب انتصر فيها الامير منصور فاستقلَّ بالحكم الى السنة ١٧٧٠ . وفيها رأى ان الامير يوسف ابن اخيهِ ملحم كان قد شبَّ وقويت شوكتهُ وحاول وضع يدهِ على ولاية والدهِ فسبقهُ الامير منصور نجاةً من صولتهِ وتخلّى لـهُ عن الحكم امام اعيان البلاد في الباروك وتوطّن هو بيروت الى ان مات فيها حتف انفهِ سنة ١٧٧٤

حكم الامير يوسف ابن ملحم على لبنان وبيروت ثماني عشرة سنة قضاها بضروب المحن فحارب المتاولة في جبل عامل وانتصر عليهم بيد كاخيتهِ الشيخ سعد الخوري . ثمَّ اثار عليهِ الفتن اخواهُ سيد احمد وفندي وخالهُ اسمعيل ففتك بهم

وممَّن قضي عليهِ محاربتهُ ظاهرُ العُمَر وكان هـذا شيخاً عربيا من قبيلة بني زيدان الساكنة في فلسطين وكان ابوهُ عمر عاملًا في اوَّل الامر للامير الشهابي بشير الاوَّل فخدَمَهُ بمراقبة الشيعيين في صفد وبلاد بشارة واشتهر بنشاطهِ وشجاعتهِ وشدَّة شكيمتهِ وكان يُحسن المعاملة الى النصارى واستعان في خدمتهِ بابراهيم الصبَّاغ . ولمَّا توفي الامير بشير سيّدهُ استقلَّ بالامر ووسَّع نطاق حكمهِ ثمَّ قام ابنهُ ظاهر بعدهُ فساعدهُ الزمان فدخل عكَّاء وانقذها من ظلم الاتراك وبلَّغ حدود ولايتهِ الى يافا جنوباً وحيفا شمالًا وهو يؤدي للدولة الضرائب المطلوبة فتغضّ الطَّرْف عنهُ حتى جرى بينهُ وبين ولاتها نفور . وكان الامير علي بك في تلك الاثناء قـد استفحل امرهُ في الصعيد فاراد ان يملك على سوريًا اذ رأى ضعف الدولة التركيَّة وانشغالها بمحاربة الدولة المسكوبيَّة وحالفهُ الشيخ ظاهر العمر وعشيرتهُ فأمدَّهُ علي بك بجيش قادَهُ مملوكهُ محمَّد بك ابو الذهَب فخان هذا سيّدَهُ ورجع الى مصر . فقام علي بك بنفسهِ وقدم الشام وحارب مع الشيخ ظاهر الاتراك وكان يعضدهم الامير يوسف فانتصر عليهم المصريون في واقعتين سنة ١٧٧١ . ثم ارسل علي بك يطلب من الدولة الروسيَّة ان تساعدهُ على الدولة العثمانيَّة فقدمت مراكبهم الى صيداء وعضدوا المصريين في انتصارهم على العثمانيّين ثم ساروا الى بيروت فضربوها ولم يبتعدوا عنها الّا بعد ان دفع الامير يوسف ٢٥،٠٠٠ ريال للاميرال سبينكوف . امَّا ظاهر العمر فانتهز تلك الفرصة ليبسط حكمهُ على معظم بلاد فلسطين . ثمَّ ساءت امورهُ بعد مدَّة برجوع

عليّ بك الى مصر وقتله مسمّماً بدسائس مملوكهِ السابق ابي الذهب ثمّ بتحوُّل احد ابنائهِ عنهُ وعودة ابي الذهب الى الشام مشتركاً مع الاتراك لمحاربتهِ ففتحوا اوّلاً صيداء ثم حاصروا الشيخ في عكّا فامتنع عنهم حيناً حتى أطاق عليهِ احد جنودهِ رصاصةً أودت بحياتهِ في اواسط آب سنة ١٧٧٥

وما كاد ينجو الامير يوسف من عدوّه الشيخ ظاهر العمر حتى وقع في ايدي عدوٍ آخر ألدّ واظلم منه اعني بهِ احمد باشا الجزّار والي صيداء وعكّا . وكان هذا اصلهُ من بلاد البشناق يخدم كمملوك بعض امراء مصر فأتى بمآثم شتى ثمّ فرَّ هارباً والتجأ الى الامير يوسف الشهابي فأكرمهُ وأمّنهُ لكنهُ ارتدَّ على المحسن اليهِ ولاذ بضروب المكر والخداع الى ان تولى على صيداء وحارب الامير يوسف وتحصّن في بيروت ضدّهُ فاضطرَّ الامير الى ان يلتجئ الى الدولة المسكوبيَّة بواسطة الشيخ ظاهر العمر صديقها وكان الشيخ وقتئذٍ في عزّ ولايتهِ فاصطلح مع الامير يوسف لخوفهِ على مدينتهِ صيداء واستدعى الروس ليُخرجوا الجزّار من بيروت قهرًا فاتت سفن مسكوبيَّة الى مرفأ بيروت وضربت المدينة بمدافعها ونزل من جنودهم قوم حاصروا المدينة وخرّبوا ابراجها ولم يزالوا يضايقونها برّاً وبحراً مدّة اربعة اشهر الى ان نفد الزاد وبلغت المجاعة الاهلين الى اسوإ حال . فاضطرَّ الجزّار الى ان يطلب الامان على شرط ان يخرج من المدينة سالمًا مع أتباعهِ . ودفع الامير يوسف ثلثمائة الف غرش الى الاميرال المسكوبي كما كان وعدهُ

على ان احمد الجزّار عاد بدهائهِ وعزّز مقامهُ واستولى بعد وفاة ظاهر العمر على صيداء وعكّا واجترح من ضروب الجنايات ما لا يحصيهِ قلم فكان لا يوقفهُ ضمير ولا يعبأ بسلطان بل قرّبتهُ الدولة العثمانيَّة لبلوغ مآربها وقلّدتهُ رتبة الوزارة فطغى وبغى وجيَّش الجيوش وحارب ولاة دمشق وطرابلس وامراء لبنان واستولى على سواحل الشام وغرّم الامير يوسف مبالغَ طائلة فذاق منهُ الامرّين

وكان الجزّار انتقل الى عكّا فجعلها من أحصن مدن الشام ولا تزال بقاياها الى اليوم تُشعر بجرازتها وعمّر لهُ اسطولًا لحراستها . ثم تولّى على دمشق غير مرّة وقُلّد ادارة الحجّ وقاتل الاعراب في فلسطين والمتاولة في جبل عامل . وهو في كل تصرُّفهِ يقترف من الفظائع ما ترتجف لهُ الفرائص فاستحقَّ بكل صواب اسم الجزّار . هذا

فضلاً عن مطامعهِ الاشعبيَّة وحرصهِ على جمع الذهب بكل طرائق الحرام كالضرائب الباهظة واستصفاء اموال الناس وبحكمهِ عليهم بالعذابات المهلكة دون ان يراعي لاحد حقاً حتى انهُ نفى التجّار الفرنج من صيداء وبيروت

وحصلت عدَّة فتن ومشاغب لخلع نير الجزّار إلّا انَّهُ كان بدهائهِ لا يلبث ان يخمد نارها وينتقم من اصحابها . وكان الامير يوسف عضَدَ بعض هذه الثورات فلم يفلح وأضحت سبب انقلابهِ وسقوطه سنة ١٧٨٨ وتولية الامير بشير ابن الامير قاسم المعروف ببشير الثاني او الكبير في مكانهِ . ثم امره بطاردة الامير يوسف فأخرجهُ من لبنان . وبعد مدَّة عاد الامير يوسف وطلب الامان من الجزّار فأمَّنهُ واستقدمهُ اليهِ ثمَّ غدر بهِ وبكاخيتهِ الشيخ غندور الخوري فشنقهما سنة ١٧٩٠

قضى الامير بشير في ولاية لبنان مدَّة بضع سنين (١٧٨٨ــ١٧٩٢) تحت نير احمد الجزّار وقد استحقَّ اسم الكبير بما قصدهُ وسعى الى تحقيقهِ من تحسين احوال الجبل وبسط الامان في انحائهِ وتنشيط امورهِ الاقتصاديَّة إلّا انَّ جشع الجزّار والحاحهُ على الامير بشير بجمع المال دفعاه الى وضع الضرائب الزائدة على اللبنانيين فناءت تحتها كواهلهم وعدلوا الى الثورة بينهم الامراء الشهابيون فاضطرَّ الامير بشير الى ان يتخلّى عن الولاية للاميرين حيدر وقعدان ثمَّ للامير حُسين ابن الامير يوسف . لكنهُ لم تثبت ولاية هؤلاء الامراء فعاد الجزّار وارجع الامير بشير (١٧٩٢ــ١٧٩٩) فاتّخذهُ كمألوف عادتهِ كآلة لنَيل مآربهِ . ولمَّا بلغ السيلُ الزُّبى فرَّ الامير بشير الى مصر ليلتجئ من ظلم الجزار الى الصدر الاعظم العثماني يوسف ضياء بك القادم لمحاربة الحملة الفرنسويَّة في مصر وبقي هناك سبعة اشهر . وقد مرَّ في المشرق (١٨[١٩٢٠] : ٦٨٧ الخ) خبر رحلتهِ الى قطر النيل بقلم رفيقهِ الشيخ سلُّوم الدحداح

وبعد رجوعهِ من مصر وجد امور لبنان في عهدة اولاد الامير يوسف فاتَّفق معهم على ان يحكموا على شمالي لبنان ويحكم هو على جنوبهِ والفاصلُ بينهم نهر ابراهيم وكان جرجس وعبد الاحد باز يديران امور اولاد الامير يوسف . وبقوا على ذلك الى وفاة الجزّار سنة ١٨٠٤ فاستراح الناس بموتهِ

هذه خلاصة احوال سياسة لبنان وبيروت في القرن الثامن عشر لدخولهما معاً في حكم الشهابيين . وقد جرت في بيروت امور اخرى دونك الاهمَّ منها

١٦٣٥

ان بيروت بعد قتل الامير فخر الدين عادت الى خمولها وقلّ عدد اهلها وكسدت تجارتها . فلمّا تولى الشهابيّون حاولوا تحسين امورها . فبنى فيها الامير ملحم الخان المعروف بخان الملّاحة . وبنَت زوجة اخيهِ احمد المكنّاة بأمّ دُبوس القيساريّة العتيقة والبرج المستدير بجانب السور غربي المدينة في الموضع الذي بُنيت فيهِ بعدئذٍ ثكنة عساكر الدولة المتحوّلة اليوم الى السراية الكبرى . وشيّد الامير منصور ابن الامير ملحم في بيروت طاقة القصر جنوبي شرقيّ كنيسة الكبوشيين الحاضرة ثمّ الديوان وميزان الحرير والقيساريّة المعروفة باسمهِ . واقتدى بهِ اخوتهُ الامراء عليّ وبشير السمين وحسين فبنوا ابنيةً شتى منها قيساريّة الصباغة للامير عليّ ومنها دورٌ واسعة عند الباب الجديد قرب باب يعقوب . ولما عاد الامير يوسف الى بيروت بعد حرب الروس للمدينة وخروج الجزّار بنى قيساريّة الاروام التي تحوّلت بعدئذٍ الى خان بسترس . وكذلك الشيخ عبد السلام العماد عمّر قيساريّة نُسبت اليهِ في رأس سوق العطّارين . وممّا بني ايضاً في بيروت في اواسط القرن الثامن عشر « قيسارية البارود » بناها الامير سليمان اللمعي . فكلّ هذه الابنية اعادت لبيروت بعض رونقها . فقصدها التجار الفرنسويون وازداد فيها عدد الموارنة وكان معظم شغلهم صناعة الحرير

وانما ورد في كتابات المرسلين الكبوشيين ان بعض القرصان الايطاليين قبضوا سنة ١٧٥٨ على سفينة لاهل بيروت فغضب لذلك المسلمون وهجموا على ديرهم الواقع جنوبي كنيسة الموارنة الكاتدرائيّة الحاضرة وداخل الاسوار القديمة فنهبوا الدير واتلفوا ما وجدوهُ فيهِ بعد ما اعتقلوا رهبانهُ . وزعم داود افندي كنعان في رسالتهِ جواهر الياقوت في تاريخ بيروت (الجنان ١ : ٣٧٧) : « ان الامير ملحم ارسل اعوانهُ فأطلقوا المعتَقلين وقبضوا على المذنبين واحضرهم اليه فامر بقتل اثنين منهم واستخلص للبادرية ما كان قد نُهب في ديرهم » . وفي تلك السنة فشا الطاعون في البلاد وأُصيب بهِ كثيرون من اهل بيروت . ولما توفي الامير ملحم سنة ١٧٦١ دُفن فيها في جامع الامير منذر التنوخي

وممّا كان يرغّب الى الموارنة استيطان بيروت وجود قنصل دولة فرنسة الشيخ نوفل ابن حصن الخازن وهو من طائفتهم . فتولى اعمال القنصليّة الى سنة وفاتهِ ١٧٥٣ . وبقيت القنصليّة فارغة الى السنة ١٧٨٦ حيث ارسل البطريرك يوسف اسطفان الى

ملك فرنسة لويس السادس عشر الخوري انطون قياله ليطلب تجديدها فتُعطى للشيخ غندور سعد الخوري صالح . فاجاب الملك الى ملتمسهِ وتقلّد الشيخ امورها من السنة ١٧٨٧ الى ١٧٩١ وفيها غدر بهِ احمد باشا الجزّار كما سبق فقتلهُ في عكّا

وفي اواسط هذا القرن الثامن عشر حدث امرٌ ذو شأن في تاريخ نصارى لبنان وبيروت ألا وهو تنصُّر الامراء الشهابيين ثمَّ اللمعيين . قيل انَّ اوَّل من دان بالنصرانيَّة الامير عبد الله الشهابي الساكن في غزير على يد الآباء الكبوشيين فتوفي في المنفى سنة ١٧١٧ . ثمَّ الامير علي ابن الامير حيدر ثاني امراء لبنان تنصَّر على يد الكاهن الماروني الخوري ميخائيل فاضل البيروتي مع زوجتهِ سنة ١٧٥٤ لشفاء ابنتها بواسطة ادعية الكاهن المذكور الذي أُقيم بعد ذلك بطريركاً على طائفتهِ سنة ١٧٩٣ . وتبعها ثلاثة من ابناء الامير ملحم اي الامراء سيد احمد وقاسم وحيدر . وفي السنة ١٧٦٤ اهتدى الامير قاسم ابن عمّهم عُمر مع زوجتهِ على يد السيد يوسف اسطفان الغسطاوي واعتمد ابنهُ البكر الامير حسن عند مولدهِ ثمَّ اخوهُ الامير بشير المشهور بالكبير في ٦ ك٢ ١٧٦٧ . وتبعهم بعد حين غيرهم من الامراء واتَّخذوا جميعهم الطقس الماروني إلَّا واحدًا تبع الطقس الملكي الكاثوليكي . وكذلك الامراء اللمعيون تنصَّروا في ذلك الجيل بعد الشهابيين . وكان اوَّل من سبقهم الى العماد الامير اسماعيل من آل قايدبيه في صليما سنة ١٧٨٨ . ثمَّ امراء قرنايل هداهم الى الايمان القس عمانويل البعبداتي من الرهبانيَّة الانطونيَّة سنة ١٧٩٠ فعمَّد الاميرَ بشير ابن الامير حسن . ثم نصَّر الابُ عمانويل سلام المتيني امراءَ رأس المتن(١

وممَّا عزَّز ايضاً امور النصرانيَّة في بيروت في القرن الثامن عشر تواليّ اساقفتها الملكيين وقد مرَّ ذكر سلبسترس الدهَّان المتوفَّى سنة ١٧١٣ فخلفهُ ثاوفيطوس ودبَّر كرسيَّ بيروت . وفي ايَّامهِ انقسمت الطائفة الملكيَّة الى قسمين كاثوليكي واورثذكسي . وكان ثاوفيطس مضادًا للكاثوليك . فسقَّف البطريك كيرلُّس طاناس على بيروت سنة ١٧٣٦ اثناسيوسَ دهَّان الذي رُقي بعد ذلك الى منصب البطريركيَّة وتسمَّى ثاودوسيوس ١٧٦١ وكان من الرهبانيَّة الحناويَّة . وخلفهُ الراهب المخلّصي باسيليوس

١) اطلب تفاصيل تنصُّر كل هؤلاء الامراء في مقالة الكاتبين البارعين عيسى افندي اسكندر المعلوف والشيخ سليم الدحداح في المشرق (١٨ [١٩٢٠] : ٥٤٢-٥٥٢)

جلغاف بعد اسقفيّته على صيداء. وفي السنة ١٧٧٨ استقال عن اسقفيّة بيروت فخلفهُ السيد اغناطيوس صرّوف الدمشقي فثبت في كرسيّهِ الى السنة ١٨١٢ حيث أُقيم بطريركًا باسم اغناطيوس ثمّ قتلهُ ظالماً بعض الأئمّة بعد ٩ اشهر من السنة (١

امّا الموارنة فاقام البطريرك يعقوب عوّاد اسقفاً على بيروت سنة ١٧١٦ المطران عبدالله قرالي رئيس الرهبانيّة الحلبيّة اللبنانيّة وكانَ احد الاساقفة الذين حضروا المجمع اللبناني توفي في يوم عيد الغطاس سنة ١٧٤٢ . فتعيّن بعدهُ لكرسي بيروت يوحنا اسطفان مطران اللاذقيّة سنة ١٧٤٣ . ثمّ سُقّف على بيروت قبل وفاتهِ يوسف ابن الخوري جرجس اسطفان اخيهِ وهو الذي ارتقى الى الكرسي البطريركي خلفاً لطوبيًّا الخازن سنة ١٧٦٦ . ثم خلفهُ الخوري ميخائيل فاضل الاوّل ثمّ اثناسيوس الشنيْعي الغوسطاوي ثمّ المطران ميخائيل فاضل الثاني سنة ١٧٩٤ فتوفي سنة ١٨١٩ . وهؤلاء الاساقفة الموارنة لم يسكنوا غالباً بيروت . وقد وُجد منهم في وقت واحد اسقفان على المدينة (٢

وفي اواخر القرن الثامن عشر تعدَّدت النكبات على بيروت وقد سبق أن المراكب المسكوبيّة ضربتها مرّتين بالمدافع في عهد الامير يوسف والجزّار . ونهب جنودُ الروس اهلها . ثمّ عاد الجزّار سنة ١٧٧٦ فاستولى على بيروت ورفع يد الامير يوسف عنها وضبط ما فيها من الاملاك للامراء الشهابيين وهدم دورهم ورمّم بحجارتها السور وانّما ابقى دار الامير مراد كحصن . واحرق بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات وقطع الاشجار التي بجوانب المدينة فكل هذه النكبات مع نفي الفرنج من بيروت احتلّت على اهلها كضربة لازبة فتفرّق شملهم وتلفت صناعتهم وكسدت تجارتهم . وفي كتابات القنصل الفرنساوي هنري غويس (H. Guys) انَّ بيروت اصبحت في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٥ كقرية لا يزيد عدد اهلها على خمسة آلاف

١) اطلب في المشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٢–٢٠٤) مقالتنا في اسقفيّة الروم الكاثوليك في بيروت ثمّ راجع مختصر تاريخ الروم الملكيين الكاثوليكيّين (ص ٧٢)
٢) المشرق (٧ [١٩٠٤] : ١٩٠١–١٩٠٣)

البحث الثاني عشر

بيروت في القسم الاول من القرن التاسع عشر (١٨٠٤—١٨٦٠)

كان الذي يرى بيروت بعد موت الجزّار يكاد يتشاءم بمستقبلها غير انّ الله اذا اراد لبلدٍ خيراً رفعه من الحضيض الى اوج الرقي والنجاح. وقد صحّ ذلك في عاصمة لبنان فان الذين دخلوها في العشر الاوّل من القرن التاسع عشر يصفونها كبلدةٍ صغيرة تحدق بها اسوار متداعية تضم بضع مئات من المساكن مع قليل من الاسواق الضيقة القذرة لا ترى في وسطها الاشجار ما خلا جنائن بعض الخاصة. وكانت الحركة التجاريّة قد خمدت لا تكاد سفن الفرنج تقصد مرفأها بعد ان اخرج الجزّار منها عمالهم وانزوى اللبنانيّون في جبلهم خوفاً من بطشهِ وفتكهِ. فلم يبقَ في بيروت من النصاري الّا زهاء الف نفس اكثرهم من الروم الاورثذكس ثمّ من الموارنة والروم الكاثوليك

وكان اوّل ما استبشر بهِ اهل بيروت معاهدةً تقرّرت بين السلطان سليم خان الثالث ونابوليون الاوّل فُتحت بموجبها أساكل الشام للتجار الفرنسويين فعادوا اليها واخذوا يسعون الى تجديد المعاملات التجاريّة بينها وبين ثغر مرسيلية. وانما فضّلوا هذه المرّة بيروت على صيداء وطرابلس لحسن موقعها وطيب هوائها وقربها من لبنان ومعاملهِ الحريريّة الكثيرة الاقبال وهي فرضة دمشق ومحطّ قوافل البلاد الداخليّة

ولنا شاهد عياني على احوال بيروت ومعاملاتها منذ اوائل القرن التاسع عشر الى منتصفهِ ألا وهو القنصل الفرنساويّ الشهير بكتاباتهِ المتعدّدة عن سوريّة عموماً وعن بيروت خصوصاً نعني بهِ المسيو هنري غويس (H. Guys) الذي استوطن الشام منذ حداثة سنهِ ثمّ تردّد الى بيروت بعد غيبتهِ وتعيّن عليها بصفة قنصل دولتهِ غير مرّة فراقب امورها بكل دقّة وقد قضى أجلهُ نحو السنة ١٨٦٥ . وقد اثبت في كتبهِ ملحوظاتهِ الواسعة عن بيروت وخواصّها واخلاق اهلها وترقيها في المعاملات التجاريّة وتقدّمها البطيء في الآداب والعلوم

وقد وقفنا في سياحات بعض الفرنج على احصاء اهل بيروت في السنة ١٨٢٠ فاذا هو يبلغ ٨٠٠٠ نفس ثم افادنا عن احصائهم المسيو غويس سنة ١٨٣٨ حيث بلغوا

١٥،٠٠٠ منهم ٧،٠٠٠ مسلم والباقون نصارى بينهم الكاثوليك (موارنة وملكيون وسريان وارمن) ٣،٥٠٠ والباقون روم ٤،٠٠٠ ودروز ٨٠٠ ويهود ٢٠٠ وكان عدد الفرنج ٤٠٠

امّا التجارة بعد ما نالها من الكساد في عهد الجزار فانّها عادت الى حسن احوالها في ايام خلفهِ سليمان باشا والي صيداء الذي بعدلهِ وحكمة تدبيرهِ وحسن سياستهِ اصلح الامور وضمّد جراحات البلاد التي كان الجزار نكأها بسوء سيرتهِ وطالت مدته رحمة للاهلين فبقي في رتبتهِ نحو خمس عشرة سنة. وقد دوّن اعماله الشريفة احد الكتبة في ذلك العهد وهو حنّا افندي العوراء. ومن تاريخه نسخة في مكتبتنا الشرقيّة. ولعلّ هذه الحال كانت زادت رقياً لولا ان عبدالله باشا خلف الخازندار سليمان ضرب على الاهلين الضرائب الفادحة التي اساءت الاحوال بعد صلاحها

وحصلت في السنتين ١٨٢١ و١٨٢٢ من ولاية عبدالله باشا بمزاحمة الامراء الشهابيين للامير بشير مشاغبات ومنافرات دعت الامير الى الفرار من وجه اعدائهِ الى حوران. ثمّ تجدّدت الفتن في عهد درويش باشا بعد عزل عبد الله باشا فهرب الامير بشير الى مصر ولاذ بمحمّد علي فغلبت الفوضى على بلاد الشام ولم تنتهِ حتى عاد عبدالله باشا وردّ الى الجبل الامير بشيراً بكلّ اكرام.

وفي السنة ١٨٢٦ انتشبت الحرب بين اليونان والدولة العثمانيّة فارسل الاروام اسطولهم الى بيروت ليستولوا عليها فقحموا على برجها المعروف بابي هدير ونصبوا السلالم على سورها فدخلها بعضهم بينما كانت المراكب تطلق مدافعها على المدينة. لكن الاهلين احتشدوا فقاوموهم وبلغ الخبر الامير بشيراً فسيّر رجالاً لمقاتلتهم. فلما رأى الاروام جموعهم خافوا وركنوا الى الفرار واقلع الاسطول سائراً الى بلاده فاتخذ بعض اصحاب الفتن هذه الفرصة ليتّهموا نصارى بيروت باستدعاء الاروام فهاج المسلمون وهرب النصارى الى الجبل وأُلقي بعضهم في السجن ولم تهدأ الامور إلّا بعد مفاوضات ومصادرات وتغريمات تداخل فيها وزير دمشق عبد الله باشا والامير بشير

وفي السنة ١٨٣١ ارسل عزيز مصر محمّد علي ابنهُ ابراهيم باشا ليفتح سوريّة ويُدخلها في حكم دولتهِ المصريّة فكان النجاح حليفهُ وانضمّ الامير بشير بقواه الى المصريّين لينجو من عَنَت الدولة التركيّة وظلم عمّالها. وبقي المصريون مستولين على

بلاد الشام تسع سنين نشروا فيها الامان ونشّطوا التجارة والصناعة وألّفوا قلوب النصارى لولا انهم بعد مدّة هيّجوا عليهم الرأي العام بما وضعوهُ من الضرائب التي ناءت تحت اثقالها مناكب السوريين عموماً واللبنانيين خصوصاً وحاولوا الزام الاهلين بالخدمة العسكريّة فقام لمناهضتهم قومٌ من اللبنانيّين بمعاضدة الدولة التركيّة واستفحل الفساد فآلت الامور الى ان اتفقت الدول الاوربيّة على إبعاد المصريين واعادة بلاد الشام الى المملكة العثمانيّة. ولمّا صمّم المصريّون على الإباء قدمت مراكب انكليزيّة يرئسها الكومودور نابيه (C. Nappier) واذ اصرّ محمود بك متسلم بيروت باسم ابراهيم باشا على رفضهِ تسليم المدينة اطلق الانكليز المدافع على أبنيتها وهدموا جانباً منها. ففرّ سليمان باشا قائد الجنود المصريّة المرابطة فيها واستلمها الكومودور الانكليزي فأعادها الى الدولة العثمانيّة. ثمّ اخذت جنود الاتراك مع اللبنانيين يطاردون عسكر ابراهيم باشا فتعقّبوهُ الى ان خرج بجيشهِ من سوريّة الى موطنهِ مصر

وبخذلان المصريين سقطت ايضاً ولاية الامير بشير الكبير الذي اضطرّ الى تقدمة خضوعهِ واختار لمنفاهُ جزيرة مالطة وذلك سنة ١٨٤١ ثمّ انتقل منها بعد مدّة الى الاستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠ وقُبر في كنيسة الارمن الكاثوليك (١)

ثمّ صدر امر الدولة سنة ١٨٤٢ بان يُنقَل من صيداء الى بيروت كرسي الولاية ويرابط فيها الجند وعُهد تدبير امرها الى سليم باشا المعروف بهمتهِ واعتدالهِ. فمن ذاك الحين دخلت بيروت في طور جديد من الحياة. ولخراب اسوارها اخذ الناس يشيّدون الابنية خارجاً عنها ويُحكمون بناءها على طراز لطيف ويجعلون فوقها العلالي ويزرعون بقربها الجنائن والاشجار المثمرة فاتسعت المدينة اوّلاً من جانبها الشرقي الى جهات نهرها ثمّ شُيّدت غيرها من المباني في غربيّها وجنوبها

وراجت تجارة بيروت بعد خروج المصريّين بفضل الاجانب الذين استوطنوها وباشروا فيها المعاملات مع الوطنيّين وانشأوا فيها المحلّات التجاريّة والشركات الماليّة وازدهرت خصوصاً معامل الحرير. ولنا في احصاءات القنصل هنري غويس دليل باهر على تقدّم بيروت فانهُ حسب في السنة ١٨٢٧ الواردات الى بيروت من فرنسة بقيمة ١،٣٥٣،٧٢٥ فرنكاً والصادرات منها الى فرنسة بقيمة ١،٢١٤،٨٣٠ فرنكاً. وفي

(١) اطلب المشرق (٧ [١٩٠١] : ١٠٦٢)

نهاية السنة ١٨٤٤ بلغت الواردات ٤،٥٨٨،٣٢٥ ف والصادرات ٣،٠٦٧،٧٥٨ف وحسب لسنة ١٨٤٥ الواردات من مصر الى بيروت بقيمة ٦،٤٩٠،٠٠٠ف والصادرات الى مصر بثمن ٤،٩٧٩،٦٠٠ ف يليها الواردات من انكلترة ٥،٧٣٥،٨٠٠ ف والصادرات اليها ٥،٧٦٠،٩٠٠ ف ثمّ الواردات من تركيّة ٣،٥٩٨،٨٥٠ ف والصادرات اليها ٤،٢٨٣،٥٣٠ ف ثمّ الواردات من النمسا ٦٧٢،١٠٠ف والصادرات اليها ٧٩،٩٠٠ف ثمّ الواردات من ايطالية ٤٤٢،٨٠٠ ف والصادرات اليها ٨٥١،٦٠٠. وقد ذكر معظم ما صدر من بيروت فكان للحرير المقام الاوّل بقيمة ١،٨٦٩،٥٠٠ف ثمّ القطن (٤٦٧،١٢٠ ف) ثمّ السمسم (٢٢٦،٨٥٠ف) ثمّ الاسفنج (١٧٢،٨٠٠ف) ثم النقود (٨٥،٠٠٠ ف) ثمّ الصوف (٥٥،٩١٤ ف) ثمّ العفص (٥٤،٦٨٤ ف) ثمّ الشمع (٦،٥٠٠ف) ولم يتجاوز حينئذٍ ثمن التبغ قيمة (١،٥٠٠ ف)

فيظهر من هذا ما بلغتهُ بيروت في ذلك العهد من الرقي حتى اصبحت مركزاً للاعمال التجاريّة لكل سواحل الشام. وكانت الدول على مثال فرنسة اقامت لها قناصل لترويج امور بلادها واوّلهم قنصلا انكلترة والنمسة

الاحوال الدينيَّة في هذه الحقبة

وكانت الامور الدينيَّة في بيروت تجاري برُقيها الاحوالَ المدنيَّة. فكان (الموارنة) ازدادوا فيها عدداً فقصدها كثيرون من اللبنانيّين ليتعاطوا فيها التجارة والصناعة او ليفرّوا مما حصل في لبنان من المنازعات والاضطرابات لاسيا بعد نفي الامير بشير الكبير. وكان يسوسهم اساقفة افاضل اخذوا يقيمون في بيروت اخصّهم المطران بطرس كرم الذي تعيَّن لتدبير ابرشيَّتها خلفاً للمطران مخائيل فاضل سنة ١٨١٩ فرعاها بغيرة مدَّة ٢٥ سنة وكان يتنقَّل في سكناهُ بين بيروت وقرى ابرشيَّتِهِ وكانت وفاتهُ في بسكنتا وطنهِ في ١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٤ . وقام بعدهُ مطراناً على بيروت الراهب اللبناني طوبيَّا عون فساس رعاياهُ احسن سياسة واحرز لهُ بفضلهِ وجهادهِ ذكراً طيباً بين ابناء ملَّته واهل وطنه وكانت وفاتهُ في سنة ١٨٧١

وتمتّع (الروم الكاثوليك) في القسم الاوّل من القرن التاسع عشر بالراحة الدينيّة تحت رعاية ثلثة من ابناء الرهبانيّة الحنّاويّة الكريمة وهم السادة ثاودوسيوس بدر

الحلبي خلف السيّد اغناطيوس صرّوف (١٨١٤ــ١٨٢٢) واغناطيوس دهان (١٨٢٢ــ١٨٢٤) واغابيوس رياشي بعد فراغ الكرسي مدّة (١٨٢٨ــ١٨٧٨) وفي عهده بُنيت كنيستهم الكبرى الواسعة الارجاء اللطيفة البناء ذات الايقونستاس البديع على اسم مار الياس النبي . ولم يتكدّر صفاء الطائفة بغير ما حصل من الانشقاق بسبب الحساب الجديد سنة ١٨٥٧ فانسلخ بعض الجهّال عن كنيستهم تمسّكاً بحساب قديم ظهر غلطهُ لكل العلماء

اما الروم الاورثذكس فتسقّف على كنيستهم بعد وفاة مكاريوس صدقة سنة ١٨٠٤ اثناسيوس مخلّع الذي توفي سنة ١٨١٣ ثم بنيامين († ١٨٤٨) ثم ايروثاوس الى السنة ١٨٦٤ فاستقال

الرهبانيّات اللاتينيّة في بيروت

وممّا نالتهُ بيروت لنجاحها الديني في النصف الاوّل من القرن التاسع عشر حلول (الرهبانيّات اللاتينيّة) في ربوعها فكان اوّل من عاد اليها بعد انقطاعهم عنها بسبب الحروب وظلم الجزّار (الآباء الفرنسيسيّون) كما سبق . ثمّ (الآباء الكبوشيون) وكلهم من الايطاليين غالباً . وكان للكبوشيّين منزل ضيّق وسط المدينة تحت كنيسة القديس جرجس المارونيّة الحاضرة فلمّا ترأس عليهم الاب زكريّا فانشيولي (Zacharie Fanciulli) اقتنى لهم المحلّ الذي يسكنونهُ اليوم فعمّروا هناك كنيستهم الكبيرة على اسم القديس لويس ملك فرنسة وهي الكنيسة الراعويّة للّاتين

وفي العشر الثالث من القرن التاسع عشر سكن (اللعازريّون) بيروت وقاموا خصوصاً في خدمة راهبات المحبة اللواتي قدمنَ اقطارنا مع رئيستهنّ الطيّبة الذكر الاخت جيلاز سنة ١٨٤٧ فاخذنَ مذ ذاك الحين يتفانين في خدمة الفقراء والمرضى والبئوسين بما عُرفن بهِ من الهمّة والنشاط والتجرُّد التامّ

أمّا (اليسوعيون) فكان اوّل حلولهم في بيروت السنة ١٨٣٩ في زمن حكم المصريين على الشام وكان رئيسهم اذ ذاك الاب مكسيميليان ريلو البولوني الاصل وهو المعروف بالاب منصور فانتهز فرصة تسامح المصريّين مع النصارى فاقتنى ملكاً واسعاً خارج اسوار المدينة كان مزروعاً بشجر التوت واخذ يُعدّ سكنى لاخوتهِ

ببناء دير صغير . فاتت الوقائع السياسيَّة في تلك الآونة بين الدول والمصريين فاضطرَّتهُ الى تأجيل العمل ولاسيما انَّهُ كان قد تعيَّن كنائب القاصد الرسولي للسيد ڤلارديل فكانت واجبات مهمَّتهِ تدعوهُ الى التداخل في امور النصارى فلم يمكنهُ ان يُخرج نيَّتهُ الى حيز الوجود إلَّا بعد نزوح المصريين عن الشام . فاستأنف العمل بعزم وفكَّر ايضاً بمدرسة للصناعة لتهذيب احداثٍ من النصارى . لكنَّ الحبر الاعظم استدعاهُ في تلك الاثناء الى رومية ليقيمهُ رئيساً على مدرسة انتشار الايمان (البروبغندا) فخلفهُ الابُ مبارك پلانشه في رئاستهِ وبعد معاكسات شتى وعقَبات وجدها في طريقهِ اتاح لـهُ الله ان ينجز العمل ويعمّر الدير في الحيّ المعروف اليوم بالصيفي ويفتح فيهِ مدرسةً للاحداث فتمَّ ذلك في تشرين الثاني من السنة ١٨٤١

وفي اوائل هذا القرن التاسع عشر كان القصّاد الرسوليّون يسكنون في لبنان فسكن السيّد لويس غندلفي (١٧٩٦—١٨٢٥) بين اخوته اللعازريين في عين طورا ثمَّ عمَّر هناك خلفهُ السيّد لوزانّا (١٨٢٥—١٨٣٢) داراً للقصادة سكنها هو وخلفاؤهُ . ثمَّ اخذوا يتردَّدون الى بيروت وفيها استقام وتوفي السيّد فرنسيس ڤيلارديل (١٨٤١—١٨٥٢) وقد بنوا شرقيّ ساحة الشهداء داراً واسعة سكنوها الى عهد السيّد لودوفيكو بياڤي الذي انتقل الى دار القصادة الحديثة في رأس بيروت. وكذلك باع دار القصادة في عين طورا واتَّخذ للاصطياف دار حريصا . فكان وجود القصّاد الرسوليين في بيروت منشّطاً لكل الاعمال الدينيَّة فيها

ومذ ذاك الحين خصوصاً أُنشئت الاجتماعات الدينيَّة كالاخويّات والرياضات السنويَّة في كنائس المرسلين ولا سيما في ايام الصوم الكبير . نخصّ بالذكر اخويَّة اعيان بيروت الكاثوليك المنشأة سنة ١٨٤٩ في كنيسة الآباء اليسوعيين فبلغت اليوم سنتها السابعة والسبعين . وكان من ثمارها اعمال خيريَّة مشكورة كمساعدة الفقراء وتهذيب الصغار وزيارة المحبوسين وتعزيز روح العبادة في بعض شهور السنة

الآداب في بيروت

وممَّا جعل لبيروت ايضاً مقاماً رفيعاً في القسم الاوَّل من القرن التاسع عشر انشاء ﴿المدارس﴾ فيها فكانت اوَّلاً كتاتيب صغيرة تُقرأ فيها مبادئ القراءة والكتابة

والحساب يعلّم فيها بعض المعلّمين البسطاء لكل طائفة مدرسة ثمَّ سعى المرسلون الى فتح مدارس ارقى شأناً وانّما لم تبلغ شأوها إلّا بعد حوادث السنة الستّين . وكان يدرس طلبتُها مع العربيَّة احدى اللغتين الايطاليَّة او الافرنسيَّة واصول العلوم

وقدم الى بيروت بعض اعضاء جمعيَّة التوراة (البيليشيين) سنة ١٨٢٦ وغايتهم نشر تعاليمهم البروتستانيَّة فتصدَّى لهم السيّد بطرس كرم وفنَّد اضاليلهم . لكنَّهم عزَّزوا قواهم وسكنوا بيروت ونقلوا اليها مطبعتهم في مالطة وكان في مقدَّمتهم زعيمهم عالي سميث الذي بعد تضلّعهِ من العربيَّة سعى مع رفيقه ڤان ديك وغيرهما من بعض الوطنيين اخصّهم الشيخ ناصيف اليازجي وبطرس البستاني فعرَّبوا التوراة وعُنوا بنشرها وتوزيعها بعد ان حذفوا منها الاسفار المدعوَّة بالاسفار الثانويَّة كالحكمة وابن سيراخ ونبوَّة باروخ وطوبيَّا والمكابيّين وحرَّفوا على مقتضى آرائهم بعض آيات العهدين المقدَّسين . وكان ذلك سبباً لإنشاء الروم الاورثذكس جمعيَّتهم المدعوَّة الجمعيَّة السوريَّة الاورثذكسيَّة كانوا يجتمعون قريباً من الكنيسة فيخطبون في مواضيع دينيَّة ويقرأون في كتاب ملاطيوس ضدّ البروتستانت ثمَّ طبعوا ما اهملوهُ من الكتب المقدَّسة

واجتهد المرسلون الاميركان في فتح المدارس في بيروت وفي انحاء الجبل للذكور والاناث نحو السنة ١٨٣٥ ثمَّ انشأوا في بيروت مدرسةً داخليَّة للذكور سنة ١٨٤٠ كانت غايتها الخاصَّة نشر مذهبهم والحقوا بها سنة ١٨٤٦ مدرسةً مثلها للاناث . وهذا ما دفع راهبات المحبة ان يخصّصن للبنات الكاثوليكيَّات مدارس ابتدائيَّة مجّانيَّة للفقراء ومدارس ثانويَّة للطبقة الوسطى من الاهلين منذ السنة ١٨٤٧ وقبلن ايضاً اوانس داخليَّات في ديرهن سنة ١٨٤٩

﴿مطابع بيروت الاولى﴾ ومن المعلوم انَّ المطابع من اعظم اسباب الرقيّ والتفقُّه وقد كان منها السهم المعلّى لبيروت في النصف الاوَّل من القرن التاسع عشر كما بيَّنّا ذلك في مقالات واسعة أفردناها لتاريخ الطباعة في الشام وفلسطين والعراق(١) كانت (مطبعة القديس جاورجيوس) للروم الاورثذكس اوَّل مطبعة ظهرت في

١) اطلب اعداد المشرق في السنتين الثالثة والرابعة للمجلَّة ١٩٠٠ و١٩٠١

بيروت بهمّة الشيخ ابي عسكر الجبيلي في اواسط القرن الثامن عشر طُبع فيها حينئذٍ بعض الكتب الدينيَّة والطَقسيَّة كالمزامير والسواعيَّة والتعليم المسيحي ثمَّ خمدت حركتها فلم يبرز منها للنور شيء يذكر الى السنة ١٨٤٥ فعادت الى نشر الدينيَّات والطقسيَّات بحرفها القديم الى آخر العهد الذي نحن بصدده

واعظم منها في بيروت (المطبعة الاميركية) التي استعارت اوَّلًا أدواتها وحروفها من مطبعة بعثة الاميركان في مالطة وادارها عالي سميث فطبع اوَّلًا فصل الخطاب للشيخ ناصيف اليازجي وبعض كراريس دينيَّة. ثمَّ جدَّد ادواتها واستبدل حروفها بما هو أشرق والطف فسَبَكها في ليبسيك وطُبع عليها ترجمة الكتاب المقدَّس السابق ذكرها (١٨٦٠ــ١٨٦٥) وخلفهُ الدكتور فان ديك فبلَّغها كمالها فنُشرت فيها عدَّة كتب منها مدرسيَّة وعلميَّة وادبيَّة ومنها دينيَّة وجداليَّة بروتستانيَّة بلغ عددها نحو خمسين كتاباً قبل حوادث السنة ١٨٦٠

ثمَّ رأى الكاثوليك حاجتهم الى مطبعة كبيرة تفي بلوازم دينهم وتهذيب اولادهم فتحفَّز للامر المرسلون اليسوعيّون فأنشأوا (المطبعة الكاثوليكية) سنة ١٨٤٨ فنُشر فيها اوَّلًا نحو عشرة كتب دينيَة ومدرسيَّة على الحجر ثمَّ اتَّخذوا لاشغالها الحروف المسبوكة في باريس سنة١٨٥٣وبقيت مطبوعاتها محصورة العدد زمناً حتى اتَّسع نطاق اعمالها وزاد الاقبال على منشوراتها وتحسَّنت ادواتها فبلغ ما نشرتهُ من التآليف المختلفة قبل السنة ١٨٦٠ نحو عشرين كتاباً

والمطبعة الرابعة التي ظهرت في هذه الحقبة هي (المطبعة السوريَّة) لصاحبها الشهير المرحوم خليل الخوري الذي عيَّنتهُ الدولة التركيَّة مديرًا للمطبوعات فأنشأ مطبعتهُ سنة ١٨٥٧ ونشر اوَّل جريدة ظهرت في سوريَّة دعاها حديقة الاخبار وفي مطبعتهِ نُشر الدستور العثماني وبعض الكتب القانونيَّة والتجاريَّة حتى السنة ١٨٦٠

وظهرت ايضاً في اواسط القرن التاسع عشر مطبعة عُرفت اوَّلًا بمطبعة ابراهيم افندي (النجّار) الطبيب نشر فيها تاريخهُ للدولة العثمانيَّة المعروف بمصباح الساري ونزهة القاري سنة ١٢٧٢ه (١٨٥٥م). وهذه المطبعة ورثها بعد ذلك يوحنَّا النجار اخو ابراهيم فاشتغل بها بعد السنة ١٨٦٠ ودعاها (المطبعة السوريَّة)

فهذا مجمل ما ظهر من المطابع في تلك الحقبة فساعدت على ترقية الآداب ونشر

التمدُّن العصري واستنهاض همم الكتبة وكانت الدولة التركيَّة تُطلق لها الحرّية لا تهتمّ اوَّلًا بمراقبتها

وامتازت ايضاً بيروت في اواسط القرن التاسع عشر «بنواديها العلميَّة» سبق الى انشاء اوَّل نادٍ منها المرسلون الاميركان سنة ١٨٤٧ جمعوا فيه بعض أُدباء المدينة الساعين بتعزيز العلوم العصريَّة في وطنهم كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني وميخائيل مدوَّر وسليم دي نوفل ويوسف كتفاكو مع اساتذة المدرسة الاميركيَّة . فكانوا يجتمعون في اوقات معلومة ويلقون بعض المحاضرات الادبية والعلميَّة التي نشروا منها جانباً في مجموعٍ اعالي سميث دعاهُ مجموع الفوائد وفي كراريس صغيرة اصدروها سنة ١٨٥٢ ثمَّ بطلت جمعيَّتهم بعد قليل

وكذلك سعى اليسوعيّون الى انشاء جمعيَّة من الكاثوليك سنة ١٨٥٠ دُعيت (الجمعيَّة الشرقيَّة) امتاز من اعضائها عدَّة رجال كابرهيم النجار الطبيب وفرنسيس مسك والشاعر الشيخ حنا ابي صعب والوطني رزق الله خضرا والمؤرخ طنوس الشدياق وحبيب اليازجي

وفي ذاك الزمان اجتهد ايضاً الروم الاورثذكس في تأليف جمعيَّة في بيروت لاجل العلوم والفنون ضمَّت اليها بعض وجوه ملَّتهم كخائيل شحاده وفضل الله بسترس واسعد سرسق ونعمه جرجس طراد والقس جراسيموس الشامي

على انَّ حياة هذه الجمعيَّات لم تطل مدَّتها وكانت الحكومة التركيَّة تنظر اليها شزرًا وتخاف ان يغلب عليها روح السياسة

فترى انَّ بيروت نهضت في اواسط القرن التاسع عشر نهضةً راقية وجرت مسرعةً في معارج التقدُّم فمهَّدت لسائر انحاء الشام الطريق لمجاراتها في هذه الحلبة الشريفة . ولو اردنا سرد ما نُشر وقتئذٍ من التآليف الادبية والتاريخيَّة والعلميَّة والفنيَّة لاتينا بجدولٍ واسع وما كان ذلك الَّا مقدِّمة لحقبةٍ ثانية كست بيروت حلَّةً من المجد لا تُبارى (١

على ان المدينة لم تسلم من بعض الآفات التي حلَّت بها كنكبة الزلازل في السنة

١) راجع الجزء الاوَّل من كتابنا الآداب العربيَّة في القسم الاول من القرن التاسع عشر (الطبعة الثانية ١٩٢٤)

١٨٢٦ وداء الطاعون والهواء الاصفر غير مرةٍ . وتكدَّر اهلها بما حصل من فتن الدروز سنة ١٨٤١ في لبنـان وتحاملهم على النصارى .

البحث الثاني عشر

بيروت في القسم الاخير من القرن التاسع عشر الى يومنا (١٨٦٠—١٩٢٦)

ان اخبار بيروت في هذه الحقبـة الاخيرة لا يمكن حصرها في صفحات قليـلة وكثير منها يصعب تدوينهُ وهو يمسّ اشخاصاً قريبين من عهدنا تقتضي اللياقة السكوت عن اعمالهم ومن ثمَّ لا نستطيع ان نروي منها إلّا ما ذاع وشاع .

وتسهيلًا للاحتياط بتاريخ بيروت في هذه المدَّة نقسم بحثنا الى اربعة ابواب نخص الاول منها لبيروت السيـاسيَّة والثاني لبيروت الدينيَّة والثـالث لبيروت الادبيَّة والرابع لبيروت الاقتصاديَّة

الباب الاوَّل : بيروت السياسيَّة

زادت بيروت تقدُّماً ونجاحاً بعد ان نُقلت اليها دوائر اشغال الدولة العثمانيَّة في اواسط القرن التاسع عشر لسقوط عكّا وإهمال صيداء إلّا انَّ احوال لبنان السيئـة كانت تؤثر فيها تأثيراً ظاهرًا . ولمَّا منح الباب العالي سنة ١٨٥٦ باغراء الدول الاوربيَّة خطًّا همايونيًّا لنصارى الشام لمساواتهم مع المسلمين بالحقوق ثارت ثائرة الاسلام وضمروا لمواطنيهم الشرَّ . وفي تلك الاثناء سنة ١٨٥٧ عُزل وامق باشا وقدم بيروت عوضاً عنهُ خورشيد باشا الذي سعى جهدهُ في التحريش بين الاهلين متستّرًا . فقام الدروز اوَّلًا ثم تبعهم المسلمون مع جنـد الاتراك وحصلت سنة ١٨٦٠ تلك الحوادث المؤلمة التي حوَّلت لبنان ودمشق الى مناقع دمٍ ومجازر ابرياء

وكان الدروز تقدَّموا الى ضواحي بيروت يقصدون الزحف عليها فلم تنجُ من فتكهم إلّا لخوفهم ممَّن كان يسكن فيها من ممثّلي الدول ويربط في مرفأهـا من المراكب الاجنبيَّة . فاندفعوا اندفاع السيل على قرى لبنان الجنوبيَّة واعملوا في اهلها السيف وفي مبانيها النهب والنار وخورشيد باشا لا يحرّك ساكناً

ولمّا خمدت الامور بتوسّط الدولة الفرنسويّة وحملة جنودها تحت قيادة الجنرال بوفور لخلاص النصارى اصبحت بيروت ملجأً لبقايا الجبل ودمشق فبلغ عدد المنكوبين نحو ثلثين الفاً تنافست الارساليات الكاثوليكية بمساعدتهم وارسلت فرنسة الاحسانات الوافرة للتفريج عن كربتهم. ومذ ذاك الحين استوطن كثيرون من اللبنانيين بيروت واتّسعت دائرة اشغالها

وفيها حصلت تلك المفاوضات الطويلة بين ممثلي الدول والمفرّض العثماني فؤاد باشا فلم يزل يكدّ جبينهُ ويسهر عينهُ حتى برّأ ساحة خورشيد باشا وكثيرين من الجُناة ولم ينل اللبنانيّون من التعويض إلّا ما لا يُعبأ بهِ

ثمّ تتابعت المفاوضات في اواخر السنة ١٨٦٠ الى اواسط السنة ١٨٦١ حتى اتّفقت اللجنة الدوليّة على نظام لبنان الاساسي الاوّل في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ ثمّ حوّروهُ قليلًا واجروهُ فعلًا بما خوّلوا لبنان من الاستقلال النوعي وإقامة متصرّفين مسيحيّين تولّوا تدبيرهُ خمسين سنةً كان اوّلهم داود باشا وآخرهم اوخانس باشا الارمنيّ خلفهُ في ايّام الحرب الكونيّة ثلاثة متصرّفين اتراك عليّ منيف بك ١٩١٥ ثمّ اسماعيل حقّي بك ١٩١٧ ثمّ ممتاز بك ١٩١٨

وكانت بيروت في تلك المدّة اوّلًا منوطة بولاية سوريّة التي كان مركزها دمشق فجُعلت قائمقاميّةً ضيّقة النطاق قليلة النفوذ فسكنت بذلك حركتها وخمدت تجارتها وساءت احوالها إلّا ان مركزها بقرب البحر واتّصالها باوربة وهمّة اهلها وازدياد عدد الاجانب في ربوعها اضطرّ الدولة التركيّة ان ترخي عن خناقها فجعلتها متصرفيّة سنة ١٨٦٤. وأُلحقت بها قائمقاميّة صور وصيدا ومرجعيون وتولّى فيها متصرّفون يقيمهم ولاة سوريّة مدّةً ويبدلونهم بعد زمن قليل كمألوف عادة الاتراك. وبقي الامر على ذلك الى السنة ١٨٨٨

وفيها فصلَ السلطان عبد الحميد بيروت عن ولاية دمشق فاصبحت ولايةً منفردة أُنيط بها متصرّفيات اللاذقيّة وطرابلس وعكّا ونابلس. فكان اوّل والٍ على بيروت سنة ١٨٨٨ عليّ باشا خلفهُ سنة ١٨٩٢ خليل خالد بك ثمّ نصوحي بك ١٨٩٤ ثمّ رشيد بك ١٨٩٧ ثم خليل باشا ١٩٠٤ ثم ناظم باشا ١٩٠٨ ثم حازم بك وادهم بك وبكر سامي الذي في ايّامهِ انتشبت الحرب الكونيّة فخلفهُ عزمي بك

ثم اسمعيل حقي بك الى نهاية الحرب وسقوط الحكومة التركيَّة سنة ١٩١٨

وفي هذه المدَّة حصلت بيروت على الامان والطمأنينة . إلَّا انَّ الاصلاحات التي وعدت بها الدولة بقيت مواعيد عرقوبيَّة لم يُصب منها نصيباً اهلُ الشام عموماً ولاسيما النصارى . ولمَّا أُعلن بالدستور اوَّل مرَّة سنــة ١٨٧٦ ارسلت بيروت الى الاستــانة نائبين عادا بعد زمن قليل فارغَين لاستبداد السلطان عبد الحميد والغاء مجلس المبعوثان وثبات الامور على حالها المعوجَّة فأنَّت الصدور لمظالم العمَّال ولتفاقم الضرائب وغلبة الرشوة

ولمَّا عاد الدستور ثانيةً وفاز بالسياسة الحميديَّة ثمَّ بصاحبها عبــد الحميد عمَّ الفرح اهل بيروت واستبشروا بهِ خيرًا وتصــافح الشيخ والقسيس اشارةً لتــأليف القلوب ونظموا القصائد العــامرة في إطراء الــدستور إلَّا انَّ فرحهم لم يلبث زمناً طويلًا اذ قامت جمعيَّة الاتحاد والترقي واستبدَّت بالحكم لغاياتها السرّيَّة فكــانت وطأتها على الناس اثقل من الوطأة الحميديَّة على كلّ من يتعرَّض لاحكامهــا . واذ عارضتهــا جماعــة الحزب العربي الوطنيّ نقمت على ذويهِ واوقفت البعض منهم ثمَّ اجتمعوا في باريس وعقدوا فيها مؤتمرًا فاحتفظت على اسمائهم لتفتك بهم عند سنوح الفرصة

وفي السنة ١٩١٢ انتشبت الحرب بين ايطالية وتركيَّة بسبب طرابلس الغرب فقدمت دارعتان ايطاليَّتان الى بيروت واطلقتا القنابل على طرَّادين تركيَّين عون الله وانقره كانا راسيين في المرفأ واغرقتاهما فحصل بذلك هيجــان بين المسلمين فهجموا على مستودع الرديف ونهبوا اسلحتهُ وحاولوا مقاتلة الاجانب وكاد يتفاقم الشرّ لولا اتخاذ الوالي حازم بك الوسائل الفعَّالة لمنع الاعتداء وكبح الثورة

وفي اواخر شهر تموز ١٩١٤ وقعت تلك الحرب الكونيَّة العوان التي قلبت العالم ظهرًا لبطن وكانت تركيَّة تستعدّ لتخوض غمراتها ريثما تجمع قواها . وانتهزت فرصة انشغال الدول بالحرب وتنشيط دولة المانية سرًّا لاعمالها فألغت ما كان للاجانب من الامتيازات القديمة التي نالوها بمعاهدات سابقة عُقدت بينها وبين الباب العالي فحصلت وقتئذٍ مظاهرات مهيّجة كان من شأنها ان تُسعر نار الفتن بين المسلمين والنصارى

وما لبثت ان دخلت تركيَّة ساحة الحرب في جانب الدول المركزيَّة في اوائل

شهر تشرين الثاني ١٩١٤ فأُصيبت بيروت بسببها بآفات متعدّدة اذ أُبعد الاجانب وأُقفلت القنصليّات وانقطعت المواصلات التجاريّة مع اوربّة ومصر وغلت الحاجيّات وبطلت عدّة صنائع فبقي أُلوف من الناس يتضوّرون جوعاً وسِيق كثيرون الى الحرب ممّن لم يمكنهم ان يفدوا نفوسهم بالمال بل وقعت التهم في قوم من الاعيان والادباء فقُتل البعض شنقاً ونُفي البعض الى الداخليّة . وكان الحلّ والربط بيد جمال باشا يتصرّف بحكمهِ كيف يشاء ويُساعدهُ في تنفيذ اموره مجلس عرفيّ اقامهُ في عاليه

وكان والي بيروت عزمي بك اتى خلفاً لسامي بكر فجرى على مثال جمال باشا وتتبّع كلّ من كان يراهُ مخالفاً لسياسة الدولة او لنقض رسومها فيعاقبهُ اشدّ المعاقبة لا يراعي في ذلك وجيهاً او رئيس طائفة . وحُرمت الناشئة نعمة التعليم ما خلا بعض المدارس الابتدائيّة او التركيّة الصبغة

وفي اوائل تشرين الاوّل اذ حطّت الحرب الكونيّة اوزارها وكان الظفر للدول المتحالفة برح الاتراك بيروت فأسرع الامير فيصل ابن حسين ملك الحجاز لبسط سلطةٍ عربيّة على كل سورية بمؤازرة الدولة الانكليزيّة فدخل بيروت وحاول ان يحكم عليها . ولم يلبث ذلك السحاب أن انقشع وجُعل الانتداب على بلاد الشام في عهدة فرنسة . وكان القاضي على الحكم العربي واقعة خان ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠

وكان الجنرال غورو اوّل مفوّض سامٍ على سوريّة فاجابةً الى رغبة السكّان والى طلب غبطة البطريرك المارونيّ الياس الحويّك الذي تجشّم السفر الى باريس لهذه الغاية أُعلن في غرّة ايلول سنة ١٩٢٠ استقلال لبنان الكبير مع مدنهِ الساحليّة شمالاً وبلاد البقاع جنوباً وجُعلت بيروت عاصمتهُ . فعاد الى البلاد هدوّها وسلامها . وخلف الجنرالَ غورو الجنرال ڤيغان يشبههُ فضلاً وشهامةً فقرّر اعمالهُ وكمّلها واكتسب ثقة اهل الوطن عموماً على اختلاف اديانهم ونزعاتهم فكان يوم رجوعهِ الى فرنسة يوماً مشهوداً اعرب فيهِ جميع الوطنيّين عن شكرهم لشخصهِ وأثنوا على سائر اعمالهِ متمنّين ان يعود اليهم آسفين على فراقهِ

وزاد أسفهم اذ رأوا خطّة خلفهِ الجنرال سرّاي الذي أتى البلاد وهو يجهل احوالها واستبدّ برأيهِ في تدبير دولة لبنان وغيّر حاكمها وفضّ مجلسها فلم تلبث ان وقعت فيها القلاقل والاضطرابات فانتشرت خصوصاً في دمشق وحوران فحدثت

تلك الثورات والفتن التي لم تهدأ تماماً حتى بعد استدعاء الجنرال سرّاي ومجيء خلفهِ المسيو هنري دي جوفنل الذي جرى في امورهِ في هذه السنة بتعقّل وحزم

وكان خاتمة مآثره نحو لبنان الكبير انَّهُ فوّض الى مجلسهِ أن يتَّخذ لهُ دستوراً ويختار لتدبير امورهِ هيئةً حاكمةً. فكان اختيارهم للهيئة الجمهوريَّة يشترع فيها مجلس مندوبين ومجلس شيوخ ويمثلها رئيس يُختار لثلث سنين فتمَّ ذلك في عيد العنصرة من السنة الحاليَّة ١٩٢٦ وأُعلن بالجمهورية اللبنانيَّة يوم الاحد ٢٣ ايار وبرئيسها يوم الاربعاء ٢٦ منهُ مع بقاء بيروت كعاصمة الجمهوريَّة

وما لا شكَّ فيهِ انَّ الانتداب الفرنساوي أدَّى للبلاد خدماً جليلة مادّية وادبية واقتصاديَّة في هذه السنين الاخيرة لا يقوى اللسان على شكرها وإنْ وقع من بعض افرادهِ اغلاطٌ تُغتفر في جانب الكثير من النعم التي اسبغتها الدولة الفرنسويَّة على سوريَّة عموماً وعلى لبنان وعاصمتهِ خصوصاً

الباب الثاني : بيروت الدينيَّة

١ رجال الدين

بلغت بيروت اوج رقيها ديناً وادباً في هذه الحقبة . فقد ظهرت مجالي الدين بن احتلّها من اربابهِ وسكنوها بعد السنة ١٨٦٠ . فانَّ قبل ذلك العام لم يستوطنها غير رئيسَي اساقفة بيروت على الروم الكاثوليك والروم الاورثذكس. فبعد حوادث تلك السنة أصبحت بيروت مركزاً لنيافة القصاد الرسوليين الذين كانوا سابقاً يسكنون في لبنان في عينطورا وزوق ميكائيل فاتَّخذوا لهم داراً واسعة قريباً من ساحة الشهداء شرقيّها. ثم باعوها وانتقلوا الى دار القصادة الحاليَّة في رأس بيروت. وقد سبق لنا ذكر اعمالهم في مقالة افردناها لتاريخ القصادة الرسوليَّة في سوريَّة (اطلب المشرق ١٢ [١٩٠٩]: ١ـــ٢٤)

وكذلك رؤساء اساقفة الموارنة عدلوا عن السكنى في عين سعادة واستوطنوا

بيروت كرسيّ اسقفيّتهم منذ الطيّب الذكر المطران طوبيّا عون الى هذا العهد (اطلب تاريخهم في المشرق ٧[١٩٠٤]: ١٠٩٩)

واتّخذ السيّد المرحوم ثاوفيلوس قنـدلفت بيروت كمركز للنيابة البطريركيّة السريانيّة سنة ١٨٨٦ . وازداد شرف اهلها السريان منذ جعل غبطة السيّد اغناطيوس افرام الثاني البطريرك الانطاكي بيروت مركزًا لسكناهُ بتفويض من الكرسيّ الرسولي . فأصبحت كقطب الطائفة السريانيّة المنتشرة من اقصى العراق الى وادي النيل

ويسكن اليوم بيروت اسقف ارمنيّ كاثوليكيّ وفيها نائب بطريركي للطائفة الكلدانيّة

امّا الرسالات اللاتينيّة فبعد الفرنسيسيّين والكبوشيين واللعازريين واليسوعيين الذين مرّ ذكرهم في الفصول السابقة لم يحتلّ بيروت سوى اخوة المدارس المسيحيّة سنة ١٨٨٩ . لهم فيها مدرسة كبيرة زاهرة على طريق النهر ومدرسة ثانية متوسّطة في رأس بيروت مع تعليمهم للفقراء في مدرسة جمعيّة مار منصور دي بول . وكذلك لاخوة مريم او الماريست في بيروت مركز لوكالة رسالتهم في انحاء سورية

اما الراهبات فلم يكن منهنّ في بيروت السنة ١٨٦٠ غير راهبات المحبّة . وكانت راهبات القديس يوسف ذي الرؤية (S^t Joseph de l'Apparition) حللنَ زمناً ببيروت سنة ١٨٤٧ ثم غبنَ عنها الى السنة ١٨٧٢ فعُدنَ اليها بدعوة السيّد يوسف فالرگا . وسبقتهنّ ١٨٦١ الراهبات المريمات المعروفات في يومنا براهبات قلبي يسوع ومريم

وتبعتهنّ سنة ١٨٦٨ راهبات الناصرة وسكنّ مدّة شرقيّ دار الوجيه المرحوم موسى فريج ثمّ انتقلنَ الى ديرهنّ العامر بجوار الاشرفيّة

واقرب منهنّ عهدًا في بيروت راهبات العائلة المقدّسة اللواتي قدمنَ بيروت سنة ١٨٩٤ بدعوة الطيّب الذكر المطران يوسف الدبس ثمّ استقللنَ بالعمل بعد حين . وحلّت ايضاً في بيروت مدّةً راهبات الراعي الصالح

وفي السنة ١٨٩٨ كان وصول راهبات السجود الى بيروت فعطّرنَ المدينة بقداسة سيرتهنّ الى هذه الايّام حيث قُضي عليهنّ بالانصراف عن عاصمة لبنان في شهر أيّار الاخير فكان لسفرهنّ سوء تأثير في قلوب الجميع

وفي السنة ١٩٠٨ سُرَّ اهل بيروت باحتلال راهبات جمعيَّتين أُخرَيين وجدوا فيهما مثال البرّ والحنان نريد بهنَّ راهبات محبَّة بيزانسون وراهبات الفقراء العُجَّز المعروفات ببنات امّ الاوجاع . ولكلتيهما من المآثر الطيبة ما يعرفهُ القاصي والداني

واقربهنَّ عهدًا راهبات العائلة المقدَّسة المارونيَّات اللواتي انشأهنَّ غبطة البطريرك ماري الياس الحويك فاستوطنَّ بيروت بعد الحرب . ثمَّ راهبات الحبل بلا دنس الارمنيَّات

وممَّن قدم الى بيروت من غير الجمعيَّات الرهبانية الكاثوليكيَّة السيّدات والاوانس البروتستانيَّات المعروفات بالدياكونس كان دخولهنَّ بيروت في اواخر السنة ١٨٦٠ . وفي تلك السنة انشأت السيدة طومسون اوَّل مدارسها الانكليزيَّة في بيروت . وللروم الاورثذكس جماعة من الراهبات أُنشئت في بيروت في اواخر القرن السابق

وللبروتستانت في حاضرتنا ما عدا الارساليَّة الاميركية جماعات صغيرة أُخرى تنتمي الى مذاهب مختلفة كاللوثرانيين والانكليكان والاسكتلنديين والمعمدانيين وغيرهم لكل منها مذهب في المعتقدات وعادات متباينة ومراكز خاصة

٢ الابنية الدينية

بتوفُّر السكان في بيروت وجب ايضاً توفير المعاهد الدينيَّة فيها . وقد امتازت الطوائف الكاثوليكيَّة بابنيتها الدينيَّة في هذا العهد الاخير . فبعد كنيسة النبي الياس للروم الكاثوليك بمساعي غبطة البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤٩ وكنيستي مار لويس للمرسلين الكبوشيين والحبل بلا دنس للآباء اللعازريين تشيَّدت في اثر حوادث السنة الستين كنائس أُخرى جميلة يفتخر بها الكاثوليك . فشيَّد اليسوعيُّون كنيستهم الفخمة على اسم القلب الاقدس سنة ١٨٧٥ وابتنى الموارنة كنيسة مار مارون ثمَّ كنيستهم الكاتدرائية الكبيرة على اسم القديس جرجس بهمَّة راعيهم المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس أُلحقتا بعد مدَّةٍ بكنيستي مار ميخائيل شرقي بيروت ومار الياس غربيّها . واقام السريان كنيستهم اللطيفة على اسم القديس جرجس . والروم الكاثوليك على اسم البشارة واسم المخلّص والارمن على اسم النبي الياس

هذا الى كنائس ومعابد اخرى خصوصية ضمن الاديرة والمدارس كمثل كنيسة دار القصادة الرسولية وكنيسة قلب يسوع لراهبات الناصرة وكنيسة مدرسة الحكمة وكنيسة جمعية مار منصور وغير ذالك مما يطول ذكرهُ . وسترى بيروت بعد بضعة اسابيع كنيسةَ اخوة المدارس المسيحيّة من اجمل الكنائس وارحبها

وكذلك الروم الاورثذكس جدَّدوا كنيستهم الكبيرة على اسم مار جرجس وزيّنوها بالصور البديعة واقاموا كنائس اخرى على اسم العذراء الطاهرة ومار نيقولاوس . ومثلهم الارمن الغريغوريون جنوبي السراية

وعُني الاميركان بهندسة كنيستهم الملاصقة مطبعتهم القديمة واقاموا في كليّتهم كنيسةً لطلبتهم واسعة الارجاء شبيهة بقاعة كبيرة

ولم يَنْهُ المسلمون عن مبانيهم الدينيّة فشادوا عدَّة مساجد في البسطة ورأس بيروت وتحت دير الناصرة وعند حرج الصنوبر على طريق صيداء تُشرف عليها مآذن لطيفة البناء

فكل هذه المباني الدينية تنطق بلسان حالها وتشير الى ما لاهل بيروت من الغيرة في امورهم الروحية والحرص على وديعة الايمان الثمينة التي ورثوها من اجدادهم

٣ الاعمال التقوية والخيرية

وهو الدين الذي يُلهم اصحابهُ انشاء المشروعات التقويّة والخيريّة . منها الاخويات التي سعى خصوصاً بتأليفها المرسلون ومَن جرى على مثالهم . فانَّ للآباء اليسوعيين منها قسماً صالحاً بعضها لأعيان البلد كأخويّة الحبل بلا دنس وبعضها للعملة كأخوية الام الحزينة وبعضها للنساء كاخوية الميتة الصالحة ومنها للشبّان والفتيات وللصانعات في كنيستهم وكنائس اخرى . وللطوائف الكاثوليكية من موارنة وروم كاثوليك وسريان مجتمعات تقويّة كالاخويّات تبعث روح الدين وتُنمي التقى والعبادة

وفي هذه الحقبة جرت عادة الرياضات السنويّة التي يتخلّى فيها المؤمنون تارةً منفردين وتارةً مجتمعين تُلقى عليهم التأملات في الحقائق الدينية فيُنيبون الى الله ويزهدون بشهوات العالم . ومثلها المحاضرات والمواعظ في ايّام الصوم استعداداً لعيد

الفصح. وزد على ذلك الحفلات الدينيّة كالرياضات والطواف بالقربان الاقدس والزيارات الجمهوريّة لمعابد البتول

واوفر منها المشروعات الخيريّة كشركة مار منصور دي پول وشركات خيريّة لكلّ طائفة من الطوائف بعضها لمساعدة المنكوبين وبعضها لدفن الموتى ومنها لصيانة الفتيات وزيارة المحبوسين

وما قولنا بالمستشفيات العديدة التي توفّرت في احياء بيروت المختلفة وقد امتازت بينها مستشفيات راهبات المحبّة ومآويهنّ ومياتمهنّ ومستوصفاتهنّ

وكلّ يعرف ما لراهبات القديس شرل وراهبات الفقراء العجّز من الفضل العميم في خدمة المرضى والمسنّين حتى انّ زائري مقامهنّ لا يتمالكون من العجب والاندهاش لدى نظرهم ذلك التفاني الغريب في خدمة البؤساء والتاعسين

ومنذ اربع سنوات فُتح مستشفى آخر جديد لاحق بمكتب الاباء اليسوعيين الفرنسويّ الطبي تقوم بكل لوازمه راهبات مار يوسف الفرنسويّات من ليون

وللروم الاورثذكس مستشفى بُنيت لهُ تحت مقبرة مار متري ابنية فسيحة تحت ادارة لجنة خاصّة ونساء ممرّضات

ومن اقدم المستشفيات المستشفى اللاحق بالكلية الاميركانية هو منظَّم على مثال المستشفيات الراقية لهُ عدّة فروع على حسب اختلاف المعالجات ثمّ المستشفى العسكري

ج الباب الثالث : بيروت الادبية

كما الدين كذلك الادب صار منهُ لبيروت السهم الفائز حتى فاقت على حواضر الشرق وقاربت الشبه ببعض عواصم الغرب

الى السنة ١٨٦٠ كانت الآداب والعلوم منحصرةً في نطاق ضيّق فاخذت في الاتساع بعد ذلك حتى بلغت ما نراها عليهِ اليوم من الرقي العجيب.

﴿ المدارس ﴾ وكان اوّل ما سُدَّ بهِ الخلل انشاء مدارس وطنية واجنبية ارقى درجةً من العهد السابق. فمن المدارس الوطنية ما انشأهُ المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ فكان لها السبق بين المدارس الوطنية فادارها هو وابنهُ سليم عدّة سنين. وفي

السنة ١٨٦٥ وضع البطريرك غريغوريوس يوسف اساس المدرسة البطريركية على قمة حيّ المصيطبة فاقبل اليها التلاميذ من سوريّة والبلاد المجاورة كفلسطين ومصر وقبرس ولم تزل من ذاك الحين تشرّف الوطن بخدمها المتواصلة في سبيل العلم والادب

ونحت نحوها مدرسة الحكمة التي انشأها السيّد المفضال المطران يوسف الدبس سنة ١٨٧٦ وذكرنا اخيراً الاحتفال بعيد يوبيلها الخمسيني

وانشأ الروم الاورثذكس في السنة ١٨٦٥ مدرستهم الوطنية المعروفة بالثلاثة الاقار علّم فيها بعض ادباء طائفتهم ولا تزال عامرةً الى يومنا

وكذلك المسلمون عزّزوا مدارسهم نخصّ بالذكر منها المدرسة الرشديّة والمدرسة العلمية والمدرسة العثمانية والكلية الاسلامية التي جرى في العام الماضي ١٩٢٥ الاحتفال بالعيد الذهبي لرئيسها المفضال الشيخ احمد عبّاس الازهري

وفي السنة ١٨٧٥ انشأ زاكي كوهن لاهل ملّتهِ الاسرائيليّة مدرسةً خدم بها العلم والادب ٢٤ سنة ثمّ خلفتها مدرسة الاتّحاد الاسرائيلي

ومن مدارس الاناث الوطنية المنشأة في هذه المدّة مدرسة راهبات قلبي يسوع ومريم منذ نيّف وستّين سنةً . وكذلك مدرسة السيّدة اميلي سرسق الوطنيّة فُتحت سنة ١٨٨٠ ومدرسة راهبات الروم الوطنيّات . وباشرت الراهبات المارونيات بمدرستهنّ سنة ١٩٢٢

امّا المدارس الاجنبيّة فبفضلها أُنشئت الكلّيّتان الاميركيّة واليسوعيّة . أُنشئت الاولى سنة ١٨٦٦ والثانية سنة ١٨٧٥ ولكلتيها فروع متعدّدة فللاولى القسم الاعدادي والعلمي والتجاري والطبي . وللثانية القسم الفلسفي واللاهوتي والاعدادي ثمّ الحقوق والهندسة والطبّ بكل متعلّقاتهِ

ومن المدارس الاجنبيّة مدرستان كبيرتان لجماعة اخوة المدارس المسيحية اكتسبتا ثقة الاهلين بحسن تدبيرهما وتعليمها فتزاحم فيها الطلبة

اما الاناث فقد سبق ذكر مدرسة راهبات المحبّة القريبة من ساحة البرج . ثمّ أضفنَ اليها مدرستين اخريَين في حيّ الرميلة وفي رأس بيروت

ولراهبات الناصرة مدرسة راقية لاوانس المدينة قطعت ايضاً شوطها الخمسيني وأحدث منها عهداً مدارس راهبات العائلة المقدّسة وراهبات محبّة بيزانسون .

ولكلهنَّ مآثر عديدة لا يفي بشكرها لسان الاهلين

هذا ما عدا العدد العديد من المدارس الابتدائيَّة منها وطنيَّة وطائفيَّة ومنها اجنبيَّة تجدها في كلّ حيّ من احياء المدينة فلم يَعُد من عذر لمن يرغب العلم والتهذيب في عاصمة لبنان

﴿المطابع﴾ قد وضعنا سابقاً فصولًا مطوَّلة في تاريخ فنّ الطباعة في بيروت وانحاء سوريَّة فعلى من اراد الوقوف على تاريخها ومنشوراتها ان يراجع في المشرق ما قيل عنها في اعداد السنين الثلاث ١٩٠٠ الى ١٩٠٢

وقد استجدَّت منذ عشرين سنة في بيروت بعض المطابع فاستبدل الاميركان مطبعتهم على الحروف باللينوتيب. وأُنشئت مطابع جديدة تامَّة الاهبة كمطبعة الآباء الكبوشيين المعروفة بجان درك ومطبعة جدعون ومطبعة يوسف صادر ومطبعة مكتبة اخيه سليم ومطبعة قزما والمطبعة الفرنساوية ومطبعة الثبات ومطبعة الاجتهاد ومطبعة النهضة والمطبعة الاهليَّة والمطبعة العصريَّة وغير ذلك ممَّا لم نقف على اخباره

﴿المجلَّات والجرائد﴾ راجت في بيروت سوق الصحافة بعد السنة ١٨٦٠ وهذه اسماء المجلَّات التي صار لها بعض التأثير في الآداب العربيَّة : الزهرة ليوسف الشلفون والجنان لبطرس البستاني. والنشرة الاسبوعيَّة للارساليَّة الاميركانيَّة (١٨٧٠) ومجلة المقتطف لنمر وصرُّوف وابكاريوس (١٨٧٦) ثمَّ نُقلت الى مصر. ومجلَّة الطبيب للدكتور جورج بوست (١٨٧٨) والصفاء لعليّ ناصر الدين (١٨٨٦) والكنيسة الكاثوليكية (١٨٨٩) ثم المشرق (١٨٩٨) للآباء اليسوعيين. ثمّ الكليَّة للجامعة الاميركانية (١٩٠٥) والجسمانية للآباء اللعازريين (١٩٠٧). وظهرت بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٩ مجلَّة الحسناء لجرجي نقولا باز والنبراس للشيخ مصطفى الغلاييني والكوثر لبشير رمضان. وفي السنة ١٩١٠ روضة المعارف لجميل العظم والحقوق للمحامي نجيب خلف والنديم لشاكر عون. وفي السنة ١٩١٣ صديق العائلة للآباء الكبوشيين ومجلة الرسالة للمرجوم الاب لويس دريان. وممَّا ظهر بعد الحرب الحارس لامين غريب والمعارف لوديع نقولا حنَّا ورسالة قلب يسوع للآباء اليسوعيين ومجلة المرأة

امَّا الجرائد فكادت تبلغ في هذه المدَّة المئة عدًّا اخصُّها في القرن التاسع عشر حديقة الاخبار لخليل بك الخوري سبقت السنة ١٨٦٠ . ثمّ تبعها في بيروت

البشير للآباء اليسوعيين(١٨٦٩) ثمَّ الجنَّة والجنينة لسليم ونجيب البستاني (١٨٧١). ثمَّ التقدُّم ليوسف الشلفون(١٨٧٤) وثمرات الفنون لعبد القادر القبَّاني (١٨٧٥) ثم لسان الحال لخليل سركيس(١٨٧٧)ثم المصباح لنقولا النقَّاش(١٨٨٠)والهديَّة والمنار للروم الاورثذكس ثمَّ بيروت الرسميَّة (١٨٨٨) ثمَّ الاحوال لخليل البدوي (١٨٩١) ثمَّ لبنان لابرهيم بك الاسود والمحبَّة لفضل الله ابي الحلقة (١٨٩٩)

ومنذ القرن العشرين الى هذا العهد ظهر في بيروت الاقبال لعبد الباسط الانسي (١٩٠٢)· ثمَّ تعدَّدت الجرائد بعد اعلان الدستور فظهر منها سنة ١٩٠٨ البرق لبشاره عبدالله الخوري والوطن لشبلي ملَّاط والثبات لاسكندر الخوري والاتحاد العثماني لاحمد حسن طبَّاره· ومن السنة ١٩٠٩ الى الحرب ظهر في بيروت الحقيقة لحسن الناطور والمفيد لعبد الغني العريسي وابابيل لحسن محيي الدين حبَّال والنصير لعبُّود ابي راشد والراوي لطانيوس عبده والرأي العام لطه المدوَّر والبلاغ لمحمَّد باقر والاخاء العثماني لمحمَّد شاكر الطيبي· وبطل كثير من هذه الجرائد في ايَّام الحرب الكونيَّة وبعد الحرب عاد بعضها الى الحياة كالاحوال والبشير والبلاغ والبرق والوطن واستجدَّ غيرها كالارز التي نُقلت الى بيروت وكالحقيقة والبرق والشعب والاخاء والمنبر والحريَّة وغير ذلك ممَّا حُرّر بالافرنسيَّة

﴿المطبوعات الادبية﴾ امتازت بيروت بمطبوعاتها التي انافت بعد السنة ١٨٦٠ على الالوف وقد عدَّدنا في تاريخنا عن الطباعة لكل مطبعة ما عرفناهُ لها· فلا يسعنا هنا إلَّا الاشارة الى هذهِ المطبوعات بوجيز الكلام

في هذه الحقبة نُشر في بيروت معظم الكتب النصرانية الشائعة بين الطوائف المسيحية وفي مقدَّمتها الكتاب المقدَّس طُبع مبتورًا في المطبعة الاميركيَّة وكاملًا في مطبعتنا الكاثوليكية ثم الكتب الطقسية لاسيما الروم الملكيين الكاثوليك والروم الاورثذكس كالسواعيَّات ورتب القداس والأفخولوجيون والميناون والتيبكيون· ومثلها الكتب الطقسية المارونية التي طُبع قسم كبير منها في مطبعتنا الكاثوليكية وفي المطبعة العمومية لرزق الله خضرا بالعربيَّة او بالسريانيَّة · وكذلك بعض كتب السريان الكاثوليك· يضاف الى هذه الكتب الطقسية شروحها كمنارة الاقداس للدويهي وتفسير القدَّاس ليواكيم مطران والقصارى للمطران يوسف داود

وفي هذه السنين نُشرت في بيروت ايضاً معظم التواريخ الطائفيّة كتاريخ الموارنة للدويهي وتاريخ الروم الملكيين للسيد غريغوريوس عطا وتاريخ السريان للسيّد ديونسيوس نقّاشه والفيكونت فيليب دي طرّازي والقس اسحق ارملة وتاريخ الكلدان للطيب الاثر السيّد ادّي شير . ومثلها اخبار بعض الرهبانيّات كالرهبنة المخلِّصية والرهبنة البلديّة والرهبنة الانطونيانيَّة

وطُبعت ايضاً كتب دينيَّة شتى بعضها لاهوتية نظريّة ولاهوتيّة ادبية وتفاسير على الانجيل والرسائل وبعضها فلسفية او حكميَّة ووعظية وكثيرٌ منها سِيَر قديسين وكتب روحيَّة لتقديس الحياة كالتأمُّلات والكتب التقويّة والعبادات

ومن مطابع بيروت خرج ايضاً عددٌ لا يُحصى من الكتب المدرسيّة كمبادئ العربية وتعليم اصولها الصرفيّة والنحويّة والبيانيَّة والمنطقيَّة لليازجيين والبستانيين والشرتونيين كان الفضل في نشرها للمطبعة الاميركانيّة والمطبعة الادبية ومطبعتنا الكاثوليكية ومطبعة صادر

وطبع الاميركان خصوصاً لكليّتهم كتباً علمية شتى في الطبيعيات والرياضيَّات والهيئة والكيميا والطبّ توقَّفوا عنها لمَّا عدلوا الى تعليمها باللغة الانكليزيّة

وممَّا عُنيت بهِ خصوصاً مطبعتنا الكاثوليكية نشر الكتب الادبية منها قديمة ومنها حديثة كمجاني الادب وعلم الادب ومنتخبات الاغاني ومقامات بديع الزمان ورسائلهِ ونظم امثال الميداني للشيخ ابرهيم الاحدب . ومنها دواوين كالاخطل والخنساء وابي العتاهية والسموْال وحماسة البحتري ونقائض جرير والاخطل والمفضَّليات ورياض الادب وشعراء النصرانيَّة وديواني المطران فرحات والخوري نيقولا الصائغ وكثير منها لغويّة كالمعجمين اقرب الموارد والمنجد وكنوادر ابي زيد والالفاظ الكتابيّة وفقه اللغة والكنز اللغوي وتهذيب الالفاظ لابن السكّيت والبلغة في شذور اللغة . وبعضها تاريخيّة كتاريخ مختصر الدول لابن العبري وتاريخ الوزراء للصابي وتاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ ولاة مصر وقضاتها للكندي وتاريخ ابن بطريق وتاريخ المنبجي وتاريخ ابن الراهب وتاريخ بيروت وتاريخ حلب وتاريخ لبنان وكالنصرانيَّة وآدابها في عهد الجاهليَّة والآداب العربيَّة في القرن التاسع عشر . ومنها

لدرس اللغات الشرقيَّة والغربيَّة كاللاتينيَّة والافرنسيَّة والسريانيَّة والارمنيَّة والقبطيَّة والحبشيَّة

أضف اليها ما طُبع في غير مطبعتنا من الكتب الادبية واللغويَّة والتاريخيَّة كمحيط المحيط وقطر المحيط ودواوين البحتري وابي تمَّام والمتنبي مع شرحه العرف الطيّب وسِيَر الملوك للاربلي ومقدّمة ابن خلدون واخبار الاعيان في جبل لبنان. وقطف الزهور في تاريخ الدهور وتاريخ اليونان وتاريخ مكدونيا والتاريخ القديم وتاريخ الصحافة العربية وملوك العرب وشرح ادب الكتّاب للبطليوسي والريحانيات ورسائل المعرّي وتاريخ سوريَّة للمطران يوسف الدبس. ومنها كتب فلسفيّة كالفوز الاصغر لابن مسكويه وتفصيل النشأتين للراغب الاصفهاني والفلسفة النظريَّة للكردينال مرسيه وميزان الحق واصل الانسان والكائنات الخ

فهذه ومطبوعات اخرى غيرها شاهدٌ باهر على ما كان لبيروت من الحصَّة الوافرة في تعزيز الآداب العربية

والى بيروت ايضاً يعود الفضل في انشاء المكاتب وغُرَف القراءة والنوادي العلميَّة والمتاحف واقامة الحفلات الادبية وتمثيل الروايات تشاركت فيها الارساليَّات الاجنبيَّة والجمعيَّات الوطنيَّة حتى اصبحت بيروت في اعين القاصي والداني كمركز النهضة الادبية في العالم العربي لولا ما اصابها من الانحطاط في ايَّام الحرب الكونية وهي ساعية اليوم في استرجاع مقامها السابق

وفي ختام هذا الباب يسرُّنا ان نذكر انشاء اوَّل مكتبة عموميَّة في بيروت. كان الساعي الى تحقيق هذا الامر الخطير جناب الفيكنت فيليب دي طرازي بعد الحرب الكونيَّة بمساعدة رجال الانتداب الفرنساوي لاسيما الجنرالَين الكبيرين غورو وفيغان. وقد تكلَّف جناب منشئ العمل عناء ومشاقّ كبيرة ليخرج فكرهُ الى حيز الوجود وتجشَّم الاسفار الى فرنسة فاستوهب كثيراً من مصنَّفات علمائها فزان بها هذا المعهد الجديد وقد اصبح البيروتيّون مَدينين لعنايتهِ في هذا المشروع الجزيل الفائدة

على انَّ بيروت لم تخلُ بعد السنة ١٨٦٠ من مكاتب اخرى خصوصية كان العلماء يمكنهم استرخاص اصحابها لمطالعة كنوزها الادبيّة نريد خصوصاً مكتبة الكليتين الاميركيَّة واليسوعيَّة فالاميركيَّة احتوت نحو ٢٠،٠٠٠ مجلَّد كان يغلب عليها الكتب

ثمانية امتار الى ١٢ مترًا في وسطهِ ومن ٣ الى ٥ امتار قريباً من الرصيف . فيمكن كبار السفن ان تدخل وسطهُ لكنها لا تستطيع ان تفرغ السلع توًا على الرصيف . وبقيت الشركة عدَّة سنين لا تربح من واردات المرفأ ما كانت تؤملهُ لارتفاع التعرفة المفروضة على المراكب الراسية فيهِ . ثمَّ تحسَّنت امورها وزاد اقبال الشركات التجارية على الرسوِ في المرفإ . وبعد ان خمدت حركتهُ في ايَّام الحرب عاد اليوم الى نهضة جديدة حتى مسَّت الحاجة الى توسيعهِ والشركة حاضراً تهتمُّ بذلك ولا يلبث المرفأ ان يجاري اكبر مرافئ البحر المتوسّط . ولهُ في رأس بيروت منارة جميلة بناها سنة ١٨٦٢ مهندسون فرنسويُّون .

﴿ جرُّ مياه نهر الكلب ﴾ كانت بيروت تستقي مياهها من آبارها الواسعة التي اليها يُنسب اسمها ولا تزال آثارها باقية حتى عهدنا . إلَّا انَّ تلك الآبار مع وفرتها لم تكن لتكفي لحاجات المدينة من شرب ونظافة وسقي جنائن ورشّ طرقات . ثمَّ انَّ تلك الآبار المجموعة من الامطار كانت تجري اليها مياه ملوَّثة بالجراثيم الفاسدة التي كانت تنشر بين اهلها من وقت الى آخر الاوبئة الجارفة من حُمّيات تيفونيدية وهيضة وهواء اصفر وطاعون

وكان اوَّل من فكَّر في تموين بيروت بالمياه المهندس الفرنسوي المسيو تڤنين (M. Thévenin) فألَّف لذلك شركة بدأت باستحضار لوازم العمل سنة ١٨٧٥ وبناء حواجز وأقنية عند نهر الكلب على ١٣ كيلو مترًا من بيروت وادوات لتصفية المياه ودفعها الى خزَّان على مقربة من كنيسة مار متري . وفي السنة ١٨٧٦ خلفتها شركة انكليزية لمواصلة هذا العمل واستثمارهِ بعد ان باعهُ منها المسيو تڤنين . فتولَّى الانكليزي مرتندال (M. Martindale) تدبيرها برأس مال بلغ ٣،٦٢٨،٨٠٠ فرنك . واخذت توزّع المياه على بيروت سنة ١٨٨٤ . فكانت هذه النعمة من اكبر نعم الله على المدينة واهلها فكفَّ عنهم معظم الاوبئة الفاشية . وما مرَّ على الشركة خمس عشرة سنة حتى بلغ ربحها السنوي الخالص ٢٥٠،٠٠٠ فرنك . ثمَّ زاد على ذلك فجدَّدت رخصتها عند نهاية معاهدتها . وبعد الحرب اقامت خزَّاناً جديدًا فوق الاشرفيَّة بحيث تستطيع رفع المياه الى اعلى بيوت بيروت وجهاتها

﴿ الغاز والكهرباء ﴾ وممَّا زاد في محاسن بيروت انشاء شركة الغاز التي نفت

نوعاً من ظلمات بيروت ثمَّ عقبتها شركة الكهرباء التي جعلت لبيروت حظاً جديداً من الحضارة العصريَّة

﴿التجارة﴾ انَّ رقيَّ البلاد الماديّ يُعرف خصوصاً بتجارتها ومن هذا القبيل قد بلغت بيروت مبلغاً لا تجاريها فيهِ غيرها من مدن الشام منذ السنة ١٨٦٠ . فانَّ السفن الاجنبيَّة كانت تنقل اليها كلَّ محصولات الدول الاوربية ومصنوعات اهلها من كل صنف من اصناف الاعمال والمخترعات الحديثة في ضروب الفنون . وكانت هي من جهتها تُرسل الى انحاء البلاد كلَّ صادرات بلاد الشرق التي كان تجّار الداخليَّة يرسلونها الى بيروت فتُنقَل منها الى البلاد الغربيَّة . وقد سبق انَّ تجارة بيروت كانت في القسم الاوَّل من القرن التاسع عشر راجت رواجاً كبيراً فبلغت الواردات اليها نحو ٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠ من الفرنكات والصادرات منها نحو ١٦٬٠٠٠٬٠٠٠ فما بُني مرفأها ونجزت سكّتها الحديديَّة حتى بلغت بعد حين ضعف هذه الكميَّة

وقد ساعد على هذا النجاح انشاء المصارف (البنوكة) في مقدّمتها البنك العثماني وبنوك اخرى منها اجنبيَّة ومنها وطنيَّة كانت تُسلف المال للتجار بفائدة معلومة فتمكّنهم من توسيع نطاق اشغالهم . ثمَّ اخذت عدَّة بيوت تجاريَّة وطنيَّة تتوسَّط لاستحضار السلع الاوربيَّة بصفة كوميسيونجيَّة

وكذلك حصلت معاملات مع بيوت تجاريَّة في حواضر الدول الاوربيَّة كانت تُبادل محصولات بلادها من محصولات الشرق

وبعد ان خمدت الحركة التجاريَّة في ايَّام الحرب تحسّنت نوعاً بعد وَضعها أوزارها . وقد استفادت بيروت خصوصاً من المعرض الذي أُقيم فيها سنة ١٩٢١ حيث ظهرت للعيان اصناف محصولات الوطن مع محصولات البلاد التي تعامل سوريَّة . ولولا الازمة الاقتصاديَّة التي تشمل حاضراً انحاء المعمور وهبوط سعر الفرنك والفتنة الدرزيَّة لكانت بيروت في اوج الحضارة والدليل عليهِ ان الاحصاء الرسمي في السنة السابقة للحرب ذكر ان الواردات التجاريَّة لسوريَّة بلغت ١٢٥٬٠٠٠٬٠٠٠ فرنك والصادرات ٦٠٬٠٠٠٬٠٠٠ امّا في السنة ١٩٢٠ بعد الحرب فازدادت الواردات الى ٤٧٩٬٠٠٠٬٠٠٠ ف والصادرات ٨٠٬٠٠٠٬٠٠٠ ولنا على ذلك شاهدٌ في حركة مرفإ بيروت الدالَّة على نجاح متواصل وارباح وافرة حتى في السنة الحاضرة ١٩٢٦

﴿ الصناعة والزراعة ﴾ استفادت الصناعة في بيروت بما اتاها في هذه السنين الاخيرة من الادوات الاوربية ومن محصولات البلاد. فأنشئت فيها وفي جوارها معامل الحرير التي اخذت تسير في تحليل الحرير على اسلوب الفرنج

ومثلها الحياكة والتطريز للمنسوجات قد كان للطرائق الاوربيَّة تأثير محسوس في صناعة هذه الانسجة لاسيما بواسطة راهبات المحبة اللواتي انشأن معملهنَّ سنة١٨٦٢فبلغن من استحضار نحو ٥٠٠ متر من الانسجة الحريريَّة البسيطة او الملوَّنة

وكذلك اشغال الخروجة والدانتلّات اتَّسعت في بيروت حتى بلغ ما أُرسل منها الى اميركة قبل الحرب ما يساوي ٢٠٠،٠٠٠ ليرة

وأُنشئت ايضاً معامل لاثاث البيوت واجهزتها الفاخرة اخصُّها في بيروت محلّ الخواجا ترزي ومعمل الخواجا الياس السيوفي الذي استحضر لذلك الادوات المخترعة في اوربَّة واميركة

ودخلت بيروت معامل أُخرى مستحدثة على الاساليب الاوربيَّة كالطاحن البخارية وكعامل الجليد الاصطناعي ومعامل لفائف التبغ والمعامل الفخَّارية وتجدَّدت كذلك السكافة والحدادة والنحاسة وتوفَّرت فيها الدرّاجات والسيَّارات والاوتومبيلات

وكذلك اشتغل اصحاب البناء في بيروت بكل لوازم هذا الفنّ من انشاء مقالع واستحضار ضروب الحجارة الوطنيَّة والاجنبيَّة وصقل الرخام ونقشهِ وصنع الكلس والقرميد. ولنا عدَّة آثار بنائيَّة تشهد لاهلها بحسن الذوق وصواب النظر لتطبيقها على المظاهر الجوّيَّة من حرارة وبرودة ومهبّ الرياح ومناظر بهجة بينها قصور فخمة ودور امراء وبنايات شرقيَّة الهندسة كساعة بيروت واسواقها الحديثة

وما قولنا عن المطابع فانَّها بعد السنة ١٨٦٠ تعدَّدت فاناف عددها على الثلثين كانت في مقدَّمتها مطبعتنا الكاثوليكيَّة والمطبعة الاميركانيَّة مع ما أُلحق بهما من المطابع الحجريَّة والادوات لاستحضار الابهات والأمَّهات ولسبك الاحرف. وذلك ما جعل لبيروت شهرة واسعة في البلاد بحسن مطبوعاتها وبجمال حروفها

وكلّ يعرف اتّساع فنّ التصوير الذي قبل السنة الستين لم يكد يُعرَف لهُ اثر في بيروت واليوم اصبح شائعاً حتى انَّ بعض المجلّات تصدر اليوم فيها مصوَّرةً باتقان وربَّما عُرضت هذه الصور في معاهد السينما

على انَّ كل هـذه الصنائع مع ترقيها لا تزال في احتياج الى مزيـد التحسين لتجاري المصنوعات الاوربيَّة

امَّا ﴿ الزراعة ﴾ فانَّ نصيبها دون نصيب الصنـاعة في الترقي وان لم تُحرَم منهُ تماماً . فانَّ حدائق بيروت واراضيها المزدرعة قد زادت خصباً بما استمدَّتهُ من مياه نهر الكلب للسقي . وكذلك مياه اخرى تجري الى المزروعات من نهر بيروت وبعض العيون المجاورة للبلدة . وهذا ما وفَّر البقول والحبوب في اسواق المدينة

وقد نمت خصوصاً في بيروت وارباضها انواع الاشجار المثمرة فترى وسطها وحولها اصناف الاشجار المثمرة منها الاثمار الوطنيَّـة كالليمون والتفَّاح والاجَّاص والمشمش والدراقن والتين والخرنوب . ومنها اجنبيَّة تأهلت منذ بضع سنوات في تربة بيروت بعد ان انتقلت اليها من البلاد الغربيَّة او من اميركة كالموز والمـاندارين (يوسف افندي) والقشطة والتوت الفرنجي (fraises) والاكي دنيا (nèfles)

ومن اشجار بيروت التي تزين سواحلها شجر الزيتون الـذي يمتدُّ جنوبيهـا الى بضعة اميال و يُستخرَج منهُ زيتها الفاخر . وكذلك الكروم التي تظلّل تلالها ومن عصير ثمارها الخمر البيروتيَّة التي اشتهرت منذ عهد الرومان

وعلى رأسها تتمايل اشجار النَّخل بسَعَفها المرموز بهِ الى الظفر . وفي جيرتها غابات الصنوبر التي تغنَّى بها قدماء الشعراء

فمن تعدُّد اصناف هذه الاشجار يلوح غنى تربة بيروت . لولا انَّ المزارعين لثبوتهم على اساليب الحراثة القديمة لا يحصلون على ما ينالهُ ارباب الزراعة في اوربَّة بمراعاتهم للاصول الفنيَّة التي وقفوا عليها بالتجربة ودرس احوال التربة واصلاحها

هذا مُجمل ما يقال عن بيروت الاقتصاديَّة . ولا شكَّ بانَّ عاصمـة لبنـان مع الامان وانتظام الاحوال وهمَّة ارباب الاعمـال جديرة بان تُصبح من اغنى بلاد الله وتجاري اكبر المُدن بخصبها ورفاهها زادها تعالى رقياً وغنًى وهو السميع المجيب

(تمَّ)

ملحق

بكتاب

بيروت تاريخها وآثارها

قد وقفنا في اثناء نشرنا لهذا الكتاب على معلومات شتى تفيد معرفتها تاريخ بيروت فلم نشأ ان تُفقد هذه الشذرات فجمعناها في هذه النبذة كلحق لما سبق من الفصول . والدلالة في هذا الملحق على القسمين السابقين

الصفحة ٤ السطر ١٠ (نظر عامّ في تواريخ بيروت) يحسن بنا ايضاً ان نذكر بعض تآليف مختصرة ابرزها المحدثون في لغات شتى عن بيروت واخبارها اقدمها مقالة مستملحة وضعها باللاتينيَّة الالماني حنا ستروخ لينال بها في وطنهِ رتبة الدكتوريَّة سنة ١٦٦٢ عنوانها « J. Strauch : Berytus » فضمَّنها عدَّة معلومات لاسيما عن بيروت الرومانيَّة

ثم نشر داود افندي كنعان في مجلَّة الجنان البيروتيَّة سنة ١٨٧١ تاريخاً مختصراً لبيروت دعاهُ « جواهر ياقوت في تاريخ بيروت »

وفي السنة ١٩١١ ـــ ١٩١٢ نشر حضرة استاذ الكلية الاميركانيَّة هرقي پركر مقالات انكليزيَّة في تاريخ بيروت طبعها على انفراد في كتاب صغير (H. Parker: History of Beirut)
Porter

وفي العام الماضي ١٩٢٥ نشر جناب الاستاذ المحامي جورج افندي يزبك محاضرة كان القاها في مربع تباريس عنوانها « بيروت في التاريخ » استعان فيها بتآليفنا السابقة

الصفحة ١١ السطر ٩ـــ١٠ (مغارة انطلياس) نشر جنـاب الاستاذ داي نتيجة حفريّات قامت بها الجامعـة الاميريـكيَّة مؤخرًا في وادي انطلياس قريباً من مغارتها فبلغت الى عمق ١٥ مـترًا وعثرت على ضروب من الظرّان ومن عظام الحيوان التي اصطـادها القدماء. كما كان بيَّن ذلك سابقاً العلّامة ترستام وحضرة الاب زُموفن (لا ذومفّن كما تصحَّف اسمهُ في الكليَّة ص ٤٩٦). فليراجع ايضاً الفصل الذي كتبهُ العلّامة دي مورغان في مجلّة سيريا De Morgan: L'Industrie Néolithique dans le Proche Orient, *Syria*, IV, 36-37

ص ١١ س ١٧ (انتهز)... النهزة

ـــ ص ٣٧٣ س ١٨ (استشهاد القديس جرجس) كتبنا في ذلك مقالة واسعـة بنسبة المئة السادسة عشرة لاستشهاده (في المشرق ٦ [١٩٠٣]: ٣٨٥ و ١٠ [١٩٠٧]: ٤١٤)

وممّا فاتنا ذكرهُ التقليدُ القائل باستشهاد القديسة بربارة في مدينة بيروت . واليهِ يشير صالح بن يحيى في تاريخهِ (ص ١٧) : « ويزعم النصارى انَّ البربارة كانت قديسةً ولها نشبٌ كبير ببيروت وعيد البربارة منسوب اليها » . راجع فصلنا عن عيد القديسة بربارة في سوريّة (المشرق ١ [١٨٩٨] : ١١٣١ـــ١١٣٩) . وكان للقديسة بربارة كنيسة شهيرة في بيروت بقيت مكرَّمة الى القرن الخامس عشر فاغتصبها المسلمون من النصارى وحوَّلوها جامعاً كما ورد في تاريخ الاب فرنسيس سوريانو الراهب الفرنسيسي Fr. Suriano: Il Trattato di Terra Santa, 154, 162 وهو يروي (ص ١٧٨) انَّ قبرها يكرم في احدى كنائس مريم العذراء في القاهرة (كذا)

ص ٢٧ س ١٠ (مدرسة الفقـه الرومـاني في بيروت) خصصنا لذكر هـذه المدرسة فصلاً آخر في المشرق (٢٣ [١٩٢٥] : ٧٢١ـــ٧٣٣) وفيه نظر تاريخي انتقادي على تاريخ جديد لمدرسة بيروت الفقهيَّة الرومانيَّة نشرهُ احد كبار اساتذة الفقه المسيو پول كولينه تحت هـذا العنوان Paul Collinet: Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth وفيهِ معلومات واسعة عن بيروت وعلومها الفقهيّـة ومشاهير اساتذتها وطلبتها . وممّن ذكرهم زكريّا الخطيبُ في اواخر القرن الخـامس قزمـا

الكاهن خادم كنيسة الرسول يهوذا في بيروت. ومرتيريوس احد قرّاء كنيسة بيروت وبعض اعيان المدينة كيوحنّا بن قسطنطين وبوليكربوس .. ووصف بالغيرة يوحنّا اسقف بيروت في زمانه

الصفحة ٤١ السطر ٢٠ (حريق بيروت سنة ٥٦٠ م) قد ظهرت آثار هذا الحريق لمّا بوشر بالحفريّات في زمن الحرب الكونيّة بأمر الوالي عزمي بك قريباً من جامع يحيي في غربيّه فانكشفت بقايا كنيسة قديمة من عهد البوزنطيين كان سواد الحريق ظاهراً على حجارتها

ص ٤٨ س ١٠ (في عهد الدولة الاخشيديّة غزا الروم بلاد الشام. . .) قرأنا في احد مخطوطات مكتبتنا الشرقية ما حرفهُ :

«في جمادى الاولى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٥م) سار المملوك ناصر احد خدّام المعزّ لدين الله لمحاربة الروم فدخل بيروت ثمّ حارب الروم قريباً من طرابلس في شعبان فغلبهم الّا انَّ ملكهم ابن السهسكى (Zimiscès) عاد مع جيش من الروم وانتصر على المملوك ناصر واسرهُ فطلب منهُ الفتكين صاحب الشام اماناً للبلد فتهادنا. . . ثمّ جاء بعدهُ المملوك ريّان الى الشام وانتصر على الروم»

ص ٥٢ س ١٣ (الصليبيُّون في بيروت) في زمن ولاية الصليبيين الاولى على الشام ألّف الشريف الادريسي كتابهُ نزهة المشتاق فذكر موقع بيروت «على ضفّة البحر وسورها المبني بالحجارة الكبيرة والجبل الواقع بقربة منها الذي يُستخرج منهُ الحديد الجيّد الكثير فيُحمل الى بلاد الشام» . وكذلك ذكر غيضتها من اشجار الصنوبر على جنوبيّ المدينة فقال ان «تكسيرها اثنا عشر ميلًا في مثلها»

ص ٥٣ س ٤ (الاسطول المصري في بيروت سنة ٥٤٦هـ) . قال ابن الُميسِّر في اخبار مصر (éd. Massé, p. ٩٦) : «في تاريخ سنة ٥٥٢ (١١٥٧ م) ندب الملكُ الصالح (طلائعُ ابن رزيك) مراكبَ في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فاوقعت بمراكب الفرنج فاسرت منهم وغنمت» . وفي هذه السنة عينها حدثت زلازل قويّة في الشام كما روى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة فخربت بسببها مدن كثيرة من جملتها بيروت

ص ٥٣ س ٢٣ (تسلّم صلاح الدين المدينة) فتح صلاح الدين مدينة بيروت

في آب من السنة ١١٨٧م بالامــان . وقد مرَّ بها في السنة التــالية ١١٨٨ السائح الرومي يوحنّا فوكاس (Jean Phocas) فكتب في رحلتهِ عن بيروت ما تعريبهُ بعد سيره اليها من جبيل (١

« فلاحت لنا بعد ذلك بيروت المدينة الكبيرة وهي حافلة بالسكّان تحيط بها البساتين ولها مرفأ شهير بحسنهِ . ليس هو من تكوين الطبيعة بل من عمل الصناعة وهو داخل في وسط المدينة على شبه الهلال . فترى برجين كبيرين قد شُيّدا على طرفيهِ يمتــدّ بينهما سلسلة ضخمــة تصون من الغزاة المراكب التي في داخل الدائرة . وبيروت تُعدّ كحدّ لفينيقية ولسوريّة»

الصفحة ٥٦ السطر ٩ (تحصين الصليبيين لبيروت) يؤخــذ من كتبة الفرنج في ذلك العهد انَّ طول بيروت كان يبلغ نحو ٨٥٠ مترًا وعرضها ٦٠٠ متر (REY: Colonies franques en Syrie)

ص ٦٠ س ٢٤ (مونغري دي مونفور) والصواب همفري (Humfrey)

ص ٦١ س ١ (ارنلد) ويروى ايضاً على صورة رينلد او رينو (Renaud)

ص ٦١ س ١٠ (بيروت في عهــد مماليك مصر) ورد ذكر بيروت في عهــد مماليك مصر في تقويم البلدان لابي الفداء (ص ٢٤٧)فذكر لها برجين وبساتين ونهرًا ووصفها بالخصب ونقل عن ابن سعيد كونها « مدينة جليلة ولها ميناء جليل» وروى انَّ شرب اهلها من قناة تجرّ اليها الماء

وذكرها بعدهُ في القرن الخامس عشر خليل بن شاهين الظاهري في كتابهِ زبدة كشف الممالك وروى انها من معاملة دمشق يحكم عليها امير طبلخاناة ويقول انَّ لها اقليماً بهِ عدّة قرى

ص ٦٢ س ٢١ (البحث السابع) يُحذف هذا البحث الــذي وُضع هنا غلطاً . ومكانهُ كما ترى في الصفحة ٦٧

ص ٧٥ س ٩(صالح ناصر الدين)والصواب ابن ناصر الدين

ص ٧٦ س ٦ــ٧ (الغزّالي) اسمهُ جانبردي الغزّالي كان من امراء المماليك في

---

١) نُشرت هذه الرحلة باللاتينيّة في المجلد الثاني لشهر ايّار من اعمال القديسين للبولنديين (Acta Sanctorum, vol. II Maii, p. III)

مصر جعلهُ طومان باي ملك مصر قائداً على جيشهِ لمحاربة سلطان الاتراك سليم الاوَّل فكانت الدولة على المصريين سنة ١٥١٦ في خان يونس قريباً من غزَّة . ثم انقلب الغزَّالي على ملكهِ وعدل بالخيانة الى السلطان سليم فولَّاه على دمشق سنة ١٥١٧

الصفحة ٧٧ س ١٨ (طاعون السنتين ٨٩٧ و ٨٩٨ هـ) . قد ذكر الدويهي في تاريخ الازمنة طاعوناً آخر عظيماً حدث في بيروت سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) فتك فيها بخلق كثير . ثم ذكر في تاريخ سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٢م) سيلًا جارفاً حدث في دمشق وفي سواحل الشام فهدم جسر نهر الكلب واحدث هيجاناً عظيماً في البحر حتى تجاوز ميناء بيروت

ص ٧٩ س ١٦ (بيروت تحت حكم فخر الدين) استولى عليها فخر الدين سنة ١٥٩٨م بعد انتصارهِ على يوسف باشا سيفا في واقعة نهر الكلب وبسط سلطتهُ على الشوف وكسروان

ص ٨٣ س ٢٤ (الاب فرنسيس سوريانو) نشر الاب غولوبوفتش كمقدَّمة لكتابهِ المعنون Il Trattato di Terra Santa, p. XXIV-LXII ترجمة حياتهِ المطوَّلة . راجع ما كتبناهُ عن قصادتهِ الرسوليّة في سوريَّة (المشرق ١٢[١٩٠٩]: ٧) . كان اوَّل وصولهِ الى بيروت سنة ١٤٨٠ مع احد عشر راهباً من رهبانيَّتهِ

ص ٨٨ س ١١ (ظاهر العمر) يراجع في المشرق (٢٤ [١٩٢٦] : ٥٣٩ـــ٥٦٠) تاريخ الشيخ ظاهر العُمَر الزيداني الذي نشرهُ جناب الكاتب البارع الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف وفيهِ معلومات وافية عنهُ

ص ٨٩ س ٦ (احمد باشا الجزَّار) اثبتنا لـهُ في المشرق (٢٤ [١٩٢٦] : ٣٣١) صورة بيورلدي وجَّهه سنة ١٧٩١ الى المشايخ الدروز ورعاياهم سكان الشوف والمتن وكسروان يتوعَّدهم بأشدّ العقاب ان لم يكفُّوا عن محاربة الدولة التركية

ص ٩٢ س ١٩ (النصرانيَّة في بيروت في القرن الثامن عشر) اخذ عدد النصارى يزيد في بيروت خصوصاً في عهد ترقية المشايخ من آل الخازن الى قنصليَّة بيروت . وقد جاء ذكر بعض اسرهم في التاريخ كبيت الدهَّان وابي عسكر الروم وكمشايخ حبيش وبيت التيَّان وبيت ثابت وكميد وفاضل وادّه الموارنة . وقد مرَّ لنا في المشرق

(٢ [١٨٩٩]: ٦٩٤ـــ٦٩٥) ذكر الشيخ منصور اده وسَعيهُ في بناء كنيسة القديس جرجس القديمة لطائفته المارونيَّة

الصفحة ١٠٤ س ٢٤ (اوَّل والٍ على بيروت علي باشا) لم تطل مدَّة ولاية علي باشا فتوفي بعد سنةِ ١٨٨٩ فخلفهُ عزيز باشا (١٨٩٠) ثمَّ خالد بك (١٨٩٢) ثمَّ نصوحي بك (١٨٩٤) ثمَّ رشيد بك (١٨٩٧) ثم خليل باشا (١٩٠٤) ثمَّ ناظم باشا (١٩٠٨) ثمَّ حازم (١٩١١) ثمَّ ادهم بك (١٩١٢) ثم بكر سامي بك (١٩١٣) ثم عزمي بك (١٩١٥) واخرهم اسماعيل حقي بك (١٩١٧) خرج من بيروت هارباً مع عمَّال الترك لانتصار الدول المتحالفة على المانية ومحالفتها تركية

ص ١٠٦ س ١١ (اوائل تشرين الاوَّل) كان ذلك سنة ١٩١٨ بعد هزيمة الاتراك اذ حاول الامير فيصل ان يبسط حكمهُ على بيروت وسوريَّة واقام رجالًا من حزبهِ حكموا بضعة اسابيع باسمه

ص ١١٢ س ١٧ (الكلية اليسوعيَّة) راجع المقالة التي خصصناها لهذه الكلية واحوالها ولتاريخ سائر فروعها الطبية والفقهية والهندسية بنسبة يوبيلها الذهبي في المشرق (٢٣[١٩٢٥]: ٣٢٨ـــ٣٥٥)

ص ١١١ س ١٧ (بيروت الادبية) نضيف الى ما كتبناه هناك ذكر المساعي الطيِّبة التي بادرت اليها الدولة الفرنسويَّة الكريمة بعد ان فُوّض اليها الانتداب على سوريَّة فباشرت بها بعد الحرب الكونيَّة لتنشيط الآداب في انحاء البلاد ولاسيما في بيروت لتبقى لها الرئاسة التي حصلت عليها سابقاً من هذا القبيل. ولم تدَّخر في ذلك وسعاً بمنحها حريَّة الطباعة وبإنفاقها الملايين من الفرنكات على المدارس وبتنشيطها للعلوم وارباجا. وكفى بيروت فخراً انها جُعلت في هذه السنة ١٩٢٦ مركزاً لمؤتمر اثريّ تشرَّفت بسببهِ بحلول اساطين العلم من دول اوربَّة في ربوعها. فزادت بذلك سمعتُها بين الامم الراقية

تمَّ بحولهِ تعالى

بيروت: تاريخها وآثارها

فهرس اول لفصول الكتاب وابحاثه

نوطئة ٣

مقدّمة: نظر عام في تواريخ بيروت ٤

القسم الأول

اخبار بيروت وآثارها في القدم الى ظهور الاسلام

البحث الاوّل في موقع بيروت ٦

البحث الثاني في جيولوجيّة بيروت ٧

البحث الثالث في اسم بيروت ٨

البحث الرابع قِدَم بيروت ٩

البحث الخامس مبادئ تاريخ بيروت ١٤

البحث السادس: بيروت في عهد الاشوريين الى عهد اليونان ١٥

البحث السابع بيروت في عهد السلوقيين ١٧

البحث الثامن رقيّ بيروت في عهد الرومان ٢٠

البحث التاسع ديانة اهل بيروت القديمة ٢٣

البحث العاشر مدرسة الفقه الروماني في بيروت ٢٧

البحث الحادي عشر تجارة بيروت وصناعتها في ايام الرومان ٣٠

البحث الثاني عشر مشاهير بيروت قبل العرب ٣٦

البحث الثالث عشر خمول بيروت بنكبات الزلازل ٤٠

خاتمة القسم الاوّل ٤٢

القسم الثاني

اخبار بيروت منذ ظهور الاسلام الى يومنا

البحث الاوّل بيروت في عهد العرب ٤٣
البحث الثاني بيروت في اول عهد الصليبيين ثمّ انتزاعها من يدهم ٤٩
البحث الثالث رجوع الصليبيين الى ملك بيروت ٥٤
البحث الرابع بيروت وامراؤها الفرنج من أسرة ديبلين(١١٩٨ــ١٢٩١) ٥٥
البحث الخامس آثار الفرنج الصليبيين في بيروت ٥٨
البحث السادس تاريخ بيروت في عهد مماليك مصر (١٢٩١ــ١٥١٥) ٦١
البحث السابع أسرة بني الغرب البحتريين في عهد الصليبيين ٦٧
البحث الثامن امراء الغرب في بيروت (١٢٩١ــ١٥١٥) ٧١
البحث التاسع بيروت في عهد الدولة العثمانية الى واقعة عين دارا (١٥١٧ــ١٧١١) ٧٥
البحث العاشر النصرانيّة في بيروت بعد الفتح العثماني (١٥١٦ــ١٧١١) ٨١
البحث الحادي عشر: بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزّار (١٧١١ــ١٨٠٦) ٨٧
البحث الثاني عشر بيروت في القسم الاوّل من القرن التاسع عشر (١٨٠٤ــ١٨٦٠ ٩٤
الاحوال الدينية في هذه الحقبة ٩٧
الرهبانيّات اللاتينيّة في بيروت ٩٨
الآداب في بيروت ٩٩
البحث الثالث عشر بيروت في القسم الاخير من القرن التاسع عشر الى يومنا (١٨٦٠ــ١٩٢٦) ١٠٣
الباب الاوّل بيروت السياسيّة ١٠٣
الباب الثاني بيروت الدينية: رجال الدين والابنية الدينية والاعمال التقويّة ١٠٧
الباب الثالث: بيروت الادبية ١١١
الباب الرابع: بيروت الاقتصادية ١١٧
ملحق بكتاب بيروت تاريخها وآدابها: افادات وملحوظات ١٢٣

فهرس ثانٍ

لأعلام الرجال الوارد ذكرهم في الكتاب

* ا * ابن السكسكي ١٢٥
احمد كجك ٨٠
احمد بن حيدر الشهابي ٨٧-٨٨,٩٢
احمد بن محمَّد بن ابي يعقوب ٤٧-٤٨
احمد بن ملحم بن فخر الدين ٨٠-٨١
الاخشيديون وملكهم على بيروت ٤٨,١٢٥
ادّه (الشيخ منصور) ١٢٨
اداسيوس اخو افغيان الشهيد ٣٨
ادريان دي لابروس الكبرشي ٨٤-٨٥
الادريسي: وصفهُ لبيروت وتحديدها ٣٤, ١٢٥
ارسلان بن مالك اللخمي ٤٧
ارنلد او رينو او ارنو صاحب صيداء ٦١,٧٠
اسامة بن منقذ الامير ٥٤,٥٥
اسطراطون البيروتي الطبيب ٣٧
اسعد باشا العظم ٨٧
اسكندر السابع البابا ٨٦
اسكندر وارسطا بولس ابنا هيرودس ٢١
اسميل الامير الشهابي ٨٨
اسميل الامير اللمعي ٩٢
اسماعيل حقي بك ٤,١٢٨
اشيف اميرة بيروت ٥٧,٦٠
الاصطخري وصفهُ لبيروت ٤٦
اغابيوس رياشي اسقف بيروت الملكي ٩٨
اغناطيوس القديس بطريرك الروم ٤٩
اغناطيوس تشالر البيروتي ٣٦
افرنسيسك (القديس فرنسيس) ٧٣
افلاطون ٣٧
ألوف (ميخائيل افندي) ٢٤
امفيان الشهيد من طلبة بيروت ٣٨
اموري ملك القدس ٥٥
الاموريون وغزواتهم ١١,١٥
امونيرا امير بيروت الفينيقي ١٥
اميان مرشلّان المؤرخ ٣١
اندراوس القديس الكريطشي ٤٩
اناطوليوس (يوحنا) ٢٨,٣٦
اناطوليوس بندانوس البيروتي ٣٧
انستاس الامبراطور ٣٩
انطونين الشهيد الرحالة ٤٢
اودكسيوس الفقيه البيروتي ٢٨,٢٩,٣٨
الاوزاعي عبد الرحمان ٤٥
اوسابيوس القيصري ١٩,٢٩,٣٦
اوغسطوس قيصر ونعمهُ الى بيروت ٩,٢٠,٢١,٢٧
اوليبان الصوري الفقيه ٢٨
ايزابلّا ملكة اورشليم ٥٥
ايزابلّا اميرة بيروت ٥٧
ايل او عليون ملك جبيل
* ب * بابنيان استاذ الفقه في بيروت ٢٨
باخوس معبود الفينيقيين ٢٩,٣٢
باز (او بار) الامير والي بيروت ٧٤
باسيليوس جلناف اسقف بيروت الملكي ٩٢-٩٣
الباشا: الاب قسطنطين ٨٥

باليان ديبلين ٥٦
باليان الثالث ٥٧
بحتر التنوخي الامير ٦٨
البربارة القديسة الشهيدة في بيروت ١٢٤
برتران دي صنجيل ٥١
البرجان الكبير والصغير البعلبكي في بيروت ٦٢,٦٥-٦٦
بُرخارد الدومنيكاني ٥٢
بريتنباخ السائح ٢٥
بشير الشهابي الاوّل ٨١,٨٨
بشير الثاني الكبير ابن قاسم ٩٠-٩٦
بطرس وبولس الرسولان في بيروت ٢٥
بغدوين او بودوين ملك القدس ٥٠-٥٩,٦١-٦١
بغدوين الثالث ٥٣
البلاذري ٤٤
بلينيوس الطبيعي ٢١
بمبيوس القائد الروماني فاتح الشام ٢٠
بنيامين اسقف الروم الاورثذكس ٩٨
بوصيدون اله البحر ١٠,١٦
بوهمند صاحب انطاكية ٥٤
بيافي (السيد لودوفيكو القاصد الرسولي) ٩٩
بيدمر الخوارازمي ٢٢,٦٣-٦٦
البيزان ٥٦,٦٣
* ت * تاودوطا الراهبة ٣٩
تاوفان المؤرخ ٤٠
تدّاوس الرسول ٢٥
ترايانوس قيصر ٣١
تريفون في بيروت ١٨
تقيّ الدين عمر الايوبي ٦٥
تغنين المهندس ١١٩
تقي الدين نجا ابن ابي الحبيش ٦١
تُموز معبود الفينيقيين ٢٤
تنكز (الامير سيف الدين) ٦٥-٦٦
توما اسقف بيروت ٤٩
تيموتاوس اسقف بيروت ٣٩
* ث * ثاودوسيوس الكبير ٣٠
ثاودوسيوس الصغير ٢٥
ثاودوسيوس دهّان اسقف بيروت الملكي ٩٢
ثاودوسيوس بدر السيد الحنّاوي ٩٧-٩٨
* ج * جان ديبلين ٦٥-٥٧
جان ديبلين الثاني ابنهُ ٥٧
جرجس (القديس الشهيد) ٢٧,٨٤,٨٦-٨٧,١٢٤
جرجس خيرالله اسطفان الفوسطاوي ٨٣
الجزّار (احمد باشا) ٨٩-٩٠,٩٢,١٢٧
جلابرت (الاب لوس) ٢٤
جمال باشا ٣,١٠٦
جنبلاط الشيخ علي ٨٧
جوبيتر اله بعلبك ٣٠
جوسلين صاحب تلّ باشر ٥١
جوهر القائد ٤٨
* ح * الحاكم بامر الله ٤٨,٦٨
حجى بن كرامة الامير جمال الدين ٦٠,٦٩,٧٠,٧١
حسين كاظم بك ٤
حُسين ابن الامير فخر الدين معن ٨٠
حسين ابن الامير يوسف الشهابي ٩٠
حصن بن فيّاض الخازن ٨٦
حُموربي ١١
الحوّيك (السيد البطريرك الياس) ١٠٦
حيدر الامير الشهابي ٨١,٨٧
حيدر ابن ملحم المتنصّر ٩٢
* خ * خالد بن الوليد ٤٤
خليل بن شاهين الظاهري ١٢٦
* د * داود كنعان ٩١
الدبس (المطران يوسف) ١٠٩,١١٢
الدحداح (الشيخ سلّوم) ٩٠
درويش باشا ٩٥
درويش بن عمر الارسلانيّ ٤٨

دمرداش المحمّدي ٦٥
دوران (الاب الفرد اليسوعيّ) ٣٥
دوروتاوس الفقيه البيروتي ٢٨،٣٦
دومنيل دوبويسون ٥٩
دومنينوس الفقيه البيروتي ٢٨،٣٦
الدويهي ٨٢،٨٦
ديلين وأسرتهم في بيروت ٥٥–٥٧،٥٩
ديوستان الفقيه البيروتي ٢٨،٣٦
دي پرتوي منشئ طريق الشام ١١٨
* ر * راع الاله المصري ١٥
رُبولا السيساطيّ ٣٩
رعمسيس الثاني واثرهُ في نهر الكلب ١٣،١٥
روپان صاحب صور ٥٧
روفيه (الدكتور جول) ١٧–١٦
رومانوس القديس المرتّل البيروتي ٤٩
ريب اديّ امير جبيل الفينيقيّ ١٤،١٥
رينو او ارنو صاحب صيدا ٦١،٧٠
* ز * زخريّا الخطيب ٢٥،٢٦،٣٠
زُموفن الاب اليسوعي ٧،١٠
الزُّهرة معبودة الفينيقيين ٢٤،٢٦
زوناراس المؤرخ ٤٠
سامي بكر بك والي بيروت ٣
زين الدين علي الامير ٧٠،٧١
زين الدين صالح ٧٥
زين الدين عمر بن عيسى ٧٥
* س * ساويرس الانطاكي في بيروت ٣٥،٣٠
سبتيميوس ساويرس ٣٧
سينكوف الاميرال الروسي ٨٨
سرَّاي الجنرال المفوَّض السامي على سورية ١٠٦
سعد الحوري الشيخ ٨٨
سعد الدين خضر بن كرامه ٧٠
سلبسترس دهـان اسقف بيروت الملكي ٨٣،
٩٣
سليمان القانوني السلطان ٧٦
سليم خان الاوّل السلطان ٦٦،٧٥،٧٦،١٢٧
سليم الثاني ٨٤
سليم الثالث ٩٤ ١
سليمان باشا والي صيداء ٩٥
سليمان باشا القائد المصري ٩٦
سليم باشا والي بيروت ٩٦
سليمان اللمعي الامير ٩١
سنجر الشجاعي ٥٧–٥٨
سنقر ٦٣
سنكن يتن البيروتي وتاريخهُ ٨،١٠،١٩،٣٦
سودون الظريف نائب الكرك ٦٥
سوريانو (الاب فرنسيس) ٨٣–٨٤،٨٤،١٢٤،١٢٦
سويتونيوس المؤرخ ٣٧
سيد احمد بن ملحم الشهابي ٨٨و٩٣
سيف الدين يحيى وآثاره ٧٤
سيف الدين ابن مفرج ٧٤
سيلاكس السائح اليوناني ١٦
السيوطيّ جلال الدين ٧٧
ش شاهين الشيخ التلحوقيّ ٥٣
الشدراوي (المطران اسحاق) ٨٥–٨٦
شلومبرجر ٥٩
الشمشقيق (يوحنا زعساس) غزوهُ للشام ٤٨
شهاب الدين المقدسي المؤرخ ٥٣
شيولي المهندس الايطالي ٧٩
* ص * صالح بن يحيي مؤلف تاريخ بيروت ٤،٢٦،٣٣،٣٣،٣٥،٤٤،٤٥،٥٧،٥٨،٦٠،٦١–٦٤،٦٧–٧٥
صرُّوف السيد اغناطيوس ٩٣
صلاح الدين يوسف السلطان ٥٣–٥٤،١٣٥
صموئيل الحريري البيروتي ٣١
* ط * الطبري المؤرخ (ابو جعفر) ٤٥،٦٧
طغتكين ظهير الدين ٥٠
طومان باي الملك ٧٦
طومسون السيدة الانكليزيّة ١١٣

طيطس قيصر في بيروت ٢٢
* ظ * ظاهر العمر ٨٨–٨٩،١٢٧
* ع * العباس بن الوليد البيروتي ٤٥
عبد السلام العماد بن يزبك ٨٧
عبدالله باشا ٩٥
عبدالله الامير الشهابي المتنصر ٩٢
عبدالله بن اسماعيل البيروتيّ ٤٥
عبيدة بن الجرَّاح ٤٤
عزمي بك والي بيروت ٢،١٠٦،١٢٨
عشترت وعبادتها في بيروت ١٢،١٨،٢٤،٢٦،٢٩
عطارد معبود الفينيقيين ٢٤
عَلَم الدين اليمني واسرتهُ ٧٧–٨١،٨٧
عليّ بك المصري ٨٨
علي باشا الدفتر دار ٨٧
علي بن حيدر الشهابي المتنصر ٩٢
عُمر ابن الامير ارسلان ٤٧
عمر بن الخطَّاب ٤٢–٤٤
عمَّانويل البعداني الراهب الانطوني ٩٢
عمَّانويل سلام المتيني ٩٢
عمُّون الاله المصري ١٥
العوراء (حنا افندي) ٩٥
عون (السيد طوبيا) ٩٧،١٠٨
* غ * غاريتَّا المهندس ١١٨
الغزَّالي جانبردي ٧٦،١٢٦
غراف الخوري جورج الالماني ٣٨
غريغوريوس المجانبي في بيروت ٢٧،٢٨،٢٩،٣٨
الغزَّالي نائب الشام ٧٦
غندلفي (السيد لويس) ٩٩
غندور سعد الخوري الشيخ ٩٢
غليلموس الصوري ٩،١٠،٢٣
غوتيه سيد بيروت ٦٩
غودفروا دي بوليون ملك القدس ٥٠
غورو الجنرال المفوَّض السامي على سوريَّة ١٠٦
غولوبوفتش الاب الفرنسيسي ٨٤
غويس (القنصل هنري) ٩٢،٩٤
* ف * فانشيولي (الاب زكريَّا الكبوشي) ٩٨
فاني المهندس الايطالي ٧٩
فتح مبارك الدولة والي بيروت ٤٨
فخر الدين ابن عثمان بن معن ٧٦،٧٨
فخر الدين الكبير ابن قرقماز ٧٩–٨٠ مبانيهِ في بيروت ٧٩ تنصُّرهُ ٨٥
فراجا ٦٢
فردريك الثاني ٥٦–٥٧
فرنسيس الاسيزي القديس ٧٢
فسبسيانوس قيصر في بيروت ٢٢
فُلْك دي غين والي بيروت ٥٢
فندي بن ملحم الشهابي ٨٨
فوطيوس البطريرك القسطنطينيّ ٤٩
فوكاس يوحنا ١٢٦
فيصل الامير في بيروت ١٠٦
فيلارديل (القاصد الرسولي) ٩٩
فيغان الجنرال المفوَّض السامي على سوريَّة ١٠٦
فيلبس ديبلين ٥٦
فيلبُّس فرح اسقف بيروت الملكي ٨٢
فيصل الامير ١٢٨
فيلون الجبيلي ٨،١٩،٢٦،٢٧
القاسم بن عمر الشهابيّ ٩٢
* ق * قاسم ابن الامير ملحم الشهابي المتنصّر ٩٢
قاسم بن هارون الرشيد ٤٧
قرالي (المطران عبدالله) اسقف بيروت ٩٢
قرقماز الامير ٧٩
قرقماز بن ملحم بن فخر الدين ٨٠
قزما غراندوقة فلورنسة ٨٧
قسطنطين الكبير ٣٠
قعدان الامير الشهابي ٩٠
قندلفت (السيد ثاوفيلس) ١٠٨

* ك * كراية بن يحيى زهر الدولة ٦٨
كرم (السيد بطرس مطران بيروت ١١١، ١٠٠
كلثوم السيدة ابنة نعمان الارسلاني ٤٨
كلوينوس واضاليلهُ ٨٣
الكُندري ٥٤
كوارتوس اسقف بيروت ٣٥،٣٩
كونراد دي مونفراً ٥٥،٥٦
كيرلُس الفقيه ٣٨
* ل * لامرتين الشاعر الفرنسوي ٣٣
لامنس (الاب هنري) ١٤،٢٠،٢٤،٣٤
لاونطيوس الفقيه البيروتي ٢٨،٣٠،٣٨
لوبركوس البيروتي الكاتب ٣٧
لؤلؤ ابو نصر صاحب حلب ٤٨
لونا (القاصد الرسولي) ٩٩
* م * ماجور التركي ٤٧
المتوكّل الخليفة العبّاسي ٤٧
مجد الدولة عليّ ابو جعفر ٦٧–٦٨
محمّد باشا الارناؤطي ٨٠–٨١
محمّد علي خديو مصر ٩٥
محمّد كوبرلي الصدر الاعظم ٨٠
محمّد بن عبد الرحمان الاوزاعي ٤٥
مخلّع (السيد اثناسيوس اسقف الروم) ٩٨
مراد الرابع السلطان ٨٠
مراد بك البارودي ?
مرتندال السيد الانكليزي ١١٩
مرتين الاب بطرس اليسوعي ٨
المردة ٤٧
مرقس وسبسيانوس اغريباً ٣١
مرقس انطوان ٣٧
مرقس فاليريوس بروبوس اللغوي البيروتي ٣٧
المركيز دي نوانتل ٨٦
المستعلي بالله الخليفة الفاطمي ٥٠
المستنصر بالله الخليفة الفاطميّ ٤٨–٤٩
المسيح مرورهُ في بيروت ٣٥
مطرونا القديسة ٦١
معاوية ابن سفيان ٤٤
معز الدين بالكشاف [illegible] ٥٠
معزّ الدين بن مرداس ٤٩
المعلوف (عيسى اسكندر) ٨٥
مكحول البيروتيّ ٤٥
ملحم بن حيدر الشهابيّ ٨٧
ملحم بن يونس المعنيّ ٨٠
مالالا المؤرخ ٤
الملك اسمعيل بن الملك الناصر ٧٣
〃 الاشرف شعبان ٦٣
〃 الاشرف صلاح الدين خليل ٥٧،٧١
〃 حاجي منصور ٧٤
〃 صالح بن رزيك ١٢٥
〃 صلاح الدين يوسف فاتح بيروت ٥٣،٥٤
〃 الظاهر ابو الحسن علي ٦٧
〃 الظاهر برقوق ٧٤
〃 الظاهر بيبرس ٦١،٧٠
〃 العادل سيف الدين ٥٥
〃 العزيز صاحب مصر ٥٥
〃 منصور قلاوون ٥٧،٧١
〃 ناصر الدين بركة ٧١
〃 الناصر شهاب الدين احمد ٧٣
〃 الناصر محمّد بن قلاوون ٧١
مناسياس الخطيب البيروتي ٣٦
منجوتكين ٤٨
منذر الامير ابن احمد ٤٨
منصور الامير الارسلاني ٤٨
منصور عسّاف الامير ٧٩
منصور بن حيدر الشهابي ٨٨
منطاش القائد المصري ٧٤
منقذ (الامير عزّ الدين اسامة) ٥٤،٥٥
موترد (الاب رينه اليسوعي) ٣٦

ميخائيل الكبير المؤرخ ٤١
ميخائيل فاضل البيروتي ٩٣,٩٢
ميخائيل فاضل الثاني ٩٢
* ن * نابوليون الاول ٩٤
نابيه الكومودور الانكليزي ٩٦
ناصر خسرو العلوي ووصفهُ لبيروت ٤٦–٤٧
ناصر الدين حسين بن خضر ٧١–٧٣
ناس المملوك ١٢٥
ناوفوطيوس اسقف الروم في بيروت ٩٢
نعمان بن عامر الارسلاني ٤٨,٤٧
نور الدين محمود بن زنكي الملك ٦٩,٦٨
نوفل بن حصن الخازن ٩١,٨٦
نونُّس الشاعر والمؤرخ اليوناني وقولهُ في بيروت ٢٥,٢٣,٢٢,٢٨,١٠
النوبري المؤرخ ٦١
نيقيطاس والي فينيقية ٤٣
* ه * هرقل الملك ٤٣
هرمبُّوس الفيلسوف البيروتي ٢٦–٢٧
هستيسون الميلطي ٨
هفتكين التركيّ ٤٨
هنري دي جوفنيل المفوَّض السامي على سوريَّة ١٠٧
هنري دي لوزنيان صاحب لبرس ٥٦
همفري دي مونفور ٦٠,٧٠
هوغو دي لوسنيان ملك قبرس ٦٣
هوفلين (المرحوم بولس) ٣٠
هيرودس الكبير وابنيتهُ في بيروت ٢١
" اغريبا الاوَّل ومبانيهِ في بيروت ٢١–٢٢
" اغريبا الثاني ٢٢
* و * الواقدي المؤرخ ٤٤
ولبرَند دي اودنبرغ ٥٨
الوليد بن مَزْيد العُذري ٤٥
* ي * يانوس دي لوسنيان ملك قبرس ٦٤
يزيد بن ابي سفيان ٤٤
اليعقوبي الجغرافي ٤٤
يلبغا العمري ٦٣,٢٣
يواكيم بن جمعة اسقف بيروت الملكي ٨٢
يوحنَّا اسقف بيروت ٣٩
يوحنَّا الحصروني المطران ٨٥
يوحنا الدمشقي القديس ٤٩
يوحنا المعمدان وكنيستهُ في بيروت ٥١–٥٢, ٥٩–٦٠
يوحنا وركاديوس من تلامذة الفقه في بيروت ٣٨
يوستنيان الملك ٢٨,٢٩,٣١
يوسف اسطفان النوسطاوي ٩٣,٩٢
يوسف باشا سيفا ٧٨,٧٧
يوسف التركماني الامير ٦٤–٦٥
يوسف ضياء بك الصدر الاعظم ٩٠
يوسف بن حبيش (ابو منصور) ٨٦
يوسف بن ملحم الامير الشهابي ٨٨–٩٠
يوسيفوس المؤرخ ٢١
يوليا او جوليا ابنة اوغسطوس قيصر ٢١,٩, ٢٤
يونس اخو الامير فخر الدين ٨٠
يوليوس بولس الحمصي الفقيه ٣٨
اليونان وآثارهم في سواحل الشام ١٧,١٢–٢٠

فهرس ثالث

لاعلام البلدان والامكنة

إرْبل ومعركتها ١٧
ارواد ومملكتها ١٢
اعبيه وابنية بني الغرب فيها ٧٢
انطاكية ٥٠
انطلياس ومغارتها ١٣٤،١١
ايسوس ومعركتها ١٧
بترون ٣٥
بوزولة وكتابتها ٣١
بيت مري وآثارها الرومانية ٣٦،٣٠
بيروت: موقعها ٦ جيولوجيتها ٧ اسماؤهـا ٨ قدمها ٩ مبادئ تاريخها ١٤ تاريخها في عهد الاشوريين واليونان ١٥ في عهد السلوقيين ١٧ في عهد الرومان ٢٠ ديانة اهلها القديمة ٢٣ مدرستها الرومانية الفقهية ٢٧ تجارتها وصناعتها في عهد الرومان ٣٠ مشاهيرها قبل العرب ٣٦ خمولها بنكبات الزلازل ٤٠ والحريق ٤١،١٢٥ بيروت في عهد العرب ٤٣ في عهد الصليبيين اولًا وثانياً ٤٩-٥٨ آثار الصليبيين في بيروت ٥٨،١٢٦ بيروت في عهد مماليك مصر ٦١،١٢٦ بنو الغرب امراء بيروت ٦٧-٧٥ النصرانية في بيروت بعد الفتح العثماني ٨١ بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزّار ٨٧ بيروت في القسم الاوّل من القرن التاسع عشر ٩٤ في القسم الاخير من القرن التاسع عشر الى يومنا ١٠٢-١٢٢،١٢٨
جُبيل ١٠،١٢،١٦
جريس من اسماء بيروت ٩
جزائر بيروت ٣٥
جزّين ٨٠،٨٧
حطّين وواقعتها ٥٢
خان يونس ١٢٧
خنتوس (او حنتوش) ٤٥
دِرْبي من اسماء بيروت ٩
دير القلعة وآثارها ٢٤،٣٦
سنّ الفيل ٤٧
شقحب ٧٤
الشوف واهلهُ الدروز ٦٨
الصنبطيّة غربي بيروت ٦٤
صور ومملكتها ١٢،١٥،١٦،٣٥،٤٠
صيدون (صيداء) ومملكتها ١٢،١٥،١٦،٣٥،٤٠
طرسوس ٣٥
العرعار ونبعهُ ٣٢
عَرقة ٣٥،٤٤
عكّا ٨٨،٨٩
عين دارة ٨٧
قبرس ٢٣،٦٢-٦٤،٧٥،٨٤
القدس وفتحها ٤٤،٥٠
قلعة عجلون ٧٠
الكرك ٧٠،٧٢
لاذيقية فينيقية ١٨-١٩
لبنان في آثار الاشوريين ١٣
لبنان الكبير ١٠٦-١٠٧
ماغوراس نهر بيروت ٦،١١،٣٢
الماغوصة ٦٣،٦٤
مرج دابق ٧٦
نهر الدامور ١٣
نهر الكلب ١٢،١٥،٦٥ دربندهُ ٥٠،٥١ جرّ مياهه الى بيروت ١١٩ جسرهُ ١٢٧
وادي تيم واهلهُ الدروز ٦٨
اليرموك ٤٦

فهرس رابع

لمواد الكتاب على ترتيب حروف المعجم

* ا * اثار الصليبيين في بيروت ٥٨–٦١
آل حبيش ٧٨
آل الخازن المشايخ ٧٩
آل تراب دروز صفد
ال عبدالله دروز وادي التيم ٦٨
ال القاضي ٨٧
ابرهيم باشا خديوي مصر ٩٥–٩٦
ابراهيم التنوخي امير البيرة ٦٧–٦٨
ابرهيم الصباغ ٨٨
ابن اياس المؤرخ ٥٨
ابن الاثير ٥٠,٥٢,٥٤,٥٦
ابن بطوطه: وصفهُ لبيروت ٣٤
ابن حوقل وصفهُ لبيروت ٤٦
ابن سباط حمزه المؤرخ ٦٨,٦٩,٧٥,٧٧
ابن شدَّاد ٥٢
ابن القلانسي ٤٨,٥٢,٥٣
ابن المشطوب والي بيروت ٥٢,٥٤
ابن الوردي ٧٧
ابو الذهب محمد بك ٨٨–٨٩
ابو سعيد قابوس ٤٨
ابو قانصوه فيّاض الخازن ٨٦
ابو مسهر البيروتي ٤٥
ابن الميسّر ١٢٥
ابو نوفل نادر الخازن ٧٥,٨٣,٨٥,٨٦
اخوة المدارس المسيحية في بيروت ١٠٨
اخويّة اعيان بيروت ٩٩
الارسلانيُّون في بيروت ٤٧–٤٨
الاشوريُّون وآثارهم في سواحل الشام ١١,١٢,
١٣
الاشوريُّون وملكهم على بيروت ١٥
الايطاليُّون ضربهم لطرَّادتي الترك في مينا بيروت ١٠٥
الايطوريُّون ٢٠
* ب * الباطنيَّة اصحاب الحاكم بامر الله ٦٨
البليشيّون في بيروت ١٠٠
البحتريُّون (اطلب بنو الغرب)
البطالسة وملكهم في الشام ١٧
البعل وعبادتهُ في سواحل الشام ١٦,٣٢ بعل مرقد وبعل بريت ٢٠,٢٤
البنادقة في بيروت ٥٦,٦٣,٦٥,٦٦,٧٣,٨٤
بنو الحمراء والتلاحقة ٥٣
بنو سيفا في عكّار ٧٦–٨٠
بنو عسّاف في لبنان ٧٦–٧٨
بنو علم الدين ٧٧,٨١
بنو الغرب وتاريخهم في بيروت ٥,٦٧–٧٥,٧٧
بنو معن ٧٦–٨١
* ت * تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ٤
تآليف كُتبت عن بيروت ١٢٣
تجارة بيروت وصناعتها في ايَّام الرومان ٣٠–٣٦ تجارة بيروت وزراعتها حاضرًا ١٢٠–
التركمان ٦٥,٧٣
التلاحقة في بيروت ٥٣
التنوخيون اجداد بني الغرب ٦٧–٦٨
* ج * الجرائد والمجلّات في بيروت ١١٣–١١٤

الجمهورية اللبنانية الجديدة ١٠٧
الجنبلاطيون واليزبكيون ٨٧
الجنويون في بيروت ٥١,٥٨,٦٢—٦٥,٧٣
جيولوجية بيروت ٧
* ح * الحديد معدن بيروت ٣٤
* د * الدروز ودعوتهم في الغرب ٦٨
الدياكونس البروتستانيات ١٠٩
ديانة اهل بيروت القديمة ٣٢
* ر * الراهبات الارمنيات ١٠٩
راهبات السجود ١٠٨
راهبات العائلة المقدسة ١٠٨
راهبات العائلة المارونيات ١٠٩
راهبات القديس يوسف ١٠٨
راهبات المحبة في بيروت ٩٨
راهبات محبة بيزانسون ١٠٩
الراهبات المريمات ثم راهبات قلبي يسوع ومريم ١٠٨,١١٢
راهبات الناصرة ١٠٨,١١٢
الروادسة ٦٤
الروم وغزواتهم في الشام ٤٧,٤٨
الروم الكاثوليك واساقفتهم ٩٣—٩٢,٩٧—٩٨
الروم الملكيون واساقفتهم في بيروت ٨٢—٨٣
ضرب الروم لبيروت ٩٥
الرومان في بيروت ٢٠—٢٤ مدرسة الرومان الفقهية في بيروت ٢٧—٣٠
* ز * الزراعة في بيروت ١٢١ ١٢٢
الزلازل في بيروت ٢٥-٢٦,٤٠—٤٣
* س * السكان في لبنان ٨٠
السلجوقيون في الشام ٤٩—٥٠
السلوقيون وملكهم على بيروت ١٧
* ش * الشهابيون حكام لبنان ٨١,٨٧—٩٧ تنصرهم ٩٣
* ص * الصناعة في بيروت ١٢١
الصليبيون في بيروت ٤٩—٥٣,٥٤—٦١,١٢٥
صنوبر بيروت ٣٣
* ط * الطاعون والغلاء في بيروت ٧٧,١٢٧
طرق بيروت وسككها الحديدية ١١٧—١١٨
طلبة الفقه في بيروت وسيرتهم ٢٩—٣٠
الطولونيون وملكهم على بيروت ٤٨
* ظ * الظران ومعاملة القديمة في بيروت ١٠—١١
* ع * العثمانيون ودولتهم في الشام ٧٥—٨١
العرامونيون بنو الغرب ٧٣
العيانبة بنو الغرب ٧٣
* غ * الغاز والكهرباء في بيروت ١١٩—١٢٠
* ف * الفاطميون وملكهم في الشام ٤٨
الفراعنة وآثارهم في بيروت وفي سواحل الشام ١٢,١٤—١٥
الفرس ومادايي ملكهم على بيروت ١٦ الفرس في لبنان ٤٤
الفرنج الصليبيون في سواحل الشام ٤٩—٦١
الفرنسيون في بيروت ٥٩,٨٢,٨٤,٩٤,٩٧
الفونيون او الفونيقيون ١٢
* ق * القصاد الرسوليون في بيروت ٩٩
قونة بيروت العجائبية ٢٦,٥٩
القيسيون واليمنيون في لبنان ٧٧
* ك * الكبوشيون في بيروت ٨٤—٨٥,٩٢,٩٨
الكتلان ٦٢—٧٣
الكلدان الاولون وغزوهم لسواحل الشام ١١
الكليتان البيروتيتان الاميركية واليسوعية ١١٢,١٢٨
كنائس بيروت الحديثة ١٠٩—١١٠
كنيسة افرنسيسك في بيروت ٧٢—٧٣
كنيسة القديسة بربارا في بيروت ٨٤,١٢٤
كنيسة القديس جرجس في بيروت ٨٤,٨٦—٨٧
كنيسة القديس مرقس في بيروت ٦٦
كنيسة مار يحنا ٧٥ (اطلب يوحنا المعمدان)
كنيسة المخلص في بيروت ٥٩,٨٢

كنيسة القديس يوسف ٥٩
* ل * اللعازريّون في بيروت ٩٨
اللميّون ٨٧
* م * المتاولة في لبنان ٤٤
المجلّات والجرائد في بيروت ١١٣-١١٤
المدارس في بيروت ٩٩-١٠٠,١١١-١١٣
مدرسة الفقه الروماني في بيروت ٢٧-٣٠,١٢٤
مرفأ بيروت ١١٨-١١٩
المسكوب في صيداء بيروت ٨٨-٨٩
مشاهير بيروت قبل العرب ٣٦-٣٩
المشروعات التقويّة والخيريّة في بيروت ١١٠-١١١
المصريّون وآثارهم في سواحل الشام ١٢,١٤
معبودات الفينيقيين في ديانة المصريين ١٣
المطابع في بيروت ١٠٠-١٠٢,١١٣
المطبوعات الادبية في بيروت ١١٤-١١٦
المعادن في بيروت ٢٣-٢٤
مكاتب بيروت العمومية ١١٦-١١٧
ملحق بتاريخ بيروت ١٢٣-١٢٨
مماليك مصر وحكمهم على بيروت ٦١-٦٦
مملكة بيروت القديمة ١٣
الموارنة واساقفتهم على بيروت ٨٣و٩٣,
* ن * النصرانيّة اوائلها في بيروت ٣٥-٣٦ ١٢٧,٦٣
النصرانيّة بعد الفتح العثماني ٨١-٨٧
النكدُيون ٨٧
النوادي الطميّة في بيروت ١٠٣
* و * ولاة بيروت في الحقبة الاخيرة ١٠٤, ١٢٨
اليسوعيّون في بيروت ٩٨-٩٩
* ي * اليمنيّون في لبنان ٨٧,٧٧
اليهود ضربهم لقوة السيّد المسيح ٣٦ كنيسهم في بيروت ٤٠

AVIS DE L'AUTEUR

Cette Histoire composée durant la guerre à la demande de l'avant-dernier Wali turc de Beyrouth, Azmi bey, fut onbliée pour laisser la place à un autre ouvrage de plus longue haleine intitulé « LE LIBAN », qui fut publié en un grand volume in 4° illustré, avec la collaboration de quelques érudits restés anonymes.

Quand Beyrouth devint la capitale du Liban, on nous réclama notre Histoire ; nous la revîmes alors pour la mettre au point et la mener jusqu'au Mandat français, à qui elle doit sa gloire actuelle. Parue d'abord dans notre Revue al-Machriq, nous en avons fait un tirage à part que nous offrons au public.

Beyrouth
31 *Octobre* 1926
fête du « CHRIST-ROI »

BEYROUTH

HISTOIRE ET MONUMENTS

PAR

le P. LOUIS CHEIKHO s. j.

Extrait de la Revue al-Machriq

BEYROUTH

IMPRIMERIE CATHOLIQUE

1926